المملكة العربية السعودية
جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
مكة المكرمة
فرع العقيدة

السنن الإلهية في الحياة الإنسانية وأثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه

إعداد الطالب

شريف الشيخ صالح أحمد الخطيب

إشراف الأستاذ الدكتور

عثمان عبد المنعم يوسف



الجزء الثاني

١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م

الفصل الرابع

سنة الله في التغيير

ظـاهـرة الـتـغـيـــر :ـ

ان تغير احوال المجتمعات والامم من حال الى حال ظاهرة مشاهدة يشهد لها التاريخ ويشهد لها الواقع الذى نعيشه ، فالمجتمعات لا تبقى على حال واحدة بل دائمة التغير من حال الى حال ، من سعادة ورخاء الى شقاء وشدة ، ومن شقاء وشدة الى سعادة ورخاء ، ومن تقدم وازدهار الى تأخر وانحطاط ، ومن تأخر وانحطاط الى تقدم وازدهار ، ومن عز وقوة جانب الى ذل وضعف جانب ، ومن ذل وضعف جانب الى عز وقوة جانب ، ومن نصر ورفعة الى هزيمة وهوان ، ومن هزيمة وهوان الى نصر ورفعة ومن فقر الى غنى ومن غنى الى فقر ، ومن مرض الى صحة ومن صحة الى مرض ، ومن طمأنينة وامن الى قلق ورعب ، ومن قلق ورعب الى طمأنينة وامن .

فكم من امة كانت في نعيم وسعادة ورخاء وتقدم وقوة ونصر وتمكين وغنى ثم تغير حالها فأصبحت في حرمان وشقاء وشدة وتأخر وضعف وهزيمة وغزو من الاعداء وفقر. وكم من امة كانت شقية وضعيفة ومهزومة فأصبحت سعيدة قوية منتصرة .

واذا كان هذا التغير ظاهرة اجتماعية على مر العصور والدهور ، فان عصرنا هذا يتسم بسرعة هذا التغير وكثرته ، فقد اصبح التغير اشد ما يكون وضوحا واوسع ما يكون شمولا .... وهذا التغير يحدث بسرعة يستحيل معها اغفاله .(١)

ولعل اخطر ظاهرة تعيش فيها شعوب العالم اليوم وتواجهها هي ظاهرة التغيير .... فقد اصبح التغيير هو الظاهرة الملموسة في كل مجالات الحياة .(٢)

.... فلا يمكن ان تمر لحظة الا وتحدث فيها سلسلة من التغيرات الاجتماعية التي يترتب عليها حدوث تعديلات في المجتمع ينجم عنه حدوث تغيير اجتماعي اخر هو بمثابة رد فعل التغيير السابق ، وهكذا تظل حلقات التغير الاجتماعي مستمرة ، فكل تغير يتبعه تغير اخر ....(٣)

---

(١) المدنية المتغيرة والتربية تأليف وليم كلباتريك ترجمة د. عبد الحميد السيد واخرون يطلب من مكتبة مصر ٣٨ ، ٧٩ .

(٢) التربية والتغيير الثقافي ـ عبد الهادى عفيفي مكتبة الانجلو المصرية ٥ .

(٣) التغيير الاجتماعي والمجتمع المتحضر د. حسن علي خفاجي ، الطبعة الاولى ١٣٩٤ هـ ، ١٩٧٨م ٨

ولاثبات ان التغيير ظاهرة ، يكفي ان نلقي نظرة الى واقع البشر لمشاهدة التغيير ولعلنا نسمع يوميا حديث الناس بشعورهم بالتغيير سواء في امكانات الناس الاقتصادية والصناعية او في التغير الاخلاقي الذى يلاحظ بين الاجيال اذ ان هذا التغيير مشاهد .(١)

التغيير يقع وفق سنة .

واذا كان هذا التغير ظاهرة اجتماعية ملموسة ، فإن هذا التغيير لا بد له من قانون يضبطه وسنة يسير عليها فليس في هذا الوجود شيء يسير جزافا ويخبط خبط عشواء فهذا الكون له سنن تضبطه وله قوانين تحكمه ، فلا يتغير من حال الى حال الا وفق سنة من سنن الله . فالله سبحانه وتعالى جعل لكل شيء قدرا ، وكل شيء عند الله بمقدار كما قال عز من قائل :(انا كل شيء خلقناه بقدر).(٢) فأبان سبحانه في هذه الاية سنته العامة الشاملة لكل ما خلق فنظام تحديد مقادير العناصر والصفات نظام مطرد في كل ما خلق الله ، وهو نظام لا استثناء فيه .(٣)
وقال سبحانه وتعالى :(وخلق كل شيء فقدره تقديرا) (٤) ، فاكد سبحانه بيان سنته العامة في الخلق التي سبق ان اعلنها في سورة القمر واضاف هنا الاشارة الى الاحكام والدقة التامة التقدير اذ قال هنا (فقدره تقديرا) واضاف ان عمليات الخلق متلاحقة باحكام التقدير كما هي مبدوءة باحكام التقدير . كما في سورة القمر (انا كل شيء خلقناه بقدر) اى مصحوبا خلقه باحكام المقاديره دل على هذا الباء في (بقدر) . وما في سورة الفرقان(وخلق ....) اى خلق كل شيء واتبعه باحكام مقاديره ، مع حركة اطوار خلقه زيادة او نقصانا دل على هذا الفاء في (فقدره تقديرا).(٥)

واذا كان كل شيء عند الله بمقدار ، وقد جعل لكل شيء قدرا وخلق كل شيء فقدره تقديرا ، فاى تغيير في مقادير الاجزاء والعناصر والشروط لشيء ما عما هي عليه عند الله وفي سنته التي ابانها لنا ، او ما خلق الله او جعله ينتج تغييرا في صفات ذلك الشيء واثاره .(٦)

---

(١) حتى يغيروا ما بانفسهم ـ جودت سعيد ـ ٦ .
(٢) ٤٩ : القمر
(٣) بصائر للمسلم المعاصر ـ الشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني ـ ٣٥ .
(٤) ٢٥ : الفرقان .
(٥) بصائر للمسلم المعاصر ـ الشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني ـ ٣٦ .
(٦) المرجع السابق ـ ٤٣ .

مصداقا لقوله تعالى :(ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم وإذا اراد الله بقوم سوءا فلا مرد له و ما لهم من دونه من وال). (١)

ويقول تعالى :(كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله ، فأخذهم الله بذنوبهم ان الله قوي شديد العقاب ، ذلك بان الله لم يك مغيرا نعمة انعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وان الله سميع عليم) (٢) ،

في هاتين الآيتين يقرر سبحانه سنة من سننه سبحانه وتعالى وهي انه يغير ما بالقوم نتيجة تغييرهم لما في نفوسهم ، وقد وضع ذلك في صيغة قانون ثابت لا يتخلف ولا يحابي ولا يظلم) (٣) .

(فقد مضت سنته ان تترتب مشيئة الله بالبشر على تصرف هوءلاء البشر ، وان تنفذ فيهم سنته بناء على تعرضهم لهذه السنة بسلوكهم)(٤) .

وكلام جميع المفسرين يدل على ان المراد ان الله لا يغير ما بقوم من نعم بانزال انتقام الا ان يكون منهم تغيير بالنفوس.

وقد اختلفت عبارات المفسرين في التغيير الذى يحدثه القوم بنفوسهم ، فمنهم من اطلق فقال هو تغير الحال (٥) ، ومنهم من قال هو المعاصي والافساد(٦)، وذهب بعضهم الى انه الكفر (٧) ، ومنهم من خص الكفر بكفر النعم وترك الشكر (٨)، وذهب بعضهم الى تخصيص المعاصي بظلم بعضهم بعضا واعتداء بعضهم على بعض (٩)، ومنهم من جعلها ترك اوامر الله (١٠) ، ومنهم من جعل التغيير الذى يحدثه القوم بنفوسهم هو مخالفة الفطرة التي فطر الله الناس عليها .(١١)

---

(١) ١١ : الرعد
(٢) ٥٢-٥٣ : الانفال
(٣) الحل الاسلامي فريضة وضرورة د. يوسف القرضاوى ، الناشر مكتبة وهبة ، الطبعة الثالثة ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م .
(٤) انظر في ظلال القران ٢٠٤٩/٤، وانظر المنهج الاسلامي في دراسة المجتمع الدكتور نبيل السمالوطي ٥٣
(٥) انظر الزمخشرى ١٦٤/٢ .
(٦) انظر زاد المسير ٣١٢/٤ ، الرازى ٢٣/٢٠ .
(٧) انظر تفسير الطبرى ٢٤/١٠، القرطبي ٢٨٦٨/٤ .
(٨) انظر زاد المسير ٣٧٠/٣ والزمخشرى ٣٧٣/٥ ، وانظر فتح القدير ٣١٨/٢ .
(٩) انظر تفسير الطبرى ١٢١/٣ ، وانظر المراغي ٧٨/١٣ .
(١٠) الزمخشرى ٣٧٣/٥ .
(١١) فتح القدير للشوكاني ٦٩/٣ ، وانظر الزمخشرى ١٦٤/٢ .

ونلحظ من اقوال المفسرين هذه ربطهم بين الفكر والسلوك ، فالفكر هو منبع السلوك الانساني وبالتالي فالكفر بالله وبآياته ينتج سلوكا معينا ، وكذلك مخالفة الفطرة الانسانية امر نفسي ينتج واقعا سيئا .

وقد افاد كلامهم ان تغيير الله لواقع الناس نتيجة لتغيير ما بانفسهم سنة الهية مطردة . قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى :(كدأب آل فرعون والذين من قبلهم .....الاية) (يقول تعالى فعل هؤلاء المشركين والمكذبين بما ارسلت يا محمد كما فعلت الامم المكذبة قبلهم ففعلنا بهم ما هو دأبنا اى عادتنا وسنتنا في امثالهم من المكذبين من آل فرعون ومن قبلهم من الامم المكذبة بالرسل الكافرين بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم .....)(١) ، ويقول الشوكاني: (ذلك بان الله لم يك ... والجملة جارية مجرى التحليل لما حل بهم من عذاب الله ، والمعنى ان ذلك العقاب بسبب ان عادة الله في عباده عدم تغيير نعمه التي ينعم بها عليهم حتى يغيروا ما بأنفسهم)(٢) .

وتدل الآيات الكريمة على ان الله سبحانه وتعالى قد يغير ما بالقوم من نعم اذا ازدادوا سوءا الى سوئهم وفسادا الى فسادهم فكفار قريش لم يكونوا مؤمنين ثم كفروا وليس كذلك الامر بالنسبة الى قوم فرعون ، وفي ذلك يقول ابن عطية :(وتغيير آل فرعون ومشركي مكة ومن يجرى مجراهم بان كانوا كفارا ولم تكن حالهم مرضية فغيروا تلك الحالة المسخوطة الى اسخط منها من تكذيب الرسل والمعاندة والسعي في ابطال ايات الله فغير الله تعالى ما كان من النعم عليهم وعاجلهم ولم يمهلهم .(٣) ، وقد بينت الآيات السابقة ان هذه السنة عامة بالبشر جميعا وليست خاصة بامة معينة او قوم بأعيانهم بمعنى ان الله عز وجل يعامل جميع الامم وفق هذه السنة فاذا غيرت الامة ما بنفسها غير الله ما بها . فهو لا يحابي امة من دون الامم كما ادعى اليهود وكما هو واقع المسلمين اليوم حيث يقولون لماذا ينزل الله العقاب بنا ، السنا امة اسلامية السنا امة خير البشر محمد بن عبد الله ، وفي ذلك يقول الشيخ المراغي رحمه الله :(... وكذلك لا يحابي الله بعض الشعوب والامم

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣٢٠/٢ .

(٢) فتح القدير ٣١٨/٢ ، وانظر تفسير المراغي ١٧/١٠-١٨ وفي ظلال القرآن لسيد قطب ١٥٢٠٤٩/٤ .

(٣) تفسير البحر المحيط لمحمد بن يوسف الشهير بابي حيان الاندلسي الغرناطي ٦٥٤-٧٥٤هـ الطبعة الثانية - دار الفكر للطباعة والنشر ١٣٩٨هـ -١٩٧٨م ٥٠٧/٥

بنسبها وفضل بعض اجدادها على غيرهم بنبوة او ما دونها فيؤتيهم الملك والسيادة لاجل الانبياء الذين ينسبون اليهم كما كان شأن بني اسرائيل في غرورهم وتفضيل انفسهم على جميع الشعوب بنسبهم وهكذا شأن النصارى والمسلمين من بعدهم اذا اتبعوا سنتهم واغتروا بدينهم وان كانوا من اشد المخالفين له)(١) .

ويحكي القران الكريم قول اليهود والنصارى ويرد عليهم شبهتهم فيقول تعالى: (وقالت اليهود والنصارى نحن ابناء الله واحباؤه ، قل فلم يعذبكم بذنوبكم ؟ بل انتم بشر ممن خلق ، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السموات والارض وما بينهما واليه المصير)(٢) ، وقال مخاطبا المسلمين (الا تنفروا يعذبكم عذابا اليما ويستبدل قوما غيركم ....)(٣) .

وفي ذلك يقول الشيخ جودت سعيد (ان السنة الموجودة في الاية عامة تنطبق على كل البشر وليست خاصة بالمسلمين ولا بغيرهم وانما هي عامة ...)(٤)

ويفهم ايضا من النص القرآني ان هذه السنة سنة جماعية وليست فردية بمعنى ان كلمة (بقوم) تعني الجمع او الجماعة التي يطلق عليها امة او مجتمع(٥) . والقوم : اسم جمع (لا واحد له من لفظه)(٦) .

ولا يفهم من هذا ان تغيير الله النعمة التي بالقوم لا يتم حتى يغير جميع القوم ما بهم ، بل ان الله يغير النعمة بنقمة اذا قام بذلك التغيير بعضهم كما يشهد لذلك هزيمة المسلمين في احد ، فان الله نصر المؤمنين اول الامر فلما غير بعضهم ما بأنفسهم هزمهم الله . قال تعالى : (... قلتم انى هذا قل هو من عند انفسكم ...)(٧) ، وقال تعالى في آية اخرى :(... منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة)(٨) . وفي ذلك يقول القرطبي :(اخبر الله تعالى في هذه الاية ان

---

(١) انظر تفسير المراغي ١٠/١٧-١٨ .
(٢) ١٨ : المائدة
(٣) ٣٩ : التوبة
(٤) حتى يغيروا ما بانفسهم جودت سعيد ٣١ ، ٣٥ .
(٥) المرجع السابق ٣٨ .
(٦) باب الميم ، فصل القاف ، مختار الصحاح محمد بن ابي بكر عبد القادر الرازي دار القلم بيروت لبنان ص/ ٥٦١ .
(٧) ١٦٥ : آل عمران .
(٨) ١٥٢ : آل عمران .

الله لا يغير ما بقوم حتى يقع منهم تغيير ، اما منهم او من الناظر لهم او ممن هو منهم بسبب ، كما غير الله بالمنهزمين يوم احد بسبب تغيير الرماة ما بأنفسهم ـ الى غير هذه من امثلة الشريعة فليس معنى الاية انه ليس ينزل بأحد عقوبة الا ان يتقدم منه ذنب ، بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير كما قال صلى الله عليه وسلم وقد سئل : (أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال نعم اذا كثر الخبث) (١) .

وانما تعم سنة التغيير في المجتمع كله ؛ حتى ولو كان ما بالنفوس من فريق دون فريق ، ذلك بسبب تهاون الفريق الاخر وتقصيره في الاخذ على ايدى تلك الفئة التي غيرت ما بأنفسها او بسبب رضاهم وسكوتهم عما فعلوا ، قال صلى الله عليه وسلم : (مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين أسفل اذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا :لو انا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا ،فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وان أخذوا على ايديهم نجوا ونجوا جميعا) (٢) .

ويوضح هذه الحقيقة قوله تعالى : (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة) (٣) ، وقوله : (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم واهلها مصلحون)(٤)

وفي الايتين اللتين تتحدثان عن التغيير كسنة تغييران : تغيير الله وتغيير القوم ، ففاعل التغيير الاول حسب قواعد الاعراب هو لفظ الجلالة الله ، وفاعل التغيير الثاني هم القوم ، وان كانت القدرة على التغيير من القوم هي هبة من الله عز وجل (٥) ، وفي ذلك يقول سيد قطب (...ومن الجانب الاخر يكرم هذا المخلوق الانساني اكبر تكريم حين يجعل قدر الله

---

(١) انظر تفسير القرطبي ٥٥٣٣/٤ ، رواه مسلم وتخريجه في فصل سنة الله في عقاب الامم صفحة من الرسالة .

(٢) أخرجه البخارى في الشركة باب هل يقرع في القسمة فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٥ / ٦٣٢

(٣) ٢٥ : الانفال

(٤) ١١٧ : هود

(٥) حتى يغيروا ما بأنفسهم ٤٥

به ينفذ ويجري عن طريق حركة هذا الانسان وعمله ، ويجعل التغيير القدرى في حياة الناس مبنيا على التغيير الواقعي في قلوبهم ونواياهم وسلوكهم وعملهم واوضاعهم التي يختارونها لانفسهم (١) ، ويقول ايضا (وهو يحمل ـ اى النص ـ دليل التكريم لهذا المخلوق الذى اقتضت مشيئة الله ان يكون هو بعمله اداة التنفيذ لمشيئة الله فيه (٢) .

وفي النص ترتيب في حدوث التغييرين ، فالتغيير الاول هو تغيير القوم ما بأنفسهم ، والتغيير الثاني هو تغيير الله عز وجل ما بهم ، ولا يحدث التغيير الثاني حتى يحدث الاول (٣) ، فحتى في اللغة تفيد انتهاء الغاية (٤) ، فيدل ذلك على ان الله عز وجل لا يغير ما بقوم حتى يكون القوم قد أحدثوا في أنفسهم تغييرا .

وفي ذلك يقول الرازى : (وهذا من أوكد ما يدل على انه تعالى لا يبتدئ احدا بالعذاب ، والذى يفعله لا يكون الا على معاص سلفت (٥) .

فالله سبحانه وتعالى (لا يغير نعمة او بؤسا ولا يغير عزا او ذلة ، ولا يغير مكانة او مهانة ... الا ان يغير الناس من مشاعرهم واعمالهم وواقع حياتهم فيغير الله ما بهم وفق ما صارت اليه نفوسهم واعمالهم ، وان كان الله يعلم ما سيكون منهم قبل ان يكون ، ولكن ما يقع عليهم يترتب على ما يكون منهم ويجيء لاحقا في الزمان بالقياس اليهم) (٦) ، (والرجاء بأن يحدث الله التغيير الذى يخصه قبل ان يقوم المجتمع بالتغيير الذى خصهم الله به يكون ـ هذا الرجاء ـ مخالفا لنص الاية الكريمة وبالتالي ابطالا لمكانة الانسان وأمانته ومسئوليته ، ولما منحه الله من مقام الخلافة على الارض) (٧) .

---

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٥٣٥
(٢) المرجع السابق ٤/٢٠٤٩ ـ ٢٠٥٠
(٣) انظر حتى يغيروا ما بأنفسهم ٤٦
(٤) انظر مختار الصحاح محمد بن ابي بكر بن عبد القادر الرازى باب الحاء ١٢١ ـ ١٢٣
(٥) تفسير الرازى ١٥ / ١٨٧ وانظر البحر المحيط ٤/٥٠٧
(٦) في ظلال القرآن ٣/١٥٣٥
(٧) حتى يغيروا ما بأنفسهم ٤٦

ان التغيير الذى يحدثه الله بالامم هو على ضربين : تغييرمن النعمة الى النقمة كما دلت على ذلك آيتا سورة الانفال والرعد حيث وردتا في سياق تغيير النعمة الى نقمة ، وزادت على ذلك آية سورة الانفال بما فيها من التصريح بهذا المعنى حيث يقول تعالى : (ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) (١) .

وتغيير من النقمة الى النعمة ويدل عليه آية سورة الرعد :(ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) حيث وردت في التغيير بصفة عامة ، اى من كلا الجانبين الى الآخر فكلمة ما الواردة في هذه الآية تفيد العموم .(٢)

ويشهد لذلك واقع الامم ، فكم من امة كانت في نقمة ثم غير الله ما بها من نقمة الى نعمة حين غيروا ما بأنفسهم ، فالعرب قبل الاسلام كانوا امة ذليلة لا احد يحفل بهم فاعزهم الله بالاسلام ، كما قال عمر (نحن قوم اعزنا الله بالاسلام ومهما ابتغينا العزة بغير الاسلام اذلنا الله) .

وعن علي رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم حدثه عن ربه عز وجل قال :(قال الرب وعزتي وجلالي وارتفاعي فوق عرشي ما من قرية ولا اهل بيت كانوا على ما كرهت من معصيتي ثم تحولوا عنها الى ما احببت من طاعتي الا تحولت لهم عما يكرهون من عذابي الى ما يحبون من رحمتي)(٣).

وتغيير الله ما بالقوم من نقمة الى نعمة ومن شر الى خير قد يكون اذا غيروا جميعا ما بانفسهم وقد يكون هذا التغيير مرهونا بوجود فئة منهم تصلح ما بأنفسها وتستجيب لهديوبها فيكون صلاح هذه الفئة طريقا الى صلاح المجتمع كله حيث يمكنهم الله من هذا الاصلاح ويهيء نفوس الناس الى قبول ما يدعون اليه من خير وصلاح .

والنص يفيد انه بإمكان قوم ان يبقوا في عز ونعمة من الله ،

---

(١) ٥٣ : الانفال
(٢) انظر حتى يغيروا ما بأنفسهم ٥٠
(٣) أخرجه ابن ابي شيبة في كتابه العرش٦١،تفسيرابن كثير ٥٠٤/٢ وقال عنه : هذا حديث غريب وفي اسناده من لا أعرفه .

وفي ذلك يقول الشيخ المراغي : (وفي الاية ايماء الى ان نعم الله على الامم منوطة ابتداء ودواما بـأخلاق وصفات واعمال تقتضيها ، فما دامت هذه الشئون ثابتة لهم متمكنة فيهم كانت تلك النعم ثابتة لهم ، والله لا ينتزعها بغير ظلم ولا جرم ...) (١) .

وهكذا فإن (في ذلك تنبيه على لزوم الطاعة وتحذير لوبال المعصية) (٢)

النفس مصدر السلوك :-

واذا كان التغيير في الاسلام يقوم على اساس تغيير ما بالنفوس، فان النفس هي المصدر الاساسي للسلوك الانساني وهي المسئولة عنه في حدود طاقاتها فالسلوك تتحكم فيه القدرات العقلية والتفكير والارادة والتعلم والانتباه والتذكر والخوف او الغضب وما يرغب به او ينفر عنه (٣) . وكل ذلك واقع في نطاق النفس الانسانية .

يدل على هذه الحقيقة ادلة كثيرة منه قوله تعالى عن سبب هزيمة المسلمين في غزوة أحد ، قال تعالى :(... قلتم أنى هذا قل هو من عند انفسكم) (٤) ، حيث ترتب على هذا الواقع النفسي الذى جاء ذكره في قوله تعالى :(منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الاخرة) (٥) ، ترتب عليه سلوك عملي هو مخالفة الرماة اوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونزولهم عن الجبل لجمع الغنائم ارضاء وتنفيذا لما في نفوسهم من حب الدنيا .

ويدل على ذلك ايضا قوله صلى الله عليه وسلم : (... الا ان في الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله الا وهي القلب) (٦)

---

(١) تفسير المراغي ١٠/١٧ وانظر في ظلال القرآن ٣/١٥٣٥- ١٥٣٦
(٢) تفسير البحر المحيط ٥/٣٧٣
(٣) مدخل الى التصور الاسلامي،عابد توفيق الهاشمي،دار الفرقان للنشر والتوزيع ، عمان - الاردن ، الطبعة الاولى ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م ، ٢٧
(٤) ١٦٥ : آل عمران
(٥) ١٥٢ : آل عمران
(٦) متفق عليه أخرجه البخارى في كتاب الايمان باب فضل من استبرأ لدينه فتح البارى بشرح صحيح البخارى واخرجه مسلم كتاب المساقاة باب اخذ الحلال وترك الشبهات ٣/ ١٢٢٠
١ / ١٢٦

والرسول صلى الله عليه وسلم عندما جاءه رجل يسترشده قال له :(قل آمنت بالله فاستقم)(١) فالايمان امر نفسي ينتج ثمرة عملية هي الاستقامة، وقوله تعالى :(فاعلم انه لا اله الا الله واستغفر لذنبك)(٢) فالايمان بوجود الله وانه محاسب من الله على اعماله يتبعه استغفار للذنوب وانابة الى الله ٠

ولذلك فان الذى يسأل عن الاعمال هي النفس، لأنها هي مصدر ذلك العمل فالنفس تكسب عملها بمحض حريتها

واختيارها وارادتها إذ أنها رهينة عملها الذى سيحاسبها به الله عز وجل يقول العقاد :(فالراجح ان النفس اقربها الى الطبع او القوة الحيوية التي تشمل الارادة كما تشمل الغريزة ، وتعمل واعية كما تعمل غير واعية ، وتأتي في مواضعها من الآيات الكثيرة مرادفة للقوة التي يدركها النوم ، والقوة التي يزهقها القتل ، والقوة التي تحس النعمة والعذاب او تلهم الفجور والتقوى ، وتحاسب على ما تعمل من حسنة وسيئة فهي القوة التي تعمل وتريد ، مهتدية بهدى العقل والشرع ، او منقادة لنوازع الطبع والهوى ، وتوضع لها الموازين القسط يوم القيامة)(٤) ٠

وانا كانت النفس هي مصدر السلوك وهي المسئولة عنه فلا بد ان تكون النفس الانسانية مصدرا لدوافع السلوك ومستودعا لها ففيها الفكر والغرائز والاستعدادات والقابليات والاحاسيس والعواطف ٠٠٠ والانسان يصدر سلوكه عن كل ما استودع فيه ٠ وقد كشف الله سبحانه وتعالى عن هذه الحقيقة في كتابه الكريم ٠ (٥)

ففي النفس الانسانية معرفة الله عز وجل ، يقول الله تعالى (واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم واشهدهم على انفسهم الست بربكم ، قالوا بلى شهدنا ان تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين) (٦) ٠

---

(١) اخرجه مسلم كتاب الايمان جامع اوصاف الاسلام ١ / ٦٥
(٢) ١٩ : محمد
(٣) ٣٨ : المدثر
(٤) الانسان في القرآن الكريم، عباس محمود العقاد، دار الاسلام القاهرة، ٣٧-٣٨
(٥) مدخل الى التصور الاسلامي للانسان والحياة عابد توفيق الهاشمي، ٢٧
(٦) ١٧٢ : الاعراف

ويقول تعالى :.(فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله) (١) ٠ وفي الصحيحين(ما من مولود الا ويولد على الفطرة فأبواه يهودانه او ينصرانه او يمجسانه ٠٠٠٠)(٢) ٠ وفي صحيح مسلم : (..اني خلقت عبادى حنفاء كلهم وانهم اتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما احللت لهم..) (٣) ٠

وقد ذهب كثير من العلماء الى ان النفس الانسانية مفطورة على الايمان بالله ، يقول ابن تيمية : (والفطرة تستلزم معرفة الله ومحبته وتخصيصه بأنه أحب الاشياء الى العبد وهو التوحيد وهذا معنى قول لا اله الا الله) فالحنيفية التي وردت في الاحاديث تتضمن معرفة الرب ومحبته وتوحيده (٤) ٠

ويذهب الشيخ جودت سعيد الى ان معنى الولادة على الفطرة هو المعنى الموجود في قوله تعالى :.(ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ٠٠) (٥) ، (ومعنى الفطرة بشكل ادق هو استعداد للميل الى الحق وهذا الاستعداد يجعله يختار الحق حين تترك له حرية الاختيار على الا يلحق هذا الاستعداد تشويه)(٦) وقد ذهب الى هذا الرأى الزمخشرى حيث يقول : (والمعنى انه خلقهم قابلين للتوحيد ودين الاسلام غير نائين عنه ولا منكرين له لكونه مجاوبا للعقل مساوقا للنظر الصحيح ، حتى لو تركوا ما اختاروا عليه دينا آخر

---

(١) ٣٠ : الروم

(٢) متفق عليه ، اخرجه البخارى كتاب الجنائز باب اذا اسلم الصبي فمات فتح البارى ٣/ ومسلم كتاب القدر باب معنى كل مولود يولد على الفطرة ٢٠٤٧/٤ ٠

(٣) اخرجه مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا اهل الجنة والنار ٢١٩٧/٤ ٠

(٤) مجموع فتاوى شيخ الاسلام احمد بن تيمية طيب الله ثراه جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدى الحنبلي رحمه الله طبع بإشراف الرئاسة العامة لشئون الحرمين الشريفين ٠ ٣٤٥/١٦ ـ وانظر تفسير المنار ١٠٣/٩ وانظر دراسات في النفس الانسانية، محمد قطب، دار الشروق، الطبعة الرابعة ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م ٢١٥. وانظر الاسلام وقضايا علم النفس الحديث، الدكتور نبيل السمالوطي، دار الشروق، الطبعة الاولى ١٤٠٠ هـ، ٧٢ ٠

(٦) حتى يغيروا ما بأنفسهم ٦١



ومن غوى منهم فبإغواء شياطين الانس والجن (١) ٠

وفي النفس معرفة الخير والشر (٢) فهي نفس واعية (٣) يقول تعالى :(ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها) (٤) ٠ اى فبين لها اللهما ينبغي لها ان تأتي وتذر من خير او شر ، او طاعة او معصية (٥) ويقول تعالى :(وهديناه النجدين) اى نجد الخير ونجد الشر (٦) ٠

وفي النفس الارادة والتحمل ، قال تعالى : (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ٠٠٠٠) (٧) ٠

والنية التي هي دافعة للعمل مصدرها النفس يقول عليه الصلاة والسلام :(قال الله عز وجل : اذا هم عبدى بحسنة ولم يعملها كتبتها له حسنة فإن عملها كتبتها له عشر حسنات...) (٨) ، فالهم امر نفسي وليس سلوكا ظاهرا ، فالاعمال مصدرها النية (٩) ، (انما الاعمال بالنيات ٠٠٠) وفي ذلك يقول الغزالي : (والبواعث والدواعي تنبعث من النفس) (١٠)٠

وفي النفس العاطفة :ـ

أ ـ عاطفة الاشفاق والالم المعنوى ، يقول تعالى :(لعلك باخع نفسك الا يكونوا مؤمنين (١١) ، ويقول تعالى : (فلعلك باخع نفسك على آثارهم

---

(١) تفسير الزمخشرى ٣/٢٢٢
(٢) مدخل الى التصور الاسلامي للانسان والحياة ٢٩
(٣) الانسان في القرآن الكريم للعقاد ٣٧ـ٣٨
(٤) ٧ـ١٠: الشمس
(٥) تفسير الطبرى ٣٠/٢١٠
(٦) المصدر السابق ٣٠/١٩٩
(٧) ٢٨ : الكهف
(٨) اخرجه مسلم كتاب الإيمان باب اذا هم العبد بحسنة كتبت واذا هم بسيئة لم تكتب ١ / ١١٧
(٩) انظر كيف ان الاعمال مترتبة على النيات كتاب الاربعين النووية وشرحه لمحدث الشام الامام محي الدين يحيى بن شرف الدين النووى الشافعي المتوفي ٦٧٦هـ، طبع على نسخة طبعت في دار المنار بمصر ١٣٤٢هـ ، ضمن مجموعة الحديث مكتبة الرياض الحديثة ٠ ص ٥
(١٠) المستصفى في علم الاصول، للامام حجة الاسلام ابي حامد محمد بن محمد ابن محمد الغزالي، تحقيق وتعليق الشيخ محمد مصطفى ابو العلا، مكتبة الجندى ، بسيدنا الحسين بمصر ص ٧٦
(١١) ٢ : الشعراء

ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا) (١) .

قال الليث : بخع الرجل نفسه اذا قتلها غيظا من شدة وجده بالشيء . (٢)

وقال الرازى في مختار الصحاح : بخع نفسه قتلها غما (٣) .

ب ـ عاطفة الحزن ، يقول تعالى :(فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) (٤) اى لا تهلك نفسك عليهم حزنا وتحسرا (٥) .

ج ـ عاطفة الخوف ، قال تعالى : (فاوجس في نفسه خيفة موسى) (٦)

د ـ عاطفة الحب والميل النفسي ، قال تعالى : (ان يتبعون الا الظن وما تهوى الانفس (٧) ، اى تميل اليه (٨) .

ـ وفي النفس الرغبة ، يقول تعالى : (ولا يرغبون بانفسهم عن نفسه) (٩)

ـ وفي النفس الشهوة الجنسية ، يقول تعالى : (وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الابواب وقالت هيت لك قال معاذ الله) (١٠) ففي النفس الميل الجنسي وفيها كذلك الاباء والتسامي فوق هذا الميل .

ـ وفيها التذوق والاستمتاع بالطعام والشراب والجمال الطبيعي والمعنوى وكل ما فيه متعة ، يقول تعالى : (وفيها ما تشتهيه الانفس وتلذ الاعين (١١)

---

(١) ٦ : الكهف .
(٢) تفسير الرازى ٢١ / ٨٠ .
(٣) مختار الصحاح للرازى باب الباء فصل العين .
(٤) ٨ : فاطر .
(٥) تفسير الزمخشرى ٣ / ٣٠١ .
(٦) ٦٧ : طه .
(٧) ٢٣ : النجم .
(٨) تفسير القرطبي ٧ / ٢٢٧٣ .
(٩) ١٢٠ : التوبة .
(١٠) ٢٣ : يوسف .
(١١) ٧١ : الزخرف .

وفيها الحس المعنوى والشعور بالتعب والجهد ، يقول تعالى :(وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس) (١) : اى ان النفس يشق عليها الجهد البالغ والعناء .

- وفيها النوايا والهواجس، يقول تعالى :(ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء او اكننتم في انفسكم) (٢) ، ويقول :(ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه) (٣) .

ومن طبيعة النفس البشرية الشح وفي ذلك يقول ابن تيمية (ومن شأن النفوس انها لا تحب اختصاص غيرها بها (اى النعم) لكنها تريد ان يحصل لها ما حصل له ...ففيها من ارادة العلو والفساد والاستكبار والحسد ما مقتضاها انها تختص عن غيرها بالشهوات ... فهذا الشح الذى هو شدة حرص النفس يوجب البخل بمنع ما هو عليه ، والظلم باخذ مال الغير ، ويوجب قطيعة الرحم ، ويوجب الحسد ، وهو كراهة ما اختص به الغير والحسد فيه بخل وظلم ، فانه بخل بما اعطيه غيره ، وظلمه بزوال ذلك عنه)(٤) .

وبالاضافة الى ما سبق فان في النفس ملكاتها المادية والعقلية والروحية وهذه هي الخطوط العريضة في النفس الانسانية وهناك خطوط اخرى (تلك هي الخطوط الدقيقة المتقابلة المتوازية كل اثنين منهما متجاوران في النفس وهما في الوقت ذاته مختلفان في الاتجاه : (٥)

الخوف والرجاء .. الحب والكره .. الاتجاه الى الواقع والاتجاه الى الخيال .. الطاقة الحسية والطاقة المعنوية .. الايمان بما تدركه الحواس حب الالتزام والميل الى التحرر .. الفردية والجماعية ..السلبية والايجابية ..كلها خطوط متوازية متقابلة)(٦) .

---

(١) ٧ : النحل
(٢) ٢٣٥ : البقرة
(٣) ١٦ : ق
(٤) مجموع الفتاوى لشيخ الاسلام ابن تيمية ١٥٥/٢٨
(٥) منهج التربية الاسلامية محمد قطب : ١٢٦/١
(٦) المرجع السابق بنفس الصفحة .

وفي النفس الانسانية دوافع وضوابط (١) ، والدوافع يمكن تلخيصها بكلمة واحدة هي حب الحياة ولكنها بعد ذلك تتفرع فتصبح دافعا لحفظ النوع ودافعا للقتال عن الذات او القتال عن النوع ، ودافعا للملك ودافعا للبروز .. وكلها مظاهر لحب الحياة والتشبث بها ...(٢)

والضوابط قوة فطرية تولد مع الانسان ولكنها لا تكون ظاهرة وتكون بحاجة الى مساعدة ومعاونة للنماء والنضج والتأثير والا بقيت ضامرة لا تؤدى وظيفتها التي فطر الله النفس عليها .(٣)

ويقوم تحليل الاسلام للنفس على ان النفس تقبل التزكية او ترفضها (ونفس وما سواها فالهمها فجورها وتقواها قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها)(٤) .

ومهمة الانسان هو تزكية هذه النفس بالتزام احكام الله واجتناب ما حرم الله.

وبناء على ذلك فان هناك ثلاث مراتب للنفس الانسانية وهي :-

١- النفس الامارة بالسوء وتمثل النفس الشهوية العدوانية الانانية وهي التي يدل عليها قوله تعالى :(وما ابرئ نفسي ان النفس لامارة بالسوء الا ما رحم ربي ان ربي غفور رحيم)(٦) (اى ان هذه الانفس البشرية شأنها الامر بالسوء لميلها الى الشهوات وتاثرها بالطبع وصعوبة قهرها وكفها عن ذلك)(٧) ولذا فان هذه النفس تامر صاحبها بالمعصية والسوء(٨)

---

(١) انظر الاسلام وقضايا علم النفس الحديث للدكتور - نبيل السمالوطي ٨٦-٨٨

(٢) دراسات في النفس الانسانية الشيخ محمد قطب ١٦٣

(٣) المرجع السابق ١٧٣ . (٤) ٧-١٠ : الشمس .

(٥) الاسلام وقضايا علم النفس الحديث الدكتور نبيل السمالوطي ٦٩ .

(٦) ٥٢ : يوسف

(٧) فتح القدير ٣/ ٣٥ .

(٨) انظر مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية ٢٨/ ١٤٨-١٤٩ ، وانظر علم النفس في التصور الاسلامي اعداد الدكتور عبد الحميد الهاشمي الطبعة الاولى ١٤٠٣هـ من سلسلة بحوث المؤتمر العالمي الاول للتعليم مكة المكرمة الاسلامي ٤٥ .

٢ـ النفس اللوامة : وهي النفس التي تراجع صاحبها وتحاول العودة به الى الحق والاستغفار والطريق المستقيم (١) يقول تعالى: (لا اقسم بيوم القيامة ولا اقسم بالنفس اللوامة)(٢) وهذه النفس هي (التي تفعل الذنب ثم تلوم عليه ، وتتلون تارة كذا وتارة كذا ، وتخلط عملا صالحا وآخر سيئا)(٣).

٣ـ النفس المطمئنة : وهي ارقى مراتب النفس بايمانها بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، واتباع ما امر الله والانتهاء عما حرم (٤) يقول تعالى ذكره (يا ايتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي)(٥) .

واذا كانت النفس مستودعا لكل هذه الاشياء فلا شك ان ما يكون بالنفس من المعتقدات والافكار والقيم ، هو المؤثر في سلوك الفرد واحوال المجتمع ، فسلوك الانسان وتصرفاته نتيجة لافكاره وبتعبير ادق لما بنفسه ، فاذا تغيرت نفس الانسان سواء كان بجهده او بجهد غيره فان سلوكه لا محالة يتغير (٦).

وامثلة تغير السلوك بتغير ما بالنفس كثيرة منها سحرة فرعون الذين كانوا قبل ايمانهم يقولون (بعزة فرعون انا لنحن الغالبون)(٧) حتى اذا تغير ما بانفسهم قالوا (لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما انت قاض انما تقضي هذه الحياة الدنيا)(٨) انه الايمان الذي غير ما بنفوسهم فبعد ان كانوا يحلفون باسمه اصبحوا لا يبالون برضاه او غضبه وبعد ان كانوا عبيدا له ، اصبحوا سادة واحرارا .

---

(١) الاسلام وقضايا علم النفس ٦٩ وانظر علم النفس في التصور الاسلامي ٤٦ .
(٢) ١ـ٢ : القيامة
(٣) مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية ٢٨/١٤٨ـ١٤٩ ، ٩/٢٩٤ .
(٤) الاسلام وقضايا علم النفس ٦٩ـ٧٠ وانظر زاد المسير في علم التفسير ٩/١٢٣ وانظر علم النفس في التصور الاسلامي الدكتور عبد الحميد الهاشمي ٤٦ـ٤٧ .
(٥) ٢٦ـ٣٠ : الفجر
(٦) حتى يغيروا ما بانفسهم ٩١
(٧) ٤٤ : الشعراء
(٨) ٧٢ : طه

وسلوك الانسان يبقى مترتبا على ما بنفسه بغض النظر عن صواب وخطأ ما بالنفس ، وهكذا فإنه يظهر اثر ما بالنفس ولو كان وهما ، يقول الغزالي : (... لكن خلقت قوى النفس مطيعة للاوهام ، وان كانت كاذبة حتى ان الطبع لينفر من حسناء سميت باسم اليهود ... وليس هذا طبع العامي خاصة بل طبع اكثر العقلاء المتسمين بالعلوم ـ الا العلماء الراسخين الذين أراهم الله الحق حقا ، وقواهم على اتباعه ، واكثر الخلق قوى نفوسهم مطيعة للاوهام الكاذبة مع علمهم بكذبها ، واكثر اقدام الخلق واحجامهم بسبب هذه الاوهام فإن الوهم عظيم الاستيلاء على النفس ، ولذلك ينفر طبع الانسان عن المبيت في بيت فيه ميت مع قطعه بأنه لا يتحرك ولكنه كأنه يتوهم كل ساعة حركته ونطقه) (١) .

وان ما بداخل النفس اما يكون واقعا تحت الوعي ، واما تجاوز الوعي ، وأصبح منسيا ، ولكنه يعمل بشكل آلي فالافكار المترسبة في الاعماق تعمل آليا وتستجيب للاحداث والمثيرات استجابات آلية ... فالفكرة حين تتعمق داخل النفس تكون مصدرا للاخلاق (والاعمال) وما الخلق الا السلوك الناشيء عن افكار متعمقة ثابتة راسخة في النفس . (٢)

ومن كل ما تقدم نفهم لماذا جعل الله سبحانه وتعالى سنته في تغيير ما بالقوم قائمة على اساس تغيير ما بالنفوس .

وان الامثلة للاقوام التي غير الله ما بها حين غيرت ما بنفسها كثيرة ، وسأذكر بعض هذه الاقوام عند حديثي عن سنة الله في عقاب الامم .

وفي ذلك يقول الاستاذ جمال الدين الافغاني : (ارشدنا الله تعالى في محكم آياته ، ان الامم ما سقطت من عرش عزها ولا بادت ومحي اسمها من لوح الوجود ـ الا بعد نكوبها عن تلك السنن التي سنها الله

---

(١) المستصفى للغزالي ٧٣ ـ ٧٤
(٢) كتاب حتى يغيروا ما بأنفسهم ٩٨ ـ ١٢٢

على اساس الحكمة البالغة (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم) من نور العقل وصحة الفكر واشراق البصيرة والاعتبار بافعال الله في الامم السابقة ، والتدبر في احوال الذين حادوا عن صراط الله فهلكوا ، وحل بهم الدمار ثم الفناء لعدولهم عن سنة العدل وخروجهم عن طريق البصيرة والحزم والحكمة ...

وهكذا جعل الله بقاء الامم ونماءها في التحلي بالفضائل التي اشرنا اليها ، وجعل هلاكها ودمارها في التخلي عنها سنة ثابتة لا تختلف باختلاف الامم ولا بتبدل الاجيال ، كسنته تعالى في الخلق والايجاد ...)(١)

وبعد فان كل ما قدمناه انما هو شرح لتلك السنة التي قررها سبحانه وتعالى في قوله تعالى (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم) (٢) تقريرا وبيانا وشرحا وتعليلا وضربا للامثلة الشاهدة عليها .

وهذه الحقيقة هي الاساس الذى ينبغي ان نفسر به ما طرأ على البشرية من تغييرات .

وينبغي ان تكون في نفس الوقت هي الاساس الذى نقيم عليه منهج التغيير الفردى والاجتماعي ، من الواقع الذى نحيا فيه ، الى المثل الاعلى الذى نصبو اليه وننشده للبشرية .

وليس من قصدى هنا تفسير التطورات التاريخية وما مر بالبشرية من احوال طبقا لهذه السنة بأكثر مما قدمت وما ذكرت من امثلة شاهدة ، انما التغيير الذى يهمني في هذا المقام ان نتخذ من هذه السنة اساسا لمنهج التغيير ، الذى ينبغي ان تتجه اليه البشرية ، والمنهج الوحيد الذى قرر هذه السنة ووضحها بهذا الشكل ، والذى اقام عليها منهجه التغييرى

---

(١) الاعمال الكاملة لجمال الدين الافغاني المؤسسة العامة للتأليف والنشر ٣٣٨ ــ ٣٣٩

(٢) ١١ : الرعد

هو المنهج الاسلامي الموحى به من الله لمحمد صلى الله عليه وسلم ؛ وذلك

اولا : لان الاسلام هو الذى قرر تلك السنة الالهية من ان الله لا يغير ما
بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ٠

ثانيا : لان الاسلام اتى بتصور كامل ودقيق وفي نفس الوقت صحيح للنفس
الانسانية بمختلف جوانبها لانه صدر عن خالق هذه النفس ومبدعها
سبحانه وتعالى (الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) (١)

ثالثا : على اساس قاعدة ان التغيير مرتبط بتغيير ما بالنفس وعلى
اساس التصور الاسلامي الصحيح لهذه النفس يقوم المنهج الاسلامي
في التغيير ٠

---

(١) ١٤ : الملك

واقع البشرية وقت بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم :ـ

وكل منهج اصلاحي (تغييرى) لا يعتمد في التغيير على تصحيح الافكار والعقائد وتهذيب ما بالنفس من الدوافع والغرائز بالقيم العليا ؛ فانه لا يعتبر منهجا تغييريا صحيحا لا في اساسه ولا في بنائه ٠

لذلك كان اعتماد الاسلام الاول في عملية تحويل مجتمع الكفر الى مجتمع اسلام ، يقوم على اساس احلال مفاهيمه العقائدية عن الله عز وجل وعن الكون والانسان والحياة ٠٠٠ وعلى اذكاء جذوة التفكير والنظر لدى الانسان حتى يتمكن من فهم هذه العقيدة بعمق واصالة ، ويقوم الى جانب ذلك على تهذيب ما بالنفس من الدوافع والغرائز ووضعها في موضعها الصحيح من حياة الفرد والمجتمع بتأصيل القيم العليا والاخلاق الرفيعة ووضع النظم التشريعية التي لا تصادم الفطرة ـ وانما كما قلت آنفا تهذبها وتعليها وتضعها في موضعها الصحيح من الحياة ٠

فعندما بعث محمد صلى الله عليه وسلم برسالته كان المجتمع الانساني يعيش في حالة من البؤس والضياع والتدهور ، وكان في مقت من الله وغضب كما اخرج مسلم في صحيحه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في حديث طويل (٠٠٠ وان الله نظر الى اهل الارض فمقتهم عربهم وعجمهم الا بقايا من اهل الكتاب وقال انما بعثتك لابتليك وابتلي بك) (١) ٠ وكأن (العالم بناء اصيب بزلزال شديد هزه هزا عنيفا ، فاذا كل شيء فيه في غير محله ، فمن اساسه ومتاعه ما تكسر ، ومنه ما التوى وانعطف ، ومنه ما فارق محله اللائق به وشغل مكانا آخر ، ومنه ما تكدس وتكوم ٠

نظر الى العالم بعين الانبياء فرأى انسانا قد هانت عليه انسانيته رآه يسجد للحجر والشجر والنهر ، وكل ما لا يملك لنفسه النفع والضر ٠

رآى انسانا معكوسا قد فسدت عقليته ، فلم تعد تسيغ البدهيات وتعقل الجليات ، وفسد نظام فكره فاذا النظرى عنده بدهي وبالعكس ٠٠٠

---

(١) صحيح مسلم كتاب الجنة باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا اهل الجنة وأهل النار ٢١٩٧/٤ ٠

رأى مجتمعا هو الصورة المصغرة للعالم ، كل شيء فيه في غير شكله او في غير محله ، قد اصبح فيه الذئب راعيا ، والخصم الجائر قاضيا ، واصبح المجرم فيه سعيدا حظيا ، والصالح محروما شقيا ... ورأى عادات فاسدة تستعجل فناء البشرية وتسوقها الى هوة الهلاك .

رأى معاقرة الخمر والخلاعة والفجور الى حد الاستهتار ، وتعاطي الربا الى حد الاغتصاب واستلاب الاموال ، ورأى الطمع وشهوة المال الى حد الجشع والنهم ، ورأى القسوة والظلم الى حد الوأد وقتل الاولاد .

رأى ملوكا اتخذوا بلاد الله دولا ، وعباد الله خولا ، ورأى احبارا ورهبانا اصبحوا اربابا من دون الله ، يأكلون اموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله .

رأى المواهب البشرية ضائعة أو زائغة لم ينتفع بها ولم توجه التوجيه الصحيح ، فعادت وبالا على أصحابها والانسانية ، فقد تحولت الشجاعة فتكا وهمجية ، والجود تبذيرا واسرافا ، والأنفة حمية جاهلية ، والذكاء شطارة وخديعة ، والعقل وسيلة لابتكار الجنايات والابداع في ارضاء الشهوات ...

رأى الامم قطعانا من الغنم ليس لها راع والسياسة كجمل هائج حبله على غاربه ، والسلطان كسيف في يد سكران يجرح به نفسه ويجرح اولاده واخوانه)- (١)

ويصف جعفر بن أبي طالب للنجاشي حال المجتمع الذي بعث فيه الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول : (يا أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف حتى بعث الله الينا رسولا ... (٢)

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، أبو الحسن الندوي، دار القلم الكويت، الطبعة الحادية عشر ١٤٠٠هـ، ص ٨٩ ـ ٩٠. وانظر بحوث في التربية الاسلامية، د. محمود السيد سلطان ، مؤسسة علي جراح الصباح الكويت ص ٣٥

(٢) السيرة النبوية، لأبي محمد عبد الملك بن هشام المعافري المعروفة بسيرة ابن هشام، تحقيق الدكتور أحمد حجازي السقا، دار التراث العربي للطباعة والنشر ١٣٩٩هـ، ص ٢٠٦

وقد انحطت عبادة الاصنام في نفوسهم حتى كانوا يعبدون جنس الحجر ، روى البخاري عن رجاء العطاردي قال :(كنا نعبد الحجر فاذا وجدنا حجرا هو أخير منه القيناه واخذنا الاخر ، فاذا لم نجد حجرا جمعنا جثوة من تراب ثم جئنا بالشاة فحلبناه عليه ثم طفنا به) (١)

وقال الكلبي في كتاب الاصنام : (كان الرجل اذا سافر فنزل منزلا اخذ اربعة احجار ، فنظر الى احسنها ، فجعله ربا ، وجعل ثلاث اثافي (٢) لقدره واذا ارتحل تركه ، وكان لاهل كل دار من مكة صنم في دارهم فاذا اراد احدهم السفر ، كان اخر ما يصنع في منزله ان يتمسح به ، واذا قدم من سفره كان اول ما يصنع اذا دخل منزله ان يتمسح به ايضا .(٣)

وجوهر الجاهلية العربية قبل مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم هو الشرك بشعبتيه : شرك الاعتقاد ، وشرك الاتباع (وقال الذين اشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء) (٤) ، وهذا في اصله هو عبادة الجبت والطاغوت .

(والجبت في الاصل : اسم صنم فاستعمل في كل معبود غير الله ، والطاغوت يطلق على كل باطل من معبود او غيره ، ومعنى الايمان بهما اما التصديق بانهما الهة واشراكهما بالعبادة مع الله تعالى ، واما طاعتهما وموافقتهما على ما هما عليه من الباطل ، وأما القدر المشترك بين المعنيين

مع الفتح ٧٨

---

(١) اخرجه البخاري كتاب المغازي باب وفد بني حنيفة وحديث ثمامة بن آثال
(٢) الاثافي : جمع اثفية وهو الحجر الذي يوضع عليه القدر انظر الصحاح تاج اللغة وصحاح اللغة العربية تأليف اسماعيل بن حماد الجوهري تحقيق احمد عبد الغفور عطار طبع ١٤٠٢ هـ ، باب الفاء فصل الالف .
(٣) كتاب الاصنام لابن المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي تحقيق الاستاذ احمد زكي مصورة عن طبعة دار الكتب سنة ١٣٤٣ هـ / ١٩٢٤ م الناشر الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة ص ٣٣
(٤) ٣٥ : النحل

كالتعظيم مثلا) (١)

وكان العرب الى جانب عبادة الاصنام وغيرها من المعبودات كالجن والملائكة ... الخ ، يضيفون جهالة اخرى تتمثل في عدم الايمان باليوم الاخر وكانوا يتعجبون ممن يدعوهم الى الايمان به ويعجبون به (وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم اذا مزقتم كل ممزق انكم لفي خلق جديد أفترى على الله كذبا ام به جنة) (٢)

وكان من آثار ذلك في حياتهم مالا بد ان يكون في كل جاهلية لا تؤمن باليوم الاخر : الاحساس بقصر الحياة ، وانها فرصة وحيدة ان لم يبتهلها الانسان فقد فاتته الى غير رجعة ، فينكب على الملذات لا يبالي الحرام منها وغير الحرام ... او ترخص الحياة في حسه فيستهتر بها ، وقد يجتمعان معا كما في بيت طرفة بن العبد :

الا ايهذا الزاجرى احضر الوغى
وان اشهد اللذات هل أنت مخلدى (٣)

... لقد كانت تستعبدهم في الحقيقة ارباب اربعة او فئات اربع من الارباب في آن واحد : ربوبية الاصنام المعبودة والجن والملائكة وغيرها من المعبودات التي تقربهم الى الله زلفى او لتشفع لهم عند الله ، وربوبية القبيلة ، وربوبية الموروث عن الاباء والاجداد ، وربوبية الهوى والشهوات (٤)

(هذه هي الصورة الشائهة للتصورات في الجزيرة العربية نضيفها الى ذلك الركام من بقايا العقائد السماوية المنحرفة التي كانت سائدة في الشرق والغرب ؛ يوم جاء الاسلام فتتجمع منها صورة مكتملة لذلك الركام الثقيل ، الذى كان يجثم على ضمير البشرية في كل مكان والذى كانت

---

(١) مسائل الجاهلية التي خالف فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم اهل الجاهلية ألف اصلها الشيخ محمد بن عبد الوهاب وتوسع فيها على هذا الوضع علامة العراق محمود شكري الالوسي، الطبعة الرابعة ١٣٩٨هـ، المطبعة السلفية بمصر .

(٢) ٧ ـ ٨ : سبأ

(٣) ديوان طرفة بن العبد دار بيروت للطباعة والنشر ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م ص ٣٢

(٤) مقتطفات من كتاب منهج التربية الاسلامية للشيخ محمد قطب الطبعة السابعة ١٤٠٣ هـ دار الشروق ٢١ ـ ٢٣

تنبثق منه انظمتهم واوضاعهم وآدابهم واخلاقهم كذلك) (١)

ففي سبيل قيام الرسول صلى الله عليه وسلم بتغيير هذه الاوضاع واصلاحها كانت تبدو امامه مشاكل جزئية لو انه قضى حياته في سبيل اصلاحها على نحو جزئي فربما انتهت هذه الحياة دون ان يصل الى بعض ما يريد من تغيير واصلاح لكنه اتى دعوة الاصلاح والتغيير من بابها الاصيل ، وهو تغيير ما بالنفوس من العقائد الباطلة والافكار الخاطئة ... ليقيم مكانها العقيدة الحقة والافكار الصحيحة ، والتي اذا صحت وصح على اساسها ما بالنفس من القيم والدوافع استقام ما بالواقع على وضعه الصحيح كما سأبين ذلك فيما بعد .

(١) خصائص التصور الاسلامي ومقوماته سيد قطب ٤٤

واقـع البشـريـة في عصرنـا الحاضـر :

واذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعث في جاهلية فإن البشرية اليوم تتخبط في جاهلية عمياء شعواء ادهى وأمر من جاهلية العرب الاولى .

فالجاهلية (الاوروبية الشرقية والغربية) افسدت كل تصورات الانسان وارتباطاته بالله والكون والحياة ... والانسان .

(فهناك انحراف رئيسي في تصور حقيقة الالوهية .. وعلاقة الانسان بالله وانحراف في تصور الكون وعلاقته بالله ، وعلاقة الانسان به ، وانحراف في تصور الحياة وارتباطاتها واهدافها وانحراف في تصور النفس البشرية ، وارتباطات بالانسان فردا وجماعة وجنسين ..)(١) .

نتج عن هذا الفساد في التصور في كل شئون الحياة فساد في السلوك بصورة حتمية ..(٢) ولئن كان الفساد في التصور قد شمل كل ما ذكرنا وغيره (فالفساد في السلوك قد شمل مناحي الحياة كلها في السياسة والاقتصاد والاجتماع والاخلاق والفن وكل شيء ..)(٣)

والحياة البشرية كما هي سائرة اليوم ، وكما هي سائرة وفق جميع التقديرات الظاهرة لا يمكن ان تستمر في طريقها هذا - لا بد لها من تغيير اساسي في القاعدة التي تقوم عليها، تغيير يعصمها من تدمير الانسان بتدمير خصائصه الاساسية ، فالحياة الانسانية بداهة لا تستطيع ان تبقى اذا دمرت خصائص الانسان (٤)

ويقول سيد قطب عن فساد شئون الحياة وعن عقوبة الفطرة لهذه البشرية يقول :(لم يكن بد وقد شرد الانسان عن ربه ومنهجه وهداه وعبد الانسان نفسه واتخذ الهه هواه ...

---

(١) جاهلية القرن العشرين للشيخ محمد قطب دار الشروق ١٤٠١هـ-١٩٨١م ص٥٥ وللتفصيل انظر ٥٥-١٣٠ .

(٢) المرجع السابق ٩٣ .

(٣) المرجع السابق انظر ٩٧-١٠٠

(٤) الاسلام ومشكلات الحضارة: سيد قطب،دار الشروق،بدون تاريخ نشر ٥٠ .

لم يكن بد وقد رفض الانسان تكريم ربه له ، فاعتبر نفسه حيوانا ...
لم يكن بد وقدجعل الانسان من المرأة حيوانا لطيفا ـ كما ان الرجل حيوان خشن غاية الالتقاء بينهما اللذة ، وغاية الاتصال بينهما المتاع ...

لم يكن بد وقد عطل الانسان خصائصه (الانسانية) ليحصر طاقته في الانتاج ، واقام حياته كلها على اساس مادى وتصور مادى ...

لم يكن للانسان بد وقد اقام نظامه على الربا ، ليكد القطيع البشرى كله في خدمة بضعة آلاف من مؤسسي البيوت المالية وبنوك المرابين ...

وفي النهاية ... لم يكن بد وقد اتخذ الانسان له آلهة من دون الله ، فاتخذ من المال الها ، ومن الهوى الها ، ومن المادة الها ، ومن الانتاج الها ، ومن الارض الها ، ومن الجنس الها ... كل هذه الالهة ـ وغيرها ـ اتخذها وعبدها ، ليهرب من الله ويستنكف عن عبادته !! (١)

لم يكن بد وقد فعل الانسان هذا كله بنفسه ان تحل به عقوبة الفطرة ، وأن يؤدى ضريبة المخالفة عن ندائها العميق ... وأن يؤديها فادحة قاصمة مدمرة ..

وقد كان ..

كان ... واداها من نفسه واعصابه .. ومن بدنه وعافيته . ومن سعادته وطمأنينته ، ومن مواهبه وخصائصه . ومن دنياه . وآخرته ..

أداها ـ وفي الأمم التي بلغت ذروة الحضارة المادية بالذات تناقصا في النسل بالانقراض) (٢)

---

(١) انظر العبودية تأليف شيخ الاسلام تقي الدين احمد بن عبد الحليم ابن تيمية رحمه الله ابن تيمية اكاديمي لاهور باكستان ، ربيع الاول ١٣٩٦ هـ حيث يقول : (وهكذا حال من كان متعلقا برئاسة او بصورة ونحو ذلك من اهواء نفسه ...فهذا عبد ما يهواه من ذلك وهو رقيق له ، اذ الرق والعبودية في الحقيقة : هو رق القلب وعبوديته فما استرق القلب واستعبده ، فالقلب عبده) ٨٨ ـ ٨٩ وما بعد ذلك .

(٢) الاسلام ومشكلات الحضارة سيد قطب ١٢٠ ـ ١٢٢

(لقد مرت اربعة عشرة قرنا منذ نزل التشريع ومرت بالبشرية في اقطار الارض تجارب شتى ، فاذا هذه التجارب ذاتها تثبت ان كل ما انحرف به الناس عن شريعة الله ، قد سبب لهم شقوة مريرة لا تكاد تطاق ، وهدد أمنهم وراحتهم ، ومزقهم شيعا واذاق بعضهم بأس بعض فضلا عن الشقاء العالمي الشامل الذى أنتج في التاريخ المعاصر حربين متتاليتين في ربع قرن والثالثة على الابواب تهدد بأفظع دمار عرفه التاريخ ، وفضلا عن تفتت الاسرة وتحلل الاخلاق وتمزق اعصاب الفرد بين شتى الاتجاهات مما تشهد به أمراض الجنون والاضطرابات النفسية والعصبية وضغط الدم وحوادث الانتحار التي شهدت منها البشرية في هذا الجيل ما لم يشهده مجتمع في الاجيال الاخرى)(١) .

(واذا كان الانسان هكذا ينحدر في صفاته الانسانية وهكذا يصير عبدا للآلة او تابعا ذليلا من توابعها ، وهكذا يهبط في علاقته الجنسية ما دون البهيمة وهكذا يشقى ويقلق ويعاني من الشقاء والتعاسة والامراض العصبية والنفسية والشذوذ والجنون ما لم يعانه قط في تاريخه ... وهكذا يهيم على وجهه يقتل سآمته بما يقضي على جسده وروحه وعقله من مكيفات وخمور ومذاهب فكرية لا تنم الا عن اليأس والضياع والقنوط ... وهكذا ينطلق كالعربيد يقتل ويسرق وهو ليس في حاجة الى القتل والسرقة ، ويضرب الأرض بقدميه ويلوح في الهواء بيديه في حركات هستيرية تماما كالمعتوه والمجنون ويسمى ذلك رقصا وفنا !! .

واذا كان الانسان هكذا ... في مثل تلك الحالة التعسة الهابطة المزرية . فان جميع ما يصل اليه (العلم) من تيسيرات للحياة المادية رفاهيات حضارية في معزل عن (روح الانسان) وفطرته الحقيقية ومقوماته الحقيقية واستعداداته الحقيقية ، لا ولن يغير شيئا من حقيقة الشقاء الذى يعانيه ... ومن حقيقة الانحدار الذى يهوى اليه ، ومن حقيقة فشل هذه الحضارة وقرب نهايتها)!! .(٢)

لقد جربت البشرية الضالة كل انواع التجارب بعيدا عن منهج الله فاعثرتها ، جربت المادية الطاغية ، وجربت الرأسمالية الطاغية .. وجربت الشيوعية الطاغية ، وجربت الفردية الطاغية ، وجربت الجماعية الطاغية ، وكل هذه التجارب لم تمنح البشرية الهدوء والطمأنينة واليقين ، من اجل ذلك كفرت بهذه التجارب كلها التي انشأها العقل البشرى وارتدت الى اللامعقول .

---

(١) هل نحن مسلمون محمد قطب ٣٠-٣١

(٢) الدين بين الفرد والمجتمع ١٥٥ .

وسواء كانت العاطفة الجامحة التي لا يمسكها دليل العقل ، او الهلوسة الباطنية التي لا يحكمها التفكير المنظم ... كلها انفلات من المعقول الى اللامعقول ...(١)

وجربت المتاع الحسي المنطلق بلا غاية ...في المأكل والمشرب والمسكن والملبس .

وجربت الايمان بكل اله من صنع الانسان ... والانسان المتأله والالحاد بكل اله . ثم ازدادت مع كل تجربة حيرة واضطرابا وخلخلة رابطتها حتى جنت او كادت تجن (٢) .

ومن هنا جاءت وانطلقت صيحات النذير بالخطر وان الحضارة الغربية سائرة الى الهاوية والى طريق مسدود ، وقد تحدثت عن بعض هذه الشهادات من خلال سنة الله في عقاب الامم ، ولا بأس ان اضيف هنا الى تلك الشهادات بعض الشهادات الاخرى .

يقول ول ديورانت الفيلسوف الامريكي في كتابه مباهج الفلسفة :(وثقافتنا اليوم سطحية ومعرفتنا خطرة لاننا أغنياء في الآلات فقراء في الاغراض ، وقد ذهب اتزان العقل الذى نشأ ذات يوم من حرارة الايمان)(٣) .

ويقول الكسيس كاريل في كتابه الانسان ذلك المجهول :(ان الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب لانها لا تلائمنا ، ولقد انشئت دون اية معرفة بطبيعتنا الحقيقية ، اذ انها تولدت من خيالات الاكتشافات العلمية وشهوات الناس ، واوهامهم ونظرياتهم ، ورغباتهم .وعلى الرغم من انها انشئت بمجهوداتنا الا انها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا)(٤) .

---

(١) انظر جاهلية القرن العشرين ١٩٤ـ١٩٥

(٢) المرجع السابق ٢٠٠ـ٢٠١

(٣) انظر التطور والثبات محمد قطب ١٦٠

(٤) الانسان ذلك المجهول تأليف الكسيس كاريل تعريب شفيق اسعد فريد مكتبة المعارف بيروت الطبعة الثالثة ١٩٨٠ م ص ٣٧ .

ويقول مستر دالاس وزير خارجية امريكا في كتابه حرب ام سلام :(ان هناك شيئا ما يسير بشكل خاطئ في امتنا ، والا لما اصبحنا في هذا الحرج ، وفي هذه الحالة النفسية ، لا يجدر بنا ان نأخذ موقفا دفاعيا ، وان يتملكنا الذعر .. ان ذلك امر جديد في تاريخنا)(١) .

ويقول :(لقد اخفقنا بشكل يدعو الى الرثاء في انه ليس من الممكن الحصول على عدالة اجتماعية ، دون ان نمارس الالحاد والمادية)(٢) .

(وقد كتب المفكر الفرنسي الكبير رجاء الجارودى قبل ان يدخل في الاسلام نقده العلمي التاريخي للحضارة الغربية ...

(استندت " الحضارة الغربية " على الارادة الفردية الغازية المريدة للربح والسيطرة والتي لا تتردد لحظة واحدة في تدمير القارات والحضارات ، من خلال توجيه العلوم والتقنيات .

واعتمدت النظرة العلمانية الصرفة التي تؤكد ان العقل يحل المشاكل وان كل المشاكل الاخرى هي مشاكل لاهوتية زائفة .

ان هذه الحضارة لم تستطع الى الان ان تحدد غايات الانسان الحقيقية ولا ان تسيطر على الوسائل التى توصله الى تلك الغايات .

اذن فهذه الحضارة تحيل الانسان الى العمل والاستهلاك ، وتحيل الفكر الى ذكاء آلي فيتجرد من الايمان والحب والشعور الفني ...

ولذلك فان هذه الحضارة -في رأى جارودى- مؤهلة ... للانتحار .

ويستنتج جارودى بان الغرب حادث عرض ، لكنه اخطر عرض طرأ في تاريخ الكرة الارضية والذى قد يقود اليوم الى فنائها ، وينتهي الى ان نمط التطور الذى تمارسه المجتمعات الصناعية الى درب مسدود)(٣) .

هذه هي حالة اوروبا والشرق ، حالة من البؤس والضياع والقلق ، حالة من ترقب الدمار المهلك الذى يأخذهم جميعا .

واذا كان هذا هو حال اوروبا ودول الكفر ، فان المسلمين قد وقعوا تحت تأثير هذه الجاهلية ، وابتعدوا عن دينهم ومنهجهم .

---

(١) انظر المستقبل لهذا الدين سيد قطب ٨٧
(٢) المستقبل لهذا الدين سيد قطب ٨٧
(٣) المنهجية الاسلامية والتغيير الحضارى ٤٢-٤٨ .

(فقد انحرفت الامة المسلمة كثيرا عن منهج الله ، ادركتها بالتدريج جهالة الجاهلية ففصلت العقيدة عن الشريعة ، واخذت الدين عقيدة مستسرة في القلب ، منقطعة عن الواقع يحكمه دين غير دين الله ٠
ثم انها كذلك فقدت حضارتها وحاستها العلمية الفريدة فانزوت في نفسها تستسلم للضعف والهوان ٠٠فزادت بذلك بعدا عن الاسلام ٠

وانحلت اخلاقها فلم تعد تصدق ولا تخلص ولا تستقيم في المعاملة ولا تقوم بينها روابط الانسان ثم زادت فانزلقت في تيار الجنس الجارف ٠٠٠٠ في مصيدة يهود ٠٠٠)(١)

وان تفوق الحضارة الغربية في المادة وغزوها المستمر لامتنا الاسلامية نتيجة لعوامل الاعاقة والتأخر في القرون الاخيرة في حياتها ٠ اسلمتها الى الاعداء المستعمرين الذين خططوا للقضاء على وجودها وخصائصها وتحريفها عن طريقها الحضاري المستقل ٠

زد على ذلك الاحتكاك الطبيعي بين الحضارات الذي هو سنة من السنن الاجتماعية في المجتمع الانساني ٠

ولقد كانت النتيجة فادحة لان المجتمع الاسلامي يحاول من جهة المحافظة على وحدته الحضارية الداخلية استجابة لمتطلبات منهبيته الاسلامية ، ومن جهة ثانية فان الحضارة الغربية بكل مقوماتها ومغرياتها منحت مسارات كثيرة نفذت منها لتفجير المجتمع الاسلامي من الداخل واحداث التغيير الشامل فيه على مقومات منهبياتها المادية وخصائصها الحضارية الرومانية النصرانية العلمانية ٠

ان رفض المجتمع الاسلامي للسقوط الحضاري من جهة وضغط الغزو الحضاري الغربي من جهة اخرى ، قادنا الى حالة خطيرة من الضياع والحيرة والانفصام بحيث لو استمرت ، فان خروجنا السريع من هذه الفوضى الحضارية يكون في حكم المستحيل ، وعدم الخروج السريع وعدم الوضوح في التخطيط والتغيير سيلحق بمجتمعاتنا الاسلامية افدح الاضرار ، بل سيدمرها تدميرا شاملا وسيتمكن الاعداء منها من كل جانب لا سمح الله ٠(٢)

---

(١) جاهلية القرن العشرين ٢٣٢
(٢) المنهبية الاسلامية والتغيير الحضاري الدكتور محسن عبد الحميد كتاب الامة الطبعة الاولى ١٤٠٤هـ ٤١_٤٢

وقد رفعت شعارات كثيرة للاصلاح والتنمية والتقدم في البلاد العربية والاسلامية . وعاش العالم العربي مرارة هذه الشعارات ومذاهبها من غربية رأسمالية وشرقية شيوعية .

وجاء وقت الحصاد لتجني الشعوب قبل الحكومات نتاج ذلك كله . لتجني الفشل في كل المجالات ، فشل في المجال الاقتصادى والسياسي والاخلاقي والاعلامي والعلمي والصناعي والعسكرى ، وكانت نتيجة هذا الفشل تبعية هذه الشعوب للسيد الغربي او الشرقي ، وهذه هي الثمرة التي ظل الشرق والغرب يعمل لها ويخطط ويسهر ويتكبد المشاق في سبيلها ليهدأ بعد ذلك ويرتاح وتجني الشعوب واقعا حنظليا مرا .

لقد جربوا كل الشعارات فمنذ سقوط الخلافة العثمانية ، ما ازدادوا الا انحطاطا وتأخرا وتبعية ذليلة للغرب او الشرق ، وذل وقهر للشعوب واحتلال لاراضي المسلمين ... وغير ذلك ...(١)

وقد الف الدكتور يوسف القرضاوى وفقه الله كتابا سماه الحلول المستوردة وكيف جنت على امتنا ، وقال في خاتمة بحثه هذا :(احسب ان هذه الدراسة قد اثبتت في وضوح ان امتنا لم تكن في حاجة الى حلول مستمدة من ايديولوجيات اجنبية عنها ، وان هذه الحلول المصطنعة لم تكن حتمية تاريخية ، واكثر من ذلك لم تكن ملائمة واكثر من هذا وذاك انها كانت معوقة لدنيا امتنا فضلا عن مناقضتها لدينها).(٢)

---

(١) معالم في التربية ١٢-١٣

(٢) الحلول المستوردة وكيف جنت على امتنا ، يوسف القرضاوى : ٣٦١

ضرورة التغيير :

وكما كان التغيير ضروريا وملحا في زمن مبعث نبي هذه الامة فانه اشد ضرورة ايامنا هذه ، فالبشرية امام خيارين لا ثالث لهما .
اما التدمير الشامل ان ظلت البشرية فيما هي فيه من الشرود عن المنهج الحق، واما الهدى الى دين الله والثبات والطمأنينة .

وان البشرية ليس لها من منهج يخلصها من واقعها السيئ الا الاسلام ، الاسلام وحده . فالاسلام هو المنهج الرباني الخالد الذى نزل على محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ولا ينحرف بانحرافات البشرية .

وهو الباعث للانسانيه حيث تكون وكيف تكون ، الاسلام هو المنهج الذى يخرج الناس من الظلمات الى النور ، ومن الطاغوت وهو المخلص للناس من الجاهلية الراهنة الطاغية .. التي تدمر كيان الانسان .(١)

ان الحضارة الغربية لا تملك مقاييس انسانية صالحة انحرف الناس عنها ، فكان هناك الامل في عودة الناس الى المقاييس الصحيحة ورجوعهم عن الفساد(٢) .

ان شهادة القرن العشرين ... والشباب المهدد بالضياع وصيحة كيندى وخروتشوف ، وبرتراندرسل وغير هؤلاء وهؤلاء كلها تشير الى ان هذه الفضائل " وهي التقدم العلمي "وبعض الفضائل النفسية والاجتماعية والاخلاقية - كلها تشير الى ان هذه الفضائل في طريقها الى التضاؤل ...والانهيار (سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا)(٣) .

واذن فلن يكون الخلاص على يد الحضارة الغربية ولا حضارة من نوع الحضارة الغربية !.(٤)

ذلك ان المتحكم في الحضارة الغربية نظرات وضعية تمثل افكاراً وآراء بشرية وبطبيعة الحال ، فان آراء الانسان وفلسفته غالبا ما هي الا نتيجة لظروف حياته الفردية والاجتماعية ، او محاولات لاصلاح مجتمع وتخليصه من مشاكله وازماته ، او سعي وراء الوسائل الملائمة بين الانسان وظروفه البيئية او تعبير عن ازمات نفسية واجتماعية تلم بالانسان في فترة من حياته فيلتمس لها حلولا مناسبة .(٥)

---

(١) جاهلية القرن العشرين ٢٢٣-٢٢٣
(٢) التطور والثبات ٢٨٨ .
(٣) ٦٢ : الاحزاب .
(٤) التطور والثبات ٢٩٣ .
(٥) اصول التربية الاسلامية ٤٤

وهذه النظرات نظرات جزئية وسطحية وكلها محاولات مصطنعة لا جذور لها من الفطرة البشرية ، فهي لا تلائم هذا الانسان بل تسحق خصائصه الاساسية التي تجعل من هذا الكائن الفذ الفريد في الكون ، والتي بدونها لا يملك هذا الكائن ان يؤدى دوره ، كما ان اغفال بعضها في اى نظام اجتماعي او اقتصادى ، وفي اى حضارة من شأنه ان يحدث الاختلال في الكينونة البشرية ، ويقضي لا على الجوانب التي اغفلت فحسب ، بل كذلك على الجوانب الاخرى ، نظرا لان الجهاز الانساني كل مركب متناسق ، يعمل في الواقع كوحدة في كل نشاط يبذله ولا يوجد مجزءا الا في عالم البحوث العقلية والمعملية .(١)

وكذلك فان هذه الفلسفات الوضعية لم تخلص الانسان من آلامه لانها لا تلائم الانسان ، بل هي جعلته يعيش في تخبط وحيرة لانها نابعة من اهوائهم وشهواتهم ونابعة من نظرات بشرية قاصرة ، وصدق الله العظيم اذ يقول:(ولو اتبع الحق اهواءهم لفسدت السموات والارض ومن فيهن بل اتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون)(٢) .

وواقع البشرية اليوم انهم يرسمون واقعهم بآرائهم ، (ولما كان هذا الواقع ، واقع آراء فانه حتما سيأخذ طبيعة الرأى في كونه قابلا للتغير الزماني والمكاني ، فما تتفق عليه الاراء في زمان قد يخالفه نفس الاشخاص في زمن آخر ، وما يتفق عليه في مكان قد يخالفه في مكان آخر ، وفي جميع الاحوال لا يمكن ان تتفق عليه جميع الآراء في كل زمان ومكان ما لم يكن امرا يتجاوب مع فطر الناس جميعا .

وهكذا يظل المجتمع يعيش واقع الاراء المتغير المتقلب ، فيغير حياتهم من سيء الى اسوأ ويقلبها من اضطراب الى فوضى ومن هم الى غم فلا يحصد الافراد من آرائهم الا شقاءها وبؤسها ، ويعبر القرآن الكريم عن هذا الصنف (الأرائيتي) الذى يتبع هواه ويؤسس واقع مجتمعه على هذه الاهواء والاراء المجتمعة .... فيقول البارى :(ومن اضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله)(٣) ويقول :(افرأيت من اتخذ الهه هواه)(٤) .

---

(١) الاسلام ومشكلات الحضارة ١٠٨ .
(٢) ٧١ : المؤمنون
(٣) ٥٠ : القصص
(٤) ٤٣ : الفرقان

ويحذرنا ان نكون امعات نردد اراءهم ونتبع اهواءهم فيقول:(ولا تتبعوا اهواء قوم قد ضلوا من قبل)(١) . ويقول :(ولا تتبع اهواء الذين كذبوا بآياتنا ...)(٢) . ويقول :(... قل لا اتبع اهواءكم قد ضللت اذا وما انا من المهتدين)(٣) .

واذا كان واقع الناس اليوم ناتجا عن ارائهم فان واقع الاسلام واقع ناتج عن منهج رباني ، لا شأن لارائنا في رسمه ، فهو واقع منبثق من منهج معين رباني وليس منبثقا من اراء البشر .(٤)

والبون شاسع بين واقع الرأى وواقع المنهج ، وهما كخطين من زاوية مثلث لا يمكن ان يلتقيا ، من هذه النقطة يبدأ انحرافنا ومشاكلنا وشقاؤنا وتعاستنا رغم كل ما نبذل من عصارة فكر وخلاصة تجربة لاكتشاف كل جديد وتذليل كل صعب لرفاه الانسان وما ذلك الا لاننا نقرر بآرائنا وافكارنا واهوائنا واقعا لا يتجاوب مع فطرتنا التى فطرنا الله عليها ، وانما يتجاوب مع اهوائنا وشهواتنا المحدودة الناقصة المبتسرة ، ولان امر الفطرة لا ندركها نحن لاننا لم نصنع ولم نخلق هذا الانسان حتى نعرف متطلبات فطرته ، وانما هذا شأن صاحب الصنعة البارى سبحانه وتعالى فهو الذى يعلم ما تحتاجه هذه الفطرة وبالتالى يعلم ما يصلح الانسان وما يضره (الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) (٥) .

..... فهؤلاء رواد الحضارة اليوم لما ايقنوا عيانا وتجربة انهم يقصدون سرابا ويزرعون حنظلا ويقطفون شقاء وتعاسة تنادوا لبحث المسار وتعديل المنهج ومعرفة الاسباب ، فمن قائل ان العلاج زيادة في اسباب المدنية حتى يصل الفرد حد الاشباع المادى ، وهذا مثله مثل من يسقي نفسه سما ليشفى من السم فيجعل الداء دواء .

---

(١) ٧٧ : المائدة
(٢) ١٥٠ : الانعام
(٣) ٥٦ : الانعام ، وانظر معالم في التربية ١٨
(٤) المرجع السابق ١٨ـ١٩
(٥) ١٤ : الملك

والحق ان العلاج لا يأتي من مريض ، فطلب العلاج من هؤلاء خطأ في حد ذاته لان العلاج لا يطلب من مريض واقعا وفكرا وتصورا ، وانما يبذل العلاج من لم يتلوث بهذه الامراض الحضارية .(١)

(١) معالم في التربية ٢٥ .

الاسلام وحده يسأل :-

من حق الاسلام وحده ان يسأل ، الاسلام وحده لانه يملك التاريخ الوحيد على وجه الارض الذى تحققت فيه سعادة الافراد كما لم تتحقق ولن تتحقق في اى حضارة سابقة او لاحقة ، سعادة حقيقية شاملة لمناحي الحياة كلها: النفسية والجتماعية والاقتصادية والسياسية . والذى يطالع تاريخ تلك الامة يطالعه واقعا حيا يحقق السعادة المنشودة ، واقع سلطة وواقع شعب وواقع منهج ، وان شهادات الباحثين من شرق وغرب ممن استقرءوا التاريخ الاسلامي كادت ان تتواتر ويستطيع ان يقع عليها نظر اى دارس او قارئ .(١)

فمن حق الاسلام ان يسأل عن علاج الداء ، وكيف نشأ وكيف يصاغ الواقع السعيد ، وكيف نتحاشى واقعنا السيء المرير بالشكل والاطار .

ويجيب الاسلام عن هذا كله باختصار بان يترك الناس رسم واقعهم للاسلام ويتركوا ما عداه ، فالله وحده العالم بما يحقق سعادة الافراد والمجتمع وعلى الناس جميعا ان يستقوا من هذا المعين الصافي وحده ، ويتركوه يرسم واقعهم كأفراد وكأسر وكمجتمع ، وكسلطة وككيان ، فيحكموه فيما بينهم ليحصلوا على سعادة الدنيا والآخرة .(٢)

فلا بد من الاسلام ليخلص البشرية من هذا الواقع المرير ، كما خلص البشرية من واقعها السيء بالامس ، وليس هناك كبير فرق بين هذا الواقع الذى نعيشه اليوم والواقع الذى جاء محمد صلى الله عليه وسلم لاصلاحه ، فكلا الجاهليتين بعيدتان عن الله ، ومشركات شرك اعتقاد وشرك اتباع ، وقد كان لجاهلية الامس آلهة هي الاصنام تعبدها من دون الله ، واليوم هناك اله المادة واله الشهوة .وقد كانوا يتبعون شهواتهم واهواءهم واليوم كذلك ، والانسان اليوم في فطرته البشرية التي خلقها الله كفطرة الانسان قبل اربعة عشر قرنا ، فالله هو الخالق للانسان بالامس وهو خالقه اليوم ، وكما جاء الاسلام صالحا ومصلحا للجاهليات في كل زمان وفي كل مكان فهو ايضا مصلح لهذه الجاهلية اليوم .

---

(١) معالم في التربية ... الاسلامية ص ٥

(٢) معالم في التربية الاسلامية ، د. عجيل جاسم النشمي مكتبة الفنار الاسلامية الكويت - الطبعة الاولى ١٤٠٠هـ ص ٢٦ .

وان الاسلام بقيادة رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اخرج امة ليس مثلها امة وحقق السعادة للمجتمع الانساني ما لم تحققه حضارة اخرى ، ووصلت البشرية في عهده الى القمة السامقة من النعيم والسعادة .

فمبادئ الاسلام ليست خيالا من صنع الشعراء وليست مثالية من صنع الفلاسفة لكنها من صنع الله الذى اتقن كل شيء .(١)

(فالانسانية من اقدم زمانها وفي مختلف اوطانها لم تشهد الجيل المثالي الا مرة واحدة حين فوجئت باقباله من صحاري ارض العرب ، يدعو الى الحق والخير والقوة والرحمة فكان ذلك مفاجأة عجيبة لكل من شهد هذا الحدث التاريخي الفذ من روم وفرس وارامبين وكنعانيين ....

كانت المفاجأة بمصدرها وكيفيتها واطوارها ثم كانت عجيبة العجائب بنتائجها التي لا تزال من معجزات التاريخ .

اين كان هؤلاء وكيف تكونوا على حين غفلة من الامم ، وما هذه الرسالة التي يحملونها وكيف نجحت وما هي وسائل نجاحها) .(٢)

لقد نتجت هذه الامة من (النظرة الاسلامية الشاملة ومن الطريقة المحكمة في معالجة النفس الانسانية ، نشأت تلك البطولات العجيبة التي زخر بها صدر الاسلام ، وما زالت على فترات تؤتى اكلها بين الحين والحين وبالامثلة المعجبة التي لا يتمالك الانسان نفسه امامها من العجب ، ان يكون ذلك في مكنة بشر ، فانه محدود الطاقة مشدود الى الارض بوشائج اللحم والدم) .(٣)

ولكن مع كل هذا السمو (فالصحابة رضوان الله عليهم هم نماذج بشرية ، صحيح انها نماذج ممتازة نادرة في التاريخ البشرى ولكنهم ولا شك بشر تشربت ارواحهم النور العلوى ، فارتفعت به وصارت الى تلك النماذج العالية التى تشرف بها البشرية في جميع اعصارها واحوالها ، والتأسي بهم والاقتداء باعمالهم وافكارهم ومشاعرهم محاولة مفتوحة امام المسلمين في كل جيل ، يصلون منها الى ما تقدر نفوسهم منه .(٤)

---

(١) خصائص مدرسة النبوة د. كمال محمد عيسى ، دار الشروق ، الطبعة الاولى ص ٤٤ .
(٢) الجيل المثالي ، محب الدين الخطيب ص ٥
(٣) الانسان بين المادية والاسلام . محمد قطب ١٢٧ .
(٤) هل نحن مسلمون ، محمد قطب ٦٤-٦٥ .

حقا انه جيل قرآني فريد كما قال سيد قطب :(هناك ظاهرة تاريخية على اصحاب الدعوة الاسلامية في كل ارض وفي كل زمان ، ان يقفوا اما مها طويلا ، ذلك انها ذات اثر حاسم في منهج الدعوة واتجاهها .

لقد خرجت هذه الدعوة جيلا من الناس ـ جيل الصحابة رضوان الله عليهم ـ جيلا مميزا في تاريخ الاسلام كله وفي تاريخ البشرية جميعه ، ثم لم تعد تخرج هذا الطراز مرة اخرى ... نعم وجد افراد من ذلك على مدار التاريخ ، ولكن لم يحدث قط ان تجمع مثل ذلك العدد الضخم في مكان واحد كما وقع في الفترة الاولى من حياة هذه الدعوة) (١).

وان الاسلام لم يسعد فقط المسلمين وانما اسعد غيرهم ، اسعد البشرية كلها ، واثر الاسلام في تقدم اوروبا العلمي وغيره ، شهد به علماؤهم انفسهم (... لولا الحضارة الاسلامية التي اشرقت شمسها على الدنيا منذ اربعة عشر قرنا لبقي العالم الانساني متخبطا في دياجير الجهل ، منزلقا في متاهات الفوضى ، منحدرا في حضيض التخلف ...

انها الحضارة المشرقة ، والمدنية الزاهرة والمجد العلمي العريض ...

ولنترك الكلام الى مفكري الغرب وعلمائهم وفلاسفتهم ... ليدلوا بشهادتهم امام من ينكرون عظمة الاسلام الحضارية ، وسموه التشريعي ، ونظامه المتجدد الشامل ..

يقول " دويبر" المدرس في جامعة نيويورك في كتابه " المنازعة بين العلم والدين " : (ولما آلت الخلافة الى المأمون سنة ـ ٨١٣م ـ ، صارت بغداد العاصمة العلمية العظمى في الارض ، فجمع الخليفة اليها كتبا لا تحصى ، وقرب اليه العلماء وبالغ في الحفاوة بهم).

وبعد ان عدد مآثر المسلمين في العلوم الطبيعية قال :(.. فانهم قد رقوا العلوم القديمة ترقية كبيرة جدا ، واوجدوا علوما جديدة لم تكن معروفة قبلهم .. ان جامعات المسلمين كانت مفتوحة للطلبة الاوروبيين الذين نزحوا اليها من بلادهم لطلب العلم ، وكان ملوك اوروبا وامراؤها يفدون على بلاد المسلمين ليعالجوا فيها ..)(٢) .

---

(١) معالم في الطريق ـ سيد قطب ـ ١١ .
(٢) انظر معالم الحضارة في الاسلام واثرها في النهضة الاوروبية ١١٥ .

ويقول " سيد يـو " في كتابه " تاريخ العرب " :(٠٠ وهكذا تجلى تأثير العرب في جميع فروع الحضارة الاوروبية الحديثة وظهرت بين القرن التاسع والقرن الخامس عشر اداب تعد من اعظم ما عرف ، وتشهد الانتاجات المتنوعة والاختراعات المهمة على ما كان يتصف به عرب ذلك الزمن من النشاط العجيب وبما كان لهم من الاثر البالغ في اوروبا النصرانية فجاء هذا مسوغا للرأى القائل ان العرب كانوا اساتذة لنا)(١) .

ومن اقوال غوستاف لوبون " في كتابه " حضارة العرب " :(ولا نرى في التاريخ امة ذات تأثير بارز كالعرب فجميع الامم التي كانت ذات صلة بالعرب اعتنقت حضارتهم ولو حينا من الزمن ٠٠)(٢) .

(ولم يتجل تأثير العرب في الشرق في الديانة ، واللغة ، والفنون ٠٠ وحدها ، بل كان لهم الاثر البالغ في ثقافتهم العلمية ايضا ٠٠)

ونقل عن الاستاذ " ليبرى " قوله : (٠٠ لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة اوروبة الحديثة عدة قرون ٠٠) .

ويقول " شربستي " في حديثه عن الفن الاسلامي :(ظلت اوروبا نحو الف سنة تنظر الى الفن الاسلامي كانه أعجوبة من الاعاجيب) .

ويقول " لين بول " في كتابه (العرب في اسبانيا) : (٠٠ فكانت أوروبة تزخر بالجهل والحرمان ، بينما كانت الاندلس تحمل امامة العلم ، وراية الثقافة في العالم) .

ويقول " بريفولت " في كتابه " تكون الانسانية " : (العلم هو اعظم ما قدمت الحضارة العربية الى العالم الحديث ، ومع انه لا توجد ناحية

---

(١) تاريخ العرب العام امبراطورية العرب ، حضارتهم ، مدارسهم الفلسفية والعلمية تأليف المستشرق ل ٠ أ ٠ سيديو ، نقله عادل زعيتر مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه الطبعة الثانية ١٣٨٩ هـ ص ٤٢٥

(٢) حضارة العرب الدكتور غوستاف لوبون نقله الى العربية عادل زعيتر الطبعة الرابعة ١٣٨٤ طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي ص ٥٦٤

واحدة من نواحي النمو الاوروبي الا ويلحظ فيها أثر الثقافة الاسلامية النافذة الا ان اعظم اثر واخطره هو ذلك الذى اوجد القوة التي تؤلف العامل البارز الدائم في العالم الحديث ، والمصدر الاعلى لانتماره أعني العلم الطبيعي والروح العلمية .. وهذه الحقائق مؤداها ان الاسلام دين بناء حضارى ..)

ويقول الياس أبو شبكة في كتابه " روابط الفكر والروح بين العرب والفرنجة " : (ان زوال الحضارة العربية كان شؤما على اسبانيا واوروبة فالاندلس لم تعرف السعادة الا في ظل العرب ، وحالما نهب العرب حل الدمار محل الثراء والجمال والخصب) (١)

وتقول زيغريد هونكة : (ولم يكن هناك احد ليمنح اوروبة ما قبل القرون الوسطى اى اهتمام ، او ليمنح الاحداث التي جرت في العالم خلال تلك العصور اى اهمية ايضا ، واما ان يكون العرب في جوار قريب لها ، وان يكون هذا الشعب رائدا لغيره من الشعوب في انحاء العالم في غضون ٧٥٠ عاما حاملا مشعل الثقافة ربما جاوز عصر الاغريق الذهبي بضعفيه اكثر من اى شعب آخر ..)(٢)
وانظر لزيادة التفصيل كتاب اثر الحضارة العربية الاسلامية)(٣)

فهذه الاقوال ، واقوال كثيرة غيرها تدلل بشكل لا يقبل الجدل والشك على ما انطوت عليه حضارة الاسلام من ازدهار وتفوق ، وما اختصت به من شمول وتجدد ، وما تميزت به من واقعية وانفتاح ..

شهد الانام بفضله حتى العدا
والفضل ما شهدت به الاعداء .

---

(١) نقلا عن معالم الحضارة في الاسلام واثرها في النهضة الاوروبية ص١١٥ عبد الله علوان ـ دار السلام للطباعة والنشر ـ الطبعة الاولى ١٤٠٠هـ .

(٢) شمس العرب تسطع على الغرب ٧، زيغريد هونكة ترجمة فاروق بيوضي واخرون المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع : الطبعة الاولى ١٩٦٤ م .

(٣) اثر الحضارة العربية الاسلامية على اوروبا تاليف مونتغمرى واط ترجمة جابر ابي جابر منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي دمشق ١٩٨١م .

وهكذا فانه ليس امام البشرية اليوم - وفي كل يوم تسوء حالها فيه - الا ان تعود الى الاسلام وتستسلم له ليصوغ افكارها ومعتقداتها وقيمها وفق نهجه الرباني . وقد آن لنا الان ان نميط اللثام عن اسس ومناهج التغيير الاسلامي لنصوغ بها انفسنا اولا فينتج عن هذه الصياغة الفكرية صياغية سلوكية لان السلوك نابع من النفس كما بينت في بداية هذه الفقرة .

الخطوط العريضة لمنهج الاسلام التغييري :-

بعد ان راينا ضرورة التغيير ، وان الحل يكمن في الاسلام وحده ، فاننا بصدد التحدث عن الخطوط العريضة لمنهج الاسلام التغييري .

ان الركيزة الاساسية في منهاج التغيير الاسلامي هي الايمان بالله عز وجل ايمانا حيا نابضا ، وما يتبع ذلك من توحيد الالوهية والربوبية ، وما يتبع ذلك ايضا من توحيد الاسماء والصفات ثم الايمان ببقية اركان الايمان من ايمان بالملائكة وبالكتب والرسل واليوم الآخر والقضاء والقدر خيره وشره من الله ، ثم ما ينتج عن هذا الايمان من تصور صحيح عن الكون والانسان والحياة ، وان هذه المعرفة ضرورية لانها هي التي تدفع للتغيير وهذا الاستيعاب كان اساس كثير من الحركات الاسلامية وفي ذلك يقول الدكتور محمود السيد سلطان :(ان قيم الاسلام اذا ما استوعبها الناس ، واستوعبوا نظمه واهدافه وشموله وتكامله ، ومبادئ العدالة ، والمساواه والحرية فيه ، فمما لا شك فيه انهم سوف يحاولون تغيير الاوضاع الاجتماعية بحيث تتمثل ما في الاسلام من جوهر ... وسيظلون يتطلعون اليه كمخلص لهم من الانماط الاجتماعية التي لا تحقق لهم السعادة في حياتهم .

وهذا الاستيعاب الدينى هو المحرك الاساسي لكثير من الثورات الاسلامية ... مثل الثورة الوهابية ، الثورة المهدية ، والحركة السنوسية ، والحركة الاسلامية في مصر في القرن العشرين .

وهذا الاستيعاب الديني لا يتحقق عشوائيا او بمحض الصدفة ، وانما يتحقق بالدراسة الواعية والفهم العميق ..)(١)

---

(١) بحوث في التربية الاسلامية الدكتور محمود السيد سلطان ، الناشر موءسسة علي جراح الصباح ، الكويت ١٩٧٨ ص ٣٤ .

ويقول سيد قطب :(وادراك المسلم لطبيعة التصور الاسلامي وخصائصه ومقوماته ، هو الذى يكفل ان يكون عنصرا صالحا في بناء هذه الامة ذات الطابع الخاص المتفرد المتميز وعنصرا قادرا على القيادة والانقاذ ، فالتصور الاعتقادى هو اداة التوجيه الكبرى ، الى جانب النظام الواقعي الذى ينبثق منه ، ويقوم على اساسه) .(١)

ويقول الدكتور بشير حاج التوم :(ان العقيدة وما ينبثق عنها من خلق وقيم هي الاساس الذى يقوم عليه البناء ، والقاعدة التي يقوم عليها صرح المجتمع. فاذا صحت الاسس واستقامت الموازين صح المجتمع كذلك واستقام)(٢) .

وكما قلت فان منهج الاسلام التغييرى هو منهج شامل لكل مناحي الحياة وفق منهج الاسلام وعلى اساس عقيدته الصحيحة الحقة ، ولذا فسأكتفي بالتحدث عن هذه الخطوط العريضة التي سبق وذكرتها . وان نسير وفق الخطة التي رسمها وسار عليها الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم عندما بنى خير امة اخرجت للناس ، وهذه شهادة رب العالمين وكفاها شهادة .

فالرسول عليه افضل الصلاة واتم التسليم ، عندما بعث في مكة ~~اصر~~ يدعو الناس الى التوحيد ونبذ الشرك والى قول لا اله الا الله محمد رسول الله ، فرفض كفار قريش ذلك وتأبوا عليه وبالغوا في ايذائه هو ومن معه ، ولكنه صبر وصابر ، وواصل تبليغ دعوة ربه ، عاملا على اصلاح قومه وتغيير حالهم عن طريق تغيير معتقداتهم الباطلة ومفاهيمهم الزائفة لانه يعلم ان الطريق الى ذلك انما هو صياغة النفوس وتغيير ما بها من انحراف في التصور والقيم والمعتقدات الباطلة الى عقائد الاسلام ومفاهيمه وتصوراته وقيمه الصحيحة.

وقد كانت هناك مشاكل جزئية تسود المجتمع العربي ، وكان من الممكن ان يقضي حياته كلها في اصلاحها ، ولكنه لم يقبل هذا الطريق ايضا ، وهو طريق الحلول الجزئية ، وانما اتى بيت الدعوة والاصلاح من بابه ، حيث كان خطابه للنفس البشرية ولتغيير ما بها من معتقدات باطلة وافكار فاسدة عن الله عز وجل .

---

(١) خصائص التصور الاسلامي ومقوماته سيد قطب ٦ دار الشروق الطبعة السابعة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م

(٢) التربية والمجتمع الدكتور بشير حاج التوم الطبعة الاولى ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م من سلسلة بحوث المؤتمر العالمي للتعليم الاسلامي مكة المكرمة ص ٧

وما يتبع ذلك من تصور عن الكون والانسان والحياة ، جاء ليغير هذا بافراد الله سبحانه وتعالى وحده بالربوبية والالوهية ، وجاء بتصور كامل وشامل وصحيح عن طبيعة النفس الانسانية والانسان بشكل عام وعن هذا الكون والحياة .

جاء ليحررهم من عبادة الارباب الى عبادة رب الارباب ، ومن عبادة بعضهم بعضا الى عبادة الله الواحد بلا شريك ، ومن عبادة الجبت والطاغوت الى عبادة الاله الرحيم الكريم الذى يكرم عباده ولا يهين بشريتهم ، وهو الذى كرمها وفضلها وجعل الانسان عامرا لهذه الارض ومكنه فيها وسخرها له .

وليحررهم من الانحصار في الدنيا الى الصورة الاكثر علوا واشراقا وامتدادا وفسحة ... الدنيا والآخرة في عقيدة واحدة ونظام واحد .

ويحررهم من ظلم بعضهم بعضا الى عدالة الله الحكم العدل ، بتحريرهم من شرائع البشر ومناهجهم الى شريعة الله ومنهجه ، يخضع لها الجميع في وقت واحد وبدرجة واحدة .

جاء كما لخص ربعي بن عامر الموقف في كلمات بليغة في مواجهة رستم قائد الفرس ، حين قال له رستم : ما ذا جاء بكم ؟ فقال : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله وحده ، ومن جور الاديان الى عدل الاسلام ، ومن ضيق الدنيا الى سعة الدنيا والآخرة .(١) .

وتوحيد الالوهية وتوحيد الاسماء والصفات هو مقتضى توحيد الربوبية ، فان ايمان المرء بالله على انه هو الرب الخالق الرازق المحيي المميت ينبغي ان يتبعه افراد هذا الرب وحده بالعبادة وتنزيهه في اسمائه وصفاته عن مشاركة غيره من المخلوقين المربوبين له .

ولكننا نرى ان كفار قريش وغيرهم من الامم المشركة لم يسيروا وفق هذا المنهج ، فقد كانوا يؤمنون بتوحيد الربوبية ويعتقدون بالرب الخالق ومع هذا لم يفردوه بالالوهية والعبادة ولم ينزهوه عن مشابهة خلقه ، بل دانوا بالالوهية وتقربوا بالعبادة لآلهة آخرين ، ومن هنا فإن الله سبحانه وتعالى - مع ايمانهم بربوبيته - لم يعتبرهم مؤمنين ، بل اعتبرهم

---

(١) منهج التربية الاسلامية - محمد قطب - ٣٣/١٢ .

مشركين حيث لم يفردوه وحده بالتأليه والعبادة ٠ (١)

(فاذا عرف العبد ربه وخالقه وانه مفتقر اليه ، عرف العبودية المتعلقة بربوبيته عز وجل ، وهذا العبد يسأل ربه ويتضرع اليه ويتوكل عليه ، لكن قد يطيع أمره وقد يعصيه ، وقد يعبده مع ذلك ، وقد يعبد الشيطان والاصنام - او غير ذلك من الالهة المزيفة - ومثل هذه العبودية لا تفرق بين اهل الجنة والنار ولا يصير الرجل مؤمنا كما قال تعالى : (وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون) ٠ (٢)

فهؤلاء الكفار سواء كانوا كفار قريش او غيرهم - ممن يؤمنون بالله في الربوبية فقط ولا يوحدونه في الوهيته ولا يعبدونه ، فانهم لم يعتبروا مؤمنين ، وهذه المعرفة ليست معتبرة لأنها معرفة ذهنية ليست هي المعرفة التي يريدها او يعترف بها الاسلام ، فانها معرفة سطحية وميتة لا تفعل شيئا في واقع الحياة ، ولا تؤثر شيئا في سلوك الانسان ، واذن فوجودها كعدمها سواء ٠٠ والمعرفة التي يعترف بها الاسلام ويكون الانسان فيها مؤمنا حقا ويكون بها الفرق بين اهل الجنة واهل النار هي المعرفة الحية التي تنبع من الوجدان فتنفعل بها النفس - فتغير النفس - كلها وتعطي تأثيرا معينا في السلوك الواقعي ٠ (٣)

---

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية للعلامة ابن العز الحنفي - حققها وراجعها جماعة من العلماء ، خرج احاديثها محمد ناصر الدين الالباني - المكتب الاسلامي - الطبعة الرابعة ١٣٩١ هـ - بيروت لبنان ص ٧٦ -٨١ ٠
وانظر سبيل الدعوة الاسلامية ٠ د ٠ محمد امين المصرى - دار الارقم - الكويت - الطبعة الاولى ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م ص ١٠
وانظر منهج التربية الاسلامية ٠ محمد قطب ، ٢/٣٠ ، ٣٧ - ٣٨ ٠

(٢) ١٠٦ : يوسف ، وانظر العبودية لشيخ الاسلام ابن تيمية ٤٨ ٠

(٣) منهج التربية الاسلامية - بتصرف - محمد قطب ٢ /٢٨ ٠

توحيد الله في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته :

فالمعرفة الحية النابضة الفاعلة للسلوك والمؤثرة فيه هي التي يريدها الاسلام ، وهي التي يطلق عليها علماء الاسلام توحيد ألالوهية ...أي افراد الله بالعبادة .

فالتوحيد المطلوب هو توحيد الالوهية الذى يتضمن توحيد الربوبية يقول تعالى :(منيبين اليه واتقوه واقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين)(١)

ويقول : (فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره) (٢).

والعبادة : اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الاقوال والاعمال الباطنة والظاهرة ، فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث واداء الامانة .. والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ...والاحسان للجار ...والدعاء والذكر وقراءة القرآن وأمثال ذلك من العبادة .

وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله والانابة اليه واخلاص الدين اليه والصبر لحكمه والشكر لنعمه والرضى بقضائه والتوكل عليه والرجاء لرحمته والخوف من عذابه وامثال ذلك هي من العبادة لله .

والعبادة هي الغاية المحبوبة له والمرضية له التي خلق الخلق لها كما قال تعالى : (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) (٣) . وبها ارسل جميع الرسل ، " فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره " (٤) .

فالدين كله داخل في العبادة وقد ثبت في الصحيح ان جبريل لما جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم في صورة أعرابي وسأله عن الاسلام قال :(الاسلام ان تشهد ان لا اله الا الله ، وان محمدا رسول الله وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتحج البيت ، ان استطعت اليه سبيلا . قال : فما الايمان؟ قال : ان تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت . وتؤمن

---

(١) ٣١ : الروم
(٢) ٥٩ : الاعراف ، وانظر العبودية لابن تيمية ١٥،١٦ وانظر شرح العقيدة الطحاوية ٨١
(٣) ٥٦ : الذاريات
(٤) ٥٩ : الاعراف ، وانظر العبودية لابن تيمية ٣٨ ـ ٣٩ .

بالقدر خيره وشره ، قال : فما الاحسان ؟ قال : ان تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) . (١) ثم قال في آخر الحديث هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم .

فدين الله : عبادته وطاعته والخضوع له . (١)

والعبادة اصلا معناها الذل . لكن العبادة المامور بها تتضمن معنى الذل ومعنى الحب ، فهي تتضمن غاية الذل لله بغاية المحبة له ...(٢)

والعبادة والطاعة والاستقامة ولزوم الصراط المستقيم ونحو ذلك من الاسماء مقصودها واحد ولها أصلان :-

أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا ، وعلى ان يعبده بما شرعه على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم ، وهذان هما حقيقة قولنا (اشهد ان لا اله الا الله ، واشهد ان محمدا رسول الله) ، فالاله هو الذى تؤلهه القلوب عبادة واستعانة ومحبة وتعظيما وخوفا ورجاء واجلالا واكراما ، والله عز وجل له حق لا يشركه فيه غيره فلا يعبد الا الله ولا يدعى الا الله ، ولا يخاف الا الله ، ولا يطاع الا الله ، (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) (٣)

والرسول صلى الله عليه وسلم هو المبلغ عن الله تعالى أمره ونهيه وتحليله وتحريمه ، فالحلال ما حلله والحرام ما حرمه والدين ما شرعه ، ... فعلينا ان نصدق بخبره ونطيع امره ونعبد الله بما شرع لا نعبده بغير ذلك من الاهواء والظنون والبدع .

ففي الاولى ان لا نعبد الا اياه سبحانه وفي الثانية ان نعبده بما شرع لنا (٤) .

والعبادة ليست مقصورة على المعاني التعبدية - التي ذكرتها آنفا - وانما هي معنى شامل وواسع ، يشمل دقائق الحياة وتفصيلاتها ، ويشمل كل عمل وكل فكر وكل شعور حتى لو كان من مقتضى عمارة الارض وكسب الرزق وتحصيل

---

(١) المرجع السابق ٤٣ . الحديث اخرجه الامام مسلم كتاب الايمان باب بيان الايمان والاسلام والاحسان ... ١ / ٣٧ - ٣٨

(٢) المرجع السابق ٤٤

(٣) ١١٠ : الكهف

(٤) انظر مجموع الفتاوى لشيخ الاسلام ٣٦٥/١ . و العبودية لابن تيمية ١٧٠

العلم ومعرفة سنن الله في الكون والاستفادة منها في شئون الحياة الى غير ذلك من الاعمال ما دام يقصد بكل ذلك وجه الله وفق منهجه ·(١)

وجملة القول في العبادة :(انها الخوف من الله في كل شأن من شئون الحياة ، وفي كل حين من الاحيان ، وجعل مرضاة الله نصب عين الانسان ، واتباع شرعه (قانونه) ، ورفض لكل منفعة ينالها الانسان او يمكن ان ينالها بمعصية الله ، والصبر على كل مضرة تصيب العبد او يمكن ان تصيبه بطاعة الله ، هذا كله من عبادة الله وحياة العبد بهذا الطريق من اولها الى آخرها عبادة)·(٢)

وبهذا المفهوم فإن فرائض الاسلام التعبدية ليست الا جزءا من مفهوم العبادة الشامل لكل مناحي الحياة ، ومهمة هذه الفرائض هي تزويد الانسان بالطاقة لعبادته الشاملة ، وبمثابة تربية واعداد للعبادة الشاملة (٣) ·

فـ (الصلاة والصيام والزكاة والحج وسائر الشعائر التعبدية ، ان هي الا مفاتيح ··· مجرد مفاتيح للعبادة ، او محطات يقف عندها السائرون في الطريق يتزودون بالزاد · ولكن الطريق كله عبادة ، وكل ما يقع فيه من نسك او عمل ، او فكر او شعور فهو بمثابة عبادة كذلك ··· ما دامت وجهته الى الله ، وما دام قد شهد حقا - لا باللسان - ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله ، واقام حياته كلها وواقعه على هذا الاساس·

والعبادة بهذا المعنى تشمل الحياة ·

انها لا تقتصر على اللحظات القصيرة التي تشغلها مناسك التعبد وما كان هذا هو القصد من الاية الكريمة (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون)(٤) والا فما قيمة لحظات عابرة في صفحة النفس وفي صفحة الكون ، لا تكاد تترك لها أثرا وتضيع في الفضاء ؟

---

(١) انظر منهج التربية الاسلامية - محمد قطب - ١٤/١

(٢) مبادئ الاسلام ابو الاعلى المودودى ١٢٩ اصول

(٣) انظر مبادئ الاسلام ابو الاعلى المودودى ١٣٠ ، وانظر التربية الاسلامية عبد الرحمن النحلاوى ٤٣

(٤) الذاريات : ٥٦

(انما قيمتها ان تكون منهج حياة يشمل كل الحياة ، قيمتها ان تكون خطة سلوك وخطة عمل وخطة فكر وخطة شعور ، قائمة كلها على منهج واضح يتبين فيه - في كل لحظة - ما ينبغي وما لا ينبغي أن يكون)(١).

لقد تحدثت فيما سبق - بشيء من الايجاز - عن توحيد الله عز وجل في الربوبية وتوحيده في الالوهية ، وبقي ان اتحدث بشيء من الايجاز عن توحيد الاسماء والصفات ، فمذهب السلف الصالح وأئمة المسلمين وما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه هو (ان يوصف الله بما وصف به نفسه ، وبما وصفته به رسله نفيا واثباتا ، فيثبت لله ما أثبته لنفسه ، وينفي عنه ما نفاه عن نفسه .

وقد علم ان طريقة سلف الامة وأئمتها اثبات ما أثبته من الصفات من غير تكييف ولا تمثيل ، ومن غير تحريف ولا تعطيل .

وكذلك ينفون عنه ما نفاه عن نفسه ، مع اثبات ما اثبته من الصفات من غير الحاد : لا في اسمائه ولا في آياته ، فان الله ذم الذين يلحدون في اسمائه وآياته ، كما قال تعالى : (ولله الاسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في اسمائه سيجزون ما كانوا يعملون) . (٢)

فطريقتهم تتضمن اثبات الاسماء والصفات ، مع نفي مماثلة المخلوقات اثباتا بلا تشبيه ، وتنزيها بلا تعطيل ، كما قال تعالى :(ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) (٣) ، ففي قوله تعالى (ليس كمثله شيء) رد للتشبيه والتمثيل ، وقوله (وهو السميع البصير) رد للالحاد والتعطيل ..

والله سبحانه وتعالى : بعث رسله (باثبات مفصل ونفي مجمل) فاثبتوا لله الصفات على وجه التفصيل ، ونفوا عنه ما لا يصلح له من التشبيه والتمثيل)(٤) كما قال تعالى : (فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا) (٥)

---

(١) منهج التربية الاسلامية ٣٤/١ وانظر نحو انسانية سعيدة ١٧٢ وانظر العبودية لشيخ الاسلام ابن تيمية ٣٨ ، ٤٣ ، وغيرها .
(٢) ١٨٠ : الاعراف
(٣) ١١ / الشورى
(٤) مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية ٣/ ٣-٤
(٥) ٦٥ : مريم

وقال تعالى : (لم يلد ولم يولد ولم يكن لـه كفـوا أحـد) (١)
وأما الاثبات المفصل : فانه ذكر من اسمائه وصفاته ما انزل في محكم آياته كقوله تعالى: (الله لا اله الا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الارض من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه الا بما شاء .... وهو العلي العظيم) (٢) ، وقوله تعالى : (قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد) (٣) ، وقوله تعالى :(وهو العلي الحكيم) (٤) وقوله :(ان الله عليم قدير) (٥) وقوله :(وهو السميع البصير) (٦) وقوله :(وهو العزيز الحكيم)(٧) وقوله :(وهو الغفور الرحيم) (٨) وقوله :(وهو الغفور الودود ذو العرش المجيد فعال لما يريد) (٩) ، وقوله :(هو الله الذى لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ، هو الله الذى لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون ، هو الله الخالق البارئ المصور له الاسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والارض وهو العزيز الحكيم) (١٠) ، وقوله تعالى : (رضي الله عنهم ورضوا عنه) (١١) ، وقوله عز من قائل :

---

(١) ٣ ـ ٤ : الاخلاص
(٢) ٢٥٥ : البقرة
(٣) سورة الاخلاص
(٤) ٨٣ : يوسف
(٥) ٧٠ : النحل
(٦) ١١ : الشورى
(٧) ١٨ : آل عمران
(٨) ١٠٧ : يونس
(٩) ١٤ ـ ١٦ : البروج
(١٠) ٢٣ ـ ٢٤ : الحشر
(١١) ١١٩ : المائدة

(انما امره اذا اراد شيئا ان يقول له كن فيكون)(١)

الى امثال هذه الايات ، والاحاديث الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم في اسماء الرب تعالى وصفاته .(٢)

وان الايمان بالله عز وجل وتوحيده في ربوبيته والوهيته واسمائه وصفاته على نحو ما وصفت ليؤثر في النفس تأثيرا عميقا ، ان هذه العقيدة تنفذ الى باطن الانسان واعماق نفسه فتغير محاور الثقل في النفس وتجعلها كلها لله .

فالانسان عندما يؤمن بان هناك الها واحدا هو الخالق وهو الرازق وهو الذى بيده ملكوت كل شيء ، ويؤمن ايمانا لا يخالجه شك انه هو وحده الذى يستحق العبادة لا احد سواه ، فعندما يتحرر الانسان من كل الارباب الزائفة ، يتحرر من اله الشهوة ، يتحرر من اله المادة ، يتحرر من اله الطاغوت ، يتحرر من كل شيء ، فعبودية الانسان لربه هي مصدر عزته وحريته فان الانسان بطبعه وفطرته لا بد له من اله يؤلهه ، فاذا جعل الله هو الهه ، فان الالهة الاخرى تنجاب وتزول من نفسه ، واذا لم يفرد الله بالالوهية ولم يؤمن به فلا بد ان يعبد شيئا ما فيعبد الدرهم والدينار والخميصة والقطيفة ، يعبد الجنس ، يعبد الشهوة ، يعبد الشجر يعبد الحجر يعبد الانسان يعبد شيئا ما ، لان الانسان (له ارادة دائما ، وكل ارادة فلا بد لها من مراد تنتهي اليه فلا بد لكل عبد من محبوب هو منتهى حبه وارادته ، فمن لم يكن الله معبوده ومنتهى حبه وارادته ، فان استكبر عن ذلك ، فلا بدكون له مراد محبوب يستعبده غيره ، فيكون عبدا لذلك المراد المحبوب ، اما المال واما الجاه ، واما الصورة ، واما مايتخذه الها من دون الله كالشمس والقمر والكوكب ... او غير ذلك مما عبد من دون الله) .(٣)

---

(١) يس : ٨٢ .
(٢) مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية ٣ / ٣ ـ ٧ بتصرف يسير .
(٣) العبودية لابن تيمية ١١١ ـ ١١٢ .

(وان المخلص لله ذاق من حلاوة محبته ما يمنعه عن محبة غيره ، اذ ليس عند القلب السليم احلى ولا الذ ولا اطيب ولا اسر ولا انعم من حلاوة الايمان المتضمن عبوديته لله ومحبته له واخلاص الدين له ، وذلك يقتضي انجذاب القلب الى الله ، فيصير القلب منيبا الى الله ، خائفا منه راغبا راهبا كما قال تعالى : (من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب) (١) ، اذ المحب يخاف من زوال مطلوبه ، او حصول مرغوبه ، فلا يكون عبدا لله الا بين خوف ورجاء كما قال تعالى : (أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة ايهم اقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ان عذاب ربك كان محذورا) (٢) .

واذا كان العبد مخلصا لله اجتباه ربه فأحيا قلبه واجتذبه اليه فينصرف عنه ما يضاد ذلك من السوء والفحشاء ، ويخاف من حصول ضد ذلك ، بخلاف القلب الذى لم يخلص لله ، فان فيه طلبا وارادة وحبا مطلقا فيهوى كل ما يسنح له ويتشبث بما يهواه كالغصن ، اى نسيم مر به عطافه وأماله ، فتارة تجتذبه الصور المحرمة ، وغير المحرمة فيبقى اسيرا عبدا ، لمن لو اتخذه هو عبدا له لكان ذلك عيبا ونقصا وذما !!

وتارة يجتذبه الشرف والجاه فترضيه الكلمة وتغضبه الكلمة ويستعبده من يثني عليه ولو بالباطل ويعادى من يذمه ولو بالحق ...

وتارة يستعبدهم الدرهم والدينار وامثال ذلك من الأمور التي تستعبد القلوب ، والقلوب تهواها ، فيتخذ الهه هواه ، ويتبع هواه بغير هدى من الله) . (٣)

(ومن لم يكن خالصا لله ، عبدا له ، قد صار قلبه معبدا لربه :وحده لا شريك له ، بحيث يكون الله أحب اليه من كل ما سواه .

---

(١) : ٣٣ : ق .

(٢) ٥٧ : الاسراء

(٣) العبودية لابن تيمية ١٤١ ـ ١٤٢

ويكون ذليلا له خاضعا ، والا استعبدته الكائنات واستولت على قلبه الشياطين ، وكان من الغاوين اخوان الشياطين ، وصار فيه من السوء والفحشاء ما لا يعلمه الا الله .

وهذا أمر ضروري لاحيلة فيه .

فالقلب ان لم يكن حنيفا مقبلا على الله معرضا عما سواه كان مشركا (فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون، منيبين اليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين،من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون) (١)

... وهكذا حال من كان متعلقا برئاسة ، او صورة او نحو ذلك من أهواء نفسه ، ان حصل له رضي ، وان لم يحصل له سخط ، فهذا عبد ما يهواه من ذلك وهو رقيق له ، اذ الرق والعبودية في الحقيقة هو رق القلب وعبوديته ، فما استرق القلب واستعبده فالقلب عبده ، ولهذا يقال :

العبد حر ما قنع   والحر عبد ما طمع

وقال القائل :

أطعت مطامعي فاستعبدتني   ولو اني قنعت لكنت حرا (٢)

من هذا التحليل النفسي الرائع لابن تيمية ، ندرك تماما ان الايمان بالله طريق الحرية ، وان الكفر بالله او الاشراك به طريق العبودية والاستعباد لمن لا يستحق العبادة .

ويصل الى هذه الحقيقة الدكتور سعيد رمضان البوطي (٣) ، ثم يقول بعد ذلك : (فان غمت عليك رؤية هذه الحقيقة ، في ربوع الغرب الاوروبي حيث يشيع فيها ما يسمى بالحرية والديمقراطية والحديث عن

---

(١) ٣٠ _ ٣٢ : الروم

(٢) العبودية لابن تيمية ٨٧ _ ٨٩

(٣) انظر منهج الحضارة الانسانية في القرآن الكريم الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ٥٢ _ ٦٠

قيمة الانسان وحقوق الانسان ، فانتبه الى الاله الذى تعنو جباههم بالخضوع لسلطانه ، الا هو اله المادة واللذة ٠٠٠) (١)

(ولنحاول الان ان نلقي نظرة في داخل قلب آمن بالله ، كيف صنعت العقيدة في ذلك القلب ، وكيف أثرت في سلوكه العملي ـ وكيف تصنع في النفوس وفي السلوك في كل وقت وكل حين ، فالعربي قبل ايمانه بالله كانت له ارباب كثيرة من ربوبية الاصنام المعبودة ، وربوبية القبيلة وربوبية الموروث عن الاباء والاجداد ، وربوبية الشهوات ٠

ثم آمن ٠

أى انقلاب هائل حدث في نفسه لحظة ايمانه ؟!

انه في الحق ـ أعظم انقلاب يمكن ان يحدث في القلب البشرى ٠٠٠ بل في الكون كله ٠

انه لتوه ـ قد أزاح عن قلبه ربوبية كل الارباب ٠٠٠ حين عرف رب الارباب ٠٠

في لحظة انجابت الغاشية ، ورأى الامير على حقيقته ٠٠ انه لا وجود البتة لكل تلك الارباب التي كانت تستعبده من قبل وتخضعه لسلطانها !

انها وهم هائل كان يعيش في نفسه وفي خياله ، ويفعل فعله الكامل كانه ذو وجود حقيقي ، بينما هو في الحقيقة غير موجود !

واله واحد هو الاله الحق ، وهو صاحب هذا الكون كله ، وصاحب الوجود الحقيقي بين كل الارباب المدعاة ٠

وفي لحظة ٠٠٠ لحظة الايمان ٠٠٠تنجاب من خانة العبادة في النفس كل تلك الالهة المزيفة ويلقي بها في العدم ، وتملأ الخانة في التو عبادة واحدة مضيئة ٠٠ عبادة الله ٠

٠٠٠ وتغير اثر ذلك السلوك فلا توجه الى تلك الالهة في العبادة ، والتوجه كله لله ٠) (٢)

وفي توحيد الله وعبادته تحقيق وحدة النفس الانسانية حيث تتبع الها واحدا ، وتؤمن بإله واحد ، بدلا من ان تكون النفس متشتتة مضطربة

---

(١) المرجع السابق ٦٠ ـ ٦١

(٢) منهج التربية الاسلامية ٢ / ٣٢ ـ ٣٣ بتصرف يسير

بين آلهة كثيرة ، فيحدث الاضطراب والقلق والحيرة (ضرب الله مثلا : رجلا فيه شركاء متشاكسون ، ورجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا ؟ الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون) (١)

(فشبه النفس الموحدة لربها بالعبد الذى يملكه رجل واحد ، فجميع تصرفات هذا العبد تأتي حسب رغبة سيده ، وبهذا تهدأ نفسه ... اما العبد الذى يملكه عدة شركاء متشاكسون ، فلا يؤمن ان يتصرف اليوم على نمط يعاكس تصرفاته بالامس فتبقى نفسه نهبا للمخاوف والهواجس) (٢)

ولذا فان الانسان الذى لا يعبد الله وحده يكون في تعاسة وشقاء كما اخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال :(تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة : ان اعطي رضي وان لم يعط سخط ، تعس وانتكس واذا شيك فلا انتقش ..) (٣)

فذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فيه دعاء وخبر ، فهو يخبر ان الذى يعبد المال في تعاسة وكذلك يدعو عليه بذلك . (٤)

وكلمة الايمان اذا امتلأ قلب المؤمن بها ، قوة وجرأة وشجاعة لا يخاف ولا يجبن ، لانه يعتمد في ذلك على القوى ، ولانه يخاف الله فيأمن من غيره ، فخوفه من الله يملأ قلبه جرأة وقوة على من عداه ، لأنه لم يعد في قلبه خوف حقيقي الا من الله . وهكذا فان المؤمن يكون جريئا في قول كلمة الحق شجاعا في ميادين الحرب لانه يعلم ان الأمور كلها بيد الله وان اجله ورزقه محدد من الله (٥)

وان الايمان بالله الواحد يولد الاعتقاد بمساواة البشر افرادا وجماعات وأمما ، فالبشر كلهم عباد الله ، وكلهم من خلق الله ، فهم اذن متساوون ، وان هذا الايمان الذى جعله الاسلام بوسائل كثيرة عميقا في النفس ، هو قوة فعالة تجعل المسلم يندفع ويجاهد في هذه الحياة لإقامة موازين العدل بين الناس (٦) .

---

(١) ٢٩ : الزمر
(٢) اصول التربية الاسلامية لعبد الرحمن النحلاوى ٧٥
(٣) اخرجه البخارى كتاب الجهاد باب الحراسة في الغزو ٦ / ٨١
(٤) انظر العبودية لشيخ الاسلام ابن تيمية ٨٧
(٥) انظر اصول التربية الاسلامية عبد الرحمن النحلاوى ٧٧ ، وانظر مبادئ الاسلام ابو الاعلى المودودى ٩٢ ـ ٩٣ ، العقائد الاسلامية سيد سابق ٨٢ ـ ٨٦ ، مدخل الى التصور الاسلامي عابد الهاشمي ١٣٠
(٦) نحو انسانية سعيدة ١٠٠

والايمان يرفع من قوى الانسان المعنوية ، ويربطه بمثل اعلى ، وهو الله مصدر الخير ، والبر والكمال .

وبهذا يسمو الانسان عن الماديات ، ويرتفع عن الشهوات ، ويستكبر عن لذائذ الدنيا ويرى ان الخير والسعادة في النزاهة والشرف ، وتحقيق القيم الصالحة ... ومن ثم يتجه المرء اتجاها تلقائيا لخير نفسه ، ولخير امته ولخير الناس جميعا .(١)

وان الايمان بالله يجنب البشرية التصارع والتنافس ، لان التناحر والصراع بين البشر انما يكون عندما لا يكون هدف واحد مشتركا بين الجماعات ، وليس من هدف مشترك ثابت خالد ترتبط به البشرية كلها وترتفع به نحو المثل الاعلى الا الايمان بالله ، وبذا يندفع الناس للتعاون والتعارف .(٢)

وان ايمان الانسان بان هناك الها قادرا يحاسبه على اعماله ويجازيه بها يجعله ملتزما باحكام الله فلا يظلم ولا يسرق ... لانه يخاف الله ، ويصدق ويتصدق ويتعاون لانه يحب الله ويحب ثوابه وجنته .(٣)

وان المؤمن اذا آمن بالله عظمه واذا عظمه فانه يغضب لله عز وجل اذا انتهكت محارمه ، ويجد في قلبه حزنا اذا عصى الله في ارضه ، ولم يطعه باقامة حدوده واوامره ، ولم يستطع هو ان يغير ذلك .(٤)

وان الايمان باسماء الله وصفاته يجعل الانسان يتأثر بهذه الصفات ، ويجعلها نبراسا يستنير بها ، ويتخذها مثلا اعلى حتى يصل الى اقصى درجات السمو النفسي والارتقاء الروحي .

فالله رب العالمين : وهذا مثل اعلى ، فيندفع الانسان ليربي نفسه ويربي ابناءه ومن حوله .

والله تعالى رحيم فتنطبع نفسه بالرحمة لمن يستحقها ، والله هو القوى العزيز ، فيصبح المؤمن قويا عزيزا وهكذا بقية الصفات والاسماء .(٥)

---

(١) انظر مبادئ الاسلام ابو الاعلى المودودى ٩٧ .
(٢) انظر نحو انسانية سعيدة ١٠٧ .
(٣) انظر مبادئ الاسلام ابو الاعلى المودودى ٩٩
(٤) انظر الوابل الصيب لابن قيم الجوزية ٣٥ .
(٥) اصول التربية الاسلامية ٧٤-٧٥ ، وانظر العقائد الاسلامية سيد سابق ٧٠-٧٣

والايمان بالله وعقيدة التوحيد تربي عقل الانسان على سعة النظر وحب الاطلاع فان هذا الكون كله ملك لله ٠

وبالتوحيد وافراد الله بكل صفات الالوهية يبتعد المؤمن عن التعلل بالامال الكاذبة فلا تنفع شفاعة الشافعين الا لمن يأذن الله له ويرضى ٠

وافراد الله بالعبودية وعبادته الحقة تجعل الانسان دائما مراقبا لله في اعماله خائفا من ان يقع فيما حرم الله فتستقيم حياة البشر جميعا ، لان الذى ينظم جميع اعمال العباد هو الله عز وجل وفق شريعته التي انزلها على محمد صلى الله عليه وسلم ٠

والعبادة لله تنمي الشعور بالجماعة ، ويشعر بانه فرد فيها يربطه بها ايمانه بالله واوامر الله له بالعمل لخيرها وسعادتها ، فيعمل لسعادتها وصلاحها فيسعد المجتمع وينمو ٠

والعبادة تزود الانسان بشحنات متتالية من القوة المستمدة من قوة الله والثقة المستمدة من ثقة الله ، والامل بالمستقبل القريب والبعيد ، والامل بنصر الله وثواب الجنة ، والوعي والنور المستمد من نور الله ...(١)

وان لكل شعيرة من شعائر التعبد اثرا في النفس ، ومن ثم في الواقع ، فالصلاة تربط القلب البشرى بالله ، وتربط تلك الذرة الضئيلة الفانية بقوة الازل والابد ، فتقتبس منها النور والقوة والثبات و(الوجود)

(يدخل في تلك اللحظات العلوية العجيبة التي يتفتح لها القلب – حين يتفتح – فاذا هو ينتقل من حدود الحس الضيقة ، وينتقل من حدود الارض ، وينتقل من حدود (الواقع) وينتقل عن (المعلوم) كله والمنظور ٠٠ الى ذلك العالم الذى لا حدود له ترى ولا غاية تدرك ولا ملمس يحس ! عالم النور الغامر الذى ليست له حدود ٠ النور الذى تدركه الارواح وتنهل منه الارواح ٠(٢)

---

(١) انظر اصول التربية الاسلامية عبد الرحمن النحلاوى ٥١–٥٥ ٠
(٢) منهج التربية الاسلامية ٦٤/١ ٠

(الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ٠ المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة ، زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء)(١) ٠

فالصلاة معراج روح المؤمن الى ربه يتصل به ويناجيه ، وهذا الاتصال ينشيء في نفس المؤمن الخشية من الله والحب له ، فلا يرتكب لله محرما ويفعل الطاعات بنفس منشرحة واقبال شديد ، فتنمي في المؤمن روح الجماعة وتنشئ في النفوس الاخوة والحمية والاتحاد ، وتربي النفس على الطاعة حيث يطيعون اماما من بينهم ، تربيهم على النظام والانضباط والمحافظة على الاوقات ٠٠٠(٢)

فالصلاة ربيع قلب المؤمن وحياة له وراحة وقرة لعينه وجلاء لحزنه ونهاب لهمه وغمه ، ومفزع له اليه في نوائبه ونوازله ٠(٣)

والصيام عندما يكون خالصا لوجه الله مدركا حقيقته وهو انه صيام النفس من الداخل فيشعر بان كل حركة وسكنة يفعلها خاصة في هذا الشهر ينبغي ان تكون نظيفة طاهرة حينئذ يمتلئ القلب تقوى ، وتنطلق الروح في آفاق عالية ٠(٤)

والصوم ينشيء في النفس ويربيها على الصبر ، صبر على المصاعب والشدائد وصبر عن الشهوات والمطامع وصبر على الطاعة والتقرب ٠ ويبعث في النفس الرحمة فيندفع لاطعام المساكين وسد خلة المحتاجين ، فتعم الطاعات ويكثر فعل الخيرات وتفتح ابواب الجنان وتوصد ابواب النيران ٠(٥)

وفي الصوم تخل عن الخضوع لغريزة الجسم ، واعلان لسلطان الارادة وقبول الحكم لله ، وتمرد على العادات اليومية المطردة ،٠٠٠(٦)

---

(١) ٣٥ : النور
(٢) انظر مبادئ الاسلام ابو الاعلى المودودى ١٣٤ ٠
(٣) كتاب الصلاة لشمس الدين محمد بن ابي بكر المعروف بابن قيم الجوزية ضمن مجموعة الحديث مكتبة الرياض الحديثة الطبعة الخامسة ٥٨١ ٠
(٤) انظر منهج التربية الاسلامية محمد قطب ٦٥/١ ٠
(٥) انظر مبادئ الاسلام ابو الاعلى المودودى ١٣٦ ٠
(٦) انظر نحو انسانية سعيدة محمد مبارك ١٦٦-١٦٧ ٠

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اجود الناس ، وكان اجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل ، وكان جبريل يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن ، فلرسول الله صلى الله عليه وسلم حين يلقاه جبريل اجود بالخير من الريح المرسلة)(١)

(والزكاة تطهير من شح النفس واطلاق للروح من الاثرة البغيضة التي تحس بوجودها وحدها ولا تحس بالآخرين ، انها احساس بالاخوة النبيلة التي تجمع الاسرة البشرية الواحدة ، فاذا كلها قريب من قريب ، وكل فرد فيها ذو رحم مع الآخرين ، الاخوة التي تخرج بالانسان عن الشعور بالملك فيما يمتلك ، فليس هناك ملك خالص في الاسرة الواحدة ، وانما الناس شركاء في الخير ، اصلاء في رزق الله العميم)(٢) مصداقا لقوله تعالى : (خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها)(٣) (فالصدقات تطهر انفس الافراد من ارجاس البخل ، والدناءة والاثرة والطمع والجشع ، وتبعدهم عن اكل اموال الناس بالباطل من خيانة وسرقة وغصب وربا وغير ذلك ؛ فان من يتعود انفاق بعض ما في يده ... في سبيل الله وابتغاء مرضاته ومغفرة ذنوبه - يكون ارفع نفسا من ان يأخذ مال غيره بغير حق ، واذا طهرت انفس الافراد ... طهرت جماعة المؤمنين من ارجاس الرذائل الاجتماعية التي هي مثار التحاسد والتعادى والتباغض والعدوان والفتن والحروب)(٤). فالمال قوام الحياة فهو مثار التنازع ، ومن هنا يكون الاسلام وسيلة سلام فلا حرب ولا خصام .

والحج عبادة تذكر الانسان بربه وترتفع فيها النفوس البشرية عن ملابسات الارض وتتجرد لله خالصة ، ويحس بالشفافية العالية وهو يصلي حيث صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقبل الحجر الاسود كما قبله رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبله عمر وغيره من المؤمنين فيلتقي بهم وهو بعيد عنهم !!

---

(١) متفق عليه اخرجه البخاري بنحوه كتاب الصوم باب اجود ما كان النبي صلى الله عليه وسلم فتح الباري بشرح صحيح البخاري ١١٦/٤ واخرجه مسلم بنحوه كتاب الفضائل باب كان النبي صلى الله عليه وسلم اجود الناس بالخير... ١٨٠٣/٤

(٢) منهج التربية الاسلامية ٦٥/١-٦٦ .

(٣) ١٠٣ : التوبة .

(٤) تفسير المراغي ١٨/١١ .

وتذكره باليوم الآخر وقد رأى الناس جميعا يلبسون ثيابا بيضا يضرعون الى الله كل يسأل الله حاجته ، وهذه الافواج التي تأتي في كل عام يتغيرون ويذهبون ويموتون ولكن الله حي لا يموت .

ويشعر الانسان المؤمن بأصالته في هذا الوجود وبصلته باخوانه المؤمنين من قبله ، فيدرك ان المؤمنين امة واحدة فتنتمي فيه روح الجماعة ، وهو يؤدى اعماله كلها في جماعة فيشعر بارتباطه العضوى فيهم ويشعر بحبه فيدفعه ذلك الى مساعدتهم ومعاونتهم ويدفع المسلمين الى الاتحاد والتعاون والتحابب .

يتذكر المؤمن ابراهيم واسماعيل فيتذكر تضحيته بفلذة كبده فيضحي بكل ما يملك في سبيل الله .

يتذكر هاجر وابنها اسماعيل وهي تبحث عن الماء لوليدها وتنقطع امامها السبل ولكن الله قريب من المؤمنين ، فتحصل للمؤمن الثقة بالله والتوكل الحق ... فلا يسأل الا الله ولا يلجأ الا اليه ...

انها معان تهز الوجدان وتملأ القلب روعة وجلالا واعظاما لرب السموات والارض ، الى غير ذلك من المعاني ...(١)

وهكذا فان العبادة تصل القلب بالله حبا وخشية ومراقبة وتطلعا ولجوءا ، وهذه الصلة بالله بهذا الشكل تنتج آثارا رائعة كما ذكرت بالاضافة الى تلك الآثار التي ذكرتها ، فانها تثمر الاحساس الحي بالصلة الوثيقة بين الانسان والكون ...

ومن ثمارها حب الحياة في جميع الاحياء حتى في الاعداء لتزيل الشر من نفسها وعن الانسانية ، وعندما يكون الحب هو الاصل والصراع طارئ فانه لا يلبث ان يزول الصراع ويحل السلام ويزول التباغض .

ومن ثمارها الاستعلاء على دفعة الجسد وموازنة ثقل الارض ...

---

(١) انظر في هذه المعاني منهج التربية الإسلامية محمد قطب ١/٦٦ـ٦٧ ، نحو انسانية سعيدة ١٩٦ـ٢٠٤، مبادئ الاسلام ابو الاعلى المودودى ١٤٢ـ١٤٤ .

ومن ثمارها الاستعلاء على كل قوة في الارض .. فما وزن هذه القوى ازاء قوة الله؟ لا شيء البتة على الاطلاق ... فيستمد المؤمن العابد قوته من الله تجاه القوى المادية وتجاه اعدائه .(١)

ومن ثمارها تهيئة النفوس للجهاد والنضال في معارك الحياة كلها ...

ومن ثمارها ان يتدرج الانسان في طريق الكمال الروحي الذى لا يحده الموت ولا ينتهي في حدود الارض ...(٢)

هذه هي بعض ثمار الايمان بالله وآثاره في النفس حين توحد الله في ربوبيته والوهيته واسمائه وصفاته ، وما ينتج عن هذا الايمان في واقع الناس ودنياهم . وكما قلت ان توحيد الله يستلزم الايمان بملائكته وكتبه ورسله وبالقضاء خيره وشره من الله .والتي لا يتم ايمان العبد الا بايمانه بها جميعا وان لكل ركن من اركان الايمان ، حين تؤمن به النفس وتصدق به اثر كبير فيها ، ومن ثم اثر كبير في السلوك .

الايمان بالملائكة :

فعندما يؤمن الانسان بان هناك مخلوقات خلقها الله لعبادته وطاعته ، وهم الملائكة الذين (لا يعصون الله ما امرهم ويفعلون ما يؤمرون).(٣)

هذا الايمان يؤهلهم ليكونوا متقين لان الايمان بالغيب - وهؤلاء جزء منه - من صفات المتقين (ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين.الذين يؤمنون بالغيب)(٤) ، وبذا جنبنا الله الوقوع في الشرك والاوهام التي وقع فيها من لا يؤمنون بالغيب(٥).

وان المؤمن عند ايمانه بان هناك مخلوقات فطرت على طاعة الله يحفزه ذلك لتحقيق العبودية الحقة لله والكاملة له سبحانه وتعالى (٦) .

---

(١) انظر منهج التربية الاسلامية ٦٧/١-٧٤ .
(٢) نحو انسانية سعيدة ١٦٢-١٦٣ .
(٣) ٦ : التحريم
(٤) ٢-٣ : البقرة
(٥) انظر مبادئ الاسلام ابو الاعلى المودودى ٩٩ وانظر الايمان محمد نعيم ياسين ٤٦ .
(٦) انظر اصول التربية الاسلامية عبد الرحمن النحلاوى ٨٢ .

وان ايمان المؤمن بوجود الملائكة التي تسجل كل ما يعمل (ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد)(١) يجعله يستحي من الله ومن جنوده ان يعصي اوامر الله ، او ان يقع فيما حرم الله ، لان الملائكة لا يفارقونه يسجلون كل حركة وكل سكنة له .

وهذه الملائكة جنود من جنود الله تحفظ المؤمن وترعاه وتحرسه وتعاونه وتثبته ان احتاج اليها ، فمن كان الله معه والملائكة تحرسه وتؤيده فممن يخاف وممن يخشى ؟! (اذ يوحي ربك الى الملائكة اني معكم فثبتوا الذين آمنوا)(٢) .

وان شعور المؤمن بان هناك ملائكة تحفظه وتدعو له (الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ، ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم)(٣) يجعله يشعر بعزته وكرامته ومقدار منزلته عند الله ، فلا يهينها بالكفر بالله ومعصيته .(٤)

الايمان بالكتب المنزلة

ومن اركان الايمان ، الايمان بكتب الله التي انزلها على انبيائه لهداية البشرية .

والمؤمن عندما يؤمن بذلك يدرك مقدار كرامة الانسان على الله حيث لا يترك بدون وحي يسدد خطاه ، ويتصل بركب انبياء الله والمؤمنين الذين آمنوا بتلك الكتب .

وعندما يؤمن المؤمن بان كتاب الله الاخير للبشرية هو القرآن الكريم ـ الذي انزله الله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ـ يقبل على كتاب الله يتلو آياته ويتدبر ويفكر فيها ويطبق ما جاء فيها من احكام وامور جاءت لهدايته وسعادته ، فالايمان بان القرآن وحي من عند الله هو الذى يجعله مقوما لحياة

---

(١) ١٨ : ق
(٢) ١٢ : الانفال
(٣) ٧ : غافر
(٤) انظر في اثر الايمان بالملائكة اصول التربية الاسلامية ٨١ـ٨٢ ، الايمان محمد نعيم ياسين ٤٦ـ٤٧ ، مبادئ الاسلام ابو الاعلى المودودى ٩٩، العقائد الاسلامية ١٢٥ـ١٢٦ .

الفرد والمجتمع (١) (قرآنا عربيا غير ذى عوج لعلهم يتقون)(٢) (ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين)(٣) ويربي عواطف الانسان ومشاعره ليبقى خاشعا لله فرحا بمناجاته محبا لآياته (٤) (الله نزل احسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء)(٥) .

واما الايمان بالرسل : فالله سبحانه وتعالى ارسل رسلا مبشرين ومنذرين وما من امة الا وقد خلا فيها نذير ، وايماننا بهذا يجعل النفس تطمئن الى انها تسير على الجادة المستقيمة ، لان كل الرسل دعوا اقوامهم الى عبادة الله وحده، وترك الشرك (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره (٦) دعوة واحدة ترددت على لسان انبياء الله جميعا عليهم السلام .

وان في سير هؤلاء الانبياء واخلاقهم وما حدث معهم لعبرا ودروسا للمؤمن .

وعندما يؤمن بأن آخر رسل الله الى البشر هو محمد بن عبد الله عليه افضل الصلاة واتم التسليم ، فانه يشعر بسعادة غامرة كلما اقتدى بامر من اوامره (٧) ، ويشعر بضرورة اتباعه وتنفيذ ما جاء به من وحي الهي (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله)(٨) ، وان من اوصاف رسول الله صلى الله عليه وسلم انه بالمؤمنين رؤوف رحيم ، وانه عزيز عليه ما عنتوا ، وانه رحمة لهم ، وكل ذلك يدفع الانسان الى التأسي به صلى الله عليه وسلم والسير على منهجه في كل شئون حياته ، فيكون ذلك ضابطا لسلوك الانسان ، ومن اقتدى برسول الله صلى الله عليه وسلم الذى ادبه ربه فاحسن تاديبه ، وكان خلقه القرآن ، فانه يصل الى حالة عالية من السمو في الاخلاق والمشاعر والعواطف

---

(١) اصول التربية الاسلامية ٨٣ .
(٢) ١٠٨ : طـه .
(٣) ٣ : البقرة
(٤) التربية الاسلامية والمشكلات المعاصرة عبد الرحمن النحلاوى ٣٧ .
(٥) ٣٣ : الزمر
(٦) ٦٥ : الاعراف
(٧) انظر اصول التربية الاسلامية ٨٨ .
(٨) ٣١ : آل عمران .

وفي كل شوءون الحياة السياسية والاقتصادية والعسكرية والاجتماعية الى غيرها من شوءون الحياة ، لان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وصل الى الغاية العليا والحد الاسمى في كل شوءون الحياة ٠

الايمان باليوم الآخر :

والايمان باليوم الآخر يجعل النفس تشعر بالمسئولية الجدية الحقة ، فهو يخاف من الله ويخاف من الوقوف بين يديه للحساب في اليوم الآخر على اعماله ٠

وتحقيق الاخلاق الفاضلة والاعمال الصالحة والتحلي بكل فضيلة واجتناب كل رذيلة هو اثر ايمان النفس بان هناك يوما آخرا تلقى فيه الحساب ٠(١) (ثم الى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون)(٢)

ويجعل الانسان الموءمن بان هناك يوما آخر فيه جنة عرضها كعرض السموات والارض اعدت للمتقين يوءثر الآخرة على الدنيا فلا يتكالب على هذه الفانية ويترك الجنة الباقية ! (فاما من طغى وآثر الحياة الدنيا. فان الجحيم هي المأوى.واما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى.فان الجنة هي المأوى)(٣) ٠

فالفرق كبير بين الموءمن باليوم الآخر والكافر به ، فالموءمن باليوم الآخر يرى ان الخير ما يرضي الله والشر ما يسخطه ، فالخير خير وان ناله منه سوء في الدنيا ، فهو متيقن بان الله يخلفه خيرا في الآخرة ، وان الشر شر وان نالته منفعة دنيوية فسيلاقي عليها جزاء في الآخرة (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره)(٤)

بخلاف نظرة الكافر الى اليوم الآخر الذى يرى ان الخير ما ينفعه في هذه الدنيا وان كان محرما ، والشر ما يشوءه في الدنيا وان كان حلالا او يجب عليه فعله ٠٠٠

---

(١) انظر اصول التربية الاسلامية ٩٠-٩٢ ، وانظر الايمان محمد نعيم ٧٤ ، وانظر التربية الاسلامية النحلاوى ٣٩-٤٠ ، وانظر العقائد الاسلامية ٢٥٨-٢٥٩

(٢) انظر مبادئ الاسلام ١١٦-١١٧ ، وانظر اصول التربية الاسلامية ٩٠-٩١

(٣) ٣٧ - ٤١ : النازعات ٠

(٤) ٧-٨ : الزلزلة

فكل شيء تصل اليه يده فهو حلال ، وكل شيء لا تصل اليه يده فهو حرام ، فهو قد باع الجنة ببخس معجل ، وباع الآخرة الباقية بالدنيا الفانية ؟ ! (١)

الايمان بالقضاء والقدر :

وان ايمان النفس بالقضاء والقدر وان ما اصابها لم يكن ليخطئها وما اخطأها لم يكن ليصيبها (٢) وان كل شيء عند الله بقدر ، وانه لا مفر من امر مكتوب ، ولا مهرب من امر مقدور ، يجعل النفس تقدم على الاعمال بعزم وعدم تردد ، بعد الاخذ بالاسباب لان الله مؤيده وموصله لما يريد ، وترتاح النفس من اللوم والحسرة على ما فات فلا اعتراض على قدر الله ولا تسخط لان الله العليم الحكيم هو الذى قدر هذا (٣) .

وان هذه العقيدة لتنتزع من قلب المؤمن بها كل مظهر للجبن فيصبح جريئا شجاعا لا يهاب الموت ولا يخاف شيئا ، لان الاجل مكتوب ومحدد لا يزيد ولا ينقص (٤) .

والنفع والضرر بيد الله لا يملك احد ولا يستطيع احد ان يغير من المكتوب او ان يمحو من المقدور شيئا (واعلم ان الامة لو اجتمعت على ان ينفعوك بشيء ، لم ينفعوك الا بشيء قد كتبه الله (تعالى) لك ، وان اجتمعوا على ان يضروك بشيء ، لم يضروك الا بشيء قد كتبه الله تعالى (عليك) ، رفعت الاقلام وجفت الصحف)(٥) (والعبد اذا علم انه لن يصيبه الا ما كتب الله له من خير وشر ونفع وضر وان اجتهاد الخلق كلهم على خلاف المقدور غير مفيد البتة ، علم حينئذ ان الله وحده هو الضار النافع المعطي المانع ،

---

(١) انظر مبادئ الاسلام ابو الاعلى المودودى ١١٧ ، وانظر الايمان د . محمد نعيم ياسين ٧٥ـ٧٦ .

(٢) انظر قرة عيون الموحدين في تحقيق دعوة الانبياء والمرسلين محمد بن عبد الوهاب ٢٨٦ـ٢٨٩ .

(٣) انظر اصول التربية الاسلامية ٩٣ .

(٤) انظر الايمان محمد نعيم ياسين ١٣٨ .

(٥) اخرجه الترمذى كتاب القيامة باب ٥٩ وقال حديث حسن صحيح، واخرجه الامام احمد ٩٣/١

فاوجب ذلك للعبد توحيد ربه عز وجل وافراده وحفظ حدوده ، فان المعبود انما يقصد بعبادته جلب المنافع ودفع المضار ... واوجب له ذلك افراده بالخوف والرجاء والمحبة والسؤال والتضرع والدعاء ، وتقديم طاعته على طاعة الخلق جميعا ، وان يتقي سخطه ولو كان فيه سخط الخلق جميعا .)(١) .

هذه العقيدة هي التي سكبت من قلوب الرعيل الاول في هذه الامة السكينة والاطمئنان وربتهم على الجرأة والشجاعة والعز ، فانطلقوا في ارض الله يحررونها من كل شر وفساد (٢) ، ولسان حالهم يقول :

اى يومي من الموت افر	يوم لا يقدر او يوم قدر
يوم لا يقدر لا ارهبه	ومن المقدور لا ينجي الحذر (٣) .

(١) جامع العلوم والحكم ١٦٩ ،

(٢) انظر الايمان محمد نعيم ١٣٧ .
(٣) انظر مدخل الى التصور الاسلامي ١٢٠ .

والنفس المؤمنة بقضاء الله وقدره متفائلة راضية ، لا تتشاءم من شيء(١) فالتشاؤم والتطير من شيم الكفار وصفاتهم ، فقد كان الكفار يتطيرون بأنبيائهم وبالمؤمنين والدعاة الى الله (قالوا اطيرنا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون) (٢) ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر) (٣) ، فقد كان العرب يتشاءمون ويتطيرون بالسوانح والبوارح من الطير والظباء وغيرهما ومن الشهور وغير ذلك ، (وكان هذا التطير يبعدهم عن مقاصدهم فنفاه الشرع وابطله واخبر انه لا تأثير له في جلب النفع ودفع الضرر) (٤) .

وبهذا يتحرر المؤمن من التشاؤم والاوهام التي تصده عن العمل ، وهذا كله يربي المؤمن على التعقل وعدم تعليل الامور حسب الاهواء والاوهام (٥) ، بل يعللها تعليلات حقيقية وصحيحة ، فالنافع والضار هو الله ، ولا ضرر ولا نفع لشيء من المخلوقات الا بإذنه .

وان المؤمن بقدر الله اذا اصابته سراء شكر الله ، وان اصابته ضراء صبر لان الفرج من عند الله ، فلا يتبرم ولا يشكو ، وهذا من خصال المؤمنين وجدهم كما قال صلى الله عليه وسلم (عجبا لأمر المؤمن ان أمره كله له خير ، وليس ذلك لأحد الا للمؤمن : ان اصابته سراء شكر فكان خيرا ، وان اصابته ضراء صبر فكان خيرا) (٦)

وان كل هذه الاثار الايمانية في نفس المؤمن هي نتيجة طبيعية وحتمية للايمان الصادق والطاعة المطلقة والحب الخالص لربه .

فان لم نجد هذه الاثار النيرة في سلوك المؤمن ، ووجد نقيضها ، فما ذاك الا ثمرة الادعاء الكاذب للايمان ، ونتيجة الاتجار به والخداع ، ورحم

---

(١) اصول التربية الاسلامية عبد الرحمن النحلاوى ٩٣ .
(٢) النحل : ٤٧
(٣) متفق عليه اخرجه البخارى كتاب الطب باب لا عدوى مع الفتح ١٠/٢٤٣ ومسلم كتاب السلام باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ولا نوء ولا غول ، واللفظ له ٤/١٧٤٣ .
(٤) قرة عيون الموحدين ١٧٦ وانظر ما بعد ذلك
(٥) اصول التربية الحديثة النحلاوى ٩٥ .
(٦) اخرجه مسلم كتاب الزهد والرقائق باب المؤمن أمره كله خير ٤/ ٢٢٩٥ .
(٧) انظر مدخل الى التصور الاسلامي عابد توفيق الهاشمي ١٢٢

الله الامام الشافعي اذ يقول :

تعصي الاله وأنت تظهر حبه ... هذا محال في القياس بديع
لو كان حبك صادقا لأطعته ... ان المحب لمن يحب مطيع
في كل يوم يبتديك بنعمة ... منه ، وانت لشكر ذاك مضيع(١)

هذه هي اركان الايمان في الاسلام ، وحقيقة العبادة فيه ، وهذه هي الاثار البالغة التي يحدثها كل من الايمان والعبادة ، في عقل المؤمن وقلبه ، وفي مشاعره ووجدانه ، وفي دوافعه وعواطفه ، وفي سلوكه وواقع حياته .

وعلى اساس هذه الحقائق التي اوجزت الحديث عنها يقوم منهج التغيير الاسلامي للنفس الانسانية ، بكل ما يشمله مفهوم النفس من المعاني .

وتغيير ما بالنفس الانسانية وفق ما قدمته - هو الطريق الى تغيير ما بالفرد والجماعة من سوء وشر ، الى افق اعلى من الخير والاصلاح وفقا لسنته سبحانه في التغيير (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) (٢)

نظرة الاسلام للأنسان والكون والحياة :

وينبني على عقيدة الاسلام السابقة ، تصوره للانسان والكون والحياة .

وعلى اساس تصحيح نظرة الانسان في هذه المجالات ، وتغيير ما بالنفس من تصورات خاطئة فيها - على اساس هذا يقوم جانب كبير من تغيير حياة الفرد والمجتمع ، الى ما هو افضل واكمل طبقا لسنة الله في التغيير .

(١) ديوان الامام الشافعي لأبي عبد الله محمد بن ادريس الشافعي (١٥٠ هـ - ٢٠٤ هـ) جمعه وعلق عليه محمد بن عفيف الزعبي الناشر مؤسسة الزعبي للطباعة والنشر والتوزيع ، ودار الجيل بيروت لبنان ص٥٨ .

(٢) ١١ : الرعد

واما عن نظرة الاسلام للانسان ، فقد جاء الاسلام ليصحح نظرة الانسان لنفسه ، ويضع الانسان في مكانه الصحيح ، ويريح الانسان من تخبطه في معرفة نفسه وحقيقتها ، فالانسان ما زال منذ وجد على هذه الارض - بعيدا عن وحي الله - يتخبط في نظرته الى نفسه ، فمرة يؤله نفسه ويرى انه اعظم كائن في هذا الكون ، ومرة يؤله عقله ، ومرة ينحدر في تصوره الى نفسه فيرى نفسه انه اصغر من الحجارة فيسجد لها ، ومرة يؤله المادة فيصبح عبدا لها ٠ (١)

فالاسلام جاء لبيان حقيقة الانسان ومميزاته ، وما فضل به ومهمته في الحياة وعلاقته بالله وعلاقته بالكون وقابليته للخير والشر ٠

(فمكان الانسان (في القرآن) هو اشرف مكان له في ميزان العقيدة وفي ميزان الفكر ، وفي ميزان الخليقة الذى توزن به طبائع الكائن بين الكائنات ٠) (٢)

(والاسلام يبصر الانسان بحقيقته وبمختلف مزاياه وبمهمته في الدنيا من خلال تبصيره بحقيقتين اثنتين داخلتين في قوامه وتركيبه الانساني - وبينهما في الظاهر - ما يشبه التناقض او التشاكس ٠

الحقيقة الاولى : انه مخلوق اصله الاول تراب ، وسلالته من ماء مهين (الذى احسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الانسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين) (٣) ٠ والشأن فيه ان طالت به الحياة ، ان يعود الى ارذل العمر ، فلا يعلم - بعد علم - شيئا (٤) ، (والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد الى ارذل العمر لكي لا يعلم بعد علم شيئا ان الله على كل شيء قدير) ٠ (٥)

وقد جاءت آيات كثيرة تؤكد هذا المعنى في النفس ، منها قوله

---

(١) انظر اصول التربية الاسلامية عبد الرحمن النحلاوى ٣٠ ، والانسان في القرآن الكريم ٩ - ١٠
(٢) الانسان في القرآن الكريم عباس محمود العقاد ٢١
(٣) ٧ - ٨ : السجدة
(٤) منهج الحضارة الانسانية محمد سعيد رمضان البوطي ٤٦
(٥) ٧٠ : النحل

تعالى : (فلينظر الانسان مم خلق ، خلق من ماء دافق،يخرج من بين الصلب والترائب) (١) ، ويقول : (فإنّا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم . ونقر في الارحام ما نشاء الى اجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا اشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد الى ارذل العمر ، لكي لا يعلم من بعد علم شيئا) (٢).

أما الحقيقة الثانية : التي تشكل الجزء الاخر من الهوية الانسانية في القرآن ، فهي ان الانسان هو ذلك المخلوق المكرم على سائر المخلوقات الاخرى وانه ذاك الذى استأهل ان يكلف الملائكة بالسجود له متمثلا في شخص أبيه آدم عليه الصلاة والسلام ، وانه الذى شرفه الله بالخلافة على هذه الارض ، وعندما شاء ان يجعله يقوم بالمهمة التي حمله اياها - مظهرا لعدالة الله تعالى وحكمه ، وانه المخلوق الوحيد الذى جهزه الله بالعقل والتفكير والقدرة على ادارة الامور . (٣)

وعن كرامة الانسان يقول تعالى : (ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) . (٤)

وقد أمر الله الملائكة بالسجود لآدم بعد ان نفخ فيه من روحه سبحانه وتعالى (فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين) (٥) ، (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لادم فسجدوا الا ابليس) (٦) .

وزود الانسان بالسمع والبصر والعقل ، يقول تعالى : (وجعل لكم

---

(١) ٦ : الطارق
(٢) ٥ : الحج
(٣) منهج الحضارة الانسانية في القرآن الكريم ٤٧ وانظر جاهلية القرن العشرين ٢١٤
(٤) ٧٠ : الاسراء
(٥) ٢٩ : الحجر
(٦) ٣٤ : البقرة

السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون) (١)، وارسل له الرسل لهدايته (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) (٢).

وللانسان الحرية في اختيار عمله وسلوكه الذى يريده يقول تعالى : (إناهديناه السبيل اما شاكرا واما كفورا) (٣) فهو كائن حر عنده استعداد للخير والشر (وهديناه النجدين) (٤)

وهو مسئول عن عمله الذى يعمل ان كان خيرا فخير وان كان شرا فشر يقول تعالى : (كل امرئ بما كسب رهين) (٥) ، ويقول : (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) (٦) .

والانسان من مهماته في الارض عمارة الارض وتسخيرها لخدمته ، يقول تعالى : (هو انشأكم من الارض واستعمركم فيها) (٧) ، ويقول تعالى : (وسخر لكم ما في السموات وما في الارض جميعا منه) (٨) .

والغاية من خلق الانسان هي تحقيق العبودية لله عز وجل ، يقول تعالى : (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون، ما اريد منهم من رزق وما اريد ان يطعمون، ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين) (٩) .

" ولا بد ان نتساءل الان : فكيف تآلفت هاتان الحقيقتان ضمن هوية واحدة للانسان ؟ .. وما وجه تركيز القرآن على كل منهما ؟ .. وما هو اثر تنبيه الانسان الى اتصافه بكلا هاتين الحقيقتين ؟

اما كيفية تآلفهما ضمن الهوية الانسانية الواحدة فوجه ذلك ان الانسان مخلوق من طين .. وان ما فيه من ملكات وقوى وخصائص .. هي فيض من نعم الله عليه ، وهبه الله اياها ليقوم بمهمة التكليف والعمارة لهذه الارض .

---

(١) ٩ : السجدة
(٢) ١٦٥ : النساء
(٣) ٣ : الانسان
(٤) ١٠ : البلد
(٥) ٢١ : الطور
(٦) ٧ ـ ٨ : الزلزلة
(٧) ٦١ : هود
(٨) ١٣ : الجاثية
(٩) ٥٧ : الذاريات وانظر في هذه المعاني الانسان في القرآن الكريم ١٣ـ٢٨ ، ٤١ ـ ٥٤ وانظر فلسفة التربية الاسلامية علي ابو العينين ٩٥ ـ ٩٩ وانظر اصول التربية الاسلامية ٣٠ ـ ٣٦ وانظر القيم الحضارية في رسالة الاسلام ٥٤ ـ ٧٦ وانظر التربية الاسلامية حسن عبد العال ٤١ ـ ٤٤

واذن فالانسان في كينونته الذاتية عبد مملوك لله عز وجل ، خلق من ضعف وينتهي الى ضعف . ولكنه ـ نظرا للرسالة التي حملها يتمتع بصفات نادرة جهزه الله بها فاستأهل بموجبها الرفعة والتكريم ، ان هو استعمل تلك الصفات على وجهها والتي خلقها الله من أجله على وجهها الصحيح

واما وجه التركيز على كل من هاتين الحقيقتين معا والاستمرار في التذكير بهما ، فهو لكي يتربى المسلم على هاتين الحقيقتين معا ويستلهم غذاءه التربوى من معرفة اصله وضآلة شأنه وذل نهايته ، ثم معرفة ما انعم عليه الخالق من صفات وملكات نادرة وما قد اكرمه به من سمو في الرتبة والمكانة .

فمن عاش لا يتفير من ذاته الا مظهر ضعفها ودلائل تفاهتها وهوانها جدير به ان يركن الى ضعف يجعله ضحية طغيان الجبابرة والمتكبرين ، ويبعده عن انجاز اى عمل او خدمة انسانية مما قد حمله الله تعالى مسئولية النهوض به ويقعده عن اية مساهمة في سبيل عمارة الارض وانشاء الحضارة الانسانية المطلوبة .

ومن عاش وهو لا يعرف من ذاته الا انه الانسان المكرم الذى يملك من المزايا والصفات ما يخوله ان لنفسه حكما وسلطانا على كل من حوله ومن دونه ، جدير به ان يسكر بنشوة تلك الصفات .. ثم يجعل من نفسه حاكما من دون الله عز وجل ، يبسط قهر ربوبيته الزائفة على سائر المستضعفين ! ..

واما اثر هذا التنبيه المستمر من القرآن ـ في خطابه الانسان ـ الى اتصافه بكلا هاتين الحقيقتين : العبودية الذليلة الخاضعة لسلطان الله والتكريم المنبثق عن الرسالة التي شرفته بها مشيئة الله .

ان هذه الحقيقة عندما تستقر في نفسه وتهيمن على عواطفه ودوافعه السلوكية ، لا يركن الى الذل والخضوع والخنوع للاخرين ، مهما تجمعت عليه اسباب الضعف ، لان الله هو الذى منحه هذه الكرامة فلن يسلبها منه احد . وهو في نفس الوقت لا يطمح الى شيء من التسلط والبغي والطغيان والتكبر على عباد الله مهما اتيح له من اسبابها لانه يعلم انه انسان حقير الا من اكرمه الله بالايمان ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ، ذليل خلقه الله لعبادته لا للتكبر على عباد الله الذين هم مثله !!)(١) .

---

(١) منهج الحضارة الانسانية في القرآن الكريم ٤٨ ـ ٥١ بتصرف يسير

وهكذا فان معرفة الانسان لحقيقة نفسه يبعده عن الذل وعن التكبر في آن واحد ، وبهذا ينطلق الانسان في عمارة الارض عبدا لله حرا من كل الطواغيت ، ليس ذليلا ولا يتكبر على أحد من خلق الله !

والاسلام بهذه النظرية العادلة يحدد للانسان مكانه الذى وضعه الله فيه فهو (ليس الها ينازع الالهة وتنازعه ، وليس كذلك حيوانا جاءت سيادته على الارض مصادفة ، وقد يقوم مقامه في هذه السيادة غدا قرد او فأر !

وليس آلة تحسب قيمته بقوة الاحصنة التي يساويها في قوة التحريك والارادة ، وليس عبدا للمادة ، ولا هو لوحة تطبع فيها المادة والطبيعة ما تريد ، وليس عبدا للالة .. وليس نمرة ولا مجموعة نمور تتحرك داخل القطيع بلا شخصية مميزة ولا كيان فردى ...

كلا ان الانسان ... انسان ... انسان ... وليس الها - هو سيد هذه الارض وهو عبد لله في آن .. وهو مسلط على هذه الارض ومسخر له كل ما فيها وهو معان على استغلال كنوزها وطاقاتها ، معان بما وهبه الله من قوى وطاقات ، ومعان ... وهو في الوقت ذاته هو من نفسه في حرم مقدس حرم من حرمات الله ، لا يمسه الا باذن الله ولا يعمل فيها الا بمنهج الله . ولم يوهب معرفة اسرار هذا الحرم - الا بقدر - ولم يسمح له ان يضع له من تلقاء نفسه المناهج والخطط والشرائع والاوضاع ولم يؤذن له ان يتخذ الهه هواه) . (١)

والانسان عندما يؤمن بان الله هو خالقه وهو الذى كرمه على كثير ممن خلق ، وان الله هو الذى وهبه هذه النعمة وغيرها من النعم يعترف بالعبودية الحقة لله ، وبذا يتجاوب مع وحي الله (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون)(٢) فيتصل بالله مباشرة وبلا حواجز (يا ايها الانسان ما غرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك في اى صورة ما شاء ركبك)(٣) (يا ايها الانسان انك كادح الى ربك كدحا فملاقيه)(٤)

---

(١) الاسلام ومشكلات الحضارة سيد قطب ١٧١-١٧٢ .
(٢) ٥٦ : الذاريات
(٣) ٦-٨ : الانفطار
(٤) ٦ : الانشقاق

(ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن اقرب اليه من حبل الوريد ٠)(١) ، ومن ثم فلا يتطلع الى احد سواه ، ولا يعبد الا اياه سبحانه، وبذا يتحرر قلبه وروحه وينطلق خفيفا الى الله ٠

(ويرتدون الى خالقهم فيهتدون بهديه ويسيرون على منهجه ، ولا يسيرون على نهج احد آخر ولا قوة اخرى من قوى الارض ، لانها كلها ضعيفة هزيلة ٠ كلها ضائعة مضيعة ، كلها زائلة فانية ، والقوة الحقيقية هي قوة الله ، والسلطان الحقيقي سلطانه والمنهج الصحيح منهجه ، ومن ثم تصلح نفوسهم وتصلح حياتهم على الارض ٠

ويرتدون الى خالقهم فيحسون انه منه المنشأ واليه المصير ٠٠٠

ويرتدون الى خالقهم فيحسون المشاركة الانسانية فهم جميعا قد صدروا عن ارادة الله ، ثم هم جميعا خلقوا من نفس واحدة (يا ايها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ٠٠) (٢) ومن ثم تصلح نفوسهم بعضهم تجاه بعض ، وتقوم بينهم اواصر الانسانية والتعاون والمحبة ولا يقوم بينهم النزاع والشقاق ٠) (٣)

والاسلام يخطو خطوة اخرى مع الانسان من حيث يعرفه بحقيقة نفسه (فالانسان في نظر الاسلام كائن لا هو بالملاك ولا هو بالشيطان ، وان كان قادرا في بعض حالات الهبوط ان يصل الى درجة الشيطان من الشر ، وفي بعض حالات الارتفاع ان يسمو بروحه الى مستوى الملائكة من الطهر ٠ ولكنه في حالته الطبيعية بين هذا وذاك ، مشتمل على الخير كما هو مشتمل على الشر ، وليس اى العنصرين غريبا عن طبيعته ولا مفروضا عليه من خارج نفسه ٠

وهو يشمل نوازع فطرية تربطه بالارض ٠٠٠ ولكنه يشمل في الوقت ذاته نزعة فطرية ايضا تهدف الى الارتفاع والسمو ٠٠) (٤) ٠

---

(١) ١٦ : ق
(٢) ١ : النساء
(٣) منهج التربية الاسلامية محمد قطب ١ / ١٥ ـ ١٦
(٤) الانسان بين المادية والاسلام محمد قطب ٨٠

والاسلام في الوقت الذى يؤمن فيه بكل جوانب الانسان : جسمه وعقله وروحه ومطالب كل جانب وطاقاته ، يؤمن كذلك بوحدة الكيان البشرى ، واستحالة فصل جانب منه عن جانب في الفطرة السوية التي تسير على نهجها الذى خلقه الله .

ومن ثم لا يفصل في داخل النفس بين الجسم والعقل والروح ، ولا يفصل في واقع الحياة بين هذه الطاقات ، بل يأخذها بفطرتها السوية ممتزجة مترابطة ، ويرسم لها دستورها على ذلك الاساس ...

وهو يصل من هذا المزج الى نتائج معينة هي التي تحدد سمات الانسان الصالح ، وتبرزه حقيقة ملموسة في واقع الحياة .

فالتوقيع على اوتار النفس كلها ، مجتمعة مترابطة ، يضمن معا شيئين في آن واحد :

الاول : هو استغلال طاقات الانسان كلها ، فلا تهدر منها طاقة واحدة يمكن ان ينتفع بها الانسان في عمارة الارض ...

فمن الكفر بأنعم الله الا يستخدم الانسان طاقته الحيوية في عمارة الارض ، بالتنقيب عن كنوزها ، والتعرف على رزق الله الواسع فيها ، واستغلال ذلك كله لترقية الحياة وتنميقها ، والوصول بها كل يوم الى مستوى جديد .

ومن الكفر بأنعم الله الا يستخدم الانسان طاقاته الروحية في التعرف على الله والاتصال به ، والاستمداد من قوته ، والاهتداء بهديه ، والعمل بمقتضى ذلك كله على ترقية الحياة النفسية وتنميتها ، والتعود على الخير ، والتعود على الحب ، والتعود على الشعور بترابط الانسانية ، ومحاولة ايصال الخير المادى الذى يصل اليه الانسان بطاقته المادية الى جميع البشر الخلفاء لله (١) في مجموعتهم الشركاء في كل ثمار الحياة .

---

(١) ان هذا التعبير فيه بعض التعميم وعدم الدقة والاصح ان يقال خليفة في الارض ، فالانسان ليس خليفة عن الله في الارض ، وانما يخلف الناس بعضهم بعضا في عمارتها ، وقد عالج هذه القضية الشيخ عبد الرحمن حنبكة في كتابه بصائر للمسلم المعاصر ، انظر ١٢٢ - ١٤٥

ومن الكفر بأنعم الله الا يستخدم الانسان طاقته العقلية في التعرف على اسرار الكون وقوانينه ، والتعرف على سنن الله في الكون المادى وفي حياة الانسان ، واستغلال ذلك كله في تنظيم الحياة البشرية وتقويمها والسير بها على نهجها القويم .

الامر الثاني : ان استغلال هذه الطاقات مجتمعة يحدث توازنا في داخل النفس وواقع الحياة سواء .

والتوازن - وهو سمة من سمات الانسان الصالح - معنى واسع شامل يشمل كل نشاط الانسان .

توازن بين طاقة الجسم وطاقة العقل وطاقة الروح ، توازن بين ماديات الانسان ومعنوياته ... توازن بين الحياة في الواقع والحياة في الخيال ...) (١)

وهكذا ينطلق الانسان في نظر الاسلام ملبيا حاجات نفسه بالتوازن الذى يرسمه له الاسلام بحيث لا يطغى جانب على جانب ، مستغلا كل شيء في فطرته لخدمة نفسه وخدمة البشرية .

وعندما ينحرف الانسان عن هذا التصور للانسان فيؤمن بالجانب المادى وينميه ويترك الجانب الروحى والعقلي فانه يسير عندئذ في مسارات المادية المظلمة التي تودى بحياة الانسان وبقيمه واخلاقه ، وتؤدى به الى الهلاك .

وكذلك عندما ينحرف الانسان عن هذا التصور ، ويرى ان الانسان روح فقط ، ويقوم بتنمية هذا الجانب على حساب الجوانب الاخرى ، فانه يؤدى الى رهبنة تفتقر بها الحياة وتظلم وتقتم كظلام وقتامة العصور الوسطى المسيحية . (٢)

---

(١) منهج التربية الاسلامية محمد قطب ١ / ٢٣ - ٢٨ وانظر جاهلية القرن العشرين ٢١٥

(٢) انظر مسيرة الفكر التربوى الدكتور محمود السيد سلطان دار المعارف بمصر ١٩٧٩ م ص ٦٧ - ٦٧ وانظر منهج التربية الاسلامية محمد قطب وانظر الانسان بين المادية والاسلام ٨١

وعندما ينحرف الانسان ويعترف بالعقل فقط ينشيء لنا فلسفات عقيمة لا قيمة لها ولا اعتبار وينشيء لنا مدناً فاضلة في خياله وفي الكتب، وتسقط مدنيته وحضارته لأنه يعيش في عالم العقل فقط كما سقطت الحضارة اليونانية والرومانية .

هذه هي الخطوط العريضة في نفس الانسان واثر الاعتراف بها وتنميتها وفق نهج الاسلام ،والاسلام يخطو خطوة اخرى بتعريف الانسان بنفسه ـ لأنه سبحانه هو خالقها ـ حين يقرر أن في النفس الانسانية الحب والكره ، والخوف والرجاء وبقية الخطوط الأخرى الدقيقة التي في نفسه ، وحين يرشده الى كيفية الايقاع على هذه الخطوط بحيث لا يحدث تنافر فيما بينها وبحيث لا يوقع على الخط اكثر مما يحتاج حينئذ تستقيم نفس الانسان وتتوازن ، ويحدث من كل توقيع على خط من هذه الخطوط أثر بالغ في النفس وفي الواقع .

ففي النفس الخوف والرجاء (... ويرجون رحمته ويخشون عذابه ...) (١) والاسلام جاء يبين للانسان ممن يخاف ومن يرجو ، فبين لهم ان الخوف الحقيقي من الله ، وان الرجاء الحقيقي لله عز وجل ، وبذلك فانه ينفض عن النفس كل خوف وكل رجاء فاسد ، فلا يخاف احدا او شيئا حقيقيا الا الله ، ولا يرجو ولا يطمع الا في الله وما عنده .

وبذلك تتحرر النفس من الخوف الارضي والتعلق بمتاع الارض الزائل ، وبذلك تنطلق النفس البشرية عاملة في سبيل الخير في كل ميدان من ميادين الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

ومن طبيعة النفس الحب والكره ، ولكن الاسلام يعرف النفس اى شيء تحب واى شيء تكره ، فيوقع في النفس حب الذات ولكن بقدر محدود لا يطغى بحيث يصير عبدا لذاته ولشهواته وللدنيا ، ويوقع عليه الحب لله لأنه الودود الرحيم المنعم ، ويجعل النفس تحب الكون بما يوقع عليها من أن هذا الكون مخلوق لله ، وانهما عبدان لله ، وان هذا الكون مسخر لخدمة الانسان . ثم يجعل الحب للمؤمنين فيدفعه الى السعي على مصالحهم ومنافعهم ثم يوقع على وتر حب جنس الانسان لانه من مخلوقات الله .

---

(١) ٥٧ : الاسراء

والايات والاحاديث التي جاءت تبين هذه المعاني كثيرة نورد بعضها : (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ٠) (١) ، (ومن الناس من يتخذ من دون الله اندادا يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حبا لله) (٢)

ومن الاحاديث قوله صلى الله عليه وسلم (من احب لقاء الله احب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه) (٣) ، وقوله (لا يؤمن احدكم حتى اكون احب اليه من والده وولده والناس أجمعين) (٤) ، وقوله عليه افضل الصلاة واتم التسليم : (ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الايمان ان يكون الله ورسوله احب اليه مما سواهما ، وان يحب المرء لا يحبه الا لله وان يكره ان يعود في الكفر بعد ان انقذه الله منه كما يكره ان يقذف في النار) (٥) ٠

واما الكره فهو لكل مارد خارج عن طاعة الله سواء كان شيطانا جنيا او انسيا ، ويوجه الاسلام طاقة الكره الفكرية الى كره الظلم بجميع انواعه (يا عبادى اني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا ٠٠٠) (٦)

والعدوان شر ينبغي ان يكره وان يقاوم (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) ٠ (٧)

والاعتداء على الضعفاء في الجماعة ينبغي ان يكره ويقاوم (وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان ٠٠) (٨)

---

(١) ٣٠ : آل عمران
(٢) ١٦٥ : البقرة
(٣) اخرجه مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة ٠٠ باب من احب لقاء الله احب الله لقاءه ٠٠٠ ٢٠٦٥/٤ ٠
(٤) متفق عليه اخرجه البخارى كتاب الايمان باب حب الرسول صلى الله عليه وسلم من الايمان الفتح ٥٨/١ ومسلم كتاب الايمان باب وجوب محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من الاهل والولد والوالد ٦٧/١ ٠
(٥) متفق عليه اخرجه البخارى كتاب الايمان باب حلاوة الايمان مع الفتح ٦٠/١ ومسلم كتاب الايمان بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الايمان ٦٦/١ ٠
(٦) حديث قدسي اخرجه مسلم كتاب البر باب تحريم الظلم ١٩٩٤/٤
(٧) ١٩٤ : البقرة
(٨) ٧٥ : النساء

وفتنة الناس عن دينهم شر ينبغي ان يكره ويقاوم (والفتنة أشد من القتل) (١) ، (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة) (٢) .

والافساد في الارض ومحاربة الله ورسوله ، والصد عن سبيله شر ينبغي ان يكره وان يقاوم .

والفواحش ما ظهر منها وما بطن شر ينبغي ان يقاوم ...

وكل انحراف عن سبيل الله شر ينبغي ان يقاوم ويكره ...

وجماع الشر كله الشيطان .. هو الذى يتمثل في الشر كله ، وهو الذى يدعو الى كل شر ، ومن ثم لا ينبغي ان توجه له طاقة الكره كاملة وتعلن عليه حرب لا هوادة فيها ولا تسليم !

والمؤمن بكل طاقاته مجند حياته كلها لدفع الشر ومحاولة التغلب عليه ، وبذلك يتوازن الحب والكره ويصدر عن كل وتر منهما نغمه الصحيح .

وفي النفس فطرة الخيال والواقع ، فيصوغ الخيال ليفكر في الكمال والجمال في العالم الاخر في عالم الجنة ، فيغذى خيالها بمئات من المناظر والمشاهد والصور والحالات يكفي قول الرسول عن ربه في الحديث القدسي : (اعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فاقرأوا ان شئتم : (فلا تعلم نفس ما اخفي لهم من قرة أعين) (٣)

واما طاقة الواقع فالاسلام يربي النفس على استغلالها لصياغة الواقع في التنظيمات وتأمين حاجات الانسان الاقتصادية والسياسية والتعليمية والتنظيمية ...

والاسلام يصوغ النفس وفق فطرتها ايضا فيشبع الجانب المادى

---

(١) ١٩١ : البقرة
(٢) ١٩٣ : البقرة
(٣) متفق عليه اخرجه البخارى كتاب بدء الخلق باب ما جاء في صفة الجنة وانها مخلوقة مع الفتح ٦ / ٣١٨ ومسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها واهلها حديث رقم (٢) ٤ / ٢١٧٤ والاية ١٧ : السجدة

ويشبع الجانب المعنوى ، اما الجانب الحسي فلذائذ الحس كلها مباحة ما لم تكن محرمة في الشرع ، واما الجانب المعنوي فهو الايمان بالله وباليوم الاخر والفضائل والاخلاق ، وبذا تصبح هذه القيم جزءا من بنية الانسان . ويندفع في الجانب الحسي ايضا ولكن ضمن حدود الشرع . وبذا تستقيم النفس.

وفي النفس حب الذات وميل للاجتماع بالاخرين ، والنفس عندما تصاغ وفق افكار الاسلام ، فانه لا يطغى جانب على جانب ، فالاسلام يؤمن بالنزعتين ، ولكن لا بد من انسان متوازن في فرديته ، متوازن في ميله الى الجماعة وتعاونه معها فلا الانانية المرذولة يقرها الاسلام ، ولا سحق الانسان لذاته يقره الاسلام لان ذلك ينشئ مجتمعا مستضعفا خانعا ذليلا .

وتقوم العلاقة بين الفرد والجماعة على الحب والتعاون ، وبذا ينشأ في المجتمع التكافل والتعاون .(١)

والاسلام عندما يطبع النفس على الالتزام والتحرر ، ويوازن بين هذين الخطين موازنة دقيقة ، ينشأ الفرد منضبطا في اعماله في اوامر الله عاملا لها باخلاص لوجهه الكريم ، ويفتح للنفس باب التطوع الحقيقي دون فرض او جزم او اكراه ، وبذا يسمو المجتمع الى الاعلى ، ولكن لا ينزل الى الحد الادنى ، وهو طاعة اوامر الله الواجبة .

وفي النفس فطرة السلبية والايجابية ، والاسلام يصوغ النفس في الجانب النفسي لتستسلم لله ، ومن هذا التسليم الكامل لله تكون في غاية الايجابية بالنسبة للاشياء والاشخاص والاحداث فهو لا يخضع لشيء من هذه الاشياء ، بل يسير ويفعل بغاية الجدية والايجابية .

وهناك طاقتان فطريتان في النفس البشرية ، الايمان بما تدركه الحواس والايمان بما لا تدركه الحواس كلاهما اصيل في النفس ، والاسلام يستغل كلا من الطاقتين في الانسان فيستغل طاقة الحس في هذا الكون المادى فكل ما فيه غذاء لهذه الطاقة ، ثم استغل الاسلام ما تدركه الحواس استغلالا ضخما في تربية القلب البشرى بالله .. استغله حيث وجه الانظار الى الكون المادى لتبصر فيه يد القدرة (الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها..) (٢)

---

(١) انظر " ميلاد مجتمع " شبكة العلاقات الاجتماعية ، مالك بن نبي ، اصدار ندوة مالك بن نبي ، دار الفكر دمشق ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م ، ٢٨ ، ٤٠ ، ٤٩ ، ٧٠-٧٢ . وانظر فلسفة التربية الاسلامية علي ابو العينين ١٠٧-١٠٨ ، وانظر التربية الاسلامية في القرن الرابع الهجرى حسن عبد العال ٤٧-٤٩ .

(٢) ٢ : الرعد

ولم يقف الاسلام عند هذا الحد فقط كما فعلت الفلسفات الاخرى ، وانما جعل النفس توءمن بالغيب ، توءمن بالله واليوم الآخر والملائكة ، والجن والشياطين ٠

وفي النفس الانسانية وفق الفطرة التي فطرها الله عليها دوافع وضوابط وليس احدهما اصيل والآخر مفروض عليها من الخارج بل كل منهما اصيل (١)

والاسلام يوافق الفطرة في هذا فيعترف بالدوافع (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ٠)(٢) يعترف بدافع حب الحياة وما يتفرع عنه من دافع حفظ الذات وحفظ النوع ودافع القتال عن الذات او القتال عن الغير ، ودافع الملك ودافع التميز والبروز ٠

ولكن لا يترك لهذه الدوافع العنان بل يضبطها بضوابطه لتستقيم الحياة والا لساقت هذه الدوافع الانسان الى الدمار والهلاك ، فمهمة العقيدة والقيم الاسلامية هي ضبط هذه الدوافع حتى لا تصل الى حد التهور والدمار ٠ (٣)

---

(١) انظر الاسلام وقضايا علم النفس ٨٦ ـ ٨٨

(٢) ١٤ : آل عمران

(٣) راجع دراسات في النفس الانسانية للشيخ محمد قطب ٧١ ـ ١٨١ وانظر منهج التربية الاسلامية له ايضا ١ / ١٣٦ ـ ١٧٩

نظرة الاسلام للحياة :

واما عن نظرة الاسلام للحياة : فانها تقوم على اساس حقيقتين متباعدتين ، وان الحياة الاكمل للانسان انما تتم اذا مزج بين هاتين الحقيقتين معا . (١)

اما الحقيقة الاولى : فهي ان هذه الحياة (ليست الا معبراً الى الحياة الاخرة ، وان الانسان انما يأخذ من هذه الحياة الى تلك حصيلة كسبه واعماله لينال عليها الجزاء الاوفى : ان خيراً فخير وان شراً فشر - وهي في تقرير الاسلام - حياة قصيرة ، تقوم بين موتتين ، ثم يليها الحياة الدائمة التي لا انقضاء لها ، والتي يبدو جليا الى جنبها تفاهة هذه الحياة وعدم اهميتها ، حتى تبدو للانسان بعد اجتيازها وكأنها حلم قصير). (٢)

والشواهد على هذه الحقيقة كثيرة اسوق بعضا منها ، يقول تعالى : (اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم ، وتكاثر في الاموال والاولاد كمثل غيث اعجب الكفار نباته ، ثم يهيج فتراه مصفرا ، ثم يكون حطاما وفي الاخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان ، وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور .) (٣) ويقول تعالى ذكره : (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء انزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فأصبح هشيما تذروه الرياح ، وكان الله على كل شيء مقتدرا .) (٤) ويقول : (وما هذه الحياة الدنيا الا لهو ولعب وان الدار الاخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون) . (٥)

---

(١) انظر منهج الحضارة الانسانية في القرآن الكريم ص ٦٧
(٢) المرجع السابق ص ٦٨ - ٦٩
(٣) ٢٠ : الحديد
(٤) ٤٥ : الكهف
(٥) ٦٤ : العنكبوت

ويقول : (لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد) (١) ، ويقول تعالى : (قل متاع الدنيا قليل والاخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا) (٢) ، ويقول عز وجل : (ولكم في الارض مستقر ومتاع الى حين) (٣) ، ويقول سبحانه وتعالى :(وهو الذى احياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ان الانسان لكفور) (٤) ، ويقول :(ان هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوما ثقيلا) (٥) ، ويقول: (كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الاخرة) (٦) ويقول : (كل نفس ذائقة الموت ثم الينا ترجعون) (٧) .

ومن الاحاديث ما اخرجه مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله (ان رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بالسوق ، داخلا من بعض العالية والناس كنفته فمر بجدي اسك (٨) ميت فتناوله فأخذ بأذنه ثم قال : (ايكم يحب ان هذا له بدرهم ؟) فقالوا : ما نحب انه لنا بشيء وما نصنع به ؟ قال :" اتحبون انه لكم ؟ " قالوا : والله لو كان حيا كان عيبا فيه . فكيف وهو ميت؟ فقال : (فوالله ، للدنيا اهون على الله من هذا عليكم) (٩) .

واخرج البخارى في صحيحه (عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : " أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبي فقال : كن في الدنيا كأنك غريب او عابر سبيل " وكان ابن عمر يقول (اذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، واذا أصبحت

---

(١) ١٩٦ ـ ١٩٧: ال عمران
(٢) ٧٧ : النساء
(٣) ٢٤ : الاعراف
(٤) ٦٦ : الحج
(٥) ٢٧ : الانسان
(٦) ٢٠ ـ ٢١ : القيامة
(٧) ٥٧: العنكبوت
(٨) اى صغير الاذنين انظر صحيح مسلم بشرح النووى ١٨ / ٩٣ .
(٩) مسلم كتاب الزهد والرقائق حديث رقم (٢) ٤ / ٢٢٧٢ .

فلا تنتظر المساء وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك) (١) ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها ، ولغدوة في سبيل الله او روحة خير من الدنيا وما فيها)(٢) وقال علي بن ابي طالب:(ارتحلت الدنيا مدبرة وارتحلت الاخرة مقبلة ولكل واحدة منها بنون فكونوا من ابناء الاخرة ، ولا تكونوا من آبناء الدنيا فان اليوم عمل ولا حساب وغدا حساب ولا عمل) (٣)

والحقيقة الثانية : هي ان يكشف للانسان عن قداسة هذه الحياة وحرمتها ، ويدفع الانسان الى سبيل رعايتها والعناية بها ، ويشرع لها من الاحكام ما يضمن حمايتها من اى عدوان ، وينهض بالانسان لحراستها ، وبذل كل جهد في سبيل وقايتها من المخاطر والآفات ، واليك الشواهد على هذه الحقيقة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة : واما القرآن الكريم ،فيقول تعالى :(من عمل صالحا من ذكر او انثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ...)(٤)،(من أجل ذلك كتبنا علي بني اسرائيل انه من قتل نفسا بغير نفس او فساد في الارض فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا) (٥) ويقول تعالى:(ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة) (٦) ، ويقول : (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما) (٧)

---

(١) اخرجه البخارى كتاب الرقاق باب قول النبي صلى الله عليه وسلم كن في الدنيا كأنك غريب او عابر سبيل فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٢٣٣/١١ .

(٢) اخرجه البخارى كتاب الرقاق باب مثل الدنيا في الاخرة فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٢/١١

(٣) اخرجه البخارى كتاب الرقاق باب في الامل وطوله مع الفتح ٢٣٥/١١ ، (٤) ٩٧ : النحل .

(٥) ٣٥ : المائدة

(٦) ١٧٥ : البقرة

(٧) ٩٣ : النساء

(... ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك) (١) .

ومن الاحاديث قوله صلى الله عليه وسلم :(لا يحل دم امرئ مسلم .. الا باحدى ثلاث : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة) (٢) ، وقوله عليه الصلاة والسلام للثلاثة نفر الذين سألوا عن عبادة رسول الله صلى الله عليه وسلم فتقالوها وأرادوا الزهد في الدنيا وتركها فقال لهم : (انتم الذين قلتم كذا وكذا ، اما والله اني لأخشاكم لله واتقاكم له ، لكني اصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني) (٣) ، وعنه صلى الله عليه وسلم :(من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والاخرة...) (٤) .

ويقول عليه افضل الصلاة والسلام : (...كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه) (٥) ويقول ايضا عليه الصلاة والسلام :(من قتل دون ماله فهو شهيد) (٦)

---

(١) ٧٧ : القصص

(٢) متفق عليه ، اخرجه البخاري كتاب الديات باب قوله تعالى (أن النفس بالنفس والعين بالعين .. مع الفتح ١٢/١ ومسلم كتاب القسامة باب ما يباح به دم المسلم ٣/١٣٠٢-١٣٠٣ .

(٣) متفق عليه اخرجه البخاري كتاب النكاح باب الترغيب في النكاح مع الفتح ٩/١٠٤ ومسلم كتاب النكاح باب استحباب النكاح لمن تاقت اليه نفسه ووجد مئونة... ٢/١٠٢٠ .

(٤) اخرجه مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر ٤/٢٠٧٤ .

(٥) اخرجه مسلم كتاب البر باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وماله وعرضه ٤/١٩٨٦ .

(٦) متفق عليه ، اخرجه البخاري كتاب المظالم باب من قاتل دون ماله فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٥/١٢٣ واخرجه مسلم كتاب الايمان باب الدليل على ان من قصد أخذ مال غيره بغير حق كان القاصد مهدر الدم في حقه ١/١٢٥ .

(ومن هاتين الحقيقتين معا تظهر حقيقة الحياة الدنيا ، فهي ممر وليست مستقرا ، وهي مهمة وخطيرة وهي مقدسة ، فعلى الانسان ان يتخذ منها ممرا الى خير مستقر ، ولا يضيع من حياته لحظة من غير طائل ، وليسخرها لانجاز المهمة التي انيطت به على افضل وجه .

لقد استطاع الرجل المسلم بحكم فقهه للحياة وتقويمه اياها على هذا الاساس ، ان يستخدم حياته في ادق السبل واقومها لتحقيق مبادئه وغايته دون ان يدخل مع الاخرين في اى مزاحمة او صراع ، ودون ان يزهد في فرصها السانحة واعمالها المفيدة ويفر منها الى الكهوف .

ومن فهم حقيقة الدنيا على هذا الاساس يفهم المسلم متى يضحي في حياته ومتى لا يحق له ان يتصرف فيها بسوء ، فاذا كان جهادا لرفع راية التوحيد فهو اشجع الناس ومن اسخى الناس نفسا يقدم نفسه وماله في سبيل الله ، ولكن الانتحار او تعريض نفسه للخطر بدون فائدة فهذا امر لا يخطر للمسلم على بال)(١) .

واذا فهم المسلم حقيقة الحياة فانه اذا اصابه بلاء صبر واحتسب ولم يتبرم ولم يشكو لان هذه الحياة زائلة وهو منتظر لجنة ربه .

والمسلم عندما يفهم ان هذه الحياة دار ابتلاء فانه يبقى جادا مثابرا في العمل ، مغامرا لا يقف عند حد بل يتجاوز الاهداف القريبة الى تحقيق الامال بعيدة المنال .(٢)

والآيات والاحاديث التي اوردناها تدل المؤمن على ان هذه الحياة جزء قصير من الحياة :(فالحياة في نظر المؤمن حياة خالدة ، وان الحياة الاخرى تنبت من الحياة الاولى وان المرء هو في حاليه جميعا ، وان ما يعرو الجسد من تلاش لا يؤثر في حقيقة الروح ولا في كيان الانسان المعنوى ، يقول السهروردى رحمه الله :

---

(١) انظر منهج الحضارة الانسانية في القران الكريم ٧٧ ـ ٨٣ بتصرف يسير .
(٢) انظر اصول التربية الاسلامية ٤٤ ، ٤٩ .

قل لاصحاب رأوني ميتا   فبكوني اذ رأوني حزنا
لا تظنوني باني ميت   ليس هذا الميت والله انا
انا عصفور وهذا قفصي   طرت عنه فتخلى رهنا
فاخلعوا الانفس عن اجسادها   فترون الحق حقا بينا
لا ترعكم سكرة الموت فما   هي الا بانتقال من هنا

والموقنون بالله واليوم الآخر عندما يدركون الوجود على هذا المدى الرحب ، يرتفعون بقيمته ، ويتقنون فيه ، اذ يشكلون انفسهم وفق مراد الله لها ، ويحسون وهم على ظهر الارض بان لهم نسبا في السماء وان لهم قرابة تصلهم بازل العالم وابده).(١)

وان المؤمن ليدرك ان حياته بعد هذه الفانية الى الجنة فيستعد لها بالاعمال الصالحة ويقول ذلك ابن القيم شعرا :

فيا خاطب الحسناء ان كنت راغبا   فهذا زمان المهر فهو المقدم
ولما جرى ماء الشباب بغصنها   تيقن حقا انه ليس يهرم
وكن مبغضا للخائنات لحبها   فتحظى بها من دونهن وتنعم
وصم يومك الادنى لعلك في غد   تفوز بعيد الفطر والناس صوم
واقدم ولا تقنع بعيش منغص   فما فاز باللذات من ليس يقدم
وان ضاقت الدنيا عليك باسرها   ولم يك فيها منزل لك يعلم
فحي على جنات عدن فانها   منازلنا الاولى وفيها المخيم
ولكننا سبي العدو فهل ترى   نعود الى اوطاننا ونسلم .(٢)

هذه هي بعض الاثار في النفس والواقع لنظرة الاسلام للحياة ولكن من لم يتبصر في الحياة الدنيا بنظرة القرآن ، فانه يقبل على الحياة باعتبار انها الفرصة

---

(١) ركائز الايمان محمد الغزالي ٥١ ، وانظر اصول التربية الاسلامية ٤٧ ، وانظر جاهلية القرن العشرين ٢١١ .

(٢) حادى الارواح الى بلاد الافراح للعلامة ابن قيم الجوزية دار الكتب العلمية توزيع دار الباز بمكة المكرمة ٦-٧ .

الوحيدة امامه ، فاذا نال حظه من المتاع فانه يقبل على اللذائذ من كل جهة ، ولكن لا بد ان يصل الى (عصارة النعيم وزبدة اللذائذ فيضطره الحال الى ان يقعد ويجتر متعته التي استعصت على مزيد من التطور والاعتصار ، وعند ذلك يبدأ فيشعر بالسآمة والملل ، ضرورة ، ان لذائذ الحياة محدودة ، والنفس الانسانية ملولة ... هنالك لا بد ان تغشى السآمة على القلب ، وان يستبد به الضجر فيضيق صاحبه ذرعا بالحياة ، ويختنق ضمن ما قد سئمه من مظاهر الترف والنعيم كما يختنق دود القز وسط لفافات من الحرير ، ثم لا بد ان يلجأ الى احدى نهايتين : -

اما ان يسلمه الضجر والضيق الى اضطراب فكرى يسلمه اخيرا الى لون من الوان الانتحار .

واما ان تزجه حاله تلك في بعض الامراض العصبية والنفسية وتستحكم به عوادى القلق والاضطراب ، فيتخذ من العيادات النفسية ملجأ ومثابة له ، وينتقل من واحدة الى اخرى)(١) .

..... وما هذا الوباء النفسي المذهل الذى ملأ ديار الغرب بالعيادات النفسية وجعل التحول الى مهنة التطبيب النفسي ، ايسر سبيل الى اعظم ثروة ، الا ثمرة طبيعية لضياع اولئك عن معرفة حقيقة الحياة ، وعن ادراك مصدرها ومنتهاها ، معرفة مطابقة للحقيقة والواقع .

وما تلك المذاهب الفكرية الباطلة التى يعج بها الغرب الا تسكين لآلامهم واضطراباتهم النفسية ، حتى وان ظلت عقولهم محجوبة عن فهمها . ولكن الاستسلام

(١) منهج الحضارة الانسانية ٨٦ - ٨٧ وانظر جاهلية القرن العشرين ٢١٠ .

لدين لا يوافق العقل مبعث لمشكلة نفسية واجتماعية اخرى ... فهذه المذاهب تعبير دقيق عن هذه المشكلة النفسية الخطيرة التي تعصف بالمجتمع الغربي (والشرقي) اجمع ، وليست بحال من الاحوال تعبيرا عن اى حل لها .(١)

وبعد فتلك الاثار التي تركتها نظرة الاسلام في النفس والواقع، وهذه هي الاثار في النفس والواقع التي تركتها الفلسفات الاخرى والبعد عن هدى الاسلام .

فعلى الناس جميعا ـ والمسلمين خاصة ـ ان يدركوا هذه الحياة وفق امر الله حتى تستقيم نفوسهم وتستقيم لهم حياتهم .

---

(١) انظر منهج الحضارة محمد سعيد رمضان البوطي ٨٩ ـ ٩٠ .

نظرة الاسلام للكون :

ان الاسلام يحدثنا حديثا مسهبا عن الكون ومن جوانب متعددة ، فالاسلام يقرر ان هذا الكون مخلوق لله عز وجل خلق بقدرته وجعل كل شيء فيه منتظما لان خالقه الحكيم (١) يقول تعالى :(وما خلقنا السموات والارض وما بينهما الا بالحق واجل مسمى).(٢)

وان كل شيء في هذا الوجود يدل على ان هذا الكون من صنع صانع وتدبير مدبر، حكيم خبير ، لان كل شيء خلق بحكمة وابداع ، وخلق لغاية وقصد ، وهل تتحقق ارادة بدون مريد ، ام هل يتحقق قصد بدون قاصد ؟ !

(ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولي الالباب، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار)(٣) .

ثم ينبهنا الاسلام الى ان جل ما يراه الانسان حوله من اشياء الكون ومظاهره مسخر من قبل الله لخدمته ، وتدبير اسباب عيشه وتحقيق شروط رفاهيته وامنه ، والى ان الله تعالى قد اقام بينها وبين الانسان نسبا من الفكر والعقل ، فهي ليست مستغلقة على النظر والفهم ، بل خاضعة في معرفة كلياتها ودقائقها لمجهر التأمل والبحث .

(اولم يروا انا خلقنا لهم مما عملت ايدينا انعاما فهم لها مالكون، وذللناها لهم، فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ، ولهم فيها منافع ومشارب افلا يشكرون)(٤) ،

---

(١) انظر فلسفة التربية الاسلامية ٩٣ ، و. جاهلية القرن العشرين ١٠٨ ـ ٢٠٩ .
(٢) ٨ : الروم
(٣) ١٩٠ ـ ١٩١ : آل عمران
(٤) ٧١ ـ ٧٢ : يس

(الم تروا ان الله سخر لكم ما في السموات والارض ، واسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ...)(١)

ويقول تعالى:(هو الذى جعل لكم الارض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور .)(٢)

وبعد البيان بان هذا الكون بكل ما فيه مسخر لخدمة الانسان وانه ممكن من استخدامه ومذلل له، ياتي الاسلام ويقرر ان هذا الكون بكل ما فيه متاع زائل وانه سراب باطل ، وظل زائل ، وخيال عابر .

يقول تعالى مبينا هذه الحقيقة في آيات كثيرة ،فيقول :(المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير املا)(٣) ، ويقول:(فما اوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وابقى للذين امنوا وعلى ربهم يتوكلون)(٤) ، ويقول:(قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا)(٥) .

ولكن الاسلام لم يقف عند هذا الحد في حديثه عن الكون لانه لو وقف عند هذا الحد لزهد الانسان في هذا الكون وما فيه وترك الدنيا وعاش في الكهوف،لان الكون وما فيه متاع زائل،ولكن بعد بيان هذه الحقيقة دفعنا وحثنا على عمارة الارض واستخراج ما فيها من خيرات والاستفادة من خيراتها فقال تعالى :(قل من حرم زينة

---

(١) ٢٠ : لقمان
(٢) ١٥ : الملك
(٣) ٤٦ : الكهف
(٤) ٣٦ : الشورى
(٥) ٧٧ : النساء

الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ...)(١) ويقول:(هو الذى خلق لكم ما في الارض جميعا)(٢) ويقول تعالى:(هو انشأكم من الارض واستعمركم فيها)(٣) .

والاسلام يحدثنا ان كل هذا الكون خاضع لارادته سبحانه وتعالى وان هذا الكون مسير ومدبر بقدرته ، وان كل ما في الكون عابد لله ومسبح له سبحانه وتعالى ، (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون،والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم) (٤) ويقول (ويمسك السماء ان تقع على الارض الا باذنه) (٥) ويقول (وان من شيء الا يسبح بحمده ...)(٦) ويقول تعالى (فقال لها وللارض ائتيا طوعا او كرها ... قالتا اتينا طائعين)(٧) ويقول تعالى (والنجم والشجر يسجدان)(٨) .

وعندما تؤمن النفس بان هذا الكون ـ على نحو ما قدمنا ـ من خلق الله وتحت سلطانه وتسخيره لعباده فترتبط هذه النفس بالله خالق الكون الذى انعم عليها بتلك النعم ، وتزداد ايمانا ويقينا بحكمته وقدرته ونظرت الى هـذا الوجود المحيط بها ، ثم هي تنظر للجبال والارض والسماء فتراها كلها عابدة لله خاضعة له مسبحة بحمده فتقبل على الله بكل ما فيها عبادة وخشوعا وتسبيحا ويتجاوب التسبيح والتحميد والعبادة لله سبحانه وتعالى .(٩)

---

(١) ٣٢ : الأعراف
(٢) ٢٩ : البقرة
(٣) ٦١ : هود
(٤) ٣٧ ـ ٣٨ : يس
(٥) ٦٥ : الحج
(٦) ٤٤ : الاسراء
(٧) ١١ : فصلت .
(٨) ٦ : الرحمن
(٩) انظر فلسفة التربية الاسلامية في القرآن ٨٣ .

وعندها تؤمن النفس بان هذا الكون مسخر لها بقدرة الله وليس عدواً لها بل صديق لان كلا يعبد الها واحدا وكلاهما مخلوق لله عز وجل .(١)

فالتصور الاسلامي للكون يربط ما بينه وبين الانسان بوشائج القربى ويزيل ما بين الانسان والكون في التصورات الأخرى من مشاعر الخوف والرهبة ، ومشاعر الكراهية والعداوة فالكل في التصور الاسلامي من خلق الله متجه الى عبادته خاضع لسننه وحده سواء في ذلك سننه الكونية او التشريعية .

والكون هو ميدان فكر الانسان وميدان عمله ومخزن رزقه ووسيلته في ترقيته ، ومن ثم لا يكون بينه وبين الكون الا مشاعر الحب والاعزاز ، والاقرار بانه نعمة من الله ساقه اليه وسخره له .(٢) وما اروع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما طلع له جبل احد فقال (هذا جبل يحبنا ونحبه) (٣) .

والاسلام بنظرتيه للدنيا ، نظرة الحقارة ونظرة الاهمية والعمارة يوازن في نظرته الى الكون فيدعو الانسان الى تسخير الكون بكل ما فيه ، ولكن لا يغتر بذلك ، ولا يجعل ذلك غايته فيمارس الناس دنياهم واسباب عيشهم بدافع وظيفي ، وبروح استشعار المسئولية ، لا بدافع التعلق النفسي والنهم بها واللهاث وراءها (٤) .

والامم التى لا تدرك هذه الحقيقة وتسخر الكون بدافع النهم النفسي الغريزى مصيرها الزوال والانحطاط ، هكذا زالت حضارة الرومان وهكذا قضي على حضارة فارس

---

(١) انظر العدالة الاجتماعية في الاسلام سيد قطب ٢٢-٢٣ ، وانظر جاهلية القرن العشرين ٣٠٩ .

(٢) انظر اصول التربية الاسلامية عبد الرحمن النحلاوى ٣٧ ـ ٣٩ ، ونحو انسانية سعيدة محمد مبارك ١٣٤ .

(٣) البخارى كتاب الاعتصام بالسنة باب ما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم وحض على اتفاق اهل العلم ، وما اجتمع عليه الحرمان مكة والمدينة وما كان بهما من مشاهد النبي صلى الله عليه وسلم . فتح البارى بشرح صحيح البخارى ١٣ / ٣٠٤

(٤) انظر منهج الحضارة الانسانية في القرآن الكريم ١١٤ ـ ١١٧ .

وهكذا انتهت دولة بني الاحمر في الاندلس(وقد ظلت تلك الحضارة مستقرة في اوج قوتها وريعان شبابها ، حتى خلف على رعايتها خلف ، اهملوا تلك التبصرة القرآنية ، فاتجهوا الى الدنيا والتعامل معها بنفوسهم واهوائهم ، بعد ان كان يتجه اليها من قبلهم بعقولهم وبصائرهم ، فاستمرؤا مذاقها .. فاستزادوا من شهواتها ... فسكروا بها .. فكان ان تحول بهم السكر الى رعونة وطغيان ، وانغمسوا في حياة البذخ والترف . وانزلقوا الى المصير الذى طالما خشي منه عمر بن الخطاب على نفسه وعلى المسلمين من حوله وممن يأتون من بعده !!

فكان ان حقت عليهم سنة الله في عباده ، فهبطت تلك الحضارة من اوج قوتها متدرجة الى دركات الذبول والضعف ، ثم انحطت اخيرا في وادى الزوال والانمحاق كما يخر شهاب مضيء اتجه مختفيا وسط غمد الظلام ! ..

وان تعجب لشيء فاعجب عجبا لا ينتهي من اناس ... يتباهون من حضارة الاندلس بزخارفها وبانخات قصورها وهي لم تكن - لو علموا - الا موءشرات الشيخوخة في حياتها ، ونذر اتجاهها نحو التفكك والزوال !! .. ويعجبون منها باصداء الاغاني التي كانت تتعالى من ابهاء تلك القصور ، على طول لياليها المضيئة مع انها لم تكن - لو فهموا - الا حشرجة الموت من خلال انفاسها الاخيرة !!)(٢)

واذا كان الكون مسخرا لخدمة الانسان والوفاء بحاجاته ، فان شريعة الاسلام قد حددت طرق الانتفاع بهذا الكون واستخدام ما فيه بحيث يعود ذلك عليه وعلى افراد جنسه بالخير والنماء ، وبحيث يكون ذلك وفق طاعة الله ، وبعيدا عن معصيته - لا

---

(١) منهج الحضارة الانسانية في القرآن الكريم ١٣٤ - ١٣٥ .

كما هو حادث الآن من تسخير الانسان للقوى الكونية بما ادى الى اوخم العواقب في كثير من جوانب الحياة ، بل ويؤذن بتدمير البشرية بما انتجه العلم من أسلحة فتاكة . (١)

وكان خليقا بالانسان لو التزم بتوجيه الاسلام فأحسن ما وهبه الله من قوى الكون واسراره وما فيه من خيرات فوجه كل ذلك الى عمارة الارض بما يفي بحاجة الانسانية من الطعام والشراب وضرورات الحياة بدلا من ان يوجه معرفته بالكون وتسخيره لقواه الى تدمير حياته ، وان اقل القليل مما ينفق على الاسلحة الفتاكة ليكفي للوفاء بحاجة المحرومين على مستوى الارض البشرية فلو اسلم الناس لله وعبدوه واتبعوا شرعه لحل السلام في العالم .

وكما قلنا من قبل ان تغييرما بالنفس من العقائد والافكار والقيم والمشاعر طبقا للمنهج الاسلامي هو الطريق الى تغيير الله ما بالانسانية من مظاهر السوء والتدهور والانحلال . فاننا نقول هنا كذلك ان تغيير ما بالنفس الانسانية من تصورات زائفة عن الانسان والحياة والكون بحيث تحل محلها هذه التصورات الاسلامية الصحيحة التي بينتها آنفا ـ ان هذا التغيير بدوره من أعظم الطرق المؤدية بالبشرية الى تغيير ما بها من مظاهر السوء والتدهور والانحلال وفقا لسنة الله عز و جل (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) . (٢)

---

(١) انظر اصول التربية الاسلامية ص ٤٣

(٢) ١١ : الرعد

وليس الطريق الى تغيير احوال البشرية وما تعانيه من أزمات حضارية ـ ليس الطريق الى ذلك هو تغيير أنماط المعيشة ولا وسائل الانتاج ولا اشباع الرغبات المادية ، ولا امتاع النفس باللذائذ الحسية ولا احكام سيطرتها على القوى الطبيعية ولا بكثرة معارضها ومخترعاتها ، انما التغيير الحقيقي هو تغيير ما بالنفس من العقائد والقيم والمشاعر والوجدانيات ، ومن التصورات والمفاهيم ، تغيير كل ذلك على نحو افضل كما يقرره الاسلام ، فإن هذا التغيير الباطني هو الطريق الى كل تغيير صحيح في سلوك الانسان واعماله وأخلاقه وعلاقاته بالكون والانسان والحياة ، وفي نفس الوقت فإنه مثل البناء الحقيقي للشخصية السوية التي يقدمها الاسلام نموذجا للانسان الكامل ، ومنه ومن أمثاله تتكون البشرية المتسامية الى افق الانسانية الرفيع .

فإنا اتجه منهج التغيير لواقع البشرية هذا الاتجاه وسلك في تحقيق أهدافه طريق التغيير النفسي بكل معاني هذه الكلمة ، فإن هذا المنهج يكون قد سلك الطريق الصحيح في التغيير القائم على سنة الله عز وجل (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)

وفي الختام لا بد وان نقرر حقيقتين :

الحقيقة الاولى : هي ان تغيير ما بالنفس يعني بناء الانسان بناء اساسيا وليس مجرد تغيير ظاهرة ، وبناء الانسان بحيث يصبح نموذجا انسانيا رفيعا ليست مهمة سهلة ولا غاية تدرك ما بين يوم وليلة ، ولكنها مهمة دقيقة وصعبة تحتاج الى جهد كبير وصبر طويل ، وهل قضى رسول الله صلى الله سنوات دعوته الطويلة الا في تربية أصحابه وبناء شخصياتهم الاسلامية القوية بالآية والحديث والموعظة الحسنة والقدوة الصالحة في كل لحظة وحين وفي كل مكان في المسجد والبيت والشارع وفي ميادين القتال وميادين

العمل على سواء؟حتى قدم للانسانية هذه المجموعة الصالحة نموذجا يحتذى ومصدر خير ، قدم للبشرية عطاءه الفذ من الخلق والدين والعلم والمعرفة • وهذه الحقيقة تجعل من الواجب علينا أفرادا وجماعات وحكومات ان نبذل في سبيلها كل ما نملك من جهد ووقت ومال لأنها الطريق الصحيح والوحيد الى تغيير الأقوام •

أما الحقيقة الثانية :فهي مسئولية المسلمين عن هذا التغيير سواء في محيطهم الاسلامي او في المحيط العالمي ، فأما في المحيط الاسلامي فهي مسئوليتنا عن تغيير ما بأنفسنا واصلاح شئوننا وفق منهج ديننا ، وهي مسئولية تلزمنا في كل حين لأن التزامنا بالاسلام وصياغة حياتنا وفق منهجه هو في حقيقته معنى كوننا مسلمين وبدونه لا نكون كذلك •

وأما مسئوليتنا عن ذلك في المحيط العالمي فالواقع ان البشرية من حولنا اذا كانت تحمل وزر نفسها فيما انحدرت اليه من حضيض فان الأمة الاسلامية بما أعطاها الله من الوحي والدين الصحيح تحمل نصيبها من اضلال البشرية ، حيث لم تقدم لهذه البشرية دينها الحق عن طريق الدعوة الصحيحة الفاعلة والنموذج الاسلامي الرفيع في واقع المجتمعات الاسلامية ، بل على العكس من ذلك فأن الامة الاسلامية تقدم بحقيقتها ومظهرها صورة شائهة للمجتمع الاسلامي • او بتعبير أدق للمجتمع المحسوب ـ ظلما ـ على الاسلام وهو بعيد عن تطبيقه الشامل المتضمن للعبادة الحقة لله •

ومن هنا تأتي مسئوليتنا عن التغيير في محيط البشرية انقاذا لها من الدمار ، حيث أنها لا تملك بأديانها وبفلسفاتها ومفاهيمها الباطلة وتشريعاتها أداة هذا التغيير •

وحيث أننا نحن الذين نملك بديننا الصحيح وعقائدنا السامية وتصوراتنا الكاملة عن الكون والانسان والحياة ٠

فالامة الاسلامية بذلك مسئولة أمام الله اذا قصرت في القيام بهذا الواجب واجب التغيير لما بأنفسها وما بالبشرية طبقا لدين الله الحق حتى يكون ذلك هو الطريق الصحيح وحتى يغير الله ما بنا بصفة خاصة وما بالبشرية بصفة عامة طبقا لسنته في التغيير (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) ٠

الفصل الخامس

سنة الله في التدافع

سنة الله في التدافع

١ ـ معنى التدافع :

التدافع لغة : من دفعت الى فلان شيئا ، ودفعت الرجل فاندفع واندفع الفرس ، اى اسرع في سيره ، واندفعوا في الحديث وتدافع القوم : اى دفع بعضهم بعضا (١) ، وتدافعوا في الحرب : اى دفع بعضهم بعضا (٢) .

واما التدافع اصطلاحا : فهو الصراع والقتال بين الناس ، بين الخير والشر ، بين الحق والباطل ، بين امة وامة .

٢ ـ تقرير سنة الله في التدافع :

ان الصراع بين البشر سنة الهية ثابتة منذ ان خلق الله البشر (٣) ، وفي ذلك يقول ابن خلدون :(اعلم ان الحروب وانواع المقاتلة ، لم تزل واقعة في الخليقة منذ برأها الله ، وأصلها ارادة انتقام بعض البشر من بعض ، ويتعصب لكل منها أهل عصبيتها ، فاذا تذامروا لذلك وتوافقت الطائفتان ، أحدهما تطلب الانتقام والاخرى تدافع كانت الحرب وهو امر طبيعي في البشر لا تخلو عنه امة ولا جيل ، وسبب هذا الانتقام في الاكثر اما غيرة او منافسة او عدوان ، واما غضب لله ولدينه ، واما غضب للملك وسعي في تمهيده) .(٤)

ومن الشواهد القرآنية التي تدل على ان الصراع بين الناس سنة الهية قوله سبحانه وتعالى : (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ، ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم

---

(١) الصحاح للجوهرى ٣ / ١٢٠٨
(٢) بصائر ذوى التمييز ٢ / ٦٠٣

(٣) انظر الجهاد في التشريع الاسلامي ٤٢ ، وانظر التفسير الواضح ١ / ٧٤ ، وانظر القتال في الاسلام ٧
(٤) مقدمة ابن خلدون ٢٧٠ ـ ٢٧١

البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد) (١) .

في هذه الآية بين سبحانه وتعالى انه بالرغم من وحدة الرسل الذين ارسلهم الله للبشر ، وبرغم وحدة ما جاءوا به من توحيد لله وافراده بالعبودية ، الا ان الاختلاف والتقاتل وقع بين اتباعهم وسائر البشر(٢) وفق مشيئة الله وسنته من خلق الانسان بتكوينه واستعداده قادرا على الهدى أوالضلال ، ومشيئته سبحانه وتعالى في اختلاف استعدادات البشر وقواهم وميولهم (٣) ، (هذه هي سنته تعالى في الانسان وهي منشأ الاختلاف ، ولو شاء الله ان لا يجعل سنته في تبليغ الدين وعرضه على الناس هكذا بأن يجعله من الهاماتهم العامة وشعورهم الفطرى كشعور الحيوان والهامه ما فيه منفعته لكانوا في هداية الدين سواء يسعدون به أجمعين فتمنعهم بيناته ان يختلفوا فيقتتلوا ، ولكن خلق الانسان على غير ما خلق عليه الحيوان ، وكان ذلك سبب اختلاف أهل الاديان) (٤) (ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر) ، فمنهم من يؤمن ايمانا صحيحا فيأخذ الدين على وجهه ، ومنهم من يكفر ، ومنهم من يأخذ الدين بهواه فيكون كافرا في الحقيقة ، وان كان غالياً فيما احدث من منهب او طريقة ، وكل ذلك مدعاة للتخاصم وسبب للتنازع والتقاتل (٥) ، فان من سنة الله تعالى أيضا العداء بين المؤمنين والكافرين ،يقول تعالى مبينا

---

(١) ٢٥٣ : البقرة
(٢) انظر تفسير الرازى ٦ / ٢١٩ وانظر في ظلال القرآن ١ / ٢٨٤
(٣) انظر تفسير المنار ٣ / ٧ وانظر في ظلال القرآن ١ / ٢٨٤
(٤) تفسير المنار ٣ / ٧
(٥) انظر المرجع السابق ٣ / ٧ ـ ٨

سنته ومشيئته في ذلك (١) : (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن ، يوحي بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون) (٢)

ثم أكد هذا المعنى وهو ان الصراع والاقتتال هو مشيئة الله وسنته في خلقه (٣) بقوله (ولو شاء الله ما اقتتلوا ٠٠) ، وقد ذهب الشيخ محمد عبده الى تفسير هذا القول بوجه آخر أخص من المعنى الاول فقال : (يمكن تفسير هذه الجملة بمثل ما فسرت به الجملة الاولى ، والاولى ان تفسر بوجه آخر أخص كأن يقال : لو شاء الله تعالى ان تكون سنته في الانسان على ما فطر عليه من الاختلاف ان يعذر المختلفون من افراده بعضهم بعضا ، ويوطن كل فريق منهم نفسه على ان ينتصر لرأيه بالحجة ويسعى لمصلحته بالفطنة لما اقتتلوا على ما يختلفون فيه ، ولكنه جعلهم درجات في الفهم والحزم واودع في غرائزهم المدافعة عن حقيقتهم والنضال دون مصلحتهم بكل ما قدروا عليه من قول وعمل ، فالقوى بالرأى يحارب بالرأى والقوى بالسيف يقاوم بالسيف ، فكان الاختلاف في الراى والمصالح معا مع عدم العذر مؤديا الى الاقتتال لا محالة ، وهكذا خلق الانسان فلا يقال لم خلقه هكذا لأن هذا بحث عن أسرار الخلقة (٤) (ولكن الله يفعل ما يريد) ٠

---

(١) انظر شفاء العليل ٥٨٥ وانظر مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية ٨ / ٥٥ ، وانظر شرح العقيدة الطحاوية ١١٦
(٢) ١١٢: الأنعام
(٣) انظر تفسير الرازى ٦ / ٢٢١ ، وقد عد ابن تيمية هذه الآية من ارادة الله الكونية التي تدل على سنة من سننه سبحانه وتعالى انظر مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية ٨ / ١٨٨
(٤) تفسير المنار ٣ / ٨ وانظر فتح القدير ١ / ٢٧٠

اقول ان ما قدره الله من قتال المؤمنين للكافرين هو الحكمة بعينها

مشيئة مطلقة ، ومعها القدرة الفاعلة ، وقد قدر ان يكون الناس مختلفين في تكوينهم ، وقدر ان يكونوا موكلين الى انفسهم في اختيار طريقهم ، وقدر ان من لا يهتدى منهم يضل ، وقدر ان الشر لا بد ان يعتدى ويريد العوج ، وقدر ان يقع القتال بين الهدى والضلال ، وقدر ان يجاهد أصحاب الايمان لاقرار حقيقته الواحدة المستقيمة ، وانه لا عبرة بالانتساب الى الرسل من أتباعهم ، انما العبرة بحقيقة ما يعتقدون وحقيقة ما يعملون ،وانه لا يعصمهم من مجاهدة المؤمنين لهم ان يكونوا ورثة عقيدة وهم عنها منحرفون .

وهذه الحقيقة التي قررها الله للجماعة المسلمة في المدينة حقيقة مطلقة وسنة جارية لا تتقيد بزمان ؛ انما هي طريقة القرآن في اتخاذ الحادثة المفردة المقيدة مناسبة لتقرير الحقيقة المطردة المطلقة . (١)

ومن الآيات التي جاءت تقرر ان التدافع والقتال بين المؤمنين والكافرين سنة الهية قوله سبحانه وتعالى في سورة البقرة : (ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا افرغ علينا صبرا وثبت اقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ، فهزموهم باذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ولكن الله ذو فضل على العالمين) (٢) . وقال تعالى في سورة الحج :(اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير، الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز) (٣) .

---

(١) في ظلال القرآن بتصرف يسير ٢٨٥/١ وانظر تفسير المنار ١٢/ ٢٤٩ .
(٢) ٢٥٠ ـ ٢٥١ : البقرة .
(٣) ٣٩ ـ ٤٠ : الحج .

٣ ـ حكمة الله في سنة التدافع :

وقد اضاف الله عز وجل الدفع الى نفسه على قراءة الجمهور (١) فقال : (ولولا دفع الله) في الآيتين ، ليدل على ان هذا الدفع منه ، وانه سنة من سنن الله في الاجتماع البشرى الذى اقام عليها دعائم العمران والاستقرار في الوجود (٢) ، ولولا هذا الدفع دفع الله الناس بعضهم ببعض الذى هو دفع اهل الباطل باهل الحق ، واهل الافساد في الارض باهل الاصلاح فيها ، لغلب اهل الباطل والافساد في الارض وبغوا على الصالحين واوقعوا بهم ، حتى يكون لهم السلطان وحدهم فتفسد الارض بفسادهم ، وتبطل منافعها وتتعطل مصالحها ، حتى ان اماكن العبادة من الصوامع والبيع والصلوات والمساجد على قداستها وتخصيصها لعبادة الله وذكره لا تسلم من اذاهم ، بل تمتد اليها ايدى الظالمين بالهدم والتخريب ، ولا يقف امام هذا الافساد وهذا التخريب الا ان يدفع بمثل القوة التي يصول بها ويجول الباطل واهله ، فكان من فضل الله على العالمين واحسانه الى الناس اجمعين ، ان شرع لاهل دينه الحق المصلحين في الارض قتال المفسدين فيها من الكافرين والبغاة المعتدين (اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا) فاهل الحق حرب لاهل الباطل في كل زمان والله ناصرهم ما نصروا الحق وارادوا الاصلاح في الارض (ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز)(٣) .

وليس التنازع بين المؤمنين والكافرين مقتصرا على جانب من جوانب الحياة وهو القتال ، بل ان الصراع بين اهل الحق والباطل والتدافع فيما بينهم في كافة شؤون الحياة وقوله تعالى :(ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض) ليس نصا فيما يكون من الحرب والقتال خاصة بل هو عام لكل وجوه الصراع(٤) ؛

---

(١) انظر فتح القدير ٢٦٦/١ وانظر تفسير القرطبي ١٠٦٧/٢ .
(٢) انظر تفسير المنار ٤٩١/٢ وانظر تفسير المراغي ٢٢٥/١ .
(٣) انظر الكشاف للزمخشرى ٣٨٢/١ وانظر زاد المسير ٣٠٠/١ وانظر فتح القدير ٢٦٦/١ وانظر تفسير ابي السعود ١٠٩/٦ وانظر تفسير المنار ٤٩٧/٢ وانظر في ظلال القران ٢٤٢٥/٤ .
(٤) انظر تفسير المنار ٤٩٧/٢ .

فالتنازع بين اهل الحق واهل الباطل موجود في كل موقع من مواقع الحياة ، وفي كل متجه فيها ، وهذا هو الذي ينمي الحياة ، ولولا ذلك لأسنت الحياة وتعفنت ولكانت ككتلة باردة متضخمة اشبه ما يكون بجبل من الجليد (١) .

وليس هذا التدافع بمفهومه الواسع يقع بين اهل الحق واهل الباطل وحدهم ، بل قد يتصارع اهل الباطل انفسهم ـ وهذا كثيرا ما يحدث ـ تنافسا على الدنيا وحبا للملك والسلطان ، وان من حكمة الله ورحمته بعباده انه اذا قامت دولة وقويت وارادت ان تفسد في الارض وتستذل الشعوب ، يجعل الله عز وجل امامها دولة اخرى في قوتها تنازعها وتقاتلها فتصدها وتدفع الشر عن الناس فالله عز وجل يسلط بعض الظالمين على بعض ، او يسلط المؤمنين على الظالمين حتى لا تفسد الارض ، فعندما قويت انجلترا ـ ولم يكن هناك قوة للمؤمنين ـ قوى الله عز وجل المانيا لترهبها ولتدافعها ، وعندما قويت امريكا اقام الله روسيا امامها تدافعها وتنازعها ليستقيم ميزان القوى العالمية ، وحتى لا يعم طغيان وافساد امريكا الارض كلها (٢) .

واذا كان قد تبين لنا ان التدافع والتنازع للبقاء سنة الله الجارية في عباده (٣) ، وان البقاء للامثل والاتقى والنصر له ، فانه ينبغي للمؤمنين ان يقوموا بواجبهم من مدافعة اهل الباطل ليتحقق وعد الله لهم بالنصر (٤) والتمكين في الارض ، لا طمعا في الدنيا وحرصا عليها وانما لاعلاء كلمة الله في الارض وتحريرها من الفساد والطغيان (٥) .

فالواقع ان سنة الله في التدافع هي المقدمة الاولى التي تترتب عليها سنة الله في النصر والهزيمة ، ومن هنا قدمت الحديث عن سنة الله في التدافع قبل الحديث عن سنة الله في النصر والهزيمة .

---

(١) انظر التفسير القراني للقران ٢/٣١١ .
(٢) انظر التفسير الواضح ١/٧٤ .
(٣) انظر تفسير المنار ٢/٤٩٧ .
(٤) انظر تفسير القرطبي ٥/٤٤٦٢ .
(٥) انظر مقدمة ابن خلدون ٢٧١ وانظر الجهاد في سبيل الله لابي الاعلى المودودي ١٥ .

الفصل السادس

سنة الله في النصر والهزيمة

١ ـ معنى النصر والهزيمة :

النصر

قبل الحديث عن سنة الهزيمة لا بد من بيان معاني كل منهما ،والذى يظهر ان النصر مقابل للهزيمة :

لقد جاءت مادة النصر في لغة العرب لتدل على معاني مختلفة منها :

١ ـ اعانة المظلوم : اى نصره على عدوه ينصره ونصره ينصره[2] نصرا ، والنصرة حسن المعونة قال تعالى : (من كان يظن ان لن ينصره الله في الدنيا والآخرة) (١)

٢ ـ وانتصر الرجل اذا امتنع من ظالمه . قال الازهرى : يكون الانتصار من الظالم الانتصاف والانتقام .

٣ ـ وانتصر منه: انتقم ، ونصر : ابو قبيلة من بني أسد .

٤ ـ والتناصر التعاون على النصر ، وتناصروا نصر بعضهم بعضا .

٥ ـ ونصر الغيث الارض : اى غاثها ، ونصرت الارض فهي منصورة اى مطرت وقال الشاعر يخاطب خيلا :

اذا دخل الشهر الحرام فجاوزى

بلاد تميم وانصرى أرض عامر

٦ ـ النصر: العطاء قال رؤبة :

اني واسطار سطرن سطرا

لقائل يا نصر نصرا نصرا

ويكاد يكون معنى النصر اللغوى محصورا في ستة معاني : وهي : اعانة المظلوم والتأييد والامتناع من الظلم والانتصاف منه والانتقام منه، والغيث والعطاء ومن هذه المعاني اللغوية يتضح معنى النصر وان النصر

---

(١) ١٥ : الحج

(٢) راجع لسان العرب ٣ / ٦٤٧ ، الصحاح ٢ / ٨٢٩ وبصائر ذوى التمييز ٥ / ٦٩

ليس له صورة خاصة ومعنى واحد ٠

وورد النصر في القرآن على أربعة وجوه : (١)

الوجه الاول : النصر بمعنى المنع فذلك في قوله تعالى : (ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون) (٢)

الثاني : النصر بمعنى العون فذلك كقوله تعالى : (وان قوتلتم لننصرنكم) يعني لنعيننكم) (٣)

الثالث : النصر : يعني الظفر وذلك في مثل قوله تعالى : (وما النصر الا من عند الله) (٤) ومثل قوله تعالى (وانصرنا على القوم الكافرين) (٥)

الرابع : النصر : يعني الانتقام في مثل قوله تعالى : (ولو شاء الله لانتصر منهم) (٦)

ومن هذه المعاني يظهر ان النصر له صور متعددة يجعلها الله لعباده فقد ينصرهم بمنعهم من اعدائهم ، وقد يكون بالعون على الاعداء وقد يكون بالظفر المادى والتمكين ، وقد يكون بالانتقام من اعدائهم الكافرين ٠ الى غير ذلك من وجوه النصر الذى سيأتي ذكرها ٠

---

(١) الاشباه والنظائر ٣٣٩
(٢) ٤٨ : البقرة
(٣) ١١ : الحشر
(٤) ١٢٦ : آل عمران
(٥) ١٤٧ : آل عمران
(٦) ٤ : محمد

٢ ـ تقرير سنة الله في النصر والهزيمة وبيانها :

ان من سنن الله في هذا الكون سنته سبحانه وتعالى في نصر المؤمنين وهزيمة الكافرين ، وهي طرف من الناموس الاكبر الذى يحكم الحياة الانسانية ، وقد ربط الله عز وجل بين نصره للمؤمنين وبين الحق الذى تقوم عليه السماء والارض والنظام الكوني بشكل عام (١) .

وهذه السنة شأنها كشأن بقية سنن الله نافذة ماضية كما تمضي هذه الكواكب والنجوم في دوراتها المنتظمة ، وكما يتعاقب الليل والنهار في الارض على مدار الزمان ، وكما تنبثق الحياة في الارض الميتة التي ينزل عليها الماء (٢) ، بل ان هذه السنة اكثر مضيا ونفاذا من كل ذلك لان هذه السنن المادية قد تنخرق لتتحقق سنة النصر ، او لحكمة يريدها الله عز وجل كما ذكرت سابقا (٣) .

ولقد تبطئ آثار هذه السنة بالقياس الى اعمار البشر المحدودة ولكنها لا تخلف ابدا ولا تتخلف ، والمؤمن يوقن بهذه الحقيقة حقيقة ثبات هذه السنة وعدم تخلفها ونفاذها ولو كان الواقع الصغير في جيل محدود او رقعة محدودة يخالف تلك الحقيقة ، فهذا الواقع هو الباطل الزائل ، الذى يوجد في الارض لحكمة يريدها الله .

قد يبطئ النصر لان بنية الامة المؤمنة لم تنضج بعد نضجها ، ولم يتم بعد تمامها ، ولم تحشد بعد طاقاتها ، ولم تتحفز كل خلية وتتجمع لتعرف اقصى المذخور فيها من قوى واستعدادات ، فلو نالت النصر حينئذ لفقدته وشيكا لعدم قدرتها على حمايته طويلا !

---

(١) في ظلال القران ٢٤٣٨/٤ .
(٢) المرجع السابق ٥/ ٣٠٠٢ .
(٣) راجع صفحة   من الرسالة

وقد يبطئ النصر حتى تبذل الامة المؤمنة آخر ما في طوقها من قوة ، وآخر ما تملكه من رصيد فلا تستبقي عزيزا ولا غاليا ، لا تبذله هينا رخيصا في سبيل الله .

وقد يبطئ النصر حتى تجرب الامة المؤمنة آخر قواها فتدرك أن هذه القوى وحدها بدون سند من الله لا تكفل النصر ، انما ينزل النصر عندما تبذل آخر ما في طوقها ثم تكل الامر بعدها الى الله .

وقد يبطئ النصر لتزيد الامة المؤمنة صلتها بالله ، وهي تعاني وتتألم وتبذل ولا تجد لها سندا الا الله ، ولا متوجها الا اليه وحده في الضراء ، وهذه الصلة هي الضمانة الاولى لاستقامتها على النهج بعد النصر عندما يتأذن به الله فلا تطغى ولا تنحرف عن الحق والعدل والخير الذى نصرها الله به .

وقد يبطئ النصر لان الامة المؤمنة لم تتجرد بعد في كفاحها وبذلها وتضحياتها لله ولدعوته فهي تقاتل لمغنم تحققه ، او تقاتل حمية لذاتها او تقاتل شجاعة امام اعدائها ، والله يريد ان يكون الجهاد له وحده وفي سبيله بريئا من المشاعر الاخرى ...

كما قد يبطئ النصر لان الامة التي يحاربها المؤمنون فيها بقية من خير ، يريد الله ان يجرد الشر منها ليتمحض خالصا ، ويذهب وحده هالكا ، لا تتلبس به ذرة من خير تذهب في الغمار .

وقد يبطئ النصر لان الباطل الذى تحاربه الامة المؤمنة لم ينكشف زيفه للناس تماما ، فلو غلبه المؤمنون حينئذ فقد يجد له انصارا من المخدوعين فيه ، ولم يقتنعوا بعد بفساده وضرورة زواله ، فتظل له جذور في نفوس الابرياء الذين لم تنكشف لهم الحقيقة ، فيشاء الله ان يبقى الباطل حتى يتكشف عاريا للناس ، ويذهب غير مأسوف عليه من ذى بقية .

وقد يبطئ النصر لان البيئة لا تصلح بعد لاستقبال الحق والخير والعدل الذى تمثله الامة المؤمنة فلو انتصرت حينئذ للقيت معارضة من البيئة لا يستقر معها قرار فيظل الصراع قائما حتى تتهيأ النفوس من حوله لاستقبال الحق الظافر ولاستبقائه !

من اجل هذا كله ، ومن اجل غيره مما يعلمه الله قد يبطئ النصر (١) ، ويبدو للناظر الذى يقيس الامور بظواهرها ولا يتعمق لينظر بالمقياس الشامل لهذا الوجود ، ان هذا خلف في السنة او تبدل لها .

وقد تتحقق سنة النصر بغير صورتها الظاهرة من الغلبة على الاعداء والتمكين في الارض ، ويظن بعض الناس ان ذلك خلف للسنة ولوعد الله بنصر المؤمنين ، وليس الامر كذلك ، فالنصر كما تحدثت عن معناه ليس مقتصرا على صورة واحدة ، وانما هو صور متعددة ، واى تحقق لصورة معينة انما هو تحقيق للسنة ، فسنة الله نافذة ابدا ، ووعد الله بنصر رسله والمؤمنين معه في مثل قوله تعالى :(انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد)(٢) وهذا وعد متحقق وان بدا ان بعض الانبياء قتلوا كيحيي وزكريا ، ومنهم من خرج مهاجرا مطرودا من ارضه كابراهيم ، وان من المؤمنين فيهم من يسام سوء العذاب ، وفيهم من يلقى في الاخدود ، وفيهم من يستشهد وفيهم من يعيش في كرب واضطهاد فسنة الله في قديم الدهر وحديثه ان ينصر عباده المؤمنين في الدنيا (٣) بوجه من وجوه النصر التالية :ـ

١ ـ النصر بالانتقام لهم ممن آذاهم سواء كان ذلك بوجودهم او في غيبتهم او بعد موتهم كما فعل بقتلة يحيي وزكريا وشعيبا سلط عليهم من اعدائهم من اهانهم وسفك دمائهم ، وقد ذكر ان النمرود اخذه الله تعالى اخذ عزيز مقتدر واما الذين راموا صلب المسيح عليه السلام من اليهود سلط الله تعالى عليهم الروم فاهانوهم واظهرهم الله تعالى عليهم ، ثم قبل يوم القيامة سينزل عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام اماما عادلا وحكما مقسطا فيقتل المسيح الدجال وجنوده من اليهود ، ويقتل الخنزير ويكسر الصليب ويضع الجزية فلا يقبل الا

---

(١) في ظلال القران ٢٤٣٧/٤ بتصرف يسير .
(٢) ٥١ : غافر .
(٣) انظر تفسير ابن كثير ٨٣/٤ وانظر في ظلال القران ٣٠٨٥/٥ .

الاسلام وهذه نصرة عظيمة)(١) .

٢ـ النصر بغلبة الحجة والبرهان وذلك كانتصار ابراهيم عليه السلام بحجته على قومه ، وهو عام لجميع المحقين وهو سلطان اعظم من سلطان الملك لانه لا يزول ابدا .

٣ـ النصر بانزال عقوبة الاستئصال او غيرها من العقوبات الكونية التي لا دخل للبشر فيها على اعداء المؤمنين والرسل مثل عقابه لقوم نوح وصالح و وغيرهم .

٤ـ النصر بنجاة المؤمنين من كيد اعدائهم وسلامتهم من شرورهم كانتصار ابراهيم عليه السلام بنجاته من النار التي اججها قومه لحرقه .

٥ـ النصر بانتصار وانتشار فكرة الداعي باستشهاده في سبيل الله وكم من شهيد ما كان يملك ان ينصر عقيدته ودعوته ولو عاش الف عام كما نصرها باستشهاده ، كالنصر الذى ظفر به غلام اصحاب الاخدود مع سقوطه شهيداً على يد عدوه الملك الذى رماه بسهم من كنانة الغلام نفسه ! ، وقال كما ذكر له الغلام نفسه : باسم الله رب الغلام فرماه فاصابه فوضع الغلام يده على صدغه فمات ، فتحول الناس مؤمنين بدعوة الغلام كافرين بالملك الجبار .

٦ـ النصر بادالة دولة الكفر ، ولو بعد حين عن طريق الانهيار الذاتي او بتسليط دولة كافرة اخرى ، ثم ظهور دولة الاسلام ظهورا غير مصحوب باعمال قتالية .

٧ـ النصر باحباط الله لخطط الاعداء ، وعدم تمكينهم من التغلب على قوة المسلمين ، وبقاء المسلمين متمسكين بدينهم رغم ضراوة الحرب ضدهم .

٨ـ النصر بظهور الحق على الباطل واعتراف انصار الباطل في نفوسهم بانهم مبطلون ، وبان خصومهم الدعاة هم المحقون .

---

(١) تفسير ابن كثير ٤ / ٨٣ .

٩- وقد ياتي النصر الفكري بتحول الغالب الفاتح الى دين المغلوب المهزوم في معارك القتال كما حصل ذلك في بعض اطوار التاريخ عندما دخل التتار في الاسلام (١) .

١٠- ومن صور النصر ايتاء الكتاب والهدى ووراثة ذلك من اتباعهم وهذا ما اشارت اليه الآية الكريمة بعد تقرير نصر الرسل في قوله تعالى :(ولقد آتينا موسى الهدى واورثنا بني اسرائيل الكتاب هدى وذكرى لاولى الالباب).

١١- ومن صور النصر انتصار المؤمنين على ذواتهم وشهواتهم وعدم استسلامهم فقد كان ابراهيم عليه السلام في قمة النصر وهو يلقى في النار (٢) .

وقد ذكر الرازي وجوها اخرى من وجوه النصر فقال (واعلم ان نصرة الله المحقين تحصل بوجوه (٣) :

احدها : انهم منصورون بالمدح والتعظيم ، فان الظلمة وان قهروا شخصا من المحقين ، الا انهم لا يقدرون على اسقاط مدحه على السنة الناس .

وثانيها : انهم منصورون بسبب ان بواطنهم مملؤة من انوار الحجة وقوة اليقين فانهم انما ينظرون الى الظلمة والجهال كما تنظر ملائكة السموات الى اخس الاشياء .

وثالثها : ان المبطلين وان كان يتفق لهم ان يحصل لهم استيلاء على المحقين ففي الغالب ان ذلك لا يدوم ، بل يكشف للناس ان ذلك امر وقع على خلاف الواجب ونقيض الحق .

ورابعها : ان الظلمة والمبطلين كما يموتون تموت اثارهم ولا يبقى لهم في الدنيا اثر ولا خبر ، واما المحقون فان آثارهم باقية على وجه الدهر والناس بهم يقتدون في اعمال البر والخير ولمحنهم يتركون ، فهذا كله انواع نصرة الله للمحقين في الدنيا)(٤) .

---

(١) بصائر للمسلم المعاصر ١٨٥-١٨٦ بتصرف وانظر تفسير الطبري ٧٤/٢٤ وانظر الكشاف للزمخشري ٤٣٠/٣ وانظر تفسير ابي السعود ٢٨٠/٧ ، وانظر زاد المسير ٢٣٠/٧ وانظر فتح القدير ٤٩٥/٤ وانظر تفسير المنار ١٥٢/٣ .

(٢) في ظلال القران ٣٠٨٥/٥ - ٣٠٨٧ بتصرف .

(٣) سأكتفي بذكر ما لم يرد ذكره في الوجوه السابقة

(٤) تفسير الرازي ٧٧/٢٧ بتصرف

هذه هي صور النصر التي حصلت للمؤمنين على مدار التاريخ والتي قد يحدث بعض صورها لهم في كل عصر من العصور .

وان مما تميزت به هذه الامة امة محمد صلى الله عليه وسلم عن الاقوام السابقة ان جعل سبحانه من سنته أن ينصرها على عدوها بالصورة الحسية والظاهرة وان يمكن لها في الارض كما دل على ذلك (١) قوله تعالى (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فاولئك هم الفاسقون) (٢) ، وقد جاء التعبير بقوله منكم ليدل على هذه الخصوصية (٣)

واما سنته سبحانه وتعالى في نصر المؤمنين من الاقوام السابقة فقد يكون نصرهم على عدوهم بالظهور والتمكين والاعلاء في الارض كما اعطى الله داود وسليمان من الملك ما قهروا به كل كافر ، وكما نصر طالوت على جالوت . وقد ينصرهم بوجه آخر من وجوه النصر التي ذكرتها آنفا .

ويدل على ان الغلبة والتمكين في الارض لم تكن للمؤمنين وانما كانت لفئات كثيرة منهم ولم تكن لجميعهم (٤) .

قوله سبحانه وتعالى : (... كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ...) (٥)

---

(١) انظر تفسير الرازى ٢٤ / ٢٤ ـ ٢٦ ، وانظر فتح القدير ٤ / ٤٧
(٢) ٥٥ : النور
(٣) انظر البحر المحيط ٦ / ٤٦٩
(٤) انظر روح المعاني ٢ / ١٧١
(٥) ٢٤٩ : البقرة

ثم ان لتحقق سنته سبحانه وتعالى في نصر المؤمنين وهزيمة الكافرين أجلا مقدرا وزمنا محددا ، مغيبا عن الناس لا يعلمه الا مقدره سبحانه وتعالى ، وان هذا الأجل المقدر لا يتقدم وان عذب المؤمنون في سبيل الله واوذوا ، فالله عز وجل لا يتعجل بعجلة أحد ، فالنصر يجيء في الزمان الذى يقدره الله والذى يكون قد هيأت له الاسباب وهيئ له الزمان والمكان ٠ (١)

وقد يكون الأجل بعيدا ، ولكن لا خلف في وعد الله وسنته لانها صادرة عن ارادته سبحانه وتعالى الطليقة وحكمته العميقة ، وهو قادر على تحقيقه لا راد لمشيئته ولا مبدل لحكمه ولا معقب له ، ولا يكون في هذا الكون الا ما شاء سبحانه وتعالى (٢) ٠

فعندما كان الرسول صلى الله عليه وسلم مخرجا من مكة مطاردا ، وعندما وصل الى الجحفة وعرف طريق مكة اشتاق اليها لانها احب البلاد اليه عليه الصلاة والسلام ، جاءه الوعد برده اليها منتصرا وفاتحا (٣) قال تعالى : (ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد)(٤) ومعاد الرجل بلده لانه ينصرف منه ثم يعود اليه (٥) ٠

وحقق الله لنبيه بشارته ووعده ، وعاد الى مكة فاتحا في السنة الثامنة من هجرته عليه الصلاة والسلام ونزل عليه قوله تعالى :(اذا جاء نصر الله والفتح ٠٠٠٠)(٧) ٠

وقد يغلب الكافرون المؤمنين في بعض المعارك او يغلبون حينا من الدهر ، ولكن هذه فترة وجيزة سرعان ما تزول ، وهي تحقيق لسنته سبحانه وتعالى في تداول الايام بين الناس ، وقد تكون عقابا من الله للمؤمنين بالكافرين ليستووا

---

(١) انظر في ظلال القرآن ٣٠٨٥/٥ ، ٣٩٩٦/٦ ، ١٠٨٢/٢ ٠
(٢) المرجع السابق ٢٧٥٨/٥ ٠
(٣) انظر تفسير القرطبي ٥٠٣٧/٦ وانظر في ظلال القرآن ٢٧١٥/٥ ٠
(٤) ٨٥ : القصص ٠
(٥) تفسير القرطبي ٥٠٣٧/٦ ٠
(٦) انظر زاد المسير ٢٥٦/٩ ٠
(٧) ١ : سورة النصر ٠

على منهج الله وليسيروا على سنته ، والذى ينظر الى هذه البرهة قد يظن ان السنة تخلفت وهذا خطأ (١) . قال تعالى :(... وتلك الايام نداولها بين الناس ..)(٢) .

ثم ان من وراء سنته سبحانه وتعالى في نصر المؤمنين وهزيمة الكافرين حكمة عظيمة وجليلة ، فنصر المؤمنين هو رحمة للعالمين حتى للكافرين ، اذ لولا هذا النصر لفسدت الارض (٣) ، (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض)(٤) .

واخيرا فان نصر الله للمؤمنين وهزيمة الكافرين انما يقع وفق مشيئته وبارادته وما الناس في ذلك الا ستار لهذا القدر ليس لهم دخل فيه ، وليس للمؤمنين فيه شأن ، وما على المؤمنين الا ان يأخذوا بالاسباب الموصولة بصاحب التدبير والتقدير ، والمشيئة التي تريد النتيجة هي التي تهيء وتيسر الاسباب ، فلا تعارض بين تعليق النصر بالمشيئة ووجود الاسباب فالنصر والهزيمة احوال تنشأ عن اسباب ومؤثرات وفق تلك السنن التي اقتضتها تلك المشيئة (٥) .

والدلائل على سنة الله في نصر المؤمنين وهزيمة الكافرين كثيرة تتجلى في آيات القران الكريم واحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، ووقائع التاريخ، ويشهد لها الواقع ، ويشهد لها المستقبل الذى جاءت الاخبار عنه بالاحاديث الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ونبدأ لتقرير هذه السنة بالايات من القرآن الكريم ، قال الله تعالى معقبا على نصر المؤمنين وهزيمة الكافرين في معركة بدر ومبينا سنته الدائمة في ذلك :(قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف ، وان يعودوا فقد مضت سنة الاولين)(٦) ، اى (ان ينتهوا عن المحاربة يغفر لهم ما قد

---

(١) راجع الحديث عن سنة التداول في آخر هذا الفصل .
(٢) ١٤٠ : آل عمران .
(٣) انظر الكشاف ٣٨٢/١ وانظر في ظلال القران ٢٧٥٨/٥ وانظر تفسير المنار ٤٩٧/٢ .
(٤) ٢٥١ : البقرة .
(٥) انظر في ظلال القران ٢٦٩/١ ، ٤٧١ ، ٢٧٨٥/٥ وسيأتي ذكر المزيد من التوضيح لهذه النقطة بعد ذكر شواهد وتقرير السنة، وقبل الحديث عن الاسباب .
(٦) ٣٨ : الانفال .

سلف من حربهم فلا يؤخذوا به ، وان يعودوا الى المحاربة فقد مضت سنة الاولين في نصر اوليائه ..)(١) . ويقول تعالى مطمئنا المؤمنين وشادا لازرهم في قتالهم للكفار مبينا لهم ان سنته مضت في نصر المؤمنين وهزيمة الكافرين امامهم وتوليتهم الادبار يقول :(ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الادبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا ، سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا)(٢) . يقول الله تعالى ذكره للمؤمنين به من اهل بيعة الرضوان لو قاتلكم الذين كفروا لانهزموا عنكم وولوكم اعجازهم ، ثم لا يجد هؤلاء الكفار المنهزمون عنكم المولون الادبار وليا يواليهم على حربكم ، ولا نصيرا ينصرهم عليكم لان الله تعالى معكم ، ولن يغلب حزب الله ناصره .

ثم بين سبحانه ان هذا النصر للمؤمنين عامة وليس فقط لأهل بيعة الرضوان او للمؤمنين في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم بل هذه سنته الماضية وقانونه الذى لا يتغير ، فكما انهزم امثالهم من الكافرين الذين قاتلوا اولياء الله من الأمم الذين مضوا قبلهم ينهزم هؤلاء حسب سنته واخرج قوله (سنة الله) نصبا من غير لفظه وذلك ان في قوله (لولوا الادبار ...) الاية ، معنى سننت فيهم الهزيمة والخذلان ، فلذلك قيل سنة الله ، مصدرا من معنى الكلام لا من لفظه ، وقد يجوز ان يكون تفسيرا لما قبلها ، ثم بين ان هذه السنة ثابتة لا تتغير (٣) ، ويقول سيد قطب في ظلال هذه الآية : (وهكذا يربط نصرهم وهزيمة الكفار بسنته الكونية الثابتة التي لا تتبدل ، فأى سكينة ؟ واى ثقة؟ واى تثبيت يجده اولئك المؤمنون في انفسهم ؟ ، وهم يسمعون ان نصرهم وهزيمة اعدائهم سنة من سننه الجارية في هذا الوجود .

وهي سنة دائمة لا تتبدل ، ولكنها قد تتأخر الى أجل ولأسباب قد

---

(١) زاد المسير ٣ / ٣٥٦

(٢) ٢٢ ـ ٢٣ : الفتح

(٣) تفسير الطبرى ٢٦ / ٩٢ ـ ٩٣

تتعلق باستواء المؤمنين على طريقهم ، واستقامتهم التي يعرفها الله لهم ، او تتعلق بتهيئة الجو الذى يولد فيه النصر للمؤمنين ، والهزيمة للكافرين ، لتكون له قيمته وأثره ، او لغير هذا وذاك مما يعلمه الله ولكن السنة لا تتخلف والله أصدق القائلين (فلن تجد لسنة الله تبديلا) (١)

ويقول تعالى محذرا الكافرين ومهددا لهم بسنته التي مضت في امثالهم من المكذبين ويدعوهم الى الاعتبار فيقول : (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين .) (٢) .

فهو سبحانه يدعو عباده الى السير في الارض والتأمل فيما حل بالأمم قبلهم ليحصل لهم العلم اليقيني المبني على المشاهدة والنظر ويعتبروا بذلك الذى وقع بين الحق والباطل في الأمم السابقة ، حيث انتصر أهل الحق على أهل الباطل بتمسكهم بسنن الله واتباع ما امر به من التزام الحق والتقى والاستعداد للحرب ، واعداد العدة لقتال العدو ...الخ ، وجرى ذلك على سنن مستقيمة واسباب مطردة لا تغيير فيها ولا تبديل (٣) .

وقد جاء تأكيد هذه السنة « سنة نصر المؤمنين وهزيمة الكافرين في كثير من الآيات التي فيها وعد للمؤمنين بالنصر ، ووعيد للكافرين بالهزيمة فمن الايات التي جاءت تبشر المؤمنين بالنصر وتعدهم بالتمكين قوله تعالى :

(انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد) (٤)

فهو وعد بالنصر للانبياء وللمؤمنين الذين يسيرون على نهج الانبياء عليهم الصلاة والسلام (٥) .

وقد مضى قضاء الله واثبته في اللوح المحفوظ ان يجعل الكافرين

---

(١) ٤٣ : فاطر ، في ظلال القرآن ٦ / ٣٣٢٧ ـ ٣٣٢٨
(٢) ١٣٧ : آل عمران
(٣) تفسير المراغي ٤ / ٧٧ بتصرف يسير وانظر تفسير القرطبي ٢ / ١٤٥٨
(٤) ٥١ : غافر
(٥) انظر تفسير الرازى ٢٧ / ٧٧

في الاذلين وان ينصر المؤمنين عليهم فقال تعالى : (كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ان الله قوى عزيز) (١) ، والغلبة قد تكون بالحجة او بالنصر العسكرى او بأحدهما (٢) .

ثم جاء الوعد من الله للمؤمنين الذين يعملون الصالحات من امة محمد صلى الله عليه وسلم خاصة ان يستخلفهم في الارض ، وان يمكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وان يبدلهم من بعد خوفهم أمنا ، هذا وعد الله النافذ ولن يخلف الله وعده (٣) (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا) (٤) ، قال ابو بكر الصديق رضي الله عنه بعد ان قرأ هذه الاية : (وعدا منه لا خلف له ، ومقالا لا ريب فيه ...) (٥) . ودل قوله ليستخلفنهم كما استخلف الذين من قبلهم ، على ان الاستخلاف والتمكين وقع لفئات من المؤمنين السابقين .

وقد جاءت آيات تبين ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، وتبين ان الله يدافع عن المؤمنين ، واذا كان الله عز وجل القاهر فوق عباده ـ وهو على كل شيء قدير ـ اذا كان كذلك فمن يقف امام قوة الله ومن يستطيع ان يغلب من كان الله معهم وهو يدافع عنهم !؟

يقول تعالى : (ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) (٦) ، وهذه

---

(١) ٢١ : المجادلة
(٢) انظر تفسير ابي السعود ١ / ٢٣٣
(٣) انظر في ظلال القرآن ٤ / ٢٥٢٨
(٤) ٥٥ : النور
(٥) سنن البيهقي ٩ / ١٧٩
(٦) ١٢٨ : النحل

هي المعية الخاصة ، فهو معهم بتأييده ونصره ومعونته ، يؤيدهم ويكلؤهم وينصرهم على أعدائهم ومخالفيهم . (١)

يقول تعالى مبينا دفاعه عن المؤمنين : (ان الله يدافع عن الذين آمنوا) (٢) ، وقد وردت بلفظ يدفع ، فهو سبحانه يدفع عن المومنين غائلة المشركين وضررهم ، وقرأ نافع وابن عامر والكوفيون يدافع اى يبالغ في الدفع مبالغة من يغالب فيه . (٣) .

ومن الوعيد للكافرين بالهزيمة ما جاء في قوله تعالى : (قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد) (٤) ، وفي الخطاب سواء كان موجها عند نزوله لليهود او لكفار قريش فانه يعم الكافرين ، وفي ذلك تهديد وعبرة كما جرى لغيرهم . (٥)

ومن ذلك قوله تعالى :(ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا انهم لا يعجزون) (٦) قال الزهرى : نزلت فيمن افلت من الكفار في بدر ، فالمعنى لا تظنهم ناجين مفلتين فانهم لا يعجزون طالبيهم ، من المؤمنين ولا بد ان يظفروا بهم وينتصروا عليهم ، واذا كانت قد نزلت هذه الاية فيهم ان صح ذلك ، فانها تعم الكافرين . (٧)

هذه هي بعض الآيات التي جاءت تقرر سنة الله في نصر المؤمنين وهزيمة الكافرين ، والتاريخ يؤكد هذه السنة ، فما من جماعة مؤمنة قامت تقاتل في سبيل الله واستوفت شرائط النصر التي أمر الله بها

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٢ / ٥٩٣
(٢) ٣٨ : الحج
(٣) انظر حاشية الشهاب ٦ / ٢٩٩
(٤) ١٢ : ال عمران
(٥) انظر زاد المسير ١ / ١٨٠
(٦) ٥٩ : الأنفال
(٧) انظر البحر المحيط ٤ / ٥١٠

الا نصرها الله وايدها على عدوها ، واستقصاء الامثلة على ذلك يطول ولذا اكتفي بذكر بعض الامثلة ، منها قصة طالوت وجالوت حيث نصر الله العصبة القليلة المؤمنة على الكثرة الكافرة . وكذلك ما حقق الله لرسوله صلى الله عليه وسلم من انتصار تلو انتصار ، من بدر الى فتح مكة ، والى غير ذلك ، وما تحقق للمسلمين من انتصارات في عهد الخلفاء الراشدين ومن بعدهم لأنهم ساروا على سنة استيفاء شرائط النصر من التزام لمنهج الله واتباع لرسوله حتى فتحوا مشارق الارض ومغاربها .

وقد جاء ايضا الوعد للمؤمنين بنصر خاص مثل الوعد في الحديث الشريف بفتح القسطنطينية (١) ، وجاء الوعد بنصر المؤمنين في قتالهم لليهود (٢) وجاء الوعد بتحرير مشارق الارض ومغاربها وبلوغ ملك امة محمد صلى الله عليه وسلم مشارق الارض ومغاربها ، قال عليه الصلاة والسلام :(زوى لي الارض مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك امتي ما زوى لي منها) (٣) ، وقد تحققت بعض الوعود عندما طبق المسلمون شروط النصر ، وسيتحقق ما بقي من وعود عندما تقوم هذه الأمة بالأخذ بسنة النصر اسبابها وعواملها .

---

(١) ابو داود كتاب الملاحم باب في امارات الملاحم ٤ / ١١٠ والترمذى كتاب الفتن باب ما جاء في علامات خروج الدجال ٤ / ٥٠٨ - ٥٠٩ ، وابن ماجة كتاب الفتن باب الملاحم ٢ / ١٣٧٠

(٢) متفق عليه اخرجه البخارى كتاب الجهاد باب قتال اليهود فتح البارى ٦ / ١٠٣ ومسلم كتاب الفتن واشراط الساعة باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى ان يكون مكان الميت من البلاء ٤/ ٢٢٣٩

(٣) أخرجه مسلم كتاب الفتن باب هلاك الأمة بعضهم ببعض ٤/٢٢١٥

٣ ـ أسباب النصر :

وبعد تقرير بعض الشواهد على ان النصر للمؤمنين والهزيمة للكافرين ، وبيان انها سنة الهية جارية ، فان هذه السنة تقع وفق مشيئة الله وارادته (١) ، كما أشارت الآيات السابقة وغيرها من الآيات التي اضافت النصر الى الله عز وجل او جعلته باذنه كما في قوله تعالى : (..ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم) (٢) وكما قال : (.. كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله) (٣) ، وقوله تعالى : (.. وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب) (٤) وغيرها كثير من الايات ، وما الناس في ذلك الا ستار ، لهذا القدر ليس لهم دخل فيه ، وليس للمؤمنين فيه شأن(٥) ، قال تعالى : (الا تنصروه فقد نصره الله ، اذ اخرجه الذين كفروا ثاني اثنين اذ هما في الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا فانزل الله سكينته عليه وايده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم) (٦) ، حتى الملائكة اذا نزلت لتؤيد المؤمنين فانما هي مجرد ستار للقدر وليست هي التي تمنح النصر للمؤمنين كما قال تعالى : (اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم اني ممدكم بألف من الملائكة مردفين وما جعله الله الا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر الا من عند الله ان الله عزيز حكيم) (٧) ، يؤتيه من يشاء وليس بكثرة الجند، ولا تتوهموا ان النصر كان

---

(١) انظر تفسير القرطبي ٥٠٨٨/٦ـ٥٠٨٩ وانظر في ظلال القرآن ٣٠٠٢/٥
(٢) ٥ : الروم
(٣) ٢٤٩ : البقرة
(٤) ١٣ : الصف
(٥) في ظلال القرآن ٥ / ٣٠٠٢
(٦) ٤٠ : التوبة
(٧) ٩ ـ ١٠ : الأنفال

بكثرة الملائكة (١) ، ثم اضاف الفضل لنفسه في آية أخرى فقال :
(ليقطع طرفا من الذين كفروا او يكبتهم فينقلبوا خائبين . ليس لك من الأمر شيء او يتوب عليهم او يعذبهم فانهم ظالمون) (٢) ، فهو قد ينصركم بقتل اعدائكم واسرهم او يكبتهم بذل الهزيمة ، او يتوب عليهم او يعذبهم ، وليس لك يا رسول الله ان تفترض صورة ما ، بل عليك الصبر وتسليم امرك وامر من معك الى الله (٣) .

فما على المؤمنين الا ان يأخذوا بالاسباب الموصولة بصاحب التدبير والتقدير والخلق ، والتي امرهم بها وارشدهم اليها ، فلا تعارض بين تعليق النصر بالمشيئة ووجود الاسباب ، فالنصر والهزيمة احوال تنشأ عن اسباب ومؤثرات وفق تلك السنن التي اقتضتها تلك المشيئة (٤) .

وقد جاءت كثير من النصوص تربط بين نصر المؤمنين وهزيمة الكافرين وبين اخذ المؤمنين بالاسباب والاحوال الموجبة لذلك من ذلك قوله تعالى : (ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم)(٥) ،(وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ومن كفر بعد ذلك فاولئك هم الفاسقون)(٦) وقوله تعالى ايضا :(واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف اليكم وانتم لا تظلمون)(٧) الى غيرها كثير من

---

(١) الفتوحات الالهية ٣١٣/١ بتصرف .
(٢) ١٢٧ ـ ١٢٨ : آل عمران .
(٣) انظر الفتوحات الالهية ١/ ٣١٣ .
(٤) في ظلال القران ٢٧٥٨/٥ .
(٥) ٧ : محمد .
(٦) ٥٥ : النور .
(٧) ٦٠ : الانفال .

الايات والنصوص والتي نورد كثيرا منها عند الحديث عن اسباب النصر .

ويقول الشيخ محمود شلتوت : (ارشدت الايات الى ان الله انما ينصر بمقتضى سنته في خلقه من ينصره ويتقيه باقامة العدل ، واقرار الأمن وبث الطمأنينة ولا يتخذ الحرب أداة للتخريب والافساد وانما يتخذها وسيلة الى عمارة الكون ، وانفاذ أمر الله في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر (١) .

وقال ايضا : (في القرآن الكريم آيات كثيرة تحمل عدة الله لعباده المؤمنين بالنصر والتأييد ، ولكن لم يجعل هذه العدة منحة تنزل عليهم من السماء بمجرد ان يقولوا ربنا الله ، او لمجرد انهم ينتسبون الى دين الله ، انما جعلها لمن عرف واجب الايمان في حق نفسه ثم اخلص في القيام بهذا الواجب وعندئذ يكون قد اوفى بعهده لله ، فيوفي الله له (وأوفوا بعهدى اوف بعهدكم) (٢) ، (ومن أوفى بعهده من الله) (٣) .

ولهذا نفى القرآن الكريم ان يكون نصر الله بمجرد الانتماء الى دين او كتاب او بالتمني والآمال (٤) (ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا ، ومن يعمل من الصالحات من ذكر او أنثى وهو مؤمن فاولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا) (٥) .

وتثبيتا من الله سبحانه لعباده المؤمنين وتوكيدا لضرورة الأخذ بالأسباب النصر فقد امدهم بأعداد عظيمة من الملائكة تزيد على عدد

---

(١) تفسير القرآن الكريم ٢٤٤ محمود شلتوت
(٢) ٤٠ : البقرة
(٣) ١١١: التوبة
(٤) ايات الجهاد ١١٠ ، وانظر من توجيهات الاسلام ٢٧٢
(٥) ١٢٣ ـ ١٢٤ : النساء

عدوهم في موقعة بدر حيث امدهم بالف من الملائكة بينما كان عدد جيش الكفار يقترب من الألف ، وفي موقعة أحد وعدهم الله ان صبروا ان يمدهم من ملائكته بثلاثة آلاف او خمسة آلاف . وفي موقعة الأحزاب كان عدد العدو كثيرا فارسل الله عليهم ريحا وجنودا من عنده لا يعرف عددهم مع انه سبحانه قادر على ان ينصر اولياءه بدون ملائكة وبدون هذه الاعداد الكبيرة فملك واحد قادر ان يهلك الارض ومن عليها بمشيئة الله)(١) (اذ تقول للمؤمنين الن يكفيكم ان يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين . بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) (٢) .

(وقد سئل السبكي عن الحكمة في قتال الملائكة مع ان جبريل قادر ان يدفع الكفار بريشة من جناحه وأجاب : بأن ذلك لارادة ان يكون الفضل للنبي وأصحابه وتكون الملائكة مددا على عادة الجيوش رعاية لصورة الأسباب التي اجراها الله تعالى في عباده ، والله فاعل الجميع) (٣)

وقال سيد قطب رحمه الله تعليقا على هزيمة المؤمنين في أحد التي جاء ذكرها في قوله تعالى : (او لما اصابتكم مصيبة قد اصبتم مثليها قلتم انى هذا ؟ قل هو من عند انفسكم) (٤) ـ قال : (لقد كتب الله على نفسه النصر لأوليائه ، حملة رايته واصحاب عقيدته ، ولكن علق هذا النصر بكمال حقيقة الايمان في قلوبهم ، وباستيفاء مقتضيات الايمان في تنظيمهم وسلوكهم ، وباستكمال العدة التي في طاقتهم ، وببذل الجهد الذى في وسعهم ، فهذه سنة الله وسنة الله لا تحابي أحدا ، فاما حين يقصرون في أحد هذه الأمور فان عليهم ان

---

(١) آيات الجهاد ١١٠
(٢) ١٢٤ ـ ١٢٥ : آل عمران
(٣) الفتوحات الالهية ١ / ٣١٢
(٤) ١٦٥ : آل عمران

يتقبلوا نتيجة هذا التقصير ، فان كونهم مسلمين لا يقتضي خرق السنن لهم وابطال الناموس ، فانما هم مسلمون لانهم يطابقون حياتهم كلها على السنن ويصطلحون بفطرتهم كلهم مع الناموس ..)(١) وقال شوقي ابو خليل :(... انتصارات امتنا عبر تاريخها الطويل ، منذ عرفت ذاتيتها ، وجمعت قواها واهتدت الى سبيلها القويم الذى ارتضاه الله لها ، كانت ضمن اسس ومنهج محدد ، لا عشوائية ، ولا ارتجال في تحقيقها .

انتصارات امتنا ليست نتيجة طفرة قوة ، انتزع صمام امانها ، فكانت قوة دافقة كاسحة ، ثم خبت شيئا فشيئا حتى تلاشت . ان انتصاراتنا عبر التاريخ ، كانت وما زالت ضمن اسس محددة ، ان تحقق الالتصاق بها تحقق النصر ، وان ابتعدت امتنا عنها او تسرب خلل الى تطبيقها والى اسسها كانت الهزيمة ..)(٢) .

وقال ايضا :(ان تصفح التاريخ تصفح الدارس المتفحص ، الفاهم الواعي يوضح ان للنصر اسبابه ، وللهزيمة اسبابها ، وان للنصر عوامل تحققه ، وللهزيمة عوامل تسببها ، للنصر نواميس ، وللهزيمة اسباب .

النصر يتحقق باسباب لا تتبدل ولا تتغير في عرف الاسلام .

والانهزام يكون باسباب مختلفة ، فكلما طرأ سبب يبعد عن الاسباب الثابتة للنصر ، كانت الهزيمة ، ففي اليرموك وفي القادسية وفي نهاوند وفي الزلاقة وفي حطين وفي عين جالوت كان النصر ضمن الاسس التي اختطها الاسلام وفي احد وحنين وفي الجسر ، وفي بواتييه ، وفي العقاب ، كان الانهزام بسبب خلل طرأ على الاسباب التي ضمنها الاسلام) . (٣)

ويمكن تقسيم اسباب النصر الى قسمين رئيسين هما الاسباب المعنوية ، والاسباب المادية ،وسأبدأ حديثي بالاسباب المعنوية نظرا لاهميتها وفاعليتها في النصر

---

(١) في ظلال القران ٥١٣/١ .
(٢) عوامل النصر والهزيمة ٧-٨ .
(٣) المرجع السابق ١٠ .

أ ـ الاسباب المعنوية :

ان الله سبحانه وقد جعل من سنته نصر المؤمنين وهزيمة الكافرين ،فقد ارشد الى ما يؤهلهم لهذا النصر ، من قوة مادية او قوة معنوية ، وقد اعتنى الاسلام بالاسباب المعنوية وارشد اليها وحرص على التنبيه على اهميتها لانها هي الاساس في الروح المعنوية لدى المقاتل وهي التي تستنزل النصر من الله ، وتجعل المجاهد على ثقة من وعد الله له بالنصر او الشهادة وتشعره بمعية الله ورعايته .

والدارس للقرآن الكريم والمطلع على السنة النبوية والقارئ لسيرة سلف هذه الامة واقوالها يدرك هذه الحقيقة ادراكا تاما .

ولقد ضرب المسلمون الاوائل في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ومن بعده المثل الرائع في قوتهم المعنوية وخافهم عدوهم وذلك لانهم خشوا الله فخشيهم كل شيء ولان لهم كل شيء .

فالانتصارات التي حققها المسلمون عبر تاريخهم المجيد لم تكن بالتفوق على الاعداء بكثرة العدد والعدة ، وانما كانت بروحهم المعنوية العالية التي غرسها الايمان وتأييد الله لهم وان كان لا ينسى اثر القوة المادية والمهارة في استعمال السلاح وخفة الحركة ...

. فاكثر المعارك التي خاضها المسلمون ، كان العدو فيها يتفوق ماديا عليهم ولكن النصر يكون للمؤمنين ، وذلك لانهم حققوا اسباب النصر فحقق الله سنته فيهم بنصرهم ، وقد ادرك هذه الحقيقة بعض المنصفين من رجال الحرب ، وعزى سر انتصارات المسلمين لتفوق قوتهم المعنوية ، يقول مونتجمرى في كتابه " الحرب عبر التاريخ " :(ومهما يكن من الامر ، فنجد اهم مميزات الجيوش الاسلامية لم تكن في المعدات والتسليح او التنظيم ، بل كانت في الروح المعنوية العالية النابعة من قوة ايمانهم بالدعوة الاسلامية ، وفي خفة الحركة التي ترجع الى مهارتهم في سرعة التحرك بالجمال والخيل ؛ ،

وايضا في قوة احتمالهم وجلدهم نتيجة لحياتهم الصعبة في الصحراء والتي تعودوا عليها .

وعلى كل فهناك عوامل اخرى شاركت في نجاح زحفهم غير العادى ، ذلك الزحف الذى كان عبارة عن نجاح تلو النجاح ، فكان العرب يندفعون نحو القتال ويحركهم اقوى دافع الا وهو الايمان والعقيدة ...(١)

ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدون من بعده ، والقادة في المعارك يحرصون كل الحرص على القوة المعنوية ويؤججونها في صدور المؤمنين ، فعندما دنا المشركون من المسلمين في غزوة بدر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(... قوموا الى جنة عرضها السموات والارض) فقال عمير بن الحمام الانصارى :(يا رسول الله : جنة عرضها السموات والارض ؟ قال: (نعم) قال : بخ بخ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(ما يحملك على قولك بخ بخ قال : لا والله ! يا رسول الله الا رجاءة ان اكون من اهلها قال : فانك من اهلها ، فاخرج تمرات من قرنة ، فجعل يأكل منهن ثم قال : لئن انا حييت حتى آكل تمراتي هذه . انها لحياة طويلة . قال : فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل .)(٢) وقد فعلت هذه الكلمات فعل السحر في نفوس الصحابة ورأينا كيف ان احدهم استطال الحياة حتى يأكل حبات من تمر في يده ! واقبل على الموت وقاتل فقتل فنال جنة عرضها السموات والارض وهذا خالد بن الوليد رضي الله عنه قد سمع قبل بدء معركة اليرموك جنديا يقول :(ما اكثر الروم واقل المسلمين ! فقال خالد : ما اقل الروم واكثر المسلمين انما تكثر الجند بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال .)(٣)

---

(١) الحرب عبر التاريخ الفيلد مارشال فيكونت مونتجمرى ١٨٨ ـ ١٨٩ .

(٢) اخرجه مسلم كتاب الامارة باب ثبوت الجنة للشهيد ١٥١٠/٣ ، واخرج ابن هشام في سيرته نحوه ١٩٦/٢ وانظر السيرة النبوية لابن كثير ٤٢٠/٢ وانظر عيون الاثر ٢٥٧/١ .

(٣) تاريخ الطبرى ٣٩٧/٣ ـ ٣٩٨ ، البداية والنهاية لابن كثير ٩/٧ .

وقد قال العلاء بن عمرو لمن معه من المؤمنين ، وهم يريدون حرب المرتدين في البحرين :(وقد نفرت الابل في جوف الليل فما بقي عندهم بعير ولا زاد ولا مزاد الا نهب عليها في عرض الرمل ، وذلك حين نزل الناس قبل ان يحطوا ، فما علمت جمعا هجم عليه من الغم ما هجم علينا واوصى بعضنا الى بعض ونادى منادى العلاء اجتمعوا ، فاجتمعنا اليه ، فقال : ما هذا الذى ظهر فيكم وغلب عليكم فقال الناس : وكيف نلام ونحن ان بلغنا غدا لم تحم شمسه حتى نصير حديثا ، فقال : ايها الناس : لا تراعوا الستم مسلمين ، الستم في سبيل الله ، الستم انصار الله ؟ قالوا : بلى قال : فابشروا فوالله لا يخذل من كان في مثل حالكم)(١) .

وقال عمرو بن العاص لقرة بن هبيرة :(اتخوفنا بالعرب فوالله لا طأن عليك في حفش امك)(٢) .

وكتب خالد لاهل فارس يطلب منهم الاسلام او الجزية :(... والا فو الذى لا اله غيره لابعثن اليكم قوما يحبون الموت كما تحبون الحياة ..)(٣) وفي وقعة اخرى قال :(فان ابيتم فقد اتيتكم باقوام هم احرص على الموت منكم على الحياة جاهدناكم حتى يحكم الله بيننا وبينكم)(٤) .

وخاطب خالد اهل قنسرين الذين تحصنوا في قلاعهم :(لو كنتم في السحاب لحملنا الله اليكم او لانزلكم الله الينا)(٥) .

وقال على بن ابي طالب رضي الله عنه لعمر وهو يستشيرالمسلمين في معركة نهاوند :(... واما ما ذكرت من عددهم فانا لم نقاتل فيما مضى بالكثرة ولكنا كنا نقاتل بالنصر ، وان هذا الامر لم يكن نصره ولا خذلانه لكثرة ولا قلة ، هو دينه الذى اظهر ، وجنده الذى اعز وايده بالملائكة حتى بلغ ما بلغ ،

---

(١) تاريخ الطبرى ٣٠٦/٣ ـ ٣٠٧ .
(٢) الكامل في التاريخ ٢٤١/٢ .
(٣) تاريخ الطبرى ٣٤٦/٣ .
(٤) المصدر السابق ٣٤٤/٣ .
(٥) تاريخ الطبرى ٦٠١/٣ .

فنحن على موعود من الله والله منجز وعده وناصر جنده)(١) ٠

وعندما تلاقى المسلمون مع الفرس في نهاوند وكان الجيش المهاجم ثلاثين الفا والقوة المدافعة في استحكاماتها مائة وخمسين الفا ، فقال النعمان بن مقرن مخاطبا جيشه :(وقد ترون ما انتم بازائه من عدوكم وما اخطرتم وما اخطروا لكم ، فاما ما اخطروا لكم فهذه الرثة وما ترون من هذا السواد ، واما ما اخطرتم لهم فدينكم وبيضتكم ، ولا سواء ، فلا يكونن على دنياهم احرص منكم على دينكم)(٢) ٠

ولقد كان لقوة المسلمين المعنوية الاثر الكبير والفعال في نفوس اعدائهم بحيث كانوا يهابون لقاء المؤمنين وان كانوا قلة ، فعندما بعث يزدجرد رسولا الى ملك الصين يطلب عونه في قتال المسلمين قال له ملك الصين فصف لي صفة هؤلاء القوم الذين اخرجوكم من بلادكم فاني اراك تذكر قلة منهم وكثرة منكم ، ولا يبلغ امثال هؤلاء القليل الذى تصف منكم فيما اسمع من كثرتكم الا بخير عندهم وشر فيكم ، وسأله عن صفات المؤمنين ثم كتب معه الى يزدجرد :(انه لم يمنعني ان ابعث اليك بجيش اوله بمرو وآخره بالصين الجهالة بما يحق علي ، ولكن هؤلاء القوم الذين وصف لي رسولك صفتهم لو يحاولون الجبال لهدوها ، ولو خلى سربهم ازالوني ما داموا على ما وصف ، فسالمهم وارض منهم بالمساكنة ولا تهاجمهم ما لم يهاجموك)(٣) ٠

ويقول اللواء محمد شيت خطاب مبينا سر الانتصارات التي حققها المسلمون : (وهذه العقيدة العسكرية ، تفسر سر الفتوحات الاسلامية العظيمة التي امتدت خلال تسع وثمانين سنة "من سنة احدى عشرة الهجرية الى سنة مائة الهجرية " من الصين شرقا ، الى فرنسا غربا ، ومن سيبيريا شمالا الى المحيط جنوبا)(٤) ٠

---

(١) تاريخ الطبرى ١٢٤/٤ ، وانظر الكامل في التاريخ ٨/٣ ٠
(٢) تاريخ الطبرى ١٣١/٤ ٠
(٣) تاريخ الطبرى ١٧٢/٤ ـ ١٧٣ ٠
(٤) العسكرية العربية الاسلامية ٥٩ للواء الركن محمود شيت خطاب ٠

ويقول الدكتور محمد السيد الوكيل عن اثر التربية الروحية " وهي من الاسباب المعنوية " في تحقيق انتصار المسلمين : (وهذا الجانب من التربية هو الفارق الأساسي بين الجيش الاسلامي وغيره من الجيوش ، بل هو العامل الذى حقق به الجيش الأسلامي تلك الانتصارات التي بهرت العالم ، وادهشت المفكرين ، وتركت القادة العسكريين في حيرة ، لا يدرون بماذا يعللون هزيمة القوة أمام الضعف وفشل الكثرة وهي تواجه القلة وانتحار التدريب والعتاد امام الوسائل البدائية ؟؟

تلك هي الخصيصة التي تميز بها الجيش الاسلامي ، وتلك هي اهم وسائله لتحقيق انتصاراته) (١)

وعن اثر القوة المعنوية في النصر ، وانها السبب الاول في انتصار المسلمين وسر تفوق المسلمين رغم ضعفهم المادى امام اعدائهم الذين يفوقونهم بمرات ، يقول الرائد وليد محمد جرادات في كتابه استراتيجية الفتوحات الاسلامية : (لعل نابليون كان من اكثر القادة العسكريين تقديرا لأثر القوة المعنوية في احراز النصر ، فان نسبة القوة المعنوية عند نابليون ٣ : ١ اى ان جنديا واحدا يتسلح بالمعنويات يستطيع ان يقهر ثلاثة جنود لديهم سلاح وليس لديهم معنويات (٢) .

ولو حاولنا تطبيق معيار نابليون وغيره في اثر القوة المعنوية على حرب الفتح الاسلامي ، لوجدناه قاصرا بدرجة ملحوظة عن اعطاء القيمة الحقيقية للدور الذى لعبته معنويات المسلمين في تحقيق انتصاراتهم .

فالقوى المادية لجيوش المسلمين لم تكن في غالب الاحيان الا جزءا يسيرا من مجموع القوى المادية المشكلة للأوضاع الاستراتيجية للصراع

---

(١) القيادة والجندية في الاسلام ٢٠٠ الدكتور محمد السيد الوكيل
(٢) شخصيات عسكرية اسلامية ٢٥٥ محمد فرج

بين المسلمين وخصومهم، ولم يتردد المسلمون رغم ذلك في التصدى لاولئك الخصوم الذين كانوا يملكون الى جانب التفوق الكمي الساحق سجلا حافلا بالتجارب والخبرة والهيبة العسكرية ٠

وكان اعتماد المسلمين بالدرجة الاولى في احراز النصر على قوة دفع معنوى هائلة عوضت نقصهم في الامكانات المادية وجعلت من جيوشهم قوة لا تقهر ولا يقف امامها خصم (١) ٠

واليك اهم الاسباب المعنوية :

---

(١) استراتيجية الفتوحات الاسلامية ١١٣ وليد محمد جرادات

أولا : الايمان بالله وتقواه :

ان استقرار حقيقة الايمان في قلب المقاتل في سبيل الله بكل ما تحنيه هذه الكلمة من ابعاد شرط اساسي من شروط النصر ٠ وفي نفس الوقت شرط اساسي في اعداد المقاتل المسلم لأن النصر لا يتحقق على يد جنود يقاتلون بلا ايمان (١) ، وشتان بين من يحارب في سبيل الله راجيا الثواب منه سبحانه ومن يقاتل من أجل مطامع شخصية دنيوية زائلة ، وفي ذلك يقول ابو السعود : (ان من لم يؤمن بالله واليوم الآخر لا يؤمن بالمعاد ، فالسعادة عنده ليست الا هذه الحياة الدنيوية ، فيشح بها ولا يعرضها للزوال بمزاولة الحروب ، واقتحام موارد الخطوب فيميل الى ما فيه السلامة فيفر فيغلب ، واما من اعتقد ان لا سعادة في هذه الحياة الفانية ، وانما السعادة هي الحياة الباقية فلا يبالي بهذه الحياة الدنيا ولا يقيم لها وزنا ، فيقدم على الجهاد بقلب قوى وعزم صحيح) (٢)

والايمان بالله وحده يكفل للمؤمن نصرا مؤزرا ، فالقوة المادية بقوتها الظاهرة مهما عظمت وروعت الناظر اليها لا تكفي للنصر ولا تعطي قدرا من الصحة بفوز وانتصار صاحبها ، فنحن نعلم ولا نشك بمدى نصر الله واعانته وامداده للمؤمنين به فهو ينصرهم ويؤيدهم (٣) ، كما قال تعالى : (٠٠٠ وكان حقا علينا نصر المؤمنين) (٤) وقوله تعالى : (ان الله يدافع عن الذين آمنوا) (٥) ، وقوله : (ان

---

(١) انظر العسكرية الاسلامية وقادتها العظام ٣٤
(٢) تفسير ابي السعود ٣٤/٤ وانظر تفسير الرازى ١٥ / ١٩٩
(٣) الجهاد في الاسلام صالح اللحيدان ٨٢ ـ ٨٣
(٤) ٤٧ : الروم
(٥) ٣٨ : الحج

الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) (١)

فالايمان والتقوى دعامتان اساسيتان لا بد من توفرهما حتى يتحقق نصر الله لعباده الذين يقاتلون في سبيله ، وان ذلك ليفعل الاعاجيب ويستنزل النصر من عند الله . وما انتصر المسلمون من قبل بقوة السلاح والعدد وانما انتصروا بالتقوى وحسن ايمانهم وطهارة نفوسهم ، ولذلك فاننا نجد ان الله عز وجل في كل معركة من المعارك الخالدة التي حدثت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يمتن علي عباده المؤمنين بنصره لهم بعد اتخانهم الاسباب فيقول تعالى في موقعة بدر : (ولقد نصركم الله ببدر وانتم اذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون اذ تقول للمؤمنين الن يكفيكم ان يمدكم ربكم بثلاثة الاف من الملائكة منزلين ، بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة الاف من الملائكة مسومين وما جعله الله الا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم)(٢) .

فجعل سبحانه وتعالى الصبر والتقوى شرطا في نزول الملائكة مؤيدين للمؤمنين ، وبين ان النصر من عند الله يهبه لعباده الذين يستحقونه ، وانه سبحانه اذا نصر المؤمنين فلن يغلبهم احد واذا خذلهم فمن ذا الذى ينصرهم (٣) . كما قال عز من قائل :(ان ينصركم الله فلا غالب لكم وان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون)(٤) ، وبين سبحانه وتعالى في آية اخرى ان التمكين والاستخلاف في الارض شرطه الايمان والعمل الصالح فاذا حقق المؤمنون حقيقة الايمان في نفوسهم وعملوا الصالحات استخلفهم الله في ارضه ونصرهم على عدوهم وعدوه (٥) ،(وعد الله

---

(١) ١٢٨ : النحل .
(٢) انظر شريعة القتال في الاسلام ١٨٩ والآيات ١٢٣ ـ ١٢٦ : آل عمران .
(٣) انظر شريعة القتال ١٩٠ .
(٤) ١٦٠ : آل عمران .
(٥) انظر في ظلال القران ٢٥٢٨/٤ .

الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا) (١)

ثم اخبر سبحانه وتعالى ان كيد الكافرين ومكرهم وخديعتهم بالمؤمنين لا تفيدهم شيئا ما داموا صابرين متقين لله عز وجل كما قال تعالى :
(وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا ان الله بما يعملون محيط) (٢)
فكل من صبر واتقى الله وخشيه في كل ما نهى عنه كان في حفظ الله وحمايته لا يضره كيد الكافرين ولا حيل المحتالين لأنه سبحانه يعلم ما يخططون وما يفعلون فيبطل كيدهم ويفشل سعيهم (٣) .

واذا كان الله عز وجل مع المؤمنين بنصره وتأييده وحفظه فهو ضد الكافرين يخذلهم ويقطع دابرهم ويجعل فيهم الجبن والخوف والهلع والتفرق والاختلاف ، والآيات التي تدل على ذلك كثيرة منها قوله تعالى :
(سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ذلك بانهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقاب) (٤) ، وقوله تعالى : (... وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وايدى المؤمنين فاعتبروا يا اولي الابصار) (٥) ويقول تعالى مبينا سبب نصره للمؤمنين في غزوة بدر : (ذلكم وان الله موهن كيد الكافرين) (٦) ، ويقول تعالى : (... ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) (٧) ، ويقول تعالى مهددا الكافرين

---

(١) ٥٥ : النور
(٢) ١٢٠ : آل عمران
(٣) انظر تفسير الرازى ٨ / ٢٢٢
(٤) ١٢، ١٣ : الأنفال
(٥) ٢ : الحشر
(٦) ١٨ : الأنفال
(٧) ١٤١ : النساء

بالهزيمة : (قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد ٠) (١) الى غير ذلك من الآيات ٠

والايمان فوق انه سبب في نصر المؤمنين وهزيمة الكافرين ، فهو كذلك الغذاء الاول للروح المعنوية العالية ، التي يتصف بها المؤمنون ٠

فالمؤمنون من بني اسرائيل هم الذين كانوا في معنويات عالية عند لقائهم لعدوهم بخلاف الذين لم تستقر حقيقة الايمان بالله وبوعده في نفوسهم فقد كانوا في غاية الجبن والخور كما قص الله تعالى علينا قصتهم في محكم كتابه حيث قال :

(واذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم انبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين) (٢)٠

وقد وعد الله تعالى بني اسرائيل بدخول الارض المقدسة والنصر من الله ولكنهم رفضوا الامتثال لأمر الله بقتال العمالقة وقالوا :

(...ان فيها قوما جبارين وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها) ٠

فهم ارادوه نصرا رخيصا لا ثمن له ولا جهد فيه يتنزل عليهم تنزل (المن والسلوى) ٠٠ ولكن النصر ليس كما اراده اليهود ٠ فالله لا ينصر القلوب الخاوية من الايمان به وبوعده ٠ (قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون)٠

هنا تبرز قيمة الايمان بالله وتعمل عملها في وقت الشدة ٠ فالله لا يجمع في قلب واحد مخافتين مخافته ومخافة الناس (ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه)(٢) هذه هي خاصية الايمان الحقيقي ومنطقه ومقتضاه ٠٠

ونمضي مع هذه القصة العسكرية فيقول الجبناء الذين لم يدخل

---

(١) ١٢ : آل عمران

(٢) ٤ : الاحزاب

الايمان في قلوبهم ولا يخافون الله ولا يثقون بوعده (قالوا يا موسى : انا لن ندخلها ابدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون) ٠

(اذهب أنت وربك فقاتلا ٠٠٠) هكذا في وقاحة العاجز ، فهو ليس بربهم لأن ربوبيته ستكلفهم القتال (انا ههنا قاعدون) لا نريد ملكا ولا عزا ، ولا أرض الميعاد التي دونها لقاء الجبارين ٠

هذه هي نهاية المطاف بموسى (قال رب اني لا املك الا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين) ٠

فاستجاب الله لنبيه وقضى عليهم بالتيه أربعين سنة (قال فانها محرمة عليهم اربعين سنة يتيهون في الارض فلا تأس على القوم الفاسقين) (١) ٠

ولقد وعى المسلمون هذا الدرس في قلوبهم وعقولهم ، فحين واجهوا الشدة وهم قلة امام نفير قريش في غزوة بدر قال قائلهم في ذلك اليوم لرسول الله عليه الصلاة والسلام (والله لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى اذهب انت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون ، ولكننا نقول اذهب انت وربك فقاتلا انا معكما مقاتلون ، فوالله لو سرت بنا حتى تبلغ برك الغماد لنسيرن معك والله لئن لستعرضت بنا هذا البحر خضناه معك (٢)

وكانت السمة المميزة للجيش الاسلامي هي التقوى ، فيها تشتد النفوس وتصفو الافهام ، وتقوى الارادة ، فيصبح الجندي طاقة صلبة فعالة ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم :(اذا أمر أميرا على جيش او سرية

---

(١) الآيات ٢٤ ـ ٢٦ : المائدة

(٢) زاد المعاد ٢ / ٨٦ ، واخرج البخاري نحوه كتاب المغازي باب قوله تعالى : (اذ تستغيثون ربكم ٠٠٠) فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٧ / ٢٨٧ ، طبقات ابن سعد ٣ / ١٦٢

أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا) (١)

وهذا ابو عبيدة عامر ابن الجراح امين هذه الأمة يحث جنوده على طهارة الضمير ونقاء السريرة ومخافة الله ، فكان (يسير في العسكر فيقول : الا رب مبيض لثيابه وهو مدنس لدينه ، الا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين ، غدا ادفعوا السيئات القديمات بالحسنات الحادثات) (٢) ، وكان ابو الدرداء رضي الله عنه يقول للجيش الاسلامي : (عمل صالح قبل الغزو فانما تقاتلون باعمالكم) (٣) .

ولعل ابلغ ما يصور حرص المسلمين على نقاء الجيش وطهارته ، وايمانهم بان الصلة بين تقوى الله والنصر على الاعداء وثيقة وصية عمر ابن الخطاب لسعد بن ابي وقاص بطل القادسية ، فقد قال له : (اما بعد يا سعد ، فاني آمرك ومن معك من الاجناد ، بتقوى الله على كل حال فانها افضل العدة على العدو واقوى المكيدة في الحرب ، وآمرك ومن معك ان تكونوا اشد احتراسا من المعاصي من عدوكم ، فان ذنوب الجيش أخوف عليه من عدوه ، وانما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ..... اسألوا الله العون على انفسكم قبل ان تسألوه العون على اعدائكم) (٤)

وان هذا العمل من الصحابة رضي الله عنهم ومن تبعهم من المؤمنين الصادقين وهذه الدفقة من الايمان بالله وحده لجديرة بالوقوف امامها طويلا ، ودراستها بعمق ودراية وخبرة والخروج من ذلك بنتيجة فعالة يكون بعدها

---

(١) مسلم كتاب الجهاد والسير باب جواز الاغارة على الكفار الذين بلغتهم دعوة الاسلام ... ٣ / ١٣٥٧

(٢) الاصابة ٢ / ٢٤٥ ، ٦ / ٢٤

(٣) البخاري مع الفتح معلقا قوله انما تقاتلون باعمالكم فقط ، ذكره الحافظ عن ابي الدرداء في كتاب المجالسة للدينوري

(٤) نهاية الارب للنويري ٦ / ١٦٨ والعقد الفريد لابن عبد ربه ١ / ١٣٠ واخبار عمر ابن الخطاب للطنطاوي ٢٤١ ـ ٢٤٢

ما يكون من اقتداء المقتدين في القول والعمل والسلوك ، ان هذا الايمان العميق واليقين الصادق والعمل المخلص والاتباع السديد هو الذى دفع هؤلاء الكرام الى بذل النفس والمال والولد والعشيرة في سبيل الله (١) .

ان ايمان المجاهد بعدالة الاهداف التي يقاتل من اجلها ايمانا عميقا ـ كما حرص القران الكريم من خلال آياته على غرس ذلك في نفوس المجاهدين وعقولهم ـ ليجعل من المجاهد ، مقاتلا رهيبا كما عبر عن ذلك العسكريون المحدثون .

يقول القائد " كرمويل " (٢) : (ان اقوى غرض مشترك للجيش ، هو ان يعتقد افراده انهم اداة الخالق لتنفيذ احكامه ، واية قوة تستطيع الصمود في وجه هذه القوة الالهية ؟

ولقد كان المسلمون كذلك فانهم كانوا يعتقدون اعتقادا راسخا انهم جند الله ، يحاربون لاعلاء كلمته ونشر دينه ، بينما يقاتل اعداؤهم في سبيل الشيطان ، ولن ينتصر الشيطان يوما على الرحمن (الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا اولياء الشيطان ان كيد الشيطان كان ضعيفا)(٣) .

وقد ادرك المشركون يوم بدر هذه الحقيقة (انه لا طاقة لاحد بقتال الله) وقال ابن اسحاق : وبعث خفاف بن ايماء بن رخصة الغفارى الى قريش حين مروا ابنا له بجزائر اهداها لهم ، وقال : ان احببتم ان نمدكم بسلاح ورجال فعلنا .. فارسلوا اليه مع ابنه ان وصلتك رحم (لئن كنا نقاتل الناس فما بنا من ضعف عنهم ولئن كنا انما نقاتل الله كما يزعم محمد ، فما لاحد بالله من طاقة (٤) .

وبهذه العقيدة القوية كان المسلمون يخرجون من بيوتهم يطلبون الشهادة في سبيل الله ويسعون الى الموت سعيا ، لانه اسمى امانيهم .. والى هذا المعنى

---

(١) الجهاد في الاسلام صالح اللحيدان ٨٤ .
(٢) ايات الجهاد ١٢٣
(٣) ٧٦ : النساء .
(٤) سيرة ابن هشام ١٩٢/٢ .

اشار " الدكتور اومان "(١) • (ان العرب الذين قادهم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص في القرن السابع لفتح سوريا ومصر لم يفوزوا بالنصر لكثرة جيوشهم او لدقة نظامهم وانما بالتضحية والشجاعة النادرة ، فهي التي اقدرتهم على ان يواجهوا قوات اوفى منهم سلاحا ، وادق منهم نظاما) •

كما لاحظ هذا المعنى المستشرقون والمؤرخون (وملأ قلوب العرب شجاعة احتقارهم التام للموت ، الذى قرره في انهانهم دينهم الجديد (٢) •

وقد سبق ان ذكرت وعد الله الحق للمؤمنين بالنصر (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا (٣) • وذلك متى استقرت حقيقة الايمان لله في نفوس المجاهدين ، وتمثلت في واقع حياتهم منهجا للحياة ، وتجردوا من كل خاطرة ، فلن يجعل الله للكافرين عليهم سبيلا •

ويقول الشيخ محمود شلتوت :(فانا وجدنا انفسنا في وقت ما مخذولين ووجدنا اعداءنا علينا متسلطين فليس لنا ان نشك في وعد الله ، ولكن علينا ان نسائل انفسنا اين نحن من الايمان واين نحن من التضحية في سبيل الله بالمال والولد والمتاع (٤) •

فيجب ان نفرق دائما بين حقيقة الايمان ومظهر الايمان • ان حقيقة الايمان قوة ثابتة بثبوت النواميس الكونية ذات اثر في النفوس وفيما يصدر عنها من حركات واعمال • وهي حقيقة ضخمة هائلة كفيلة ان تواجه حقيقة الكفر المنعزلة المبتوتة وان تقهرها •

ولكن حين يتحول الايمان الى مظهر فان حقيقة الكفر تغلبه ، اذا هي صدقت مع طبيعتها وعملت في مجالها ، لان حقيقة اى شيء اقوى من مظهره ،

---

(١) نقلا عن آيات الجهاد للدقس ١٣٣

(٢) تاريخ العرب ١٧٦/١ فيليب حتى ترجمة محمد مبروك نافع •

(٣) ١٤١ : النساء •

(٤) تفسير القران الكريم ١٥٤ محمود شلتوت •

ولو كانت هي حقيقة الكفر ، وكان هو مظهر الايمان والتاريخ خير شاهد على ذلك (١) .

فالايمان الذى لا بد منه لاحراز النصر واسترداد الاوطان ليس كلمة تقال باللسان ، وانما هي عقيدة يسترخص المؤمن في سبيلها كل عزيز ونفيس ويضحي بروحه ودمه وماله في سبيل الدفاع عنها والمحافظة عليها .

فالايمان الصادق اذا تمكن في قلب شخص وذاق حلاوته استعذب الموت في سبيله لدرجة انه قد ينسى نفسه في سبيل ايمانه ، ويقوم بما يوجبه عليه من واجبات وتكاليف ويرى في القيام بذلك لذة وارتياحا (٢) .

---

(١) آيات الجهاد ١٢٤ .
(٢) الجهاد طريق النصر ١٧٤ .

ثـانـيـا ـ ارادة الجهـاد :

سبق وذكرت ان القتال والصراع بين البشر سنة الهية منذ ان خلق الله البرية ٠ فالحروب تنشأ بين الامم اذا كانت احدى الامم قوية والاخرى ضعيفة فالقوية تعتدى على الضعيفة طمعا في خيراتها و للاستيلاء عليها ، وتنشأ فكرة القتال في الامم الضعيفة عندما تستيقظ من سباتها وتنتبه من غفلتها لاعادة حقها المسلوب وكرامتها المهانة ٠(١)

ولقد (كان الاسلام حريصا على تنشئة فكرة الجهاد في نفوس المسلمين تنشئة كريمة عادلة قوية ، وعلى توجيهها من اول امرها توجيها اسلاميا نزيها وجعلها عبادة من اسمى العبادات المفروضة ومن احب الاعمال الى الله)(٢) ، لكي يعبد الله وحده في الارض ولا يشرك به شيء ولا يتخذ الناس الها ولا ربا غيره ، ولا يتكبروا في ارض الله بغير الحق فان الحكم والامر لله وحده بيده مقاليد السموات والارض ، فلا يجوز لاحد من خلقه سواء كان فردا او امة ان يعلو في الارض ، فكل فكرة او حكومة مؤسسة على غير الاسلام يقاومها الاسلام ويسعى ان يغيرها على مقتضى الحق لان غايته استعلاء فكرته وتعميم منهاجه واقامة الحكومات وتوطيد دعائمها على اساس هذه الفكرة وهذا المنهاج ٠ والاسلام يريد تحرير الارض والتي هي ملك لله من كل عبودية زائفة ، ويريد ان ترفرف رايته ولواءه على الارض وتعلو كلمته في الدنيا لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى (٠٠٠ وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا..)(٣) ، (فالجهاد هو بذل المهج والارواح والاموال والانفس في سبيل اقامة كلمة الله الحق واعداد كل ما يستطاع من قوة لمنازعة الشر والطغيان ، لتتحقق سعادة البشرية بازالة الفساد من الارض مهما كانت جذور هذا الفساد متغلغلة في الارض ،(حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله)(٤) ٠

---

(١) راجع مبحث التدافع من هذا الفصل ٠
(٢) القتال في الاسلام احمد نار ٢٨ بتصرف يسير ٠
(٣) التوبة : ٤٠ ٠
(٤) الانفال : ٣٩ ٠

وهكذا فهم السلف الصالح الاسلام وفهموا غاية الجهاد منه وانها تحرير الانسان من عبادة العباد الى عبادة الله وحده وتحكيم شريعته في الارض ليتحقق العدل فيها ، وقد جاء ذلك بعبارات واضحة على لسان الصحابي الجليل ربعي بن عامر لرستم قائد جيش الفرس في القادسية ، وهو يسأله ما الذى جاء بكم ؟ فقال :(الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الاديان الى عدل الاسلام ، فارسل رسوله بدينه الى خلقه ، فمن قبله منا قبلنا منه ورجعنا عنه ، وتركناه وارضه ، ومن ابى قاتلناه ، حتى نفضي الى الجنة او الظفر)(١) .

وباختصار اقول : ان غاية الجهاد في الاسلام هي تحطيم الحواجز من الانظمة والاوضاع التي تغل من حرية الانسان في الاختيار ، فالجهاد على حد تعبير شيخ الاسلام ابن تيمية : هو لمن يقاتلنا انا اردنا اظهار دين الله ، ثم لا يهاجم الافراد ليكرههم على اعتناق عقيدته (٢) لانه (لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي)(٣) ، (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)(٤) . ومما يدل على ذلك ما ورد عن سليمان بن بريدة عن ابيه قال :(كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا امر اميرا على جيش او سرية اوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا ، ثم قال : اغزوا باسم الله في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدة ، واذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم الى ثلاث خصال او خلال فايتهن ما اجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، ادعهم الى الاسلام فان اجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ... فان هم ابوا فسلهم الجزية فان اجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، وان ابوا فاستعن بالله عليهم وقاتلهم ...)(٥) ، وقد كان قادة الفتح

---

(١) تاريخ الطبرى ٣/٥٢٠ ، وانظر الكامل في التاريخ ٢/٣٢٣ .
(٢) انظر تفصيل ذلك والتوسع في غاية الجهاد ، الجهاد في سبيل الله ٢١-٥٦ لابي الاعلى المودودى ،والجهاد في سبيل الله ١٠٠-١٢٧ لسيد قطب ، وانظر السياسة الشرعية ١٢٩-١٣١ .
(٣) البقرة : ٢٥٦
(٤) الكهف : ٢٩ .
(٥) اخرجه مسلم كتاب الجهاد والسير باب تأمير الامراء على البعوث ووصيته اياهم

الاسلامي في كل جبهة من جبهات الجهاد يخيرون الناس بالايمان او الجزية او بالقتال فقد قال المغيرة بن شعبة لعامل كسرى :(امرنا نبينا صلى الله عليه وسلم ان نقاتلكم حتى تعبدوا الله وحده او تؤدوا الجزية)(١) .

لكل هذا حرص الاسلام على تنشئة فكرة الجهاد في نفوس المسلمين ، ففي بدء الدعوة الاسلامية وفي الفترة التي نزلت فيها سورة العلق وسورة المزمل نزلت كذلك سورة " قل يا ايها الكافرون "(٢) ، ونزلت ايضا سورة " تبت يدا ابي لهب وتب "(٣) ، وفي هذه الفترة نزلت سورة " والعاديات ضبحا ، فالموريات قدحا فالمغيرات صبحا ، فأثرن به نقعا ، فوسطن به جمعا "(٤) ،(وهي سورة عجيبة ذكر فيها كل ما يحتاجه القائد والمحارب .. وما كان كل هذا الا ايقاظا للنفوس وتنبيها للعقول والفاتا للانظار الى ما للاعداد والقتال من الخطر في قيام الدعوات وتكوين رجالها وحمايتها والى الحكمة في استصحاب الفكرة استعدادا لوقتها وحين تنفيذها)(٥) .

وقد فهم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم في مكة وقبل الاذن بالجهاد ان الاسلام لا بد له من قتال لاعداء الله وكانوا يستأذنون رسول الله صلى الله عليه وسلم في قتال قريش ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يؤجلهم ليوم يكونون فيه قادرين على القتال والمواجهة (الم تر الى الذين قيل لهم كفوا ايديكم واقيموا الصلاة)(٦) ، وعندما بايع الانصار رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة العقبة الثانية نشأت في نفوسهم فكرة الجهاد مع ايمانهم من اول يوم شرفهم الله فيه بالاسلام (٧) ، اذ قال الانصار وكانوا ثلاثة وسبعين ما بين رجل وامرأة ، بعدما سمعوا كلام العباس حيث قال :(يا

---

(١) اخرجه البخارى كتاب الجزية والموادعة باب الجزية والموادعة مع اهل الحرب ، فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٢٥٨/٦ .

(٢) نزلت بمكة انظر مباحث في علوم القران ٤٦ وتفسير الطبرى ٣٣٠/٣٠ .

(٣) نزلت بمكة وقد كان ابو لهب يضع الشوك والاذى في طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انظر زاد المسير ٢٥٨/٩ وانظر مباحث في علوم القران ٤٦ .

(٤) ١ ـ ٥ : العاديات .

(٥) القتال في الاسلام ٢٨ ـ ٢٩ .

(٦) ٧٧ : النساء .

(٧) انظر القتال في الاسلام [illegible]

معشر الخزرج ان محمدا منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومه ممن هو على مثل رأينا وهو في عز من قومه ومنعة في بلده ، وانه قد ابى الا الانقطاع اليكم واللحوق بكم ، فان كنتم ترون انكم وافون له بما دعوتموه اليه ، ومانعوه ممن خالفه فانتم وما تحملتم من ذلك ، وان كنتم ترون انكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج اليكم فمن الان فدعوه ، فانه في عزة ومنعة من قومه وبلده .

فأجاب البراء بن معرور فقال :(قد سمعنا ما قلت ، وانا والله لو كان في انفسنا غير ما ننطق به لقلناه ولكنا نريد الوفاء والصدق ونبذل مهج انفسنا دون رسول الله صلى الله عليه وسلم فتكلم يا رسول الله وخذ لنفسك ولربك ما احببت ، فقرأ عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم القران ودعا الى الله ورغبهم في الاسلام وقال :(ابايعكم على ان تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وابناءكم ، فاخذ البراء بن معرور بيده ثم قال : نعم والذى بعثك بالحق نبيا لنمنعك مما نمنع منه ازرنا ، فبايعنا يا رسول الله فنحن والله اهل الحروب واهل الحلقة ورثناها كابرا عن كابر ، قال فاعترض القول والبراء يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ابو الهيثم بن التيهان ، فقال يا رسول الله : ان بيننا وبين الرجال حبالا وانا قاطعوها - يعني اليهود - فهل عسيت ان نحن فعلنا ذلك ، ثم اظهرك الله ان ترجع الى قومك وتدعنا ، قال : فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : بل الدم الدم والهدم الهدم انا منكم وانتم مني احارب من حاربتم واسالم من سالمتم .(١)

فقال البراء : ابسط يدك يا رسول الله نبايعك ، فبايعهم على السمع والطاعة في المنشط والمكره وفي العسر واليسر واثره عليهم)(٢) .

واخرج ابن سعد ان العباس بن عبادة بن نضلة ، قال يا رسول الله : (والذى بعثك بالحق لئن احببت لنميلن على اهل منى باسيافنا ، فقال رسول الله

---

(١) سيرة ابن هشام ٦٣/٢ ودلائل النبوة ١٨٥/٢ ، والسيرة النبوية لابن كثير ١٩٧-١٩٨ ، اتحاف الورى ٣٣٩/١-٣٤٨ وانظر عيون الاثر ١٦٣/١-١٦٤ .

(٢) طبقات ابن سعد ٢٢٢/١-٢٢٣ .

صلى الله عليه وسلم : انا لم نؤمر بذلك فانفضوا الى رحالكم)(١) .

(بهذه الكلمة البليغة الحكيمة اتضح ان القتال عند المسلمين في ذلك الوقت كان فكرة فقط ، ولم يكن بعد مبدأ لعدم تهيوء الظروف ،فضلا عن ان يكون عقيدة تحتمها دواعي الدعوة ، ولكنها كانت فكرة سليمة نقية واضحة لا لبس فيها ولا غموض ، فكرة عرفها كل مسلم وتبينها في بدء اسلامه ولم يوءخذ بها احد بغتة او قسرا) (٢) .

(اذا صحت الفكرة وتقررت على هذا الوضع السليم والاساس المتين في النفوس الطيبة الصالحة ، اصبحت بحكم الحاجة من لوازم الحياة العالية وارتقت في نظامها الى ان تكون مبدأ من مبادئها وقانونا من قوانينها لا يجوز التخلي عنه وتأخير العمل به ، وانما يجب التمسك به والاصرار عليه والاستعداد له والاخذ به ، ولذلك لما نضجت الفكرة في نفوس المسلمين ووسعتها حياتهم اخذت تتحول ..الى مبدأ ثابت)رغبهم (٣) الله سبحانه وتعالى فيه في كثير من آياته فقال :(ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتا بل احياء عند ربهم يرزقون)(٤) وقال :(وقاتلوا في سبيل الله واعلموا ان الله سميع عليم)(٥) .

وكان الجهاد ضروريا لتمييز الخبيث من الطايب قال تعالى :(ام حسبتم ان تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ..)(٦) .

وجعل الجهاد هو الضرورة التي لا بد منها حتى يدخل المؤمنون الجنة يقول تعالى :(ام حسبتم ان تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله الا ان نصر الله قريب)(٧) .

---

(١) طبقات ابن سعد ٢٢٣/١ .
(٢) القتال في الاسلام احمد نار ٤٢ .
(٣) القتال في الاسلام ٤٣ .
(٤) ١٦٩ : آل عمران .
(٥) ٢٤٤ : البقرة .
(٦) ١٤٢ : آل عمران .
(٧) ٢١٤ : البقرة .

وقد تقرر هذا المبدأ بعد ذلك تقريرا ثابتا ، واصبح قاعدة من قواعد الدين وكتابا على المؤمنين وان كان شديدا على بعض النفوس قال تعالى : (كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وانتم لا تعلمون)(١) .

وقوله كتب ، اى : فرض(٢) كما قال تعالى :(كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم)(٣) .

وفي تثبيت هذا المبدأ واقراره يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (امرت ان اقاتل الناس حتى يشهدوا ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فاذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم واموالهم الا بحق الاسلام وحسابهم على الله)(٤) .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبايع المسلمين على الجهاد في سبيل الله فعن مجاشع رضي الله عنه قال :(اتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت بايعنا على الهجرة فقال : مضت الهجرة لاهلها ، فقلت علام تبايعنا قال : على الاسلام والجهاد)(٥) .

وقد كان رجزهم وهم يحفرون الخندق :

نحن الذين بايعوا محمدا   على الجهاد ما بقينا ابدا (٦) .

ان التسليم بصحة المبدأ والايمان به واعتناقه والاستقامة عليه مع الاخلاص له يجعله في النفوس الزكية عقيدة راسخة رسوخ الجبال ، فالعقيدة الحقة هي التي تستقر في القلب وينطق بها اللسان وتتحقق في عالم الواقع حركة وفاعلية ، فاذا اصبح مبدأ القتال عقيدة فانه ينطلق لتحقيقها في ،

---

(١) ٢١٦ : البقرة .
(٢) انظر احكام القران لابن العربي ١٤٦/١ .
(٣) ١٨٣ : البقرة .
(٤) متفق عليه اخرجه البخارى كتاب الايمان باب (فان تابوا واقاموا الصلاة الاية) واللفظ له ، فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٧٥/١ ، ومسلم كتاب الايمان باب الامر بقتال الناس حتى يقولوا لا اله الا الله محمد رسول الله ٥٣/١ .
(٥) متفق عليه اخرجه البخارى كتاب الجهاد باب البيعة في الحرب ان لا يفروا واللفظ له ، فتح البارى بشرح صحيح البخارى ١١٧/٦ ومسلم كتاب الامارة باب المبايعة بعد الفتح على الاسلام والجهاد والخير ١٤٨٧/٣ .

الواقع ،(ومن كانت غايته الجهاد واسمى امانيه الموت في سبيل الله صغر امامه كل كبير وتحطم في طريق همته كل عائق وتواضعت الدنيا جميعا تحت قدميه ، وفي قول الصديق رضي الله عنه (احرص على الموت توهب لك الحياة)(١) سر الايمان بهذه العقيدة واثرها في حياة معتنقيها)(٢) .

(ان الامة التي تؤمن بالجهاد وتحسن صناعة الموت وتعرف كيف تموت الموتة الشريفة يهب الله لها الحياة العزيزة في الدنيا والنعيم الخالد في الاخرة)(٣) .

ويفرق الله تعالى بين المؤمنين المجاهدين وغير المجاهدين ، فيقول جل وعلا : (لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير اولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله باموالهم وانفسهم ، فضل الله المجاهدين باموالهم وانفسهم على القاعدين درجة ، وكلا وعد الله الحسنى ، وفضل الله المجاهدين على القاعدين اجرا عظيما)(٤) اى :(لا يعتدل المتخلفون عن الجهاد في سبيل الله من اهل الايمان بالله وبرسوله ، المؤثرون الدعة والخفض والقعود في منازلهم ، على مقاساة حزونة الاسفار ، والسير في الارض ، ومشقة ملاقاة اعداء الله بجهادهم في ذات الله ، وقتالهم في طاعة الله ، الا اهل العذر منهم بذهاب ابصارهم وغير ذلك من العلل التي لا سبيل لاهلها للضرر الذى بهم الى قتالهم وجهادهم في سبيل الله والمجاهدون في سبيل الله ، ومنهاج دينه ، لتكون كلمة الله هي العليا ، المستفرغون طاقاتهم في قتال اعداء الله واعداء دينهم باموالهم انفاقا لها فيما اوهن كيد اعداء اهل الايمان بالله وبانفسهم مباشرة بها قتالهم ، بما تكون به كلمة الله العالية ، وكلمة الذين كفروا السفلى)(٥)

---

(١) الفروسية في الاسلام ١٧٣ .
(٢) القتال في الاسلام احمد نار ٥٠ .
(٣) الجهاد في سبيل الله حسن البنا ٩٢ .
(٤) ٩٥ : النساء .
(٥) تفسير الطبرى ٢٧٧/٥ .

وعقد الله سبحانه وتعالى بينه وبين المؤمنين صفقة وتجارة الثمن فيها الجنة والمبيع فيها الانفس والاموال ، يا لها من تجارة رابحة وصفقة غالية .

فالله سبحانه وتعالى يساوم الناس على بيع انفسهم واموالهم وهي منه(١) والثمن الجنة ، قال عز وجل :(ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقران ومن اوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم)(٢) .

ويقول تعالى ايضا :(يا ايها الذين آمنوا هل ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله باموالكم وانفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون ، يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الانهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم ، واخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين)(٣) .

قد نزلت هذه الآيات تبين للمؤمنين اى تجارة اربح عندما قال عثمان بن مظعون لرسول الله صلى الله عليه وسلم :(والله لوددت يا نبي الله اى التجارات احب الى الله فاتجر بها ؟)(٤) فنزلت الاية .

فالتجارة الرابحة هي الجهاد في سبيل الله ولننظر الى الجزاء على ذلك :-

١ ـ النجاة من عذاب الجحيم وهو النار .

٢ ـ مغفرة الذنوب .

٣ ـ الدخول في جنة النعيم .

٤ ـ الفوز بمساكن طيبة في جنته .

٥ ـ نصر في الدنيا وفتح قريب .

٦ ـ ثم بشارة عامة بفضل الله الذى لا حد له (وبشر المؤمنين)(٥)

---

(١) حدائق الانوار ٤٤٤/٢ .
(٢) ١١١ـ١١٢ : التوبة .
(٣) ١٠ ـ ١٣ : الصف .
(٤) تفسير القرطبي ٦٥٦٦/٨ .
(٥) انظر فتح القدير ٢٢٢/٥ ـ ٢٢٣ تفسير ابن كثير ٣٦١/٤ .

وانها لتجارة رابحة ان يعطي المؤمن الدنيا ويأخذ الآخرة ، فالذى يتجر بالدرهم فيكسب عشرة يغبطه كل من في السوق ، فكيف بمن يتجر في ايام قليلة معدودة في هذه الارض ، ومتاع محدود في هذه الدنيا فيكسب به خلودا (في جنة النعيم) ومتاعا غير مقطوع ولا ممنوع (١) .

واكد الله سبحانه وتعالى على مبدأ الجهاد في نفوس المؤمنين حيث بين لهم ان من ارتد منهم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم غيرهم يكون من صفاتهم الجهاد في سبيل الله يقول تعالى :(يا ايها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه اذلة على المؤمنين اعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ، ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم)(٢) .

والملاحظ ان الاوصاف الاخرى التي ذكرتها الاية تعين على الجهاد في سبيل الله فمن احب الله احب ما احبه وابغض ما ابغضه والكفار ممن يبغضهم الله ، والذلة للمؤمنين تؤدى الى التحابب والتعاون فيما هم فيه من قتال اعدائهم ، واما قوله اعزة على الكافرين فتعني انهم اشداء عليهم في الحرب وغيرها ، ثم عقب على ذلك بالصفة التي ينبغي ان تتوفر في المجاهد وهي ان لا يخاف فيما يدعو اليه ويجاهد في سبيله احدا ولا لومة .

ولتعميق عقيدة الجهاد في سبيل الله في نفوس المؤمنين قال صلى الله عليه وسلم :(من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من نفاق)(٣) .

ولا يعترض هذه العقيدة السامية في سلطانها العام على المحيط الاسلامي الا بعض الامراض النفسية التي تظهر اعراضها في الوقت المناسب ، ولقد عرفنا سبحانه وتعالى باصحاب هذه الامراض تعريفا دقيقا ، ووضع لكل داء دواء (٤) (فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم)(٥) .

---

(١) في ظلال القران ٣٥٥٩/٦ . (٢) ٥٤ : المائدة .
(٣) اخرجه مسلم كتاب الامارة باب ذم من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو ١٥١٧/٣ .

واصحاب هذه الامراض اثنا عشر صنفا :(١)

١ ـ القاعدون يقول تعالى :(... وفضل الله المجاهدين على القاعدين اجرا عظيما درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما)(٢) .

٢ ـ المتثاقلون والذين قال فيهم تعالى :(يا ايها الذين آمنوا مالكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم الى الارض ارضيتم بالحياة الدنيا من الاخرة ، فما متاع الحياة الدنيا في الاخرة الا قليل . الا تنفروا يعذبكم عذابا اليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا والله على كل شيء قدير)(٣) .

٣ ـ المتباطئون : يقول تعالى واصفا لهم :(وان منكم لمن ليبطئن ، فان اصابتكم مصيبة قال : قد انعم الله علي اذ لم اكن معهم شهيدا ، ولئن اصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتني كنت معهم فافوز فوزا عظيما)(٤) .

٤ ـ المترفون : وهؤلاء يقول في حقهم تعالى :(انما السبيل على الذين يستأذنونك وهم اغنياء رضوا بان يكونوا مع الخوالف)(٥) .

٥ ـ المتربصون : وقال الله واصفا ومشهرا بهم :(ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني الا في الفتنة سقطوا وان جهنم لمحيطة بالكافرين ... قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ، قل هل تربصون بنا الا احدى الحسنيين ونحن نتربص بكم ان يصيبكم الله بعذاب من عنده او بايدينا فتربصوا انا معكم متربصون)(٦) .

٦ ـ اليائسون : ويقول تعالى فيهم :(..وطائفة قد اهمتهم انفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ، يقولون هل لنا من الامر من شيء قل ان الامر كله لله يخفون في انفسهم ما لا يبدون لك ، يقولون لو كان لنا من الامر شيء ما قتلنا ها هنا ، قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل

---

(١) القتال في الاسلام ٥٢ـ٧٠ بتصرف .
(٢) ٩٥ ـ ٩٦ : النساء .
(٣) ٣٨ ـ ٣٩ : التوبة .
(٤) ٧٢ ـ ٧٣ : النساء .
(٥) ٩٣ : التوبة .
(٦) ٤٩ ـ ٥٢ : التوبة .

الى مضاجعهم ، وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور)(١) .

٧ـ المرتابون : وفيهم يقول عز من قائل :(انما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الاخر ، وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون ولو ارادوا الخروج لاعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين)(٢) .

٨ ـ المتخلفون وهؤلاء اصناف : ـ

منهم الذى يتخلف كيدا وحقدا وهؤلاء قال فيهم سبحانه وتعالى :(فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا ان يجاهدوا باموالهم وانفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم اشد حرا لو كانوا يفقهون)(٣) .

ومنهم من تخلف جهلا وغفلة فهؤلاء تترك لهم فرصة التربية والتجربة (قل للمخلفين من الاعراب ستدعون الى قوم اولي بأس شديد تقاتلونهم او يسلمون، فان تطيعوا يؤتكم الله اجرا حسنا ، وان تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا اليما)(٤) .

وصنف تخلف مرة خطأ وتاب الى الله فهؤلاء يتوب الله عليهم وهؤلاء امثال كعب بن مالك وهلال بن امية ومرارة بن الربيع الذين نزل فيهم قوله :(وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت ، وضاقت عليهم انفسهم وظنوا ان لا ملجأ من الله الا اليه ثم تاب عليهم ليتوبوا ان الله هو التواب الرحيم)(٥) .

٩ـ المعوقون : وقد فضحهم الله في كثير من آياته فهم الذين :(.. وقالوا لاخوانهم اذا ضربوا في الارض او كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ...)(٦) .وقال تعالى في حقهم :(قد يعلم الله المعوقين منكم

---

(١) ١٥٤ : آل عمران .
(٢) ٤٥ ـ ٤٦ : التوبة
(٣) ٨١ : التوبة .
(٤) ١٦ : الفتح .
(٥) ١١٨ : التوبة .
(٦) ١٥٦ : آل عمران .

والقائلين لاخوانهم هلم الينا ولا يأتون البأس الا قليلا اشحة عليكم فاذا جاء الخوف رايتهم ينظرون اليك تدور اعينهم كالذى يغشى عليه من الموت ، فاذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد اشحة على الخير اولئك لم يؤمنوا فاحبط الله اعمالهم ، وكان ذلك على الله يسيرا)(١) .

١٠ـ المرجفون وهم الذين قال فيهم عز وجل :(لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها الا قليلا ، ملعونين اينما ثقفوا اخذوا وقتلوا تقتيلا سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا)(٢) .

١١ـ المنافقون : هوءلاء هم الذين (واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزئون)(٣) .

وهوءلاء يوءدون مهمة القاعدين والمخلفين والمرجفين .

١٢ـ المتجسسون : وهم الذين يخونون امتهم ويعملون لصالح العدو بنقل اخبار المسلمين يقول تعالى :(اذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطا)(٤) .

لهذا كله لا بد من تنقية الصفوف من امثال هوءلاء ، فان هوءلاء يثبطون الجيش الاسلامي ويوقعون فيه الفساد ويكونون عيونا للاعداء وهم بداخل الامة (٥).

وبهذه الارادة القوية النابعة من الايمان الصادق والعقيدة الحقة ، والتي التزم بها السلف الصالح وفهموها ، حقق الله لهم النصر على عدوهم ومكن لهم في الارض .

ولذا فيجب على القائد المسلم الا يستعين بغير المؤمن في الجهاد فالرسول صلى الله عليه وسلم عندما جاءه احد الابطال ، واستبشر به الصحابة رده ولم

---

(١) ١٨ ـ ١٩ : الاحزاب .
(٢) ٦٠ ـ ٦٢ : الاحزاب .
(٣) ١٤ : البقرة .
(٤) ١٠٨ : النساء .
(٥) وينقسم هؤلاء المرجفين الى قسمين مؤمنين وهم الصنف الاول والثاني وبعض الثامن ، واما البقية فهي اصناف للمنافقين .

يجزله الجهاد لانه لم يكن مؤمنا ، فعن عائشة رضي الله عنها ، قالت :(خرج النبي صلى الله عليه وسلم قبل بدر فلما كان بحرة الوبرة (١) ادركه رجل قد كان يذكر منه جرأة ونجدة ، ففرح اصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم حين رأوه فلما ادركه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم :(جئت لاتبعك واصيب معك ، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم تؤمن بالله ورسوله ؟ قال لا ، قال فارجع فلن استعين بمشرك ..)(٢) .

وقد نص فقهاؤنا على ضرورة تنقية الصف من الذين لا يملكون ارادة الجهاد ، فقال ابن قدامة في المغني :(ولا يستصحب الامير مخذلا وهو الذى يثبط الناس عن الغزو ويزهدهم في الخروج اليه والقتال والجهاد ، مثل ان يقول الحر او البرد شديد والمشقة شديدة ولا تؤمن هزيمة هذا الجيش واشباه هذا .
ولا مرجفا : وهو الذى يقول هلكت سرية المسلمين ومالهم مدد ولا طاقة لهم بالكفار ، والكفار لهم قوة ومدد وصبر ولا يثبت لهم احد ونحو هذا .
ولا من يعين على المسلمين بالتجسس للكفار واطلاعهم على عورات المسلمين ومكاتبتهم باخبارهم ودلالتهم على عوراتهم ، او ايواء جواسيسهم .
ولا من يوقع العداوة بين المسلمين ويسعى بالفساد لقول الله تعالى :(..ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة ...)(٣) ولان هؤلاء مضرة على المسلمين فيلزمه منعهم ...)(٤) .

واما اذا كان الامير مخذلا او مثبطا او منافقا فانه لا يجوز الخروج معه من باب اولى وفي ذلك يقول ايضا ابن قدامة :(وان كان الامير احد هؤلاء ـ الذين سبق ذكرهم ـ لم يستحب الخروج معه ، لانه اذا منع خروجه تبعا فمتبوعا

---

(١) الحرة بفتح الهاء المهملة وتشديد الراء والوبرة بفتح الواو والباء الموحدة بعدها راء بسكون الموحدة ايضا : موضع على اربعة اميال من المدينة . نيل الاوطار شرح منتقى الاخبار من احاديث سيد الاخيار ٢٥٥/٧ .

(٢) اخرجه مسلم كتاب الجهاد والسير باب كراهة الاستعانة في الغزو بكافر الا لحاجة ١٤٤٩/٣ ـ ١٤٥٠ .

(٣) ٤٦ ـ ٤٧ : التوبة .

(٤) المغني [illegible]

اولى ، ولانه لا تؤمن المضرة على من صحبه)(١) .

وفي قصة موسى عليه السلام مع قومه تتجلى اهمية الارادة في القتال ، وانه بدون ارادة لا يكون جهاد ومن ثم فلا نصر . وبالارادة والجهاد واتخاذ الاسباب يتحقق النصر باذن الله فموسى عليه السلام قال لقومه :(يا قوم ادخلوا الارض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على ادباركم فتنقلبوا خاسرين)(٢) فرفضوا القتال وجبنوا عنه لانه لم تتوفر فيهم ارادة الجهاد (قالوا يا موسى ان فيها قوما جبارين وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها ، فان يخرجوا منها فانا داخلون)(٣) ولم تنفعهم نصيحة المخلصين ولم توءثر الكلمات المخلصة في ارادتهم الميتة حيث (قال رجلان من الذين يخافون انعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فاذا دخلتموه فانكم غالبون وعلى الله فتوكلوا ان كنتم موءمنين)(٤) ، ثم اعلنوها صريحة وانهم لا يريدون القتال مهما كان الامر وقالوا بكل وقاحة وسفاهة :(قالوا يا موسى انا لن ندخلها ابدا ما داموا فيها فاذهب انت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون)(٥) .

ولو نظرنا الى هذه الصورة وصورة المسلمين اليوم فانها لا تختلف كثيرا عن صورتهم مع الجبارين ، فالمسلمون اليوم يقدرون بحوالى الف مليون وعدوهم من اليهود لا يتجاوزون في انحاء العالم اثنى عشر مليونا ، ولو قسمنا المسلمين على اليهود لخرج لكل يهودى ثلاثة وثمانون مسلما !!. ترى لو كانت عند المسلمين ارادة للجهاد وعزيمة صادقة فيه ماذا ستكون النتيجة ؟؟

انها ولا شك ستكون نصرا موءزرا للمسلمين وهزيمة ساحقة لاعدائهم ،ومن يفكر في الوقوف معهم ، فكيف اذا كان الله مع الموءمنين وملائكته تساندهم ، وجنود السموات والارض التي لا يعلمها الا الله تحرسهم ؟! هذا اذا قبل هوءلاء

---

(١) المغني والشرح الكبير ٣٧٢/١٠ .
(٢) ٢١ : المائدة .
(٣) ٢٢ : المائدة .
(٤) ٢٣ : المائدة .
(٥) ٢٤ : المائدة .

اليهود المواجهة ، الذين وصفهم الله في كتابه بالجبن حيث قال : (لا يقاتلونكم جميعا الا في قرى محصنة او من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ..)(١) .

ولكن الذى ينقص المسلمين اليوم - فيما ينقصهم - هو الايمان الحق الذى تنبعث منه الارادة الصادقة .

وبالارادة وحدها قد ينصر الله المسلمين على عدوهم نصرا لم يكونوا يتوقعونه ، وبقوة واسباب لم يكونوا يعلمونها بل كانوا يكرهونها وهذا ما حدث مع التتار عند غزوهم لبلاد الشام ، ولنترك احد المجاهدين الاعلام اصحاب الارادة القوية والعزيمة الثابتة شيخ الاسلام ابن تيمية والذى يشبه هزيمة التتار في ايامه بغزوة الاحزاب عندما هزم الله المشركين ومن مالأهم . وفي ذلك يقول :(وقد كان بعض الناس يكره تلك الثلوج والامطار العظيمة التي وقعت هذا العام ، حتى طلبوا الاستسقاء غير مرة وكنا نقول لهم : هذا فيه خيرة عظيمة . وفيه لله حكمة وسر فلا تكرهوه فكان من حكمته فيما قيل : اصاب قازان وجنوده ، حتى اهلكهم ، وهو كان فيما قيل سبب رحيلهم ، وابتلى به المسلمون ليتبين من يصبر على امر الله وحكمه ومن يفر من طاعته وجهاد عدوه ، وكان مبدأ رحيل قازان فيمن معه من ارض الشام واراضي حلب يوم الاثنين حادى عشر جمادى الاول ، يوم دخلت مصر عقيب العسكر واجتمعت بالسلطان وامراء المسلمين ،والقى الله في قلوبهم من الاهتمام بالجهاد ما القاه ، فلما ثبت الله قلوب المسلمين صرف العدو جزاء منه ، وبيانا ان النية الخالصة والهمة الصادقة ينصر الله بها ، وان لم يقع الفعل وان تباعدت الديار).(٢)

---

(١) ١٤ : الحشر .
(٢) مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية ٤٦٣/٢٨ .

ثالثا الاخلاص :-

ومن اسباب النصر التي دلت عليها الآيات القرانية الاخلاص وهو قطب رحى الدين وهو الذى تقبل به الاعمال وترفع به الدرجات وهو سبب الفوز في الدنيا والنجاة في الاخرة •

ولقد دلت الآيات القرانية والاحاديث النبوية الشريفة على وجوب اخلاص العبد لله عز وجل في عمله ، وان يتوجه بذلك لله وحده دون سواه ودلت ايضا على ان سبب قبول الاعمال هو الاتجاه فيها الى الله وحده •

فقد خاطب الله سبحانه وتعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم آمرا له بالاخلاص في قوله تعالى :(انا انزلنا اليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين)(١) ، وجاء على لسانه صلى الله عليه وسلم :(قل اني امرت ان اعبد الله مخلصا له الدين)(٢) •

والامر بالاخلاص هو دعوة الله ايضا للامم السابقة من قبلنا ، قال تعالى: (وما امروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين)(٣) ، وهو دعوته لهذه الامة ايضا يقول تعالى :(فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون)(٤) •

فهي دعوة واحدة من الله عز وجل لعباده اجمعين ان يتوجهوا باعمالهم جميعها خالصة لوجهه الكريم وان يقصدوا بها ارضاء الله وطاعته ليس رياء او سمعة او من اجل مغنم شخصي او منفعة دنيوية •

وبين عز وجل ان الثواب والجزاء على الاعمال مترتب على مدى الاخلاص فيها له سبحانه وتعالى ، يقول تعالى :(••• فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه احدا)(٥) •

وبين سبحانه انه لا يقبل من العباد اعمالهم اذا كانت غير خالصة له سبحانه وتعالى فيقول :(والذين كفروا اعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن

---

(١) ٢ : الزمر •
(٢) ١١ : الزمر •
(٣) ٥ : البينة •
(٤) ١٤ : غافر •
(٥) ١١٠ : الكهف •

ماء ، حتى اذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب)(١) .

وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم اهمية الاخلاص لله عز وجل وان صحة الاعمال وقبولها وكمالها وان حظ العامل من عمله نيته ، فان كانت نيته صالحة فعمله صالح وله اجره وان كانت فاسدة فعمله فاسد وعليه وزره (٢) ، كما قال عليه الصلاة والسلام :(انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها او امرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه)(٣) .

فعلى العبد ان يخلص في عمله لله وحده وان يجرد نيته من جميع الشوائب وحظوظ النفس والطمع في الدنيا وان لا يريد بعمله الناس او الشهرة او غير ذلك مما ليس لله جل وعلا (٤) .

فان (كل عاقل لا بد له من غرض يقصد اليه بعمله ، فاذا ما سما الغرض ، ونبل القصد ، واتصل بالارادة الدائمة ، والتمس به مرضاة الله كان ذلك سببا قويا في تقبل الاعمال ، وارتفاع الدرجات ، وكان في الوقت نفسه دليلا واضحا على قوة ايمان العامل بالله ، وشدة مراقبته لمولاه ، فيتقي ويحسن ، ويكون منه في كنف ومعية (ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون)(٥) .

(واما اذا سفل الغرض ، وانحط المقصد واتصل بارادة الحصول على شهوة زائلة او سمعة زائفة ، او حيلة خادعة ، فان ذلك يكون سببا قويا في رفض الاعمال ، وردها على اصحابها ، وكان في الوقت نفسه دليلا واضحا على خلو

---

(١) ٣٩ : النور .
(٢) انظر جامع العلوم والحكم ٧ وانظر الاربعين النووية وشرحها للامام النووى ٨ .
(٣) متفق عليه اخرجه البخارى كتاب الايمان باب ما جاء ان الاعمال بالنية والحسبة قتح البارى بشرح صحيح البخارى ١٣٥/١ ومسلم كتاب الامارة باب قوله صلى الله عليه وسلم انما الاعمال بالنية ١٥١٥/٣ ،اخرجاه انما الاعمال بالنية ،واخرجه ابو داود كتاب الطلاق باب فيما عني به الطلاق والنيات ٦٥١/٢ بلفظ انما الاعمال بالنيات واخرجه الترمذي كتاب فضائل الجهاد باب ما جاء فيمن يقاتل رياء وللدنيا ١٧٩/٤-١٨٠ طبعة الحلبي .
(٤) انظر احياء علوم الدين ٤٦٨/٤-٤٧٠ وجامع العلوم والحكم ٧ .
(٥) ١٢٨ : النحل .

القلب من روح الايمان الصادق ، وعلى عدم تمثله عظمة الله ومراقبته ، وكان العامل في تلك الحالة باذلا بعمله دينه لدنياه ، هازئا بعبادة مولاه ، وكان جديرا الا ينظر اليه ولا يزكيه ولا يكلمه (اولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) (١) .

فمن ابتغى تقديس الله بصلاته وصومه ، وابتغى مرضاته بالبذل والجهاد في سبيله ،وابتغى بارشاد الناس واصلاحهم وتوجيههم الى الخير وابتغى بحكم الناس والهيمنة عليهم اقامة العدل وايصال الحقوق الى اربابها ، وانصاف المظلوم من الظالم ، والرحمة بالضعفاء وقعت اعماله عند الله موقع الرضا والقبول ، وتولاه برعايته ، وسدده في قوله وعمله ، ونشر عليه من رحمته ، وجعله مورد خير دائم لله وعباده ، (ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما) (٢) .
(ومثل الذين ينفقون اموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من انفسهم كمثل جنة بربوة اصابها وابل فآتت اكلها ضعفين فان لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير) (٣)

اما من صلى وصام ، او تصدق او جاهد ، أودعا الناس الى شيء من ذلك بقصد ان يخلع الناس عليه لباس التقوى والصلاح ، اولباس السخاء والكرم ، او لباس الشجاعة والاقدام ، او لباس الحكم والسلطان ، او لباس العلم والمعرفة ، فهذا ونحوه مردود عليه عمله ، وصفقته عند الله كاسدة غير نافقة ، وخاسرة غير رابحة ، لا يعرف صور الخير الا حيث قدر لنفسه مغنما خاصا او لمع له برق لا ينتفع به سواه ، ولا يظهر له في اخراه) (٤) .

---

(١) ١٦ : البقرة
(٢) ١١٤ : النساء
(٣) ٢٦٥ : البقرة
(٤) من توجيهات الاسلام ٢٨٦ ـ ٢٨٨

ومن الطاعات التي جاء الحث على الاخلاص فيها الجهاد ، وقد ربط الله عز وجل والرسول صلى الله عليه وسلم امرهما ودعوتهما الى الجهاد والقتال بكلمة (في سبيل الله) ، وكانت هذه الكلمة اللازمة التى لا تنفك عن الجهاد الاسلامي ، بحيث اصبح الجهاد لا يذكر الا وتقترن به كلمة في سبيل الله ، فهو اى القتال والجهاد في سبيل الله ولاعلاء كلمة الله . (١)

والآيات والأحاديث التي جاءت تأمر بالجهاد وتبين انه ينبغي ان يكون في سبيل الله كثيرة نذكر بعضها للدلالة ، قال تعالى : (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا..) (٢) ، وقال : (وقاتلوا في سبيل الله واعلموا ان الله سميع عليم) (٣) ، وقال : (انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا باموالكم وانفسكم في سبيل الله) (٤) ويقول تعالى ايضا (ما لكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم الى الارض) (٥) ، الى غير ذلك من عشرات الايات الواردة في ذلك .

ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام : (اغزوا باسم الله ، قاتلوا من كفر بالله ...) (٦) وقال : (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله) (٧) .

وما كان هذا التأكيد على ربط الجهاد بسبيل الله الا لبيان ان غاية الجهاد هي اعلاء كلمة الله في الارض ، وتحرير الانسان من الحكم

---

(١) انظر الجهاد في سبيل الله ابو الاعلى المودودى ١٦
(٢) ١٩٠ : البقرة
(٣) ٢٤٤ : البقرة
(٤) ٤١ : التوبة
(٥) ٣٨ : التوبة
(٦) اخرجه مسلم كتاب الجهاد والسير باب تأمير الامراء على البعوث ووصيته اياهم بآداب الغزو وغيرها ٤ / ١٣٥٧
(٧) اخرجه البخارى كتاب الجهاد باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فتح البارى ٦ / ٢٧ ـ ٢٨

بغير ما انزل الله ، وتحرير الارض من الكفر ، فقد امر الله عز وجل بالقتال حتى تكون كلمة الله هي العليا وهي كلمة التوحيد لا اله الا الله ، وتكون كلمة الذين كفروا وهي كلمة الشرك السفلى (١) ، وان يظهر دين الله على سائر الأديان في سائر اهل الارض من عرب وعجم ومليين ومشركين . (٢)

ولقد فهم الصحابة رضوان الله عليهم اجمعين ان الغاية من الجهاد هي اعلاء كلمة الله في الارض ، بحيث يكون دين الله ظاهرا على جميع الاديان فقال أحدهم وهو ربعي ابن عامر يخاطب رستم ملك الفرس عندما سأله ما الذى جاء بكم ؟ فقال : الله ابتعثنا والله جاء بنا لنخرج من يشاء من عبادة العباد الى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا الى سعة الآخرة ، ومن جور الاديان الى عدل الاسلام ، فارسلنا بدينه الى خلقه لندعوهم اليه ، فمن قبل منا ذلك قبلنا ذلك منه ورجعنا عنه وتركناه وارضه يليها دوننا ومن ابى قاتلناه ابدا ، حتى نفضي الى موعود الله .. الجنة لمن مات على قتال من ابى والظفر لمن بقي (٣)

ويقول ابن تيمية (واذا كان اصل القتال المشروع هو الجهاد ومقصوده ان يكون الدين كله لله ، وان تكون كلمة الله هي العليا ، فمن منع هذا قوتل باتفاق المسلمين . ويقول : (ولهذا اوجبت الشريعة قتال الكفار .) (٤) ويقول : (وكل من بلغته دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الى دين الله الذى بعثه فلم يستجب له فانه يجب قتاله (حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) (٥) بمعنى ان يخلى بينه وبين كل ما

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٢ / ٣٥٨ - ٣٥٩
(٢) المصدر السابق ٤ / ٢٠٣
(٣) تاريخ الطبرى ٣ / ٥٢٠ وانظر الكامل في التاريخ ٢ / ٣٣٣
(٤) السياسة الشرعية لابن تيمية ١٣١
(٥) المصدر السابق ١٣٦

يمنعه من الايمان ، ثم يبلغ دعوة الله ويخير بين القتال او الجزية او الاسلام .

ويذكر ابن القيم مراحل الجهاد وانها كانت اربع مراحل ، والمرحلة الاخيرة والتي استقر عليها امر الجهاد هي : (امره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله ، فاستقر الامر بعد سورة براءة على ثلاثة اقسام : محاربين له ، واهل عهد ، واهل ذمة ، ثم آلت حال اهل العهد والصلح الى الاسلام فصاروا معه قسمين : محاربين واهل ذمة ، والمحاربون له خائفون منه ، فصار معه اهل الارض ثلاثة اقسام : مسلم مؤمن به ، ومسلم له آمن ، وخائف له محارب) (١)

ومن العلماء المعاصرين الذين بينوا غاية الجهاد الاسلامي ، البيان الصحيح ابو الاعلى المودودى رحمه الله والشهيد سيد قطب رحمه الله ، والشيخ صالح اللحيدان حفظه الله ، وغيرهم كثير ، وسأكتفي بالاشارة الى بعض اقوالهم في ذلك ، فيقول ابو الأعلى المودودى : (ان الاسلام فكرة انقلابية ومنهاج انقلابي يريد ان يهدم نظام العالم الاجتماعي بأسره ويأتي بنيانه من القواعد ، ويؤسس بنيانه من جديد حسب فكرته ومنهاجه العملي .) (٢)

ويقول سيد قطب : (ان الاسلام هو الأصل العالمي الذى على البشرية كلها ان تفيء اليه ، وان تسالمه بجملتها فلا تقف لدعوته بأى حائل من نظام سياسي - او قوة مادية - وان تخلي بينه وبين كل فرد يختاره او لا يختاره بمطلق ارادته ، ولكن لا يقاومه ولا يحاربه ، فان فعل ذلك احد كان على الاسلام ان يقاتله حتى يقتله او يعلن استسلامه) (٣)

---

(١) زاد المعاد ٢ / ٢٠٨ - ٢٠٩

(٢) الجهاد في سبيل الله ابو الاعلى المودودى ١٣

(٣) الجهاد في سبيل الله سيد قطب ١٠٢

ويقول الشيخ صالح اللحيدان : (ان الهدف يجب ان يكون اعلاء كلمة الله وطرح كلمة الباطل ...) (١)

هذه هي الغاية التي يجعل الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم من قاتل في سبيلها فهو في سبيل الله (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) (٢) ، وقوله صلى الله عليه وسلم : (امرت ان اقاتل الناس حتى يشهدوا ان لا اله الا الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ...) (٣) .

فالله سبحانه (يحرض المؤمنين على التجرد له والاتجاه الى نصرة نهجه في الحياة ، ويعدهم على هذا النصر والتثبيت في المعركة ؛ والتعس والضلال لأعدائهم واعدائه . فحين يقوم المؤمنون بالشرط ينالون ما شرط لهم من النصر والتثبيت .

---

(١) الجهاد في الاسلام صالح اللحيدان ٨٦
(٢) ٣٩ : الانفال
(٣) اخرجه البخارى كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب الاقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فتح البارى ١٣ / ٢٥٠

ونصر الله يكون بان تتجرد النفوس لله ، ولا تشرك به شيئا ، شركا ظاهرا او خفيا ، والا تستبقي فيها معه احدا او شيئا ، وان يكون الله احب اليها من ذاتها ، ومن كل ما تحب وتهوى ، وان تحكمه في رغباتها ونزواتها وحركاتها وسكناتها ، وسرها وعلانيتها ، ونشاطها كله وخلجاتها ... فهذا نصر الله في النفوس .

وان لله شريعة ومنهاجا للحياة ، تقوم على قواعد وموازين وقيم وتصور خاص للوجود كله وللحياة ، ونصر الله يتحقق بنصرة شريعته ومنهاجه ومحاولة تحكيمها في الحياة كلها بدون استثناء ، فهذا نصر الله في واقع الحياة) (١) .

وقد ذكر الرازى وجوه نصر المؤمنين لله فقال : (وفي نصر المؤمنين لله تعالى وجوه : الاول : ان تنصروا دين الله وطريقه ، والثاني : ان تنصروا حزب الله وفريقه ، الثالث : المراد نصرة الله حقيقة ، فنقول : النصرة تحقيق مطلوب احد المتعاديين عند الاجتهاد والأخذ في تحقيق علامته ، فالشيطان عدو الله يجتهد في تحقيق الكفر وغلبة اهل الايمان ، والله يطلب قمع الكفر واهلاك اهله وافناء من اختار الاشراك بجهله ، فمن حقق نصرة الله حقق مطلوبه) (٢) .

ولا شك ان الوجه الثاني والثالث يدخلان في عموم الوجه الاول ، لأن نصرة حزب الله ، وقتال الكافرين هو من نصرة دين الله وطريقه . وهذا الوجه اخذ به كثير من المفسرين ، وذكروا نحوه ولم يذكروا غيره . قال ابو السعود : (اى تنصروا دينه ورسوله ينصركم على اعدائكم ويفتح لكم ويثبت اقدامكم في مواطن الحرب ومواقفها) (٣)

---

(١) في ظلال القرآن ٦ / ٣٢٨٧ ـ ٣٢٨٨
(٢) تفسير الرازى ٢٨ / ٤٨
(٣) تفسير ابي السعود ٨ / ٩٣ وانظر تفسير الطبرى ٢٦ / ٤٥
وانظر حاشية الشهاب ٨ / ٤٢

ومن كانت هذه غايته ؛ فانه موعود من الله بالنصر والتمكين ، ومن قاتل لغير ذلك ، فهو ليس في سبيل الله ولا يعترف الاسلام بجهاده ، وقتاله باطل ليس مأجورا عليه وليس موعودا بالنصر ، بل بالهزيمة والخسران ٠

والآيات التي تربط النصر بالاخلاص وبالقتال في سبيل الله ولاعلاء كلمته ، وتربط الهزيمة والخسران بعدم الاخلاص او بالقتال في سبيل الكفر او لمطمع شخصي او منفعة عاجلة كثيرة نذكر بعضها ٠

يقول تعالى : (يا ايها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم ، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وانفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون ، يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الانهار ، ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم ، واخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين) (١) ٠

فهو يعد المؤمنين ويبشرهم اذا آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا في سبيل الله بان يغفر لهم ذنوبهم ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الانهار وينصرهم على عدوهم نصرا قريبا ، ثم اطلق البشارة فقال : " وبشر المؤمنين " (٢)

ثم بين في آية اخرى سبب هذا النصر للمؤمنين والهزيمة للكافرين وهي ان المؤمنين يقاتلون مخلصين لله في قتالهم ولاعلاء كلمة الله ، واما اولئك فيقاتلون في سبيل الطاغوت ، ومن قاتل في سبيل

---

(١) ١٠ ـ ١٣ : الصف

(٢) انظر تفسير الطبرى ٢٨ / ٨٩ وانظر تفسير ابن كثير ٤ / ٣٦١ وانظر في ظلال القرآن ٦ / ٣٥٥٩ ـ ٣٥٦٠

الله ؛ فالله معه وهو ناصره ، وان المعونة تأتي من الله على قدر النية كما قال عمر بن الخطاب (١) ، ومن قاتل في سبيل الشيطان فالشيطان معه وهو خاذله ، يقول تعالى : (الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت ، فقاتلوا اولياء الشيطان ان كيد الشيطان كان ضعيفا) (٢) .

فالذين آمنوا يقاتلون طاعة لله ولاعلاء كلمته وابتغاء مرضاته (٣) ، وهم يطلبون شيئا ثابتا صالحا تقتضيه طبيعة العمران فسنن الله مؤيدة لهم ، واما الكفار فيقاتلون طاعة للشيطان وهم يطلبون الانتقام والاستعلاء في الارض بغير الحق وتسخير الناس لشهواتهم ولذاتهم ، وهي امور تأباها الفطرة السليمة وسنن الله في العمران (٤) ؛ واذا كان الامر كذلك فان الله يامر المؤمنين بقتال هؤلاء الكفار اولياء الشيطان ، وبين ان كيد الشيطان كان ضعيفا ، والتعبير بلفظ كان لتأكيد ضعف الشيطان ، ويعني انه منذ كان موصوف بالضعف (٥) ؛ لأن الله عز وجل ينصر اولياءه والشيطان ينصر اولياءه ، والله على كل شيء قدير وانما امره اذا اراد شيئا ان يقول له كن فيكون ، والشيطان كيده ضعيف فمن الذى ينتصر الذى وليه الله ام الذى وليه الشيطان ؟؟(٦) وقد وعد الشيطان كفار قريش بان ينصرهم فعندما راى جند الله الملائكة ولى مدبرا ولم يعقب وخذل اولياءه ونصر الله اولياءه المؤمنين الذين يقاتلون في سبيله . (٧)

---

(١) تاريخ الطبرى ٣ / ٤٩١
(٢) ٧٦ : النساء
(٣) انظر تفسير الخازن ١ / ٥٦
(٤) انظر تفسير المنار ٥ / ٢٦١ ، وانظر تفسير المراغي ٥ / ٩٢
(٥) انظر تفسير الرازى ١٠ / ١٨٨ ، وتفسير الخازن ١ / ٥٦
(٦) انظر تفسير الرازى ١٠ / ١٨٨ ، وانظر تفسير البيضاوى ١ / ١٢٦
(٧) انظر تفسير الخازن ١ / ٥٦

وان الدلائل على سنة نصر المؤمنين الذين يقاتلون في سبيل الله كثيرة ومن هذه الدلائل : نصر المؤمنين في غزوة بدر رغم قلتهم وكثرة عدوهم وفي ذلك عبرة للمؤمنين والكافرين على حد سواء (١) ، يقول تعالى :(قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله واخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء ان في ذلك لعبرة لأولي الابصار ٠) (٢)

فهذه الاية تهدى الي سر نصر المؤمنين على الكافرين وهو انهم يقاتلون في سبيل الله اى في سبيل الحق وهو تحرير الناس من العبودية لغير الله (٣) ٠ والمقصود من هذه الآية - والله اعلم - ان النصر والظفر انما يحصلان بتأييد الله ونصره لا بكثرة الأعداد والعدة ولكن بشرط الاخلاص لله عز وجل ٠ (٤)

ثم في آية اخرى يهدد الله المؤمنين ان ارتدوا عن دين الله ولم يقاتلوا في سبيله ولاعلاء كلمته (فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه اذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ، انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ، ومن يتول الله ورسوله ، والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون) (٥) ، وهؤلاء حزبه ينصرهم على عدوهم

---

(١) راجع تفسير هذه الاية في تفسير الطبرى ٣ / ١٩٣ - ١٩٩ ، وتفسير ابي السعود ٢ / ١٢ - ١٣ ، فتح القدير ١ / ٣٢١ - ٣٢٢ ، زاد المسير ١ / ٣٥٦ - ٣٥٨

(٢) ١٣ : آل عمران

(٣) انظر تفسير المنار ٣ / ٣٣٥

(٤) انظر روح المعاني ١ / ٩٨ وانظر تفسير الرازى ٧ / ٢٠٨

(٥) ٥٤ - ٥٦ : المائدة

تحقيقا لسنته بنصر المؤمنين الذين يقاتلون في سبيل الله ومن يتصفون بهذه الصفات الحميدة ، ويهزم الكافرين لأنه عز وجل ليس وليهم وانما الشيطان وليهم وهم حزبه وحزب الشيطان في خسران وحزب الرحمن هم الغالبون .

وفي غزوة بدر خرج كفار قريش يريدون قتال المؤمنين بطرا ورياء وحتى يسمع بهم العرب فكانت الهزيمة حليفهم ، والخذلان مصيرهم ولذلك نهى الله المؤمنين ان يكونوا مثلهم فتحل الهزيمة بهم كماحلت بهم فقال تعالى : (ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط) (١) .

وقد ذكرت سابقا ان المسلمين هزموا في أحد عندما اراد بعضهم الدنيا كما قال تعالى : (منكم من يريد الدنيا) .

وقد روى لنا التاريخ ان هزيمة المسلمين في معركة بلاط الشهداء (بوتيه) ١١٤ هـ ، كان السبب المباشر فيها هو الغنائم (الغنائم التي جمعها المسلمون اثناء زحفهم من المدن التي مروا بها قبل المعركة الفاصلة ، فالمراجع متفقة على ان الجيش الاسلامي كان يجر قوافل محملة بالغنائم والاسلاب من كل صنف ، ولعل تعلق الجند بهذه الغنائم كان كبيرا لأنهم حملوها معهم حتى نهر اللوار ،ولو احسنوا لبعثوا بها جنوبا الى الاندلس ، حتى يطمئنوا عليها ، وتخلو ايديهم للعمل الجاد في المعركة ، انهم حرصوا عليها فكان هذا الحرص العامل الرئيسي والاساسي لهزيمتهم ، لأن عدوهم استشعر هذا الحرص منهم فعرف كيف يستغله لصالحه . (٢)

وستبقى ذكرى بلاط الشهداء لكل جيل لتشهد ان القتال في الاسلام

---

(١) ٤٧ : الأنفال
(٢) انظر فجر الأندلس ٢٦٩ ـ ٢٧٠

لله وحده ، خالصا في سبيله : (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله)٠

الجهاد وحب الدنيا بكنوزها وغنائمها لا يلتقيان ، فكان التفاتهم الى الغنائم سببا في هزيمتهم وانتصار الفرنجة ـ كما حدث في أحد ـ ، وفي ذلك مخالفة للقانون الالهي في احراز النصر لما فيه من حب الدنيا وكراهية الموت ، وهذا ما كان ينبغي ان يضعه المجاهدون نصب اعينهم ولكنهم انحرفوا عن سنة الله ، فكانت الهزيمة ، كيف لا والجهاد في الاسلام خالص لله وحده ، من اجل نشر وتبليغ الناس الرسالة الاسلامية ، لا من اجل دنيا يصيبونها ! فلا غرابة ان تكون النتيجة هزيمة ساحقة اخرت ـ بنتائجها ـ الحضارة عن اوروبا ستة قرون او اكثر (١) ٠

---

(١) عوامل النصر والهزيمة ٩٩ بتصرف يسير

رابعا : التوكل :ـ

ومن اسباب النصر وعناصره المهمة التوكل على الله عز وجل والاعتماد عليه و . التوكل منزل من منازل الدين ومقام من مقامات الموقنين بل هو من معالي درجات المقربين ووسيلة المحبين ، لا يستغني عنه عابد في عبادته ولا ذو عادة في عادته ، لتعلقه بسائر الاحوال عبادة او عادة ، وجملة ما نحتاج اليه من امر الدنيا والاخرة ، ولذلك اوجبه الله تعالى على المؤمنين لان الايمان يوجب على المؤمن الاتيان بمدلولاته ، ومن مدلولات الايمان التوكل(١) وذلك في قوله تعالى :(وعلى الله فتوكلوا ان كنتم مؤمنين)(٢) .

وحقيقة التوكل هو اعتماد القلب على الله وحده في جلب المنافع او حفظها ، ودفع المضار وقطعها ، وهو الثقة بما في يد الله عز وجل ، واليأس مما في ايدى الناس (٣) .

فالتوكل كما قال الامام احمد رحمه الله : هو عمل القلب ومعنى ذلك انه في حقيقته الباطنية عمل قلبي ليس بقول اللسان ولا عمل الجوارح ولا هو من باب العلوم والادراكات (٤) .

وبالتوكل على الله عز وجل يكون توحيد الانسان كاملا ، فلا يلتفت الى غير الله عز وجل فيما يريد ، فالتوكل لا يتم الا برفض الاسباب عن القلب والتعلق بالله ، وبذا يعتمد القلب على الله ويستند ويسكن اليه بحيث لا يبقى فيه اضطراب من تشويش الاسباب ولا سكون اليها ، بل يخلع السكون اليها من قلبه ويلبسه السكون الى مسببها ، والتوكل حسن ظن بالله لان من اساء الظن بالله لم يتوكل عليه ، واخيرا فالتوكل تفويض الامر الى الله والقاء الامور كلها اليه (٥) . (وانزالها به طلبا واختيارا

---

(١) احياء علوم الدين للغزالي ٤/٣٤٣ وانظر مدارج السالكين ٢/١٢٩ .
(٢) ٣٣ : المائدة .
(٣) الغنية لطالبي الحق ١٩٢ .
(٤) مدارج السالكين ٢/١١٤ .
(٥) انظر مدارج السالكين ٢/١٢٠ ـ ١٢١ .

لا كرها واضطرارا ، بل كتفويض الابن العاجز الضعيف المغلوب على امره كل اموره الى ابيه العالم بشفقته عليه ورحمته وتمام كفايته وحسن ولايته له ، فهو يرى ان تدبير ابيه له خير من تدبيره لنفسه وقيامه بمصالحه وتوليه لها خير من قيامه هو بمصالح نفسه وتوليه لها ، فلا يجد له اصلح ولا ارفق من تفويضه اموره كلها الى ابيه وراحته من حمل كلفها وثقل حملها مع عجزه عنها وجهله بوجوه المصالح فيها وعلمه بكمال من فوض اليه وقدرته وشفقته ...)(١)

والتوكل من اعلى المقامات تعلقا بالاسماء الحسنى ، فان له تعلقا خاصا بعامة اسماء الافعال واسماء الصفات ، فله تعلق باسم (الغفار والتواب والعفو والرؤوف والرحيم) وتعلق باسم (الفتاح والوهاب والرزاق والمعطي والمحسن) وتعلق باسم (المعز المذل الحافظ المانع) من جهة توكله عليه في اذلال اعداء دينه وخفضهم ومنعهم اسباب النصر (٢) .

هذا هو التوكل وحقيقته ، وقد امر الله تعالى به في كثير من آياته قال تعالى :(... وتوكل على الحي الذى لا يموت وسبح بحمده)(٣)، وقال تعالى :(واليه يرجع الامر كله فاعبده وتوكل عليه)(٤) ، وقال ايضا (وعلى الله فليتوكل المؤمنون)(٥) .

والتوكل هو دأب انبياء الله المرسلين واوليائه الصالحين وعباده المؤمنين فهذا نبي الله هود يقول لقومه :(اني توكلت على الله ربي وربكم ...)(٦) ، وقال نبينا محمد صلى الله عليه وسلم :(قل هو ربي لا اله الا هو عليه توكلت واليه متاب)(٧) .

---

(١) المصدر السابق ١٢٢/٢ وانظر احياء علوم الدين ٤/ ٢٦١
(٢) المصدر السابق ١٢٥/٢ .
(٣) ٥٨ : الفرقان .
(٤) ١٢٣ : هود .
(٥) ١٢٢ : آل عمران .
(٦) ٥٦ : هود .
(٧) ٣٠ : الرعد .

وهو كما قلنا دأب المؤمنين كذلك على مدار التاريخ ، فهؤلاء المؤمنون مع ابراهيم عليه السلام يقولون :(ربنا عليك توكلنا واليك انبنا واليك المصير)(١) ٠

ويذكر الله تعالى لنا قول المؤمنين مع موسى عليه السلام عند قتالهم لاعدائهم :(فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين)(٢) ٠

ويحكي الله عز وجل لنا قول صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما خوفهم الناس من قوة قريش وعدتها :(الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل)(٣) ٠

وقد سبق وذكرت ان التوكل عمل من اعمال القلب وليس معنى ذلك ان التوكل ينافي الاخذ بالاسباب المادية باعتبارها من عمل الجوارح ٠ بل ان التوكل الحق الذى امر به الله تعالى عباده المؤمنين وفهموه هو الذى يجمع بين عمل القلب وعمل الجوارح (٤) كما ارشد الى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم لمن اراد ان يرسل ناقته متوكلا على الله :(اعقلها وتوكل) ، وان ترك الاسباب والتوكل او احدهما هو من العجز الذى لا يرضاه الله تعالى ، يقول ابن القيم مبينا ذلك :(والفرق بين التوكل والعجز ، ان التوكل عمل القلب وعبوديته اعتمادا على الله وثقة به والتجاء اليه وتفويضا اليه ورضى بما يقضيه لعلمه بكفايته سبحانه وحسن اختياره لعبده اذا فوض اليه ، مع قيامه بالاسباب المأمور بها واجتهاده في تحصيلها ، فقد كان

---

(١) ٤ : الممتحنة ٠
(٢) ٨٥ : يونس ٠
(٣) ١٧٣ : آل عمران ٠
(٤) انظر بصائر للمسلم المعاصر ١٥٦ وانظر المنار ٤ / ٢٠٤ ـ ٢٠٦ ، ١٠ / ١٥١ ـ ١٥٢ ٠

رسول الله صلى الله عليه وسلم اعظم المتوكلين وكان يلبس لامته ودرعه (١) بل ظاهر يوم احد بين درعين (٢) ، واختفى في الغار ثلاثا (٣) ، وحفر الخندق (٤) فكان متوكلا في السبب لا على السبب ، واما العجز فهو تعطيل الامرين او احدهما ، فاما ان يعطل السبب عجزا فيه ويزعم ان ذلك توكل ؟ ولعمر الله انه لعجز وتفريط ، واما ان يقوم بالسبب ناظرا اليه معتمدا عليه غافلا عن المسبب معرضا عنه وان خطر بباله لم يثبت معه ذلك الخاطر ولم يعلق قلبه به تعلقا تاما ، بحيث يكون قلبه مع الله وبدنه مع السبب ؟ فهذا توكله عجز وعجزه توكل) (٥) .

وان في اتخاذ الاسباب والتوكل على الله بعد ذلك طاعة لسنن الله وطاعة لشريعته ، وتعبيرا عن الايمان والعبادة لله ؛ فان لله في كونه سننا نافذة احكام صارمة ، وله في شريعته احكام تكليفية لابتلاء ارادات المكلفين ، والمؤمن العاقل يتقيد بسنن الله في كونه ؟ وفي ذلك طاعة لله في احكامه التكوينية التي لا تعاند ، وتعليق الرجاء فيما جعل الله فيه رجاء ، وطلب للامور من طرقها ووسائلها الطبيعية ، والمؤمن يتقيد بشريعة الله وفي ذلك طاعة لأحكام الله التكليفية ،

---

(١) انظر تفسير الطبرى ٧ / ٣٧٢ وانظر السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٦٣ امتاع الاسماع ١ / ١٦١ ، وانظر كتاب السير والمغازى ٣٢٤ وانظر جوامع السيرة ١٢٥

(٢) سنن ابي داود كتاب الجهاد باب لبس الدروع ٣ / ٣١ ـ ٣٢ (رقم ٢٥٩٠) واحمد في المسند ٣ / ٤٤٩ وابن ماجة رقم ٢٨٠٦ باب السلاح واسناده حسن ، انظر جامع الاصول ٨ / ٢٥١

(٣) انظر المغازى النبوية ٩٩ ، وانظر اتحاف الورى باخبار أم القرى ١ / ٣٦٢ ، وانظر الوفا باحوال المصطفى ١ / ٤٤٥ ، والسيرة النبوية لابن كثير ٢ / ٢٤٦

(٤) اتحاف الورى باخبار ام القرى ١ / ٤٤٥ وانظر امتاع الاسماع ١ / ٢١٩

(٥) الروح لابن القيم ٣٤٢ ـ ٣٤٣

ويتوكل مع ذلك على الله في تحقيق ما يرجو من نتائج طيبة في الدنيا والاخرة ، وفي ذلك تعبير عن صحة الايمان بان سنن الله التكوينية من خلقه وخاضعة لحكمه وسلطانه وياتي التوكل على الله تعبيرا عن صحة الايمان بان احكامه التكليفية التشريعية فريضة لا يعفى منها المؤمن الا حين العجز عنها ، ثم ان التوكل على الله عبادة قلبية ونفسية لله تعالى ، اذ هو سكينة وطمأنينة داخلية من اثر صدق اليقين بالله وبقضائه وبان له الخلق والأمر وهو على كل شيء قدير . (١)

فاذا كانت هذه هي حقيقة التوكل على الله عز وجل الذى امرنا الله به وارشدنا اليه ، فما هي ثمرة هذا التوكل ونتاجه ؟؟ انها سعادة الدنيا وسعادة الآخرة ، انها تحقق الآمال التي نرجوها ودفع الشرور التي نخشاها ، انها كفاية الله لعباده المؤمنين الصادقين وكفى به وكيلا . فالله عز وجل جعل كفايته للمؤمنين بتوكلهم عليه وهو حسب من توكل عليه وكافيه ، وجعل نفسه ايضا جزاء التوكل عليه !! (٢)

يقول تعالى : (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) (٣)

ويقول تعالى : (وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا) (٤) ، (واذا كان الله سبحانه وتعالى قد امر نبيه بالتوكل عليه فقد اعلمه انه وكيل وكاف لمن توكل عليه كما يقال في الخطبة والدعاء الحمد لله كافي من توكل عليه .

واذا كان كفى به وكيلا ؛ فهذا مختص به سبحانه ، ليس غيره من الموجودات كفى به وكيلا ، فان من يتخذ وكيلا من

(١) بصائر للمسلم المعاصر ١٥٥ ـ ١٥٦ مختصرا
(٢) مدارج السالكين ٢ / ١٢٨
(٣) ٣ : الطلاق
(٤) ٣ : الأحزاب

المخلوقين غايته بعض الامور ، وهو لا يفعلها الا باعانة الله له ، وهو عاجز عن اكثر المطالب .

فاذا كان سبحانه وصف نفسه بانه كفى به وكيلا ، علم انه يفعل بالمتوكل عليه ما لا يحتاج معه الى غيره في جلب المنافع ودفع المضار ؛ اذ لو تبعه شيء لم يكن كفى به وكيلا)!! (١)

وقد فهم رسل الله والمؤمنون من بعدهم هذه الحقيقة فتوكلوا على الله ، فمنحهم ما يريدون من خير ومصالح ، ودفع عنهم ما يكرهونه من مضار ومفاسد . (٢)

واذا كان التوكل على الله عز وجل واجبا على المؤمنين في كل شؤون حياتهم وهو السبيل الى كفاية الله لهم وان يكون وكيلا لهم فان التوكل على الله في جهاد اعداء الله عند لقائهم ؛ آكد واكثر لزوما ، لأن ملاقاة الاعداء تحتاج الى علم شامل وحكمة تامة وقدرة كاملة ، واعداد يفوق اعداد الأعداء ، وحيطة وحذر ... ولكن طبيعة البشر ليست كذلك بل طبيعتهم النقص وقلة العمل والعجلة والتقصير والنسيان والخطأ ؛ ولذا فلا بد لمن هذه طبيعتهم ان يتوكلوا على العليم الحكيم القادر القاهر الذى بيده ملكوت كل شيء ، والذى اذا اراد امرا فانما يقول له كن فيكون .

فالمؤمن اذا جهل الاسباب او عجز عنها ، وكل امره فيها الى الله ربه داعيا بان يعلمه ما جهل بما سنه الله من اسباب العمل ، وان يعينه على تقصيره ، وان يذكره بما نسي (٣)

---

(١) جامع الرسائل ٩٢
(٢) انظر المصدر السابق ٩٦ ـ ٩٧
(٣) انظر بصائر للمسلم المعاصر ١٥٦ ، وانظر تفسير المنار ٢ / ٦٦ ـ ٦٧

، والمؤمن اذا اخذ بالاسباب وحدها ولم يتعلق قلبه بالله كان عرضة للهلع والجزع ؛ اذا حمي الوطيس واشتد اوار الحرب (١) ، او اذا خسرها .

(فالتوكل على الله في الجانب القلبي الايماني ، محدد بقوة معنوية عظيمة ، تضاعف القوة المادية العاملة اضعافا كثيرة ، حتى يسبق المتوكل على الله عدد اكثيرا من امثاله السببيين الذين ليس لهم مثل توكله ، وقد تزيد بعض اسبابهم على اسبابه . وحتى يغلب عشرون مؤمنون صابرون (متوكلون) مائتين من الكافرين باذن الله ، والله مع الصابرين .

ان القوة المعنوية التي يأتي بها المتوكل على الله ، فتعطي بها الاسباب الكونية عطاءها المضاعف ، هي السر العجيب الذى يسبق المؤمنون به غيرهم ، ويختصر الله لهم به الزمن ، ويبقي الله لهم به نتائج اعمالهم ، ثم يجعل لها آثارا متنامية مباركا فيها ، مع ما يدخر الله لهم من ثواب عظيم واجر جزيل ، ينعمون بفيضه الذى لا ينقطع الى يوم الدين .

ومن الملاحظ ان اهم عوامل الخذلان التي تمنى بها القوى المادية على كثرتها في الجيوش المحاربة انما هي تناقص القوة المعنوية القلبية ، التي اثبتت التجارب التاريخية والعسكرية التي في مقدمتها قوة التوكل على الله فهي اثقل القوى المعنوية على الاطلاق .

وذلك لأن من يعد العدة ويستخدم الاسباب متوكلا على حدود ما اعد من قوى يظل قلبه قلقا حذرا جبانا خائفا من ان تكون قوة العدو زائدة على قوته ولو بمقدار يسير ، وبذلك فقد تنهار قوته وتفقد اسلحته واسبابه مضاءها المقدر لها ، لفقدان الروح المعنوية من قلبه ، واما الذى يعد

---

(١) انظر تفسير المنار ٤ / ٢٠٨

العدة الكاملة ويتخذ ما يستطيع من اسباب ويباشر العمل وهو موقن بأن قوة قادرة على كل شيء تدعمه من وراء الحجب المادية وتشد ازره ، فانه يستطيع ان يستعمل في نضاله وجهاده كل قوته مع حضور قلب وسرعة بديهة نظرا الى انه لم يمسه الخوف الذى يقلق القلوب ، ويقسر الرؤية الصحيحة للعقول)٠(١)

وفي غزوة بدر حقق الله للمؤمنين النصر على عدوهم بفضل توكلهم على الله واعتمادهم عليه ، لأنهم ادركوا ان النصر من عند الله بخلاف المنافقين الذين لم يدركوا هذه الحقيقة وقالوا ان المؤمنين بتصديهم لأعدائهم الذين يفوقونهم عدة وعتادا مغرورون بدينهم (اذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم) (٢) ، فالمنافقون والذين في قلوبهم مرض لا يدركون حقيقة اسباب النصر واسباب الهزيمة ، فهم يرون ظواهر الامور دون ان تهديهم بصيرة الى بواطنها ، فجاء النص القرآني مبينا السبب الحقيقي في النصر وانه بالتوكل على الله عز وجل فقال : (ومن يتوكل على الله فان الله عزيز حكيم) (٣) اى من يسلم امره الى الله ويثق بفضله ويعول على احسانه ؛ فان الله حافظه وناصره لأنه عزيز لا يغلبه شيء ، حكيم يوصل العذاب والهزيمة الى اعدائه واعدائهم ، ويوصل الرحمة والثواب والنصر الى اوليائه وأحبائه المتوكلين عليه ٠

وهكذا ادرك المؤمنون هذه الحقيقة فاطمأنت قلوبهم لله واستهانوا بقوة اعدائهم لأن قوة الله معهم وتوكلوا على الله فكفاهم ونصرهم

---

(١) بصائر للمسلم المعاصر ١٥٣ ـ ١٥٤
(٢) ٤٩ : الأنفال
(٣) تكملة الآية السابقة ٠

على عدوهم نصرا مؤزرا ٠ (١)

والتوكل على الله عز وجل هو التوجيه الدائم للعصبة المؤمنة اذا لاقت عدوها ؛ ففي غزوة احد وجه الله رسوله اذا عزم على القتال ان يتوكل عليه فقال : (فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الامر فاذا عزمت فتوكل على الله) (٢) ، فهو يأمر نبيه اذا عزم على قتال عدوه ان يتوكل عليه ، لأن التوكل يعينه على ما يريد من نصر على عدوه (٣) ، (فان العزم على الفعل واحكام الرأى والمشاورة واخذ الأهبة فذلك كله لا يكفي للنجاح الا بمعونة الله وتوفيقه ، لأن الموانع الخارجية له والعوائق دونه لا يحيط بها الا الله تعالى فلا بد للمؤمن من الاتكال على الله وعلى حوله وقوته ، ثم بين انه يحب المتوكلين على حوله وقوته وفي ذلك عصمة لهم من الغرور بقوتهم او الاعتماد عليها (٤) فقال : (ان الله يحب المتوكلين) (٥) عليه تعالى فينصرهم ويرشدهم الى ما فيه خير لهم وفلاح ، والجملة تعليل للتوكل) (٦) ٠

ولتقرير حقيقة التوكل على الله ، واقامتها على اصولها الثابتة يمضي السياق فيقرر ان القوة الفاعلة في النصر والخذلان هي قوة

---

(١) انظر في ظلال القرآن ٣ / ١٥٣٢ ـ ١٥٣٣ ، وانظر المنار ١٠ / ٣٦ وانظر تفسير المراغي ١٠ / ١٤ وانظر تفسير الرازى ١٥ / ١٨٣ وانظر روح المعاني للآلوسي ٤ / ١٦
(٢) ١٥٩ : آل عمران
(٣) جامع الرسائل لابن تيمية ٩٤ ـ ٩٥
(٤) انظر تفسير المنار ٤ / ٢٠٥ بتصرف يسير
(٥) ١٥٩ : آل عمران
(٦) تفسير ابي السعود ٢ / ١٠٤

الله فعندها يلتمس النصر ، ومنها تنتفي الهزيمة واليها يكون التوجه ،
وعليها يكون التوكل (ان ينصركم الله فلا غالب لكم وان يخذلكم فمن
ذا الذي ينصركم من بعده وعلى الله فليتوكل المؤمنون) (١) ، يقول
ابو السعود : وقوله تعالى :(ان ينصركم الله فلا غالب لكم) جملة
مستأنفة سيقت بطريق تلوين الخطاب تشريعا للمؤمنين لايجاب توكلهم
على الله وحثهم على اللجوء اليه ، وتحذيرهم عما يفضي الى خذلانه اى
ان ينصركم كما نصركم يوم بدر فلا احد يغلبكم على طريقة نفي الجنس
المنتظم لنفي جميع افراد الغالب ذاتا او صفة ... وقوله :(وان يخذلكم
فمن ذا الذي ينصركم من بعده) استفهام انكاري مفيد لانتفاء الناصر ذاتا
وصفة بطريق المبالغة من بعد خذلانه تعالى ، او من بعد الله على معنى
اذا جاوزتموه (ولم تتوكلوا عليه) (وعلى الله فليتوكل المؤمنون)
تقديم الجار والمجرور على الفعل لافادة قصره عليه تعالى)(٢) وفيها
نهي للتوكل على غيره وامر بالتوكل عليه ليحصل للمتوكل عليه الذي لا يقدر
عليه غيره)(٣) .

وعندما توكل المؤمنون على الله في غزوة احد ولم يخالفوا سنته
في شيء من اسباب النصر ، نصرهم على عدوهم فولى اعداؤهم الادبار ، وعندما
خالفوا سنة النصر هزمهم الله .

ثم عندما عادوا الى التمسك باسباب النصر وتوكلوا على الله نصرهم
الله على عدوهم بالرعب ، وانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء
يقول تعالى :(الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم
فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل
لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم)(٤)

---

(١) ١٦٠ : آل عمران .
(٢) تفسير ابي السعود ١٠٥/٢-١٠٦ .
(٣) جامع الرسائل لابن تيمية ٩٥ .
(٤) ١٧٣-١٧٤: آل عمران .

فعقب هذا الجزاء والحكم بذلك الوصف ، والعمل بحرف الفاء وهي تفيد السبب فدل ذلك على ان التوكل هو سبب الانقلاب بنعمة الله وفضل ، وان هذا الجزاء جزاء على ذلك العمل)(١) .

وانا كان التوكل سببا في نصر المؤمنين ، وعدم اعتماد الكافرين على الله سببا في هزيمتهم - كما بينت - فان المؤمنين ايضا ومع ايمانهم اذا خالفوا سنة الله في نصره لعباده بترك التوكل ، فانه يهزمهم امام عدوهم الكافر عقوبة لهم وابتلاء لتفريطهم في اسباب النصر ومخالفتهم لسنته التي لا تحابي احدا ولو كان معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا هو ما حدث للمؤمنين عندما غرتهم قوتهم واعجبوا بها واعتمدوا عليها ، وتركوا التوكل على الله الذى بيده النصر في غزوة حنين ، يقول تعالى : (لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين اذ اعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الارض بما رحبت ثم وليتم مدبرين)(٢) .

فعندما راى المسلمون كثرة عددهم قالوا : لن نغلب اليوم من قلة(٣) ، ونسوا ان النصر ليس بكثرة العدد والعدة فقط وانما ايضا بحسن الصلة به سبحانه والتوكل عليه .فهو سبحانه وتعالى يذكر المؤمنين في هذه الاية بأنه قد نصرهم في مواطن كثيرة منها غزوة بدر وغزوة الاحزاب وفتح مكة وغيرها من السرايا التي انتصر فيها المؤمنون ، لانهم كانوا معتمدين على الله وحده ، متوكلين عليه في احراز النصر على عدوهم ، ولم يكونوا معتمدين على قوتهم او عددهم او عتادهم ، واما اليوم في حنين فقد اعجبوا بقوتهم واعتمدوا عليها فلما اعجبوا بها تحققت سنة الله بهزيمتهم لتركهم للتوكل الحق على الله عز وجل .(٤)

---

(١) جامع الرسائل ٩٠ .

(٢) التوبة : ٢٥ .

(٣) انظر مغازي الواقدي ٣ / ٨٩٠ ، وكشف الاستار عن زوائد البزار ٢ / ٣٤٦ - ٣٤٧ ، واتحاف الورى باخبار ام القرى ١ / ٥٣٠ .

(٤) انظر فتح القدير ٢/٣٤٧-٣٤٨ وانظر تفسير الرازي ١٦ / ٢١ .

وهكذا هزم المسلمون بسبب غفلة قلوبهم لحظات عن الله مأخوذة بالكثرة في العدد والعتاد ليعلم المؤمنون ان التجرد لله وتوثيق الصلة به والتوكل عليه هي عدة النصر التي لا تخذلهم حين تخذلهم الكثرة وحين يخذلهم المال والاخوان والاولاد (١) ، وعندما عادت هذه الفئة الى الله وتضرعت اليه على لسان رسولها صلى الله عليه وسلم وتوكلت عليه بعدما رأوا ان الاسباب المادية ليست سببا في النصر الا مع التوكل على الله والاعتماد عليه في قلبها وفي فؤادها فانتصرت القلة التي ثبتت وتوكلت على الكثرة وانهزمت ثقيف ولم تعقب ومن الله على المؤمنين بالنصر والغنائم ٠(٢)

---

(١) في ظلال القران ٣/١٦١٦ بتصرف

(٢) انظر تفسير الرازى ١٦ / ٢١ ، وانظر فتح القدير ٢ / ٣٤٨ ، وانظر في ظلال القران ٣ / ١٦١٦ ٠

خامسا - الصبر :-

الصبر عنصر مهم من عناصر النصر وعامل فعال في تحقيقه ، فالصبر هو الصفة اللازمة التي لا بد منها لخوض المعركة ، اية معركة سواء في ميدان النفس او في ميدان القتال (١) . فلا قتال الا بالصبر ومن لا صبر له لا يصلح ان يكون مقاتلا (٢) ، فطريق الجهاد طريق طويل وصعب وشاق ومليء بالمخاطر والاهوال والابتلاءات ، ولذا فلا بد للمجاهد في سبيل الله ان يتسلح بسلاح الصبر وان تكون هذه الصفة متعمقة في نفسه وجزءا من شخصيته لا ينفك عنها ، وبدون هذا السلاح يكون المقاتل عرضة للهزيمة والخسران ، وحسبنا ان نعلم ان كلمة الصبر ومشتقاتها قد وردت في نحو مائة وعشرين آية . وهدف القرآن الكريم من هذه الايات الكثيرة هو بث روح الجلد ورباطة الجأش وضبط النفس ، وعدم الجزع والهلع عند حلول المصائب ووقوع الشدائد . وذلك ان الصبر يتجسد في اخلاق كثيرة كلها واجبة لتحقيق النصر . فالشجاعة وهي الصبر على مكاره القتال ومواقف الحق ، والحلم هو الصبر على المثيرات ، والكتمان وهو الصبر على امانة الاسرار ، والزهد وهو الصبر على الحرمان ، والعفاف وهو الصبر على الشهوات . فاذا رسخ هذا الخلق في امرئ صار له من القوة المعنوية والشجاعة والجلد ما يمكنه من مواجهة الخطوب دون جزع . وتحمل المشاق والرضا بالمكروه والحرمان في سبيل الحق والكرامة ، والعزوف عن الشهوات والمثابرة على المقاصد النبيلة مهما عسرت وطال امدها ، وغدا محل رضاء الله عز وجل والناس . (٣)

ولما كانت سنة الحرب سنة الهية لا بد منها فان من طبيعة الحرب البلاء في نقص الاموال والانفس والثمرات ، من خوف واضطراب وقلق ؛ فلا

---

(١) انظر في ظلال القرآن ٣ / ١٥٢٩

(٢) انظر الجهاد والفدائية في الاسلام ١٢٥

(٣) الدستور القرآني ٢ / ٣٦١

علاج لذلك الا بالصبر ، فهو الارادة القوية وهو العزم الصادق وهو الحزم الذى تدبر به الامور .(١)

وبالصبر تكمل قوة المؤمن النفسية ، فالجهاد في سبيل الله ليس مجرد اندفاعة الى القتال ولا حماسة في موقف شدة ولا اقدام في معركة ولكنه الجهاد الدائم الذى لا ينقطع والعمل المستمر والبذل المتواصل الذى يستنفذ المال والنفس والولد والوقت ، وهو عمل لا يطيقه الا من كان الصبر صفة من صفاته الاصيلة وعنصرا من عناصر تربيته الطويلة . (٢)

فالصبر احد دعائم النصر ، وهو القوة المعنوية التي طالما كانت هي السبب المهم للنصر والغلبة بين الافراد والجيوش ولذلك قيل : (بين النصر والهزيمة صبر ساعة)(٣)

وقد ادرك المؤمنون على مدار التاريخ اهمية الصبر في كسب المعارك ومواجهة الاعداء ، فنجد المؤمنين مع طالوت يدعون ربهم ان يفرغ عليهم صبرا ، يقول تعالى عنهم : (ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا افرغ علينا صبرا ...) (٤) ، وقد طلبوا من الله ذلك لأن الصبر هو العنصر الاول من عناصر الحرب كما يقول الرازى :(اعلم ان الأمور المطلوبة عند المحارب ثلاثة : فاولها ان يكون الانسان صبورا على مشاهدة المخاوف والامور الهائلة وهذا هو الركن الاعلى للمحارب فانه اذا كان جبانا لا يحصل منه مقصود اصلا ،) وقولهم "ربنا افرغ علينا صبرا " يدل على المبالغة في طلب الصبر اى اصبب علينا اتم صب وابلغه . (٥)

---

(١) آيات الجهاد في القرآن الكريم ١٢٧ د . كامل الدقس
(٢) الجهاد في الاسلام ١١٦ محمد شديد بتصرف يسير
(٣) انظر شريعة القتال في الاسلام ١٨٤
(٤) البقرة : ٢٥٠
(٥) تفسير الرازى ٦ / ١٨٤

وكان الدعاء الذى دعا به السحرة ربهم عندما هددهم فرعون بالقتل فقالوا : (... ربنا افرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين)(١) .

وهكذا كانت الفئات المؤمنة تدعو ربها ان يصبرها عند ملاقاة اعدائها وفي معاركها مع الكفر واهله .

وقد كان من وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم لاصحابه في معاركهم مع الكافرين الصبر ، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :(لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فاذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا ان الجنة تحت ظلال السيوف)(٢) .

وفي غزوة بدر حض صحابته على الصبر فقال عليه الصلاة والسلام :(والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر الا ادخله الله الجنة)(٣) .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضرب لصحابته الامثال في صبر المؤمنين على اذى الكافرين وابتلائهم فقال عليه الصلاة والسلام :(قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الارض فيجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بامشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه وما يصده ذلك عن دينه)(٤) ،(ارأيت الى هذا الامر بالصبر حتى في هذه الحال انه عدة المسلم في كل حين)(٥) .

ولقد تعمق مفهوم الصبر في نفوس الصحابة وادركوا انه من خير الزاد لخوض المعارك مع اعداء الله حتى غدا هذا الامر قضية بديهية تجود بها القرائح

---

(١) ١٢٦ : الاعراف .

(٢) متفق عليه اخرجه البخارى كتاب الجهاد باب كان النبي صلى الله عليه وسلم اذا لم يقاتل اول النهار اخر القتال حتى تزول الشمس فتح البارى ١٢٠/٦ . ومسلم كتاب الجهاد باب كراهية تمني لقاء العدو والامر بالصبر عند اللقاء ١٣٦٢/٣

(٣) سيرة ابن هشام ١٩٦/٢ ، السيرة النبوية لابن كثير ٤٢٠/٢ ، عيون الاثر ٢٥٧/١ لابن سيد الناس .

(٤) اخرجه البخارى كتاب المناقب باب علامات النبوة فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٦١٩/٦ .

(٥) انظر منهج الاسلام في الحرب والسلام ١٥٨ .

تعبر في الشعر تعبيرا على ما اعتادت عليه من المعاني ، فهذا هو الصحابي الجليل عمير بن الحمام رضي الله عنه يردد وهو يقاتل في بدر :

ركضا الى الله بغير زاد   الا التقى وعمل المعاد

والصبر في الله على الجهاد   وكل زاد عرضة النفاد

غير التقى والبر والرشاد (١) .

وهذا سعد بن معاذ رضي الله عنه يبرز الصفة التي تؤهل المؤمنين لقتال اعدائهم فيقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل غزوة بدر :(انا لصبر في الحرب صدق عند اللقاء لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر على بركة الله)(٢) .

وقد جاءت آيات كثيرة في كتاب الله عز وجل تبين اهمية الصبر في المعارك وانه سبب في معية الله وعونه ومدده ونصره لعباده المؤمنين .

واذا كانت الحرب هي ساحة الشدائد والمحن وهي مختبر الرجال فقد امر الله المؤمنين بان يستعينوا بالصبر على لأواء الحرب وعلى ما يلاقونه من الشدائد والاهوال في هذه الحياة او ما يواجهونه من انواع الاذى وبأس الاعداء ومكر الكافرين وكيد المنافقين وفتنتهم في سبيل الحق والدعوة الى الدين والجهاد لاعلاء كلمة الله في الارض وجعل كلمة الذين كفروا هي السفلى ، واعلمهم سبحانه وتعالى انه مع هؤلاء الصابرين يعينهم ويدفع عنهم قال عز من قائل : (يا ايها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ان الله مع الصابرين)(٣) . وقال تعالى :(... والله يحب الصابرين)(٤) .

وقد امر الله المؤمنين اذا لاقوا الأعداء بالصبر الذي يبلغ العبد

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ٤٢٢/٢ وتاريخ الطبري ٤٤٨/٢ .
(٢) السيرة النبوية لابن كثير ٣٩٢/٢ ، وتاريخ الطبري ٤٣٥/٢ ، عيون الاثر ٢٤٨/١ .
(٣) ١٥٣ : البقرة .
(٤) ١٤٦ : آل عمران .

به الى كل امر متعذر بوعده الصادق في انه مع الصابرين)(١) بقوله : (يا ايها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا ... واصبروا ان الله مع الصابرين)(٢) ، (فهو يأمرهم بالصبر على شدائد الحرب وهو سبحانه مع الصابرين بالنصرة والكلاءة ، وما يفهم من كلمة "مع" من اصالتهم انما هي من حيث انهم المباشرون للصبر فهم متبعون من تلك الحيثية ، ومعيته تعالى انما هي من حيث الامداد والاعانة)(٣) ويقول الرازى :(وبين انه تعالى مع الصابرين ولا شبهة ان المراد بهذه المعية النصرة والمعونة)(٤) ، وهذه المعية هي المعية الخاصة التي تتضمن حفظهم ونصرهم وتأييدهم ، وليست المعية العامة التي هي معية العلم والاحاطة)(٥) .

وقد وعد الله المؤمنين وبشرهم ان الجماعة منهم ان صبروا غلبوا الاكثر عددا من الكفار بعون الله وتأييده (٦) قال تعالى :(يا ايها النبي حرض المؤمنين على القتال ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان يكن منكم مائة يغلبوا الفا من الذين كفروا بانهم قوم لا يفقهون ، الآن خفف الله عنكم وعلم ان فيكم ضعفا ، فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ، وان يكن منكم الف يغلبوا الفين باذن الله والله مع الصابرين)(٧) .

وقوله : ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ..) لفظ خبر ضمنه وعد بشرط ، لان معناه : ان يصبر منكم عشرون يغلبوا مائتين وان يكن منكم مائة يغلبوا الفا ثم خفف الله عن المؤمنين بالصبر والثبات امام عشرة امثالهم ، فجعل الواحد مقابل اثنين ، ووعدهم وبشرهم ان صبروا بان يغلب المائة مائتين والالف الفين من الكافرين)(٨) .

---

(١) احكام القران لابن العربي ٨٧٠/٢ .
(٢) ٤٥ ـ ٤٦ : الانفال .
(٣) تفسير ابي السعود ٢٥/٤ .
(٤) تفسير الرازى ١٧٨/١٥ .
(٥) مدارج السالكين ١٥٣/٢ بتصرف يسير .
(٦) انظر الكشاف ١٦٧/٢ .
(٧) ٦٥ ـ ٦٦ : الانفال .
(٨) انظر تفسير القرطبي ٢٨٨٣/٤ .

وهذه الغلبة تقع باذن الله ومعيته وتيسيره وعونه وتسهيله ومن كان الله معه وقد تكفل الله بغلبته فان اهل العالم لا يقدرون على ايذائه(١) ، ولكن بقيد الصبر الذى امرهم الله به (٢) . وقد ذكر الله سبحانه في الاية الاولى قيد الصبر ، وذكر في الثانية معية الله ، ولا شك من ان مدار الغلبة في الصورتين لمجموع الامرين (٣) .

(وفي كل ذلك ترغيب في الصبر والتأكيد عليهم بلزومه والتوصية بـه ، وانه من اعظم اسباب الفلاح والنجاح والظفر والنصر ، لان من كان الله معه لم يستقم لاحد ان يغلبه)(٤) .

وقد جعل سبحانه وتعالى الصبر شرطا في امداد المؤمنين بجنود من عنده فقال تعالى :(اذ تقول للمؤمنين الن يكفيكم ان يمدكم ربكم بثلاثة الاف من الملائكة منزلين ، بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة الاف من الملائكة مسومين)(٥) ، وقوله بخمسة الاف اى باكثر من العدد الذى يكفيكم ليزيد ذلك في قوتكم فان كان هذا يوم بدر فقد قاتلت فيه الملائكة ، وان كان يوم احد فقد شرط في قوله :(ان تصبروا وتتقوا) ، فلما خالفوا الشرط لم تنزل الملائكة .(٦)

ولا شك ان سياق الايات كلها في غزوة احد ، فالملائكة لم تنزل لانهم لم يوفوا بشرطهم ، ولو وفوا بالشرط لوفى الله لهم ، لانه عز وجل اذا وعد لا يخلف ، ان الله لا يخلف المبعاد .

والصبر احد الاسلحة التي يتسلح بها المؤمنون فيبطل الله بهذا السلاح كيد ومكر وقوة الكافرين ، فلا يصيب المؤمنين شيء من كيدهم لانه عز وجل مطلع ومحيط بما يمكر به هؤلاء الكافرون وما يخططون له (٧) يقول تعالى

---

(١) انظر تفسير ابي السعود ٣٥/٤ وانظر فتح القدير ٣٢٤/٢ وانظر تفسير الرازى ١٩٩/١٥
(٢) انظر احكام القران لابن العربي ٨٧٨/٢ .
(٣) انظر تفسير ابي السعود ٣٥/٤ .
(٤) فتح القدير ٣٢٤/٢ بتصرف يسير .
(٥) ١٢٥ ـ ١٢٦ : آل عمران .
(٦) كتاب التسهيل ٢١٠/١ .
(٧) انظر تفسير الرازى ٢٢٢/٨ .

مبينا ذلك :(وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا ان الله بما يعملون محيط)(١) .

ويأمر الله المؤمنين بالصبر والمصابرة والتقوى ويعدهم على ذلك بالفلاح فيقول :(يا ايها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون)(٢) اى اصبروا على الطاعات ومشاقها وسائر المكاره والشدائد واصبروا عن الشهوات والاهواء وصابروا اعداء الله في الجهاد اى غالبوهم في الصبر على شدائد الحرب ولا تكونوا اقل صبرا منهم وثباتا (٣) (.. فانهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون ...)(٤) اى ان (ما في القتال من الالم والمشقة يستوى فيه المؤمن والكافر ويمتاز المؤمن بان له من الرجاء في ربه ما ليس عند الكافر ، فهو يرجو منه النصر والمعونة ، ويعتقد ان الله سبحانه وتعالى قادر على انجاز وعده ، كما يرجو منه المثوبة على حسن بلائه في سبيله ، وقوة الرجاء تخفف الالام ، وتنسيه التعب والنصب)(٥) .

والمصابرة باب من الصبر ذكر بعد الصبر على ما يجب الصبر عليه تخصيصا لشدته وصعوبته (٦) ، والمصابرة : مفاعلة من الصبر ، وكما قلت فانها مصابرة الاعداء الذين يحاولون جاهدين ان يقللوا من صبر المؤمنين على طول المجاهدة ، بل يظلون اصبر من اعدائهم واقوى ، فتكون لهم عاقبة ذلك ان كانوا اصبر عند اللقاء من الاعداء ، واذا كان اهل الباطل يصبرون ماضين في طريقه ، فما اجدر اهل الحق ان يكونوا اشد اصرارا واعظم صبرا على المضي في الطريق فيكون النصر لهم على الباطل واهله ولو كثر اهله وجنوده واعوانه (٧) .

---

(١) ١٢٠ : آل عمران .
(٢) ٢٠٠ : آل عمران .
(٣) الكشاف ٤٩١/١ ،وانظر تفسير ابي السعود ١٣٦/٢ وانظر فتح القدير ٤١٤/١ .
(٤) ١٠٤ : النساء .
(٥) تفسير المراغي ١٤٥/٥ .
(٦) الكشاف ٤٩١/١ وانظر تفسير ابي السعود ١٣٦/٢ وانظر فتح القدير ٤١٤/١ .
(٧) انظر منهج الاسلام في الحرب والسلام ١٥٩ ،وتفسير الطبرى ٢٢٢/٤ و تفسير المراغي ١٧٢/٤ .

وقد كتب ابو عبيدة عامر بن الجراح الى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، وذكر له جموعا من الروم ، وما يتخوف منهم فكتب اليه عمر : (اما بعد ، فانه مهما نزل مؤمن منزلة شدة يجعل الله بعدها فرجا ، وانه لن يغلب عسر يسرين وان الله يقول في كتابه : (يا ايها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) (١) ، وكانت وصيته لسعد ايضا بالصبر والمصابرة) (٢) .

فدل عمر بن الخطاب رضي الله عنه الى سبب النصر وهو الصبر والمصابرة والمرابطة وتقوى الله عز وجل .

وفيما قص الله عز وجل علينا من اخبار الامم الماضية وانبيائهم ما فيه عبرة لنا على الصبر عند البلاء ، وعند ملاقاة الاعداء ، وفيه بيان انه سبحانه منح المؤمنين النصر ومكن لهم في الارض ، لاتخانهم اسباب النصر والصبر احدها ، فما على المسلمين في كل زمان ومكان الا ان يقتدوا باولئك المؤمنين من الامم السابقة في صبرهم حتى يحقق الله لهم ما يحبونه من النصر والتمكين في الارض .

---

(١) تفسير الطبرى ٤ / ٢٢١ ، اخرجه مالك في الموطا كتاب الجهاد باب الترغيب في الجهاد ٢ / ٤٤٦

(٢) انظر تاريخ الطبرى ٣ / ٤٩١

ولقد ضرب سلفنا الصالح المثل الاعلى في صبرهم امام اعدائهم ، فحقق الله لهم الانتصارات التي لا زلنا نفخر بها الى يومنا هذا ، وما ذاك الا بنصر الله لهم عندما حققوا شروط النصر واسبابه ومن جملتها الصبر .

ومن الغزوات التي تجلى فيها صبر المؤمنين سواء أكان الصبر على الشهوات او الصبر على المصاعب والمشاق او الصبر على الجوع والعطش او الصبر على طول الطريق وعنائها (غزوة تبوك) ، فلقد ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين لغزو الروم وكان ذلك في شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة (١) (وكانت في زمن عسرة من الظهر والزاد والماء وجدب في البلاد ...) وهذا كله بحاجة الى صبر على قلة المراكب وصبر على الجوع وصبر على العطش .

(وحين طابت الثمار والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ، ويكرهون شخوصهم على تلك الحال ..) ، وهذا بحاجة الى صبر عن المتاع والنعيم والشهوات .

(وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلما يخرج في غزوة الا كنى عنها ، وورى بغيرها الا ما كان من غزوة تبوك لبعد الشقة وشدة الزمان)(١) ، وهذا يحتاج لصبر على مشقة السفر ولأواء الطريق وطولها .

فاستجاب المؤمنون - برغم ذلك كله - لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخرج معه في القول الراجح ثلاثون ألفا ، وهو عدد يدل على استجابة المؤمنين لداعي الجهاد وصدق عقيدتهم في تلك الظروف القاسية من الحر الشديد والعسرة (٢) ، ويدل على مقدار صبرهم على الطاعة وعن الشهوة والمتاع وعلى الشدة والصعاب ، وتخلف بعض المؤمنين باعذارهم كما بينت الاية (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج ...) (٣) ، واما بعض المؤمنين فلم يستطع حبس نفسه ولم يصبر على المتاع والشهوة فتخلف ، ولكنه ندم على ذنبه وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبل الله منه ذلك وغفر له ، من هؤلاء كعب بن مالك الذى يقول عن نفسه وقد تأهب الناس للجهاد : (.. وأنا أصفو "اى اميل" الى الظلال وطيب الثمار حتى غدا النبي غاديا بغداة ...) (٤) .

وقد تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضعاف الايمان والمنافقون ، وقد رسمت الايات الكريمة صورة هؤلاء المتخلفين ، قال تعالى :(لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون انفسهم والله يعلم انهم لكاذبون) (٥) .

---

(١) انظر زاد المعاد في هدى خير العباد ٣ / ٣ .
(٢) انظر المجتمع المدني في عهد النبوة ٣٣٦ - ٣٣٧ د . اكرم ضياء العمرى
(٣) ٩١ : التوبة
(٤) المغازى النبوية ١٠٦
(٥) ٤٢ : التوبة

وكان جزاء صبر المؤمنين وتلبيتهم لنداء الايمان والجهاد ان نصرهم الله على عدوهم بالرعب ، فعندما سمع الروم بأخبارهم جبنوا عن ملاقاة المسلمين ، ومن الله عليهم بالغنائم ، فعندما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى تبوك اتاه صاحب ايلة فصالحه واعطاه الجزية (١) ، واتاه اهل جربا واذرح ، فاعطوه الجزية ، وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد الى دومة الجندل وجاء بملكها الحيدر بن عبد الملك اسيرا (٢) ، فحقن رسول الله صلى الله عليه وسلم دمه وصالحه على الجزية ثم خلى سبيله (٣) .

ومن الصبر الذى ينبغي للمجاهد ان يتحلى به : (الصبر على النصر المؤقت ، ذلك عندما يكون للمؤمنين غلب في اثناء المعركة فانه في هذه الحال ربما يكون المجاهد في حاجة الى الصبر اكثر من اي حال أخرى ، فهو صبر النفس ان يصيبها غرور النصر الوقتي ، اذ هو في حاجة الى مقاومة الاغترار به لكي لا يضيع من يده ، وذلك بمقاومة النفس التي تريد المتعة العاجلة فلا تتركها ، ولا تفكر في النقمة الآجلة ، وان النعم كالنقم تحتاج الى صبر وقوة احتمال

---

(١) متفق عليه اخرجه البخارى كتاب الجزية والموادعة باب اذا اودع الامام ملك القرية هل يكون ذلك لبيتهم فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٦ / ٢٦٦ ، ومسلم كتاب الفضائل باب معجزات النبي صلى الله عليه وسلم ٤ / ١٧٨٥

(٢) البداية والنهاية ٥ / ١٧

(٣) الاصابة في تمييز الصحابة ١ / ٤١٣ والخبر بجملته اسناده حسن ، انظر المجتمع المدني في عهد النبوة ٢٤٠ .

نفسي ، وهو اشد على النفس من الشدة المادية ٠) (١)

ومن دروس غزوة احد التي ينبغي ان يستفيد منها المسلمون ضرورة الصبر على طاعة القائد ، والصبر على النصر المؤقت والصبر على حب الغنائم فان سبب هزيمة المسلمين في أحد هو مخالفة الرماة اوامر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن لا يبرحوا الجبل وفي ذلك عدم الصبر على الطاعة ، وكان سبب ذلك غرورهم بالنصر المؤقت وحبا للدنيا ، فلم يصبروا أنفسهم ولم يحبسوها عن مخالفة امر القائد وعن حب الدنيا بل تسابقوا الى جمع الغنائم ناسين توجيه الله ورسوله لهم بالصبر ، وحالهم ولسانهم يقول الغنيمة الغنيمة !! (٢) ولو صبروا في موقعهم لحققوا لأنفسهم عنصرا من اهم عناصر النصر في الجهاد طبقا لسنة الله تعالى في نصرة المجاهدين الصابرين ٠

---

(١) آيات الجهاد ١٢٧ ـ ١٢٨

(٢) انظر قصة مخالفة الرماة اوامر الرسول صلى الله عليه وسلم في عنصر الطاعة من هذه الرسالة ٠

سادسا :: الوحدة :

ومن اسباب النصر الوحدة وترك التنازع ، يقول تعالى : (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم..) (١)

فهو في هذه الاية يأمر سبحانه المؤمنين بالجماعة وينهاهم عن الفرقة (٢) ،ووردت الأحاديث المتعددة بالنهي عن التفرق والامر بالاجتماع والائتلاف كما في صحيح مسلم (ان الله يرضى لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا ، فيرضى لكم ان تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وان تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ....) (٣) .

وقد وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمنين بقوله : (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا) (٤)

فالمؤمنون جسد واحد وكيان واحد متعاون متناسق متكامل ، ليس متعارضا ولا متصارعا ولا متخالفا .

وفي الاتحاد والتعاون النصر (٥) ، وفي التخاذل والاختلاف الفشل ونهاب القوة كما قال تعالى وهو يرشد المؤمنين المقاتلين الى اسباب فوزهم : (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ...) (٦) .

والريح القوة ، وقد بين الله في هذه الاية ما في التنازع من فشل وخيبة أمل واضمحلال للقوة ، والى ما في مفهوم النهي من عكس ذلك وهو

---

(١) ١٠٣ : آل عمران
(٢) تفسير ابن كثير ١ / ٣٨٩
(٣) اخرجه مسلم كتاب الاقضية باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة ٢ / ١٣٤٠
(٤) متفق عليه اخرجه البخارى كتاب الصلاة باب تشبيك الاصابع في المسجد..فتح البارى ٢ / ٥٦٥ ومسلم كتاب البر والصلة والاداب باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ٤ / ١٩٩٩ واللفظ له
(٥) القتال في الاسلام ١٤٩
(٥) ٤٦ : الانفال

القوة التي يجلبها الاتحاد ، فبالقوة يعتز الحق ويعلو في العالمين وبالوحدة ينتصر الدين وترتفع راية التوحيد ، فالاتحاد قوة والتفرق ضعف . (١)

ولئن كان ترك التنازع لازما لوحدة الصف وزيادة القوة في الاوقات العادية فهو اشد لزوما وقت المعركة (٢) ، فلا قتال في منهج الاسلام مع فرقة الكلمة ، وتشتت الامكانات ،وانقسام الصف : (ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص) (٣) ، فالمقاتلون الذين يعمهم التنازع وتفرقهم الكلمة هم منهزمون (٤) .
فقوله: صفا كانهم بنيان مرصوص المراد تشبيههم في التحام بعضهم ببعض بالبنيان المرصوص من حيث انهم لا فرجة بينهم ولا خلل ولا اختلاف .(٥)

ولا قتال في الاسلام لأجل عصبية او قبلية ، او عنصرية ، او شعوبية فكل ذلك من سمات الجاهلية : (اذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية ، فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين والزمهم كلمة التقوى وكانوا احق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليما) (٦) ، فالقتال الذى يكون من اجل عصبية او قبلية او عنصرية جاهلية تكون نتيجته الهزيمة .(٧)

وعندما كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ـ يحاكم الهرمزان :قال له عمر : هيه يا هرمزان كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة امر الله ؟ فقال : يا عمر انا واياكم في الجاهلية كان الله قد خلى بيننا وبينكم فغلبناكم

(١) الجهاد طريق النصر ١٨٩
(٢) الجهاد والفدائية في الاسلام ١٢٥
(٣) ٤ : الصف
(٤) عوامل النصر والهزيمة ١٢
(٥) روح المعاني ٢٨ / ٨٤ بتصرف وانظر في ظلال القرآن ٦ / ٣٥٥٥
(٦) ٢٦ : الفتح
(٧) عوامل النصر والهزيمة ١٣ شوقي ابو خليل

اذ لم يكن معنا ولا معكم ، فلما كان معكم غلبتمونا ، قال عمر : انما غلبتمونا في الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا ٠٠٠) (١) ، وعن علي رضي الله عنه قال لمن معه عند قتاله لمعاوية رضي الله عنه : (ان هؤلاء قد انتصروا باجتماعهم على الباطل وخذلتم بتفرقكم عن حقكم) (٢) ٠

ومن صور الاتحاد وتماسك الصف تعاون الافراد فيما بينهم وتواصيهم بالحق وتواصيهم بالصبر ، فان في ذلك كله الخير المطلق والفلاح الشامل والوقاية من التردي في هاوية الخسران والانتكاس (وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) (٣) ، ومهما تنوعت جهات التواصي بالحق والصبر فان مردها الى كلمة واحدة هي ـ كما تقضي بها الفطرة ـ وكما سجلها القرآن الكريم ودعا اليها ، وجعلها صلاح حياة المجتمع وفلاحه ـ " التعاون على البر والتقوى (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان.)(٤) فالتعاون على البر هو توجيه القوى المتكاثفة الى فعل الخير والارشاد اليه ، والتعاون على التقوى هو توجيه القوى الى دفع المضاره وسد منافذ الشر ، والى الرباط دونها ٠ ومتى تركزت الحياة على قوة من التعاون في جلب الخير فعلا ودعوة ،ودفع الشر كذلك فعلا ودعوة شعر الجميع بمسؤلية مشتركة واندفع بها في طريق التقدم نحو الخير حتى يحظى بالسيادة والعزة والسلطان فيقتحم الصعاب وتذل له العقبات ويكون النصر باذن الله ٠ وان من طبيعة هذا الدين القائم على القسط والحدود انه يفرض على المسلمين التعاون وخدمة بعضهم بعضا في الحرب (٥) حتى ان

---

(١) تاريخ الطبري ٤ / ٨٧ ـ ٨٨
(٢) تفسير المنار ٤/ ١٤٢
(٣) ٣ : العصر
(٤) ٢ : المائدة
(٥) انظر من توجيهات الاسلام ٢٧٣ ـ ٢٧٤

الامام البخاري عقد لهذا الموضوع بابا ترجم له بقوله :" باب الخدمة في الغزو " (١) كما يوجب عليهم التكاتف والنظام ، ويحضهم على التوادد فيما بينهم ، وتضييق الخناق والشدة على اعدائهم (محمد رسول الله والذين معه اشداء على الكفار رحماء بينهم) (٢) ولذلك كله كان المسلمون في حروبهم مثال الانضباط والنظام والتعاون المخلص الودود ، فحققوا من النصر المؤزر ما حققوا . (٣)

وما اعظم ان يكون العمل جماعيا امام العدو المشترك كأنهم رجل واحد لا يتفرقون ، ولا تتنازعهم اقليمية ، وهدفهم الاساسي الجهاد في سبيل الله والعمل ليلا ونهارا في مرضاته ونصره دينه ،، ولا يمكن لأي تشكيل ووحدة عسكرية ان تنجح في القتال اذا لم تسد روح المحبة والمودة بين جميع مرتبتها وتكون كالجسد الواحد .) (٤)

ولم يرو التاريخ ان امة تفككت عراها واختلفت جماعاتها وفئاتها وتباينت آراؤها وتفرقت كلمتها واهدافها تمكنت من النصر على اعدائها فالنصر حليف الوحدة حليف الاتحاد حليف التناصر والتساند والتراحم والتعاطف .

تلك هي سنة الله التي لا تتخلف الا اذا تخلفت اسبابها ، فبالاتحاد والاجتماع نصر مؤزر من الله وبالتنازع والانقسام فشل وخسران (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) (٥) .

---

(١) انظر صحيح البخاري كتاب الجهاد باب فضل الخدمة في الغزو ، فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٦ / ٨٣

(٢) ٢٩ : الفتح

(٣) انظر الاسلام والحرب ٨٣ ابو لبابة حسين

(٤) العسكرية الاسلامية وقادتها العظام ٣٤

(٥) الجهاد طريق النصر ١٨٩

ولقد ضرب المسلمون في غزوة بدر المثل الاعلى في الاتحاد والتعاون والمحبة والالفة والاخوة ، فقد كانوا متفقين جميعا على قتال عدوهم متحمسين له ، فعندما استشار الرسول صلى الله عليه وسلم اصحابه في القتال كان الجميع متفقا على القتال سواء منهم المهاجرين والانصار ولكن بالمقابل كانت قيادة قريش مختلفة متنازعة ، فقد رأى بعض العقلاء من قريش عدم حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نجاة قافلة ابي سفيان ، فها هو عتبة بن ربيعة ينهى عن القتال ويقول لهم : يا قوم ، اني ارى قوما مستميتين لا تصلون اليهم وفيكم خير ، يا قوم اعصبوها اليوم برأسي وقولوا جبن عتبة بن ربيعة ! قد علمتم اني لست بأجبنكم ، فسمع ذلك أبو جهل فقال : أنت تقول هذا ؟والله لو غيرك يقول هذا لأعضضته قد ملأت رئتك جوفك رعبا) (١)

ان قيادة في اى جيش تكون بهذا المستوى من الخلاف والشقاق لا يمكن ان تنتصر ولا ان ينتصر ذلك الجيش مهما بلغت قوته ، لأن ذلك فيه اضعاف للقوة المعنوية وتوهين لها ، ولذا فلم يثبت الجيش المكي المتنازع ،بقوة امام المسلمين الذين واجهوهم برباطة جأش وقوة عزيمة واتحاد كلمة واتفاق قيادة وهي من عوامل النصر المهمة كما بينت . (٢)

---

(١) مسند الامام احمد ٢ / ١٩٣ ـ ١٩٤ وقال احمد شاكر اسناده صحيح وانظر مجمع الزوائد ٦ / ٧٥ ـ ٧٦ وقال رواه احمد والبزار ورجال احمد رجال الصحيح غير حارثة بن مضرب وهو ثقة انظر التقريب ١ / ١٤٥ اخرجه

(٢) انظر مرويات غزوة بدر ص ١٥٢/ محمد العليمي باوزير

سابعا : الشورى :

(ان الشورى تعتبر في الاسلام مبدأ اساسيا وركنا من اركان الحكم والشورى تعني تقليب الآراء المختلفة ووجهات النظر المطروحة في قضية من القضايا واختبارها من اصحاب العقول حتى يتوصل الى الصواب منها او الى اصوبها ليعمل به حتى تتحقق احسن النتائج) (١)

ولأهمية الشورى وفائدتها الكبيرة في الوصول الى افضل النتائج ، امر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بمشاورة اصحابه بقوله سبحانه : (فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الامر فاذا عزمت فتوكل على الله) (٢) . وقد دلت الاية على ان للمشورة وقتا تتداول فيه الاراء ثم اذا اتخذ القرار فلا بد من العزم على الرأى ثم التوكل على الله اى اذا قطعت الرأى بعد المشورة فتوكل على الله في امرك (٣) وهذا قرن بين الشورى والتوكل . وامتدح الله سبحانه المؤمنين بقوله : (وأمرهم شورى بينهم) (٤)

هذا وقد حفلت السنة النبوية بممارسات كثيرة للشورى ، وهذا يدل على مدى اهتمام الاسلام بالشورى .

وقد وردت آثار كثيرة للصحابة ومن بعدهم منها ما ورد على لسان سيدنا عمر رضي الله عنه انه قال : (لا خير في أمر ابرم من غير شورى) ، وقال على رضي الله عنه : (في المشورة سبع خصال : استنباط الصواب ، واكتساب الرأى ، والتحصن من السقطة ، وحرز من

---

(١) النظام السياسي في الاسلام ٧٩ للدكتور محمد ابو فارس .
(٢) ١٥٩ : آل عمران
(٣) انظر تفسير ابي السعود ١ / ٤٧٥ وانظر تفسير القرطبي ٢ / ٤٩٤
وانظر تفسير ابن كثير ١ / ٤٢١ وانظر آيات الجهاد ١٢٦
(٤) ٣٨ : الشورى

الملامة ونجاة من الندامة والفة القلوب واتباع الأثر) • وقيل للأحنف بن قيس : باى شيء يكثر صوابك ويقل خطؤك فيما تاتيه من الامور وتباشره من الوقائع ؟ قال : بالمشاورة لذى التجارب ومخض زبدة الاراء ، وقال اعرابي : ما غبنت قط حتى يغبن قومي ، قيل : وكيف ذلك؟ قال لا افعل شيئا حتى اشاورهم •(١)

هذه هي بعض النصوص التي تبين اهمية هذا المبدأ وفائدته • واذا كانت الشورى ضرورية ولازمة في شئون الحياة جميعها ، فانها اشد لزوما وضرورة فيما يتعلق بامور الجهاد، لأن الجهاد من الاحوال العامة التي تستلزم الاحتياط الكامل • اذ الخطأ فيها تتردى به جماعة كبيرة(٢) ، ولأن الحروب تقرر مصير الأمم فاما الى العلياء واما تحت الغبراء • فنتائج الهزيمة معروفة ، انتهاك الحرمات وتدنيس المقدسات واحتلال الأوطان (٣)

ولقد حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأخذ بمبدأ الشورى وكان يكثر من المشورة حتى قال ابو هريرة : (ما رأيت احدا اكثر مشورة لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم) ، حتى انه كان يستشير في اموره الخاصة فقد استشار في فراق عائشة بعد حادثة الافك • (٤)

---

(١) انظر في هذه الاقوال كتاب الفخرى في الاداب السلطانية والدول الاسلامية ٢٦
وانظر تفسير القرطبي ٢ / ٢٤٩ ـ ٢٥٠ وروح المعاني للالوسي ٢٥ / ٤٦

(٢ انظر الشورى في الاسلام ٣٧

(٣) غزوة بدر الكبرى ٣٧ د • محمد ابو فارس

(٤) متفق عليه اخرجه البخارى كتاب الشهادات حديث الأفك باب تعديل النساء بعضهن بعضا فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٥ / ٢٧١ عن عائشة ومسلم كتاب التوبة باب حديث الافك وقبول توبة القاذف عن عائشة كذلك ٤ / ٢١٣٣

وكان حريصا على الأخذ به عند عزمه على ملاقاة الأعداء ، وذلك لأن الشورى عنصر مهم وفعال من عناصر النصر التي لا بد منها . وكذلك في كل المواقف تاليفا لقلوب اصحابه وليقتدى به من بعده وليستخرج بها منهم الرأى فيما لم ينزل فيه وحي من امور الحرب والأمور الجزئية (١) .

لذلك نرى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستشير اصحابه يوم بدر في قتال قريش او عدمه (٢) ويشير عليه الحباب بن المنذر بموقع النزول بعد ان يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يا رسول الله أرأيت هذا المنزل ، امنزلا انزلكه الله ليس لنا ان نتقدمه او نتأخر عنه ؟ ام هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأى والحرب والمكيدة .(٣)

وكذلك في غزوة احد للخروج من المدينة او البقاء فيها ، وخرج من المدينة لملاقاة كفار قريش نزولا عند رغبة الأكثرية منهم ، رغبة

---

(١) انظر الفخرى في الاداب السلطانية ٢٥ ـ ٢٦

(٢) تكلم ابو بكر وعمر والمقداد بن عمر واحسنوا ثم تكلم سعد بن معاذ واحسن وهذه الروايات اخرجها ابن كثير في البداية والنهاية ٣ / ٢٦٢ من رواية ابن اسحق باسناد صحيح ، وقال ابن كثير وله شواهد من وجوه كثيرة فمن ذلك رواية البخارى كتاب المغازى باب قوله تعالى (اذ تستغيثون ربكم) الاية فتح البارى ٧ / ٢٨٧ ، ومسلم كتاب الجهاد والسير باب غزوة بدر ٣ / ١٤٠٣ـ١٤٠٤ وانظر المجتمع المدني ٤٤ ـ ٤٥ وانظر زاد المعاد ٣ / ١٧٤

(٣) الاصابة في تمييز الصحابة ١ / ٣٠٢ عن ابن اسحق وقد صرح بالسماع المستدرك ٣ / ٤٢٦ ـ ٤٢٧ وقال الذهبي حديث منكر ، سيرة ابن هشام ٢ / ٣٠٣ بسند فيه ابهام ، البداية والنهاية ٣ / ١٦٧ وفيه الكلبي وهو متهم ، وقد خرج الاستاذ احمد محمد العليمي باوزير من بحث هذه الاسانيد الى ان الاثر حسن ، انظر مرويات غزوة بدر ١٦٤ والله اعلم

في نيل الشهادة وحتى يعوضوا ما فاتهم من الجهاد في غزوة بدر .(١)

وقد يظن بعض الناس ان ما وقع من هزيمة في غزوة احد واختلال صف المسلمين انما كان نتيجة للشورى (٢) ، وليس الامر كذلك ، فقد حقق الله النصر لهم في بداية المعركة ، وما وقع من هزيمة بعد ذلك كان بسبب مخالفة الرماة لأوامر الرسول صلى الله عليه وسلم ونزولهم عن الجبل حبا للدنيا وارادة لها كما قال تعالى : (او لما اصابتكم مصيبة قد اصبتم مثليها قلتم انى هذا قل هو من عند انفسكم ..) (٣) وكما قال تعالى : (ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم باذنه حتى اذا فشلتم وتنازعتم في الامر ....) (٤)

وقد حقق الله للمؤمنين في غزوة الخندق نصرا مؤزرا بفضل الله ثم بفضل مشورة سلمان رضي الله عنه بحفر الخندق حول المدينة (٥) ، الذى كان حائلا وسدا منيعا منع كفار قريش ومن معهم من الاحزاب من الوصول الى المدينة او الدخول فيها .

---

(١) سيرة ابن هشام ٢ / ١٢٦ ـ ١٢٨ عن ابن اسحق عن الزهرى وغيره مرسلا وقد وصله احمد ٣ / ٣٥١ من طريق ابن الزبير عن جابر نحوه وسنده على شرط مسلم غير ان ابن الزبير مدلس وقد عنعنه ولكن له شاهد من حديث ابن عباس الذى اخرجه البيهقي كما في البداية ٤ / ١١ بسند حسن ، ورواه الحاكم في المستدرك ٢ / ١٢٨ ـ ١٢٩ ، ٢٩٦ ـ ٢٩٧ وصححه ووافقه الذهبي انظر فقه السيرة للغزالي ٢٥٠

(٢) انظر النظام السياسي في الاسلام ٨٩

(٣) ١٦٥ : آل عمران

(٤) ١٥٢ : آل عمران

(٥) انظر فتح البارى ٧ / ٣٩٣ وانظر المغازى للواقدى ٢ / ٤٤٥ والسيرة النبوية لابن هشام ٢ / ٢٢٤

ولقد اخذ الخلفاء الراشدون ومن بعدهم من الصحابة والتابعين (١) بهذا المبدأ فحقق الله لهم بفضل منه ثم بفضل مشورتهم انتصارات كثيرة ومتلاحقة على اعدائهم ، اذ بالمشورة يختار الرأى الصحيح والانسب ، وفي الشورى مشاركة الجند لاختيار وضع المعركة ، وفي ذلك تطييب لخواطرهم وتنشيط لعزائمهم ، حيث لا يرون انفسهم كماً مهملا بل يرون انهم يقومون بعمل شاركوا في اختياره . وفي ذلك شعور من الجند ايضا بالصلة الروحية العميقة التي تربطهم بالقائد ، فهو يستشيرهم ويشاركهم الرأى فيشعرون بالثقة بانفسهم وباهميتهم ، ويشعرون كذلك بان قائدهم ليس مستبدا ولا متسلطا عليهم بل يشاورهم ويأخذ برأيهم ان كان فيه مصلحة وصواب . (٢)

ولقد ادرك قواد الجيوش الاسلامية اهمية الشورى في تحقيق النصر فعزوا انتصاراتهم اليها ، ففي اثناء الفتح الاسلامي لأرض فارس طلب قائد جيش الفرس ان يلتقي بالقائد المسلم قبل المعركة ليتفاوض معه في حقن الدماء ، وبعد ان عرض الفارسي مقالته قال المسلم : امهلني حتى استشير القوم ، فدهش الفارسي وقال : الست أمير الجند ؟ قال : بلى ، قال الفارسي : انا لا نؤمر علينا من يشاور ، قال له المسلم :

---

(١) انظر البخارى كتاب الاعتصام باب قوله تعالى (وامرهم شورى بينهم) فتح البارى ١٣ / ٣٣٩ وانظر مشورتهم في الحرب تاريخ ابن عساكر ١ / ١٢٦

(٢) انظر تفسير القرطبي ٢ / ١٤٩٢ وانظر تفسير ابي السعود ١ / ٤٧٤ وانظر المجتمع المدني ١١١ ، وانظر فوائد الشورى بشيء من التفصيل في الشورى في الاسلام د . محمود بابلي ، والنظام السياسي في الاسلام ٨٣ ، ٨٥ - ٨٩

ولهذا نحن نهزمكم دائما ، اما نحن فلا نؤمر علينا الا من يشاور (١)

ويروى لنا التاريخ ايضا ان عدم الشورى والاستقلال بالرأى سبب في الهزيمة ، فعندما استشار عمر بن الخطاب رضي الله عنه اصحابه في غزو فارس كان اول من اجابه الى ذلك ابو عبيد بن مسعود الثقفي ، وقال له : (اسمع من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم واشركهم في الامر ولا تجتهد مسرعا حتى تتبين ولا يمنعني ان أؤمر سليط بن قيس الا سرعته الى الحرب ، وفي التسرع الى الحرب ضياع الاعراب فانه لا يصلح الا الرجل المكيث (٢) ، وسار ابو عبيد ومن معه من المسلمين الى ارض العراق بعد ان اوصاه عمر بمشورة اصحابه ، وعندما وصلوا الى نهر الفرات بعث اليه بهمن جاذويه (اما ان تعبر النهر - نهر الفرات - الينا وندعكم والعبور ، واما ان تدعونا نعبر اليكم ، فنهى الناس ابا عبيد من العبور ونهاه سليط ايضا ، فلج وترك الرأى والمشورة ، وقال ابو عبيد : لا يكونوا اجرأ على الموت منا ، فعبر النهر اليهم ، وكانت نتيجة المعركة هذه هزيمة المسلمين وخسارة المسلمين لأربعة آلاف من المجاهدين ، ولم يبق مع المثنى الا ثلاثة آلاف !! (٣)

هذه هي نتيجة عدم الأخذ بالشورى ، والاستقلال بالرأى هزيمة يحزن لها المسلم ويدعو الله لأبي عبيد الشجاع البطل بالرحمة والمغفرة لفعلته هذه الذى قضى الى ربه شهيدا في هذه المعركة - معركة الجسر - كما دعا له عمر رضي الله عنه عندما بلغته هذه الهزيمة ، فقال :(اللهم كل مسلم في حل مني ، انا فئة كل مسلم يرحم الله ابا عبيد لو كان عبر فاعتصم بالخيف ، او تخير الينا ولم يستقل - اى برأيه - لكنا له فئة)(٤)

---

(١) كتاب سراج الملوك للطرطوسي

(٢) تاريخ الطبرى ٤ / ٤٤٥

(٣) انظر البداية والنهاية لابن كثير ٧ / ٢٧ - ٢٨

(٤) تاريخ الطبرى ٣ / ٤٥٨ وانظر البداية والنهاية ٧ / ٢٨

وهكذا ظهر معنا من خلال ما سبق من قصص التاريخ التي فيها عبرة لأولي الابصار ان ما امر الله به من الشورى هو سبب من اسباب النصر ، وان ترك ذلك سبب من اسباب الهزيمة .

ولقد فطن لهذا المبدأ اعداؤنا واخذوا به وطبقوه ، وبالمقابل نرى بعض قادة الجيوش العربية - في العصر الحاضر - يغفلون عما امرهم الله به من الشورى ، بل يستكبرون عن الأخذ به ، استبدادا وعنجهية . فيكون هذا من اسباب هزيمتهم وانتصار عدوهم عليهم .

فهذا موشي دايان المجرم السفاح يقول في مذكراته عن حرب ١٩٦٧ م انه كان يتعجب من الجيوش العربية ، فبعض الوحدات كانت تقاتل بشراسة ورجولة حتى اخر رمق ، واخر طلقة وبعضها لا يقاتل !!

ولم يعرف السر في ذلك ؟ الى ان استسلم احد القادة العرب ومعه جنوده ، وجميع اسلحته فسأله هل اخذت رأي زملائك الضباط والجنود قبل ان تأمرهم بالاستسلام !!

فقال في كبرياء : اننا لا نستشير من هم دوننا في الرتبة !! .

فقال له : لهذا السبب ؟ فنحن نهزمكم دائما .) (١)

وهكذا فقد ايدت الحروب الحديثة - في هذه الحرب وغيرها - ان اعراض الزعماء والقادة عن مشاورة اهل الخبرة والرأى واستبدادهم بالامر في شؤون القتال ، يؤدى حتما الى الهزيمة الساحقة والخسران المبين . (٢)

---

(١) الحرية السياسية في الاسلام ٢١٠-٢١١
(٢) نظم الحرب في الاسلام ١١٢ بتصرف يسير

ثامنا : الذكر والدعاء :

ومن اسباب النصر التي امر الله بها المؤمنين وارشدهم اليها ، ذكر الله عز وجل ، يقول تعالى : (يا ايها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون) ٠ (١)

فالله عز وجل يامر المؤمنين ساعة لقاء عدوهم بذكره تعالى كثيرا لأنها ساعة تزيغ فيها الابصار وتضطرب فيها القلوب ، وتصيب المقاتلين هزة ويعتريهم الذهول لهول اللقاء والمفاجأة ، فامرهم الله تعالى بذكره في هذه الحالة العظيمة ، لأنه سبحانه هو الذى يفزع اليه عند الشدائد بالذكر والدعاء فتطمئن القلوب بذكره ، ويستأنس به ويشغل الانسان بربه ويغفل عما سواه ويستنزل النصر والمدد بدعائه (٢) كما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم من اجابة الدعاء وقت التحام العدو(٣) وفي الذكر تنبيه على ان العبد ينبغي ان لا يشغله شيء عن ذكر الله ، وان تكون نفسه مجتمعة لذلك ، وان كانت متوزعة عن غيره تعالى ٠ قال قتادة : (افترض الله ذكره اشغل ما يكون العبد عند الضراب والسيوف) (٤)، وان يلتجيء اليه عند الشدائد ويقبل اليه بكليته فارغ البال واثقا بان لطفه لا ينفك عنه في حال من الاحوال ، لأنه سبحانه القادر على كل شيء والقهار الذى لا يعجزه شيء (٥) ٠

---

(١) ٤٥ : الأنفال

(٢) انظر تفسير البحر المحيط ٤ / ٥٠٢ ـ ٥٠٣ وانظر آيات الجهاد في القرآن الكريم ١٢٤ وانظر شريعة القتال في الاسلام ١٨٦

(٣) انظر تفسير ابي السعود ٤ / ٢٥ ، والكشاف للزمخشرى ٢ / ١٦٧ وحاشية الشهاب على البيضاوى ٤ / ٢٨٠

(٤) تفسير الطبرى ١٠ / ١٤

(٥) انظر تفسير ابي السعود ٤ / ٢٥ ، والكشاف ٢ / ١٦٧ وحاشية الشهاب على البيضاوى ٤ / ٢٨٠

وقد ذكر ابن العربي احتمالات ثلاثةلذكر الله فقال :

الاول :اذكروا الله عند جزع قلوبكم ، فان ذكره يثبت ·

الثاني : اثبتوا بقلوبكم واذكروا الله بالسنتكم فان القلب قد يسكن(١) عند اللقاء ويضطرب اللسان فامر بذكر الله حتى يثبت القلب على اليقين ويثبت اللسان على الذكر ·

الثالث : اذكروا ما عندكم ؛ من وعد الله لكم في ابتياعه انفسكم منكم ومثامنته لكم ، وكلها مرادة ، واقواها اوسطها ؛ فان ذلك انما يكون عن قوة المعرفة ونفاذ القريحة واتقاد البصيرة وهي الشجاعة المحمودة في الناس) (٢)

(ان ذكر الله عند لقاء العدو يؤدى وظائف شتى : انه الاتصال بالقوة التي لا تغلب ، والثقة بالله الذى ينصر اولياءه ·· وهو في الوقت ذاته استحضار حقيقة المعركة وبواعثها واهدافها ، فهي معركة لله ، لتقرير الوهيته في الارض ، وطرد الطواغيت المغتصبة لهذه الألوهية ؛ واذن فهي معركة لتكون كلمة الله هي العليا ؛ لا للسيطرة ، ولا للمغنم ، ولا للاستعلاء الشخصي او القومي ·· كما انه توكيد لهذا الواجب ـ واجب ذكر الله ـ في احرج الساعات واشد المواقف ·· وكلها ايحاءات ذات قيمة في المعركة ؛ يحققها هذا التعليم الرباني) (٣)

وان في تكبير الله عز وجل اثر كبير في نفس المقاتل المسلم عند لقائه عدوه يقولها الله اكبر في تصميم وحماس ، يرددها المجاهدون في سبيله فتفعل فعل السحر في نفوسهم وتشدهم الى الله فيستعينون به فيمدهم بقوة من عنده وجند من لدنه ·

---

(١) عند القرطبي لا يسكن القلب وهو الذى يستقيم به المعنى ٤ / ٢٨٦٢

(٢) احكام القرآن لابن العربي ٢ / ٨٦٦ ـ ٨٦٧ وانظر تفسير القرطبي ٤ / ٢٨٦٢ ـ ٢٨٦٣ وانظر فتح القدير ٢ / ٣١٥

(٣) في ظلال القرآن ٣ / ١٥٢٨

وان كلمة الله اكبر كما انها تثبت قلب المؤمن وتصله بالله فانها تملأ صدر عدوه رعبا وخوفا وفزعا وهلعا ، فمن يستطيع ان يقف امام الله وهو القادر على كل شيء وهو القهار فوق عباده .

ان كلمة الله اكبر تخضع رقاب الجبابرة وتحطم كيانهم . وتزلزل الارض من تحت ارجلهم ، انها كلمة تفعل فعل الاعاجيب في الاعداء وفي صفوفهم . (١)

والذكر المأمور به يكون باللسان وبالقلب ، ويكون بالدعاء بالنصر(٢) ومنهم من خصص الدعاء بدعاء اصحاب طالوت (ربنا افرغ علينا صبرا وثبت اقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين) (٢) ، وقيل هو قول الله اكبر ، وقيل الدعاء عليهم اللهم اخذلهم اللهم دمرهم وشبهه ، وقيل : حم لا ينصرون وكان هذا شعار المؤمنين عند اللقاء (٣) ، والصحيح عدم تعيين الذكر بل يذكر بما شاء من اسماء الله وصفاته ، ويدعو بما شاء من ادعية النصر والتثبيت والعون ، فالرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته من بعده لم يلتزموا بدعاء وذكر معينين كما دلت على ذلك معاركهم .

(وذكر الله عند لقاء الاعداء هو التوجيه الدائم للمؤمن كما انه التعليم المطرد الذى استقر في قلوب العصبة المؤمنة وحكاه عنها القرآن الكريم في تاريخ الامة المسلمة في موكب الايمان التاريخي .

ومما حكاه القرآن الكريم من قول سحرة فرعون عندما استسلمت قلوبهم للايمان فواجههم فرعون بالتهديد المروع البشع الطاغي قولهم:

---

(١) انظر في هذه المعاني وحولها الجهاد والسلام في ذروة الاسلام ١٤٠ ـ ١٤٢ تاليف محمد حسين سعيد بنجر

(٢) انظر تفسير الرازى ١٥ / ١٧٦ ـ ١٧٧ واظر زاد المسير ٣ / ٣٦٥

(٣) انظر تفسير القرطبي ٤/ ٢٨٦٢ وانظر فتح القدير ٢ / ٣١٥

(وما تنقم منا الا ان آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا . ربنا افرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين)(١) .

كذلك كان من الفئة القليلة المؤمنة من بني اسرائيل وهي تواجه جالوت وجنوده)(٢) قالوا :(...ربنا افرغ علينا صبرا وثبت اقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين)(٣) .

ولقد دعا هؤلاء المؤمنون بما يضمن لهم النصر ، فان الامور المطلوبة في القتال ثلاثة فاولها : ان يكون الانسان صبورا ، والثاني : ان يكون قد وجد من الالات والاتفاقات الحسنة ، ما يجعله يثبت ولا يكون ملجأ الى الفرار . الثالث : ان تزداد قوته على قوة اعدائه حتى يمكنه ان يقهر عدوه ، ولقد دعا هؤلاء بهذه الامور الثلاثة . فاستجاب لهم ربهم وحقق لهم النصر (٤) .

ولقد راعى هؤلاء المؤمنون في دعائهم الترتيب الطبيعي بحسب الاسباب الغالبة اذ الصبر سبب الثبات والثبات سبب النصر (٥) .

وفي هذا الهام للمؤمنين بالدعاء الجامع المرتب للامور حسب طبيعتها وتعليم لنا بالدعاء بمثل هذا الدعاء ، وهذا وجه تخصيص الدعاء بهذا الدعاء فانه بحق دعاء جامع .

ومما حكاه كذلك عن الفئات المؤمنة على مدار التاريخ في مواجهة المعركة :(وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير ، فما وهنوا لما اصابهم في سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ، وما كان قولهم الا ان قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا في امرنا ، وثبت اقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين)(٦) فكان دعاؤهم بمغفرة الذنوب

---

(١) ١٢٦ : الاعراف .
(٢) في ظلال القران ١٥٢٨/٣ .
(٣) ٢٥٠ : البقرة .
(٤) انظر تفسير الرازى ٢٠١/٦ .
(٥) انظر تفسير المراغي ٢٢٤/٣ .
(٦) ١٤٦ ـ ١٤٧ : آل عمران .

لان الذنوب سبب في تأخير النصر ، وبالصبر الذى هو عدة النصر ، ثم عولوا في نصرهم على الله لانه هو القادر عليه ومن توكل على الله ودعاه كفاه(١) .

وكان الله قريبا منهم فاستجاب دعاءهم ونصرهم على عدوهم :

(فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين)(٢) ،

(فأعطاهم الامرين : اما ثواب الدنيا فهو النصرة والغنيمة وقهر العدو والثناء الجميل ، وانشراح الصدور بنور الايمان ، وزوال ظلمات الشبهات وكفارة المعاصي والسيئات ، واما ثواب الآخرة فلا شك انه هو الجنة ...) (٣) .

وكان هذا هو دأب رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزواته يلهج لسانه بذكر الله ويلتجيء اليه بالدعاء ، وعلى هذه السيرة وهذا الهدى سار صحابته من بعده في معاركهم ، وهذا هو سبيل المؤمنين في كل عصر ومكان .

وهكذا نرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر يدعو ربه وهو في عريشه يستنزل نصره ويلح عليه بالدعاء والذكر حتى استجاب له وحقق الله وعده للقلة المؤمنة (٤) فقد اخرج الامام مسلم في صحيحه وغيره عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال :(لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المشركين وهم الف واصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلا فاستقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم القبلة ، ثم مد يديه فجعل يهتف بربه يقول : اللهم انجز لي ما وعدتني ، اللهم آتني ما وعدتني ، اللهم ان تهلك هذه العصابة من اهل الاسلام لا تعبد في الارض ، فما زال يهتف بربه مادا يديه مستقبلاً القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فاتاه ابو بكر فاخذ رداءه ، فالقاه على منكبيه ثم التزمه فاخذه من ورائه ، وقال : يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فانه سينجز لك ما وعدك ، فانزل الله عز وجل (اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم اني ممدكم بالف من الملائكة مردفين) فامده الله

---

(١) انظر تفسير الرازى ٩/٢٨ ـ ٢٩ .
(٢) ١٤٨ : آل عمران .
(٣) تفسير الرازى ٩ / ٢٩ ـ ٣٠ .
(٤) انظر شريعة القتال في الاسلام ١٨٦ .

بالملائكة ...)(١) وفي رواية البخارى عن ابن عباس قال :(قال النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر اللهم اني انشدك عهدك ووعدك ، اللهم ان شئت لم تعبد فاخذ ابو بكر بيده فقال : حسبك فخرج وهو يقول سيهزم الجمع ويولون الدبر)(٢) .

وعندما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمنين المثخنين بجراحهم الذين اصابهم القرح في احد لملاقاة قريش وقد خافوا من رجوعهم (٣) ، وقد خوفوا من قوة قريش التجأوا الى الله بالدعاء والتضرع كما وصف الله حالهم بقوله :(الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم)(٤) .

وفي غزوة الخندق كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو ربه ويقول :(اللهم منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الاحزاب اللهم اهزمهم وزلزلهم)(٥) .

وفي غزوة حنين عندما كمنت هوازن لرسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه واخذوا يرشقون المسلمين بسهامهم الكثيرة حتى لا يكاد يسقط لهم سهم ، فاقبلوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وابو سفيان بن الحارث يقود بغلته فنزل ودعا واستنصر وهو يقول : انا النبي لا كذب انا ابن عبد المطلب ، اللهم نزل نصرك ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اى عباس ناد اصحاب السمرة (٦) ، فقال عباس وكان رجلا صيتا (٧)، فقلت باعلى صوتي : اين اصحاب السمرة ؟ قال : فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة

---

(١) اخرجه مسلم كتاب الجهاد والسير باب الامداد بالملائكة في غزوة بدر واباحة الغنائم ٣ / ١٣٨٣ _ ١٣٨٤ .

(٢) اخرجه البخارى كتاب المغازى باب قول الله تعالى اذ تستغيثون ربكم .. الاية فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٢٨٧/٦ .

(٣) صحيح البخارى في المغازى باب غزوة احد فتح البارى ٣٧٣/٧ وانظر المغازى النبوية للزهرى ٧٨ (٥) متفق عليه

(٤) ١٧٣ : آل عمران اخرجه البخارى كتاب الجهاد باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة فتح البارى ١٠٦/٦ .

واخرجه مسلم كتاب الجهاد والسير باب استحباب الدعاء بالنصر عند لقاء العدو ١٣/٣

(٦) السمرة هى الشجرة التى بايعوا تحتها بيعة الرضوان (٧) صيتا : اى قوى الصوت

البقرة على اولادها (١) ، فقالوا : يا لبيك ، يا لبيك ، فاقتتلوا والكفار ... فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على بغلته كالمتطاول عليها الى قتالهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا حين حمي الوطيس (٢) ، قال ثم اخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم حصيات فرمى بها وجوه الكفار ، وقال : شاهت الوجوه ثم قال : انهزموا ورب محمد . ثم يقول ابن عباس فوالله ما هو الا ان رماهم بحصياة فما زلت ارى احدهم كليلا وامرهم مدبرا وما خلق الله منهم انسانا الا ملأ الله عينيه ترابا بتلك القبضة (٣)، فولوا مدبرين فهزمهم الله عز وجل وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم غنائمهم بين المسلمين . (٤)

وفي فتح المدائن عندما اراد سعد بن ابي وقاص ان يقتحم دجلة لملاقاة الفرس ، قال للمسلمين :(قولوا نستعين بالله ، ونتوكل عليه ، حسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم) (٥)

وفي موقعة نهاوند كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه الى سعد بن ابي وقاص يقول له :(... واسألوا الله العافية واكثروا من قول لا حول ولا قوة الا بالله) (٦) .

---

(١) اى عودهم لامكنتهم واقبالهم اليه صلى الله عليه وسلم عطفة البقر على اولادها ، اى كان فيها انجذاب حين حنت على اولادها
(٢) اى اشتدت الحرب انظر في معاني الكلمات صحيح مسلم بشرح النووى ١٢ / ١١٣ _ ١٢٢
(٣) حيث ورد في رواية اخرى انه قبض قبضته من تراب الارض
(٤) انظر قصة حنين صحيح مسلم كتاب الجهاد والسير باب في غزوة حنين ٣ / ١٣٩٨ _ ١٤٠٢ وصحيح البخارى كتاب المغازى باب قول الله تعالى (اذ تستغيثون ربكم ... فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٧ / ٢٨٦ _ ٢٩٠
(٥) تاريخ الطبرى ٤ / ١٠
(٦) المصدر السابق ٣ / ٤٩١

وقال سعد ليلة الهرير وقد تطوع المسلمون لقتال الفرس دون اذنه :(اللهم اغفر لهم وانصرهم) (١)

وفي وقعة البويب اخذ المثنى والمسلمون يدعون الله بالظفر والنصر ٠ (٢)

وقد وصف سعد لعمر ابن الخطاب حال المسلمين المنتصرين على الفرس فقال : (٠٠٠ ورجال من المسلمين ـ بعد ان عد له الشهداء الذين يعرفهم ـ كانوا يدوون بالقرآن اذا جن عليهم الليل دوى النحل) (٣)

وقد كان التكبير شعار المؤمنين وهتافهم الذى يهتفون به في كل معاركهم مع اعدائهم ٠ والشواهد على ذلك كثيرة منها ان النعمان ابن المقرن لما راى جيش الفرس كبر وكبر المسلمون معه فتزلزل لتكبيرهم العجم ، وقد قال سعد للمسلمين :(فاذا صليتم الظهر فاني مكبر فكبروا واستعدوا واعلموا ان التكبير لم يعطه احد قبلكم) فعندما كبر سعد كبر المسلمون واستعدوا ٠٠٠(٤)

وفي المدائن كبر ضرار بن الخطاب وكبر المسلمون معه ، وكذلك في تستر ، ففي كل موقعة لقي العجم فيها المسلمين فانهزموا امامهم كان للمسلمين تكبير اقترن في لفظه ومعناه وادائه هتافا بنصر المسلمين وهزيمة اعدائهم (٥) ، وفي التاريخ الحديث نجد ان من اسباب انتصار الجيش البلغارى على الجيش التركي في حرب البلقان المشهورة ، إبطال القواد للأذان والصلاة في الجيش ، فلما شعروا بهذا اعادوا الأذان والائمة بعمائمهم الى كل فصيلة فيهم ، وقد روت

---

(١) المصدر السابق ٣ / ٥٦١

(٢) البداية والنهاية ٧ / ٢٩

(٣) تاريخ الطبرى ٣ / ٥٨٣

(٤) المصدر السابق ٣ / ٣٣٥

(٥) سقوط المدائن ١٩٥ ـ ١٩٦ وانظر تاريخ الطبرى ٣ / ٤٥٣٧ / ١٣٢

الصحف ان الجنود لما سمعت الأذان صارت تبكي بكاء بنشيج عال ، كان له تأثير عظيم ادخل الشجاعة في نفوس الجيش ، وكان من اثر ذلك ان اعاد الجيش التركي على البلغار الكرة وانتصروا عليهم انتصارا باهرا . (١)

وحتى في الأيام الباهتة في تدين المسلمين عندما يصدق التجاؤهم الى الله ويكبرون مخلصين تفعل هذه التكبيرات فعلها في اطمئنان المقاتلين وفعلها في اعداء المسلمين رعبا وهزيمة ، ولعل فيما قاله الجنود اليهود الذين نجوا من المعارك من اثر هذه التكبيرات في نفوسهم، وما شغل العالم والأخصائيين العسكريين بعد هذه المعركة من دراسة لها ، وخصوصا لسلاح التكبير ، ما فيه اكبر العبرة للمسلمين اليوم ان يعودوا للتكبير في معناه ويحيوا حقيقته في قلوبهم وواقعهم ، مما سيحقق به نصرا مؤزرا ودائما . (٢)

وان التكبيرات التي تطلقها افواه المجاهدين الأفغان لتفعل فعلها فيهم ثباتا واطمئنانا وشجاعة ، وتفعل فعلها في اعدائهم هلعا ورعبا وحتى في اعداء الاسلام من غير المحاربين ، فعندما زار نيكسون رئيس امريكا السابق معسكرات المجاهدين وسمع التكبير دخل في قلبه الرعب وصرح بأن على امريكا ان تقف مع روسيا ضد المجاهدين . (٣)

---

(١) انظر شريعة القتال في الاسلام ١٨٧
(٢) انظر الجهاد والسلام ١٤٠
(٣) قاله فضيلة الدكتور عبد الله عزام في احدى محاضراته عن الجهاد الأفغاني .

تاسعا : الطاعة :-

ان طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بامتثال اوامرهما والانقياد لهما (١) وتنفيذها بلا تلكؤ او تردد ، هو سبيل فلاح المؤمنين في دنياهم واخراهم ، وهومصدر عزهم وعلوهم وتمكينهم في الارض ٠
وقد امر الله المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم في كثير من آيات كتابه فقال عز من قائل : (يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول ولا تبطلوا اعمالكم) (٢) ٠

ويدخل في طاعة الله ورسوله وتبعا لطاعتهما طاعة اولي الأمر وهم العلماء والأمراء ، وكلمة الأمراء تعم قواد الجيش والحكام وقد جاء الأمر بطاعة اولي الأمر في قوله تعالى : (يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الأمر منكم فان تنازعتم في شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير واحسن تأويلا)(٣) ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم :(من اطاعني فقد اطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن يطع اميرى فقد اطاعني ومن يعص اميرى فقد عصاني) (٤) ٠

فهو سبحانه وتعالى قد امر بطاعة اولي الأمر ، واختلف في المقصود باولي الأمر ، فذهب بعضهم الى انهم الامراء ونذهب اخرون الى انهم العلماء ونذهب فريق الى انهم امراء السرايا (٥) ، والصحيح انهم هم كل من ولي ولاية صحيحة شرعية ٠ (٦)

---

(١) انظر تفسير الخازن ١ / ٥٥
(٢) ٣٣ : محمد
(٣) ٥٩ : النساء
(٤) اخرجه مسلم كتاب الامارة باب وجوب طاعة الامراء في غير معصية وتحريمها في معصية ٣ / ١٤٦٦
(٥) انظر الكشاف للزمخشرى ١ / ٥٣٥ ، وانظر البحر المحيط ٣ / ٢٧٨ وانظر تفسير الطبرى ٨ / ٥٠٢
(٦) البحر المحيط ٣ / ٢٧٨

وشرط طاعة اولي الأمر هو طاعتهم لأمر الله ورسوله والتزامهم بشرعه والعدل بين رعيته ، قال الامام علي : (حق على الامام ان يحكم بما انزل الله ويؤدي الامانة ، فاذا فعل ذلك فحق على الرعية ان يسمعوا ويطيعوا) (١) . وقال الزمخشري : والمراد باولي الأمر منكم امراء الحق، لأن امراء الجور ، الله ورسوله بريئان منهم ، فلا يعطفون على الله ورسوله في وجوب الطاعة لهم ، وانما يجمع بين الله ورسوله والامراء الموافقين لهما في ايثار العدل واختيار الحق والامر بهما عن اضدادهما كالخلفاء الراشدين ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين)(٢)

وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بيان لحدود هذه الطاعة على وجه الجزم واليقين فيقول عليه الصلاة والسلام : (انما الطاعة في المعروف) (٣) ، ويقول :(على المرء المسلم السمع والطاعة ، فيما احب وكره ، الا ان يؤمر بمعصية فان امر بمعصية فلا سمع ولا طاعة) (٤) ، وقال : (اسمعوا واطيعوا وان استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة) (٥) ، وقال : (ولو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله فاسمعوا له واطيعوا) (٥) فاذا امر بمعصية فلا سمع ولا طاعة

---

(١) تفسير الرازى ١٠ / ١٤٧

(٢) الكشاف للزمخشرى ١ / ٥٣٥

(٣) اخرجه مسلم كتاب الامارة باب وجوب طاعة الامراء في غير معصية . (بعض من حديث اوله : عن علي ان رسول الله بعث جيشا وامر عليه رجلا فاوقد نارا ٣ / ١٤٦٩

(٤) متفق عليه اخرجه البخارى كتاب الاحكام باب السمع والطاعة للامام ما لم تكن معصية فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٣٠ / ١٢١ ـ ١٢٢ ، واخرجه مسلم كتاب الامارة باب وجوب طاعة الامراء في غير معصية وتحريمها في معصية واللفظ له ٣ / ١٤٦٨

(٥) متفق عليه اخرجه البخارى كتاب الاحكام باب السمع والطاعة للامام فتح البارى بشرح صحيح البخارى ١٣ / ١٢١ ، اخرجه مسلم كتاب الامارة باب وجوب طاعة الامراء في غير معصية وتحريمها في المعصية ٣ / ١٤٦٨

بل هناك اكثر من عدم السمع والطاعة وهو العقوبة على تلك الطاعة التي تكون في المعصية ؛ فقد (بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية واستعمل عليها رجلا من الانصار ، وامرهم ان يسمعوا ويطيعوا ، فعصوه في شيء ، فقال : اجمعوا حطبا فجمعوا ، ثم قال : اوقدوا نارا ، فاوقدوا ثم قال : الم يأمركم رسول الله صلى الله عليه وسلم ان تسمعوا وتطيعوا ؟ قالوا : بلى ، قال فادخلوها - النار - فنظر بعضهم الى بعض وقالوا : انما فررنا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من النار ، فكانوا كذلك حتى سكن غضبه واطفئت النار ، فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لو دخلوها لم يخرجوا منها ابدا وقال : لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، وانما الطاعة في المعروف) (١)

والطاعة لله هي سبيل الفلاح والفوز في شئون الحياة كلها يقول تعالى : (ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما) (٢) ، والفوز عام فيشمل الفوز في الدنيا وفي الاخرة ، وفي الاية التي سبق ذكرها قال تعالى معقبا على طاعة الله ورسوله واولي الامر (ذلك خير واحسن تأويلا) اى خير لكم في الدنيا واحسن عاقبة في الاخرة (٣)

واذا كانت طاعة الله ورسوله واولي الامر لازمة وضرورية ، لا تستقيم الحياة الا بها ، فان لزومها وضرورتها وقت الحرب آكد والزم ، ولذا جاء التنبيه الى وجوب الطاعة ولزومها وقت لقاء العدو يقول تعالى : (يا ايها الذين امنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ، واطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين) (٤)

---

(١) سبق تخريجه في الصفحة السابقة هامش ٣

(٢) ٧١ : الاحزاب

(٣) روح المعاني ٤ / ٦٧ وانظر تفسير الطبرى ٨ / ٥٦

(٤) ٤٥ - ٤٦ : الانفال

يقول ابن العربي في تفسير هذه الاية (وهذه الوصية هي العمدة التي يكون معها النصر ويظهر بها ويسلم معها القلب ، وتستمر معها على الاستقامة الجوارح ؛ وذلك بان يكون عمل المرء كله بالطاعة في امتثال الامر واجتناب النهي ، فانما يقاتل المسلون باعمالهم لا بأعدادهم ، وباعتقادهم لا بامدادهم ...) (١)

وطاعة الله تكون في تنفيذ امره واجتناب نهيه ، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم تكون في حياته ، فيما امر به ونهى عنه وبعد وفاته باتباع سنته ، واما طاعة اولي الامر فتكون فيما امروا به من طاعة الله وطاعة رسوله وفيما فيه خير الاسلام والمسلمين . ويدخل في طاعة اولي الامر طاعة امر القائد الحربي في المعركة ، فالجندى المسلم يدخل المعركة وهو يتحرى الطاعة الكاملة ، وليست الطاعة الظاهرية بتنفيذ الاوامر ظاهريا فحسب بل الطاعة القلبية الصادقة والثقة التي تدفع الى تنفيذ الاوامر برحابة صدر (٢) (طاعة وقول معروف فاذا عزم الامر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم) (٣) ، والامر بطاعة الله وطاعة الرسول وطاعة اولي الامر عند المعركة من عمليات الضبط التي لا بد منها في المعركة .

وتعد الطاعة مبدا عسكريا ، ولذلك حرص الاسلام على تعليمه لكل المقاتلين في مختلف الظروف مهما كانت عسيرة ،لأن تنفيذ المهمات العسكرية بنجاح ، رهن طاعة الجنود للقائد ، ولعل هذا ما جعل بيعة الانصار ليلة العقبة تقوم (على السمع والطاعة في اليسر والعسر والمنشط والمكره ، وعلى القيام بالحق حيثما كانوا ، وعلى الا يخافوا

---

(١) احكام القرآن لابن العربي ٢ / ٨٧٠
(٢) انظر تفسير المنار ٥ / ٢٢٠ ـ ٢٢١
(٣) ٢١ : محمد

في الله لومة لائم ٠ (١)

والطاعة ركن من اركان نظام الجندية الذى بسببه قد تفرض عقوبات متنوعة على من يخالف اوامر القواد من الجند على اختلاف رتبهم ، وتبلغ في بعض الحالات اشد العقاب وهو الاعدام ٠ (٢)

ومن الطاعة الا يخرج المسلمون المجاهدون الى القتال الا باذن الامير لأن امر الحرب موكل اليه ، وهو اعلم بكثرة العدو وقلتهم ومكامن العدو وكيدهم فينبغي ان يرجع الى رايه لأنه احوط للمسلمين الا ان يتعذر استئذانه لمفاجأة عدوهم ، فلا يجب عندئذ استئذانه ، لأن المصلحة تتيقن في قتالهم والخروج اليهم حيث ان تركهم بدون قتال - عندئذ - فيه فساد كبير ، وقد فعل ذلك سلمة بن الاكوع - رضي الله عنه - فقد خرج دون اذن النبي صلى الله عليه وسلم عندما اغارت خيل غطفان على لقاح النبي صلى الله عليه وسلم فاستردها (٣) ، ومدحه النبي عليه السلام وقال : خير رجّالتنا سلمة بن الاكوع ٠ (٤)

ولقد حقق المسلمون في معاركهم انتصاراتهم الرائعة عبر التاريخ عندما كانت الطاعة متغلغلة في نفوس الامة كافراد ومقاتلين ٠ فلقد كان المقاتلون من المسلمين على مختلف مستوياتهم يلتزمون بالخطة التي وضعها القائد الاعلى ،وقائد الجيش ، وكانوا يحرصون على تنفيذها بالصورة التي انتهت اليها ٠

ولا شك ان الالتزام بالخطة يجعل الاهداف واضحة والواجبات محددة ، وخط التنفيذ معروفا فيفهم كل فرد واجبه ومسئوليته ، وفي حدود هذا

(١) اخرجه مسلم كتاب الامارة باب وجوب طاعة الامراء في غير معصية وتحريمها في المعصية ٣ / ١٤٧٠ ، والاسلام والحرب ٨٧ ابو لبابة حسين
(٢) منهج الاسلام في الحرب والسلام ١٥٦
(٣) انظر صحيح مسلم كتاب الجهاد والسير باب غزوة ذى قرد وغيرها ٣/١٤٣٢-١٤٣٣
(٤) انظر صحيح مسلم بنفس الكتاب والباب ٣ / ١٤٣٩

الواجب وهذه المسئولية يتصرف .

وكان قادة الفتوح الاسلامية سواء في جبهة الفرس او الروم ملتزمين باوامر ابي بكر وعمر في حربهم، وكانوا يحرصون كل الحرص على الالتزام بها ، وكان الجنود مطيعين لاوامر قادتهم فتحقق لهم النصر باذن الله على عدوهم . (١)

وفي غزوة احد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسين من الرماة على الجبل وأمر عليهم عبد الله بن جبير ، وامرهم بحماية ظهور المسلمين وعدم مغادرة الجبل في اى حال من الاحوال حتى ولو راوا المشركين انهزموا ، وعندما حقق المسلمون النصر على عدوهم ، خالف الرماة اوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزلوا عن الجبل وذكرهم اميرهم بما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنهم لم يذعنوا وعصوه وبقي عبد الله بن جبير ومعه اقل من عشرة على الجبل وعندما رأى خيالة المشركين بقيادة خالد بن الوليد خلو الجبل من اكثر الرماة ، وان الفرصة سانحة لاحتلاله وتعديل الموقف فسار الى الجبل وصعد اليه وقاتل الرماة العشرة على الجبل واستبسلوا في الدفاع حتى استشهدوا جميعا ، ثم باغت المسلمين من الخلف واوقع فيهم القتل ، فتفرق المسلمون وانحل عقدهم ، واستشهد عدد كبير من الصحابة ، كل ذلك لمخالفة الرماة اوامر الرسول صلى الله عليه وسلم (٢) .

وقد اخرج البخارى هذه القصة ومخالفة امر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعن البراء رضي الله عنه قال : (لقينا المشركين يومئذ واجلس النبي جيشا من الرماة ، وامر عليهم عبد الله وقال : لا

---

(١) انظر مبحث الالتزام بالخطة في كتاب المدرسة العسكرية الاسلامية ٣٥٥ محمد فرج

(٢) انظر السيرة النبوية لابن كثير ٣ / ٤٧ وتفسير الفخر الرازى ٨ / ٢٠٦ انظر عيون الاثر ٢ / ١١

تبرحوا ان رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا وان رأيتمونا ظهروا علينا فلا تعينونا فلما لقيناهم هربوا حتى رأيت النساء يشتددن في الجبل ، رفعن عن سوقهن قد بدت خلاخلهن فاخذوا يقولون الغنيمة الغنيمة . فقال عبد الله : عهد الى النبي صلى الله عليه وسلم ان لا تبرحوا . فأبوا ، فلما ابوا صرف وجوههم فأصيب سبعون قتيلا ...) (١)

---

(١) صحيح البخارى كتاب المغازى باب غزوة احد فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٧ / ٣٤٥ .

عاشرا - الشجاعة والثبات :-

ان الشجاعة والتي هي ثبات القلب عند النوازل (١) خلق كريم من اخلاق النفس وثمرتها الاقدام في موضع الاقدام ، والاحجام في موضع الاحجام والثبات في موضع الثبات والزوال في موضع الزوال ، وضد ذلك مخل بالشجاعة ، وهو اما جبن واما تهور واما خفة وطيش (٢) .

وانا توفرت هذه الصفة في المجاهد كان مؤهلا لخوض المعارك ، فان المعارك لا يخوض غمارها ، ولا يثبت لاهوالها ، الا من كان شجاعا ، واذا عدمت الشجاعة من المقاتل فانه لا يصلح لها .

ومن اضداد الشجاعة الجبن ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذ من الجبن فيقول :(اللهم اني اعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل ..)(٣) ، والجبن خلق مذموم عند جميع الخلق ، واهل الجبن هم اهل سوء الظن بالله واهل الشجاعة هم اهل حسن الظن بالله كما قال بعض الحكماء في وصيته :(عليكم باهل السخاء والشجاعة فانهم اهل حسن الظن بالله ، والشجاعة حصن الرجل من المكاره والجبن اعانه منه لعدوه على نفسه وهو سلاح يعطيه عدوه ليحاربه به ، وقالت العرب :(الشجاعة وقاية والجبن مقتلة (٤) ، وقال ابن المقفع :(الجبن مقتلة والحرص محرمة فانظر من قتل في الحرب مدبرا اكثر ممن قتل مقبلا)(٥) وفي وصية ابي بكر لخالد بن الوليد :(احرص على الموت توهب لك الحياة) وقال خالد بن الوليد : (حضرت كذا وكذا زحفا في الجاهلية والاسلام وما في جسدى موضع الا وفيه طعنة برمح او ضربة بسيف ، وها انا اموت على فراشي فلا نامت اعين الجبناء(٦) .

(١) انظر لسان العرب ١٧٤/٨ وانظر الفروسية لابن القيم ١٧٥ .
(٢) الفروسية لابن القيم ١٧٧ - ١٧٨ .
(٣) اخرجه البخارى كتاب الدعوات باب الاستعاذة من الجبن والكسل فتح البارى بشرح صحيح البخارى ١١ / ١٧٨ .
(٤) الفروسية لابن القيم ١٧٢ - ١٧٣ .
(٥) كتاب عيون الاخبار ١٦٦/١ .
(٦) الفروسية لابن القيم ١٧٣ .

ولترسيخ هذه الصفة في نفوس المؤمنين المجاهدين فقد جاءت الآيات تأمر المؤمنين حين لقائهم الكفار بالغلظة والشدة معهم ، وهذا لا يكون الا من شجاع مقدام (١) ، قال تعالى :(فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق ..)(٢) . (ان في هذه العبارة من الغلظة والشدة ما ليس في لفظ القتل ، لما فيه من تصوير القتل باشنع صورة ، وهو حز العنق واطارة العضو الذى هو رأس البدن وعلوه واوجه اعضائه)(٣) . ثم بين لهم ان يستمروا على هذه الحال حتى يكثروا القتل والجراح حتى لا يبقوا في عدوهم قوة ولا شوكة فلا يستطيعون النهوض ولا المقاومة .فعندها قوموا بأسرهم وشدوا الوثاق)(٤) .

وقال تعالى آمرا المؤمنين بقتال عدوهم بتعبير اشد من التعبير السابق ، (٥) ، فقال :(....فاضربوا فوق الاعناق واضربوا منهم كل بنان)(٦) ، اى اضربوا الهام فافلقوها واحتزوا الرقاب فاقطعوها ، واقطعوا رؤوس اصابع ايديهم وارجلهم حتى لا يستطيعوا القتال (٧) .

واذا كان الامر للملائكة على قول القائلين بان الملائكة قاتلوا مع المؤمنين في غزوة بدر ، فان هذا يكون تعليما للمؤمنين (٨) لصفة الشجاعة والاقدام .

ثم امر الله تعالى رسوله والمؤمنين بقوله :(فاما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون)(٩)(اى فاما تصادفهم في الحرب فتقدر عليهم وتتمكن من غلبهم ففرق بقتلهم والتنكيل بهم من خلفهم من المحاربين لك من اهل الشرك حتى يهابوا جانبك ويكفوا عن حربك ، مخافة ان ينزل بهم

---

(١) انظر السياسة الشرعية لابن تيمية ٦٣ ، وانظر الفروسية لابن القيم ١٧٥ .
(٢) محمد : ٤ .
(٣) الكشاف للزمخشرى ٥٣٠/٣ .
(٤) انظر المصدر السابق ٥٣٠/٣_٥٣١،وانظر تفسير ابي السعود ٩٢/٨ وانظر صفوة التفاسير ٢٠٦/٣ .
(٥) الكشاف ٥٣٠/٣ _ ٥٣١ .
(٦) الانفال : ١٢ .
(٧) انظر تفسير ابن كثير ٢٩٢/٢ _ ٢٩٣ وانظر تفسير الطبرى ١٩٨/٩ _ ١٩٩ .
(٨) انظر مسالة قتال الملائكة مع المؤمنين او عدمه تفسير القرطبي ٢٨١٤/٤ وانظر تفسير الرازى ١٤٠/١٥ وانظر ابن كثير ٢٩٢/٢ .
(٩) الانفال : ٥٧ .

ما نزل بهؤلاء)(١) .

وقد نفذ رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون معه ما امرهم الله به من غلظة وشدة في تقتيل اعدائهم والتنكيل بهم ، فحقق الله لهم ما اراد سبحانه من تشريد من خلفهم وادخل الله الرعب في قلوب اعدائهم لما سمعوا ورأوا من قوة المؤمنين وبأسهم وشجاعتهم عند لقائهم وصبرهم وثباتهم ، فنصروا بالرعب كما ورد في الحديث :(نصرت بالرعب مسيرة شهر)(٢) .

ثم يأمر الله تعالى المؤمنين بالثبات :(يا ايها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون)(٣) ،(اى اذا حاربتم جماعة من المشركين فاثبتوا لهم ولا تجبنوا عنهم (٤) ، وهذه هي الشجاعة المحمودة في الناس)(٥) .

والثبات ضروري في المعركة ، لان امور المعركة لا تسير على نسق واحد بل فيها كثير من المفاجآت والاهوال ، فلا بد من الثبات حتى تتحطم جميع هذه الشدائد والاهوال كما تتحطم الامواج على الصخر وهو ثابت لا يتحرك ، وليس هناك نصر مجيد بلا جهود وعناء وحرمان (٦) فلا بد من الثبات وعدم الاستكانة وعدم الضعف امام هذه المحن حتى يأتي نصر الله قال تعالى :(ولا تهنوا في ابتغاء القوم ان تكونوا تألمون فانهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليما حكيما)(٧) .

وينهى الله تعالى المؤمنين المجاهدين في سبيله عن الفرار عند اللقاء فيقول تعالى :(يا ايها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا

---

(١) فتح القدير ٢ / ٣١٩ .
(٢) اخرجه البخاري كتاب الصلاة عن ابي هريرة باب قول النبي صلى الله عليه وسلم جعلت لي الارض مسجدا وطهورا ،فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٥٣٣/١ .
(٣) ٤٥ : الانفال .
(٤) فتح القدير ٢ / ٣١٤ .
(٥) تفسير القرطبي ٢٨٦٢/٤ .
(٦) انظر الوجيز في الحرب ١٩١ .
(٧) ١٠٤ : النساء .

فلا تولوهم الادبار ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال او متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير)(١) ، اى لا تنهزموا عن الكفار اذا لقوكم مهما كثرت قوتهم ، وعند قربهم منكم ، ولا يجوز لكم الفرار من المعركة ابدا الا من اجل المعركة فيتحرف من جانب الى جانب في المعركة طلبا لمكائد الحرب ، كمن يوهم انه منهزم ليتبعه العدو فيكر عليه ويتمكن منه ، ونحو ذلك من مكائد الحرب فان الحرب خدعة او يكون منضما الى جماعة من المسلمين غير الجماعة المقابلة للعدو تقوية لصفها او طاعة لاميره ، ثم توعد الله بعد ذلك ان من يفر من المعركة لغير هذين السببين فانه يرجع بغضب من الله ويكون مصيره ومأواه جهنم وبئس المصير (٢) .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبايع صحابته على ان لا يفروا ، ولتعميق معنى الشجاعة وعدم الفرار في النفوس كان يبايعهم على الموت في سبيل الله ، فعن جابر رضي الله عنه قال :(لم نبايع رسول الله على الموت وانما بايعناه على ان لا نفر)(٣) ، وفي رواية عن يزيد بن ابي عبيد مولى سلمة بن الاكوع قال :(قلت لسلمة على اى شيء بايعتم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية قال على الموت)(٤) .

---

(١) ١٥ ـ ١٦ : الانفال .

(٢) فتح القدير ٢/٢٩٣ ـ ٢٩٤ ، وانظر تفسير ابن كثير ٢/٢٩٣ ـ ٢٩٤ وانظر تفسير القرطبي ٩ / ٢٠٢ .

(٣) اخرجه مسلم كتاب الامارة باب استحباب مبايعة الامام الجيش عند ارادة القتال ...، ٣/١٤٨٣ .

(٤) اخرجه مسلم نفس الكتاب والباب السابق ٣/١٤٦٨ ، وفي غير صحيح مسلم بايعنا على الصبر قال العلماء هذه الرواية تجمع المعاني كلها وتبين مقصود كل الروايات ، فالبيعة ان لا نفر معناه الصبر حتى نظفر بعدونا او نقتل ، وهو معنى البيعة على الموت اى نصبر وان آل بنا ذلك الى الموت لا ان الموت مقصود في نفسه وكذا البيعة على الجهاد اى والصبر فيه والله اعلم) صحيح مسلم بشرح النووى ١٣ / ٢ـ٣ ، رواية الصبر في البخارى كتاب الجهاد باب البيعة في الحرب ان لا يفروا فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٦ / ١١٧ .

وقد عمق الله عز وجل صفة الشجاعة والاقدام والثبات في نفوس الموءمنين بان اقتلع من نفوسهم كل دوافع الجبن والخوف ، فالجبان يفر من المعركة حرصا على حياته ، او خوفا من لقاء عدوه ، او خوفا على ماله وولده او خوفا من الاذى والضرر .

والاسلام جاء يعالج كل هذه القضايا وينفيها من نفس الموءمن فبين في كثير من آيات القران الكريم ان الاجل لا يتقدم ساعة ولا يتأخر ، فالشجاع لا يموت قبل اجله المكتوب ، والجبان ايضا لا يتأخر اجله ان جبن ، يقول تعالى: (..فاذا جاء اجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون)(١) ، ثم قرر هذه الحقيقة في آية اخرى رادا على المنافقين الذين :(... يقولون لو كان لنا من الامر شيء ما قتلنا ههنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم ...)(٢) ،(يعني من علم الله منه انه يقتل ويصرع في هذه المصارع وكتب ذلك في اللوح لم يكن بد من وجوده ، فلو قعدتم في بيوتكم لبرز من بينكم الذين علم الله انهم يقتلون الى مصارعهم ليتحقق ما علم الله انه يكون)(٣) .

وقال تعالى رادا على المنافقين الجبناء الذين قالوا للموءمنين: (... لو اطاعونا ما قتلوا ، قل فادرؤا عن انفسكم الموت ان كنتم صادقين)(٤) .

ثم خاطب الله تعالى في آية اخرى الذين :(..وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا اخرتنا الى اجل قريب) فخاطبهم بقوله :(قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا ، اينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة ...)(٥) . اى قالوا ربنا لم كتبت علينا القتال

---

(١) ٣٤ : الاعراف .
(٢) ١٥٤ : آل عمران .
(٣) الكشاف للزمخشرى ١ / ٤٧٢ .
(٤) ١٦٨ : آل عمران .
(٥) ٧٧ ـ ٧٨ : النساء .

في هذا الوقت لو اخرته حتى نموت موتا طبيعيا ، وكانوا قد طلبوا التأجيل خوفا من الموت ورغبة في متاع الدنيا ، فبين لهم ان متاع الدنيا مهما عظم فانه قليل بالنسبة الى متاع الآخرة ، ثم بين لهم ان الموت امر محتم لا مهرب منه ، فهو لا بد ان يدرككم في اى مكان كنتم ولو تحصنتم في شواهق القصور او القلاع والحصون ، وانا كان الموت لا مفر منه ، وقد يقتحم المرء غمار الوغى ، ولا يصاب بالاذى وقد يموت من هو في هذه البروج وهو على فراشه ، فلماذا تكرهون القتال وتجبنون وتخافون الناس وتتمنون البقاء ولا فائدة في بقائكم؟؟(١) .

اما الخوف من العدو وقوته ، فانه ما ينبغي للمسلم ان يخاف احدا سوى الله ولان من امتلاء قلبه خوفا من الله امنه الله من الخوف من سائر القوى والناس وقال تعالى :(اتخشونهم فالله احق ان تخشوه ان كنتم موءمنين)(٢) ، وقال :(.. فلا تخشوا الناس واخشون ...)(٣). (ولن يخاف الرجل غير الله الا لمرض في قلبه ، كما ذكروا ان رجلا شكا الى احمد بن حنبل خوفه من بعض الولاة ، فقال :(لو صححت لم تخف احدا)، اى خوفك من اجل زوال الصحة من قلبك (٤) .

فالموءمن يخشى الله وحده ولا يخشى احدا سواه لانه لا يملك الضر والنفع الا الله عز وجل .

واما الرزق فقد تكفل به رب العالمين فقال :(وفي السماء رزقكم وما توعدون)(٥) وقال عليه الصلاة والسلام :(فان نفسا لن تموت .. حتى تستوفي رزقها واجلها)(٦) . وقد كتب الرزق والاجل له وهو في بطن امه فلا يزيد ولا ينقص .

---

(١) انظر تفسير المراغي ٥/٩٥ ـ ٩٦ .
(٢) ١٣ : التوبة .
(٣) ٤٤ : المائدة .
(٤) مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية ٢٨ / ٤٤٩ .
(٥) ٢٢ : الذاريات .
(٦) اخرجه ابن ماجه كتاب التجارات باب الاقتصاد في طلب المعيشة ٢/٧٢٥ واخرجه ابن حبان في صحيحه من طريقين عن سعيد ابي هلال عن محمد بن المنكدر عن جابر تحت رقمي ٣٢٢٨، ٣٣٠ واخرج نحوه وبمعناه من حديث ابي الدرداء وابن عمر وحبيه وسواد ابني خالد بن الوليد رضي الله عنهم انظر الارقام ٣٢٢٧ـ٣٢٣١ بترتيب صحيح ابن حبان ٥/٩٨ـ٩٩ وقال في مصباح الزجاج ٣/٦ اسناده ضعيف ، لان فيه الوليد بن مسلم وابن جريج وكل منهما يدلس وكذلك ابو الزبير وقد عنعنوه لكن لم ينفردوا به المصنف من حديث ابي الزبير عن

ثم بعد ذلك بين الحديث ان الناس اجمعين لو ارادوا الضر لاحد وهو ليس مكتوبا عليه فلن يلحقوا به الضر ، وان ارادوا ان ينفعوه بشيء لن ينفعوه الا بشيء قد كتبه الله له كما قال عليه الصلاة والسلام :(واعلم ان الامة لو اجتمعوا على ان يضروك بشيء لن يضروك الا بشيء قد كتبه الله عليك ، واعلم ان الامة لو اجتمعوا على ان ينفعوك بشيء لن ينفعوك الا بشيء قد كتبه الله لك ، رفعت الاقلام وجفت الصحف)(١) .

وقد عالج الاسلام فطرة الانسان ، من حب الحياة فمنح الشهيد حياة حقيقية ، ومتعة في جنات النعيم حتى قبل حدوث الساعة قال تعالى :(ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتا بل احياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم الا خوف عليهم ولا هم يحزنون)(٢) ، وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية كما اخرج الامام مسلم في صحيحه بسنده عن مسروق ، قال : سألنا عبدالله عن هذه الآية (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتا بل احياء عند ربهم يرزقون) ، فقال : اما انا قد سألنا عن ذلك فقال : (ارواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوى الى تلك القناديل فاطلع عليهم ربهم اطلاعة فقال هل تشتهون شيئا ؟ فقالوا : اى شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ؟ ففعل ذلك بهم ثلاث مرات ، فلما رأوا انهم لن يتركوا من ان يسألوا قالوا : نريد ان ترد ارواحنا في اجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة اخرى ، فلما رأى ان ليس لهم حاجة تركوا)(٣) ، فهم احياء عند ربهم يتنعمون في رزق الله فرحين مسرورين بما آتاهم الله من كرامته وفضله وبما حباهم به من جزيل ثوابه وعطائه ورضاه (٤) .

---

(١) اخرجه الترمذى كتاب صفة القيامة باب (٥٩) بدون اسم ٦٦٧/٤ وقال هذا حديث حسن صحيح واخرجه احمد ١/ ٢٩٣ .
(٢) ١٦٩ ـ ١٧٠ : آل عمران .
(٣) اخرجه مسلم كتاب الامارة باب بيان ان ارواح الشهداء في الجنة ١٥٠٢/٣ـ١٥٠٣ .
(٤) انظر تفسير الطبرى ١٧٠/٤ وانظر ما بعدها وانظر تفسير ابن كثير ٤٣٦/١ .

وادراكا من الصحابة لهذا الفوز العظيم والنعيم الدائم في الجنة كان يقول احدهم اذا طعن في سبيل الله (فزت ورب الكعبة)(١) ٠

وبكل هذا التوجيه اصبحت الشجاعة في نفوس الصحابة والموءمنين من بعدهم صفة ثابتة وملازمة للايمان ، فمن كان موءمنا فهو شجاع ومن كان غير ذلك فاما ان يكون منافقا واما ان يكون في ايمانه ضعف ، او في طاعته نقص ، ويكشف الله عز وجل هذه الحقيقة في كثير من آياته التي جاءت تصور حال الموءمنين والمنافقين وضعاف الايمان عندما احاط العدو بالمدينة ومن كل جهة في غزوة الخندق وزلزل الموءمنون زلزالا شديدا ٠

فيقول تعالى واصفا المنافقين بالجبن الذى كان يستعيذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بربه منه (٢) :(٠٠ فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور اعينهم كالذى يغشى عليه من الموت ٠٠)(٣) ،(انها صورة شاخصة واضحة الملامح متحركة الجوارح وهي في الوقت ذاته مضحكة تثير السخرية من هذا الصنف الجبان ، الذى تنطق اوصاله وجوارحه في لحظة الخوف بالجبن المرتعش الخوار ،) ثم يتابع النص الكريم صورتهم المضحكة المزرية فيقول : (٠٠ يحسبون الاحزاب لم يذهبوا ٠٠٠)(٤) فهم ما يزالون يرتعشون ويتخاذلون ويخذلون ويأبون ان يصدقوا ان الاحزاب قد ذهبت وانه قد ذهب الخوف وجاء الامان ٠

(٠٠ وان يأت الاحزاب يودوا لو انهم بادون في الاعراب يسألون عن انبائكم ٠٠)(٥) ٠ يا للسخرية ويا للتصوير المزرى ويا للصورة المضحكة ، وان يأت الاحزاب يود هوءلاء الجبناء لو انهم لم يكونوا من اهل المدينة يوما

---

(١) اخرجه البخارى كتاب الجهاد باب من ينكب في سبيل الله فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٦ / ١٩ ٠

(٢) فقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم انه كان يقول :(اللهم اني اعوذ بك من العجز والكسل والجبن والهرم واعوذ بك من فتنة المحيا والممات واعوذ بك من عذاب القبر) ،اخرجه البخارى كتاب الجهاد والسير باب ما يتعوذ من من الجبن فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٣٦/٦ ٠

(٣) ١٩ : الاحزاب

(٤) ٢٠ : الاحزاب ٠ (٥) ٢٠ : الاحزاب ٠

من الايام ويتمنون ان لو كانوا من اعراب البادية لا يشاركون اهل المدينة في حياة ولا مصير ولا يعلمون حتى ما يجرى عند اهلها وانما هم يجهلونه ويسألون عنه سوءال الغريب عن الغريب مبالغة في البعد والانفصال والنجاة من الاهوال . يتمنون هذه الامنيات المضحكة مع انهم قاعدون بعيدون عن المعركة لا يتعرضون لها مباشرة ، انما هو الخوف من بعيد والفزع والهلع من بعيد ، (ولو كانوا فيكم ما قاتلوا الا قليلا) .

وقد بينت بعض آيات سورة الاحزاب ايضا ، ان الجبناء مستعدون للتخلي عن عقيدتهم خوفا وجبنا اذا ما دهمهم عدو يقول تعالى مبينا ذلك :(ولو دخلت عليهم من اقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها الا يسيرا)(١) فالصورة السابقة التي ذكرتها كانت والاعداء لا زالوا خارج المدينة ولم تقتحم عليهم بعد ، ومهما يكن الكرب والفزع فالخطر المتوقع غير الخطر الواقع ، فاما لو وقع واقتحمت عليهم المدينة من اطرافها ثم سئلوا الفتنة وطلبت اليهم الردة لآتوها سراعا غير متلبثين ولا مترددين الا قليلا من الوقت ، او الا قليلا منهم يتلبثون شيئا ما قبل ان يستجيبوا ويستسلموا ويرتدوا كفارا ، فهي عقيدة واهنة لا تثبت وهو جبن غامر لا يكون معه مقاومة(٢) .

ثم تأتي صورة المؤمنين الذين ملئت قلوبهم شجاعة وثباتا وصبرا على مواجهة الاهوال ، فهم لم يستسلموا ولم تخر عزائمهم ولم تدر اعينهم ولم يسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يستأذنوه في ترك الجهاد ، بل كان قولهم عندما رأوا الاحزاب :(... هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم الا ايمانا وتسليما ، من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا)(٣) .

---

(١) ١٤ : الاحزاب .
(٢) في ظلال القران ٥ / ٢٨٣٩ ـ ٢٨٤١ بتصرف يسير .
(٣) ٢٢ ـ ٢٣ : الاحزاب .

هذه الشجاعة المحمودة والتي ينبغي لكل جندى من جنود الاسلام ان يتصف بها ، حتى يتحقق النصر ويفوز برضى ربه ، وانا كانت الشجاعة ضرورية للجندى المسلم فهي اكثر لزوما للقائد الذى يقود المعارك ، ولقد ضرب الرسول صلى الله عليه وسلم المثل الاعلى لكل قيادة فقد كان صلى الله عليه وسلم في ذلك بالمكان الذى لا يجهل ، بذلك وصفه من عرفه ، فقد حضر المواقف الصعبة وفر الكماة والابطال منه غير مرة وهو ثابت لا يبرح ومقبل لا يدبر ولا يتزحزح (١) ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم كما وصفه انس رضي الله عنه (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم احسن الناس ، وكان اجود الناس ، وكان اشجع الناس ، ولقد فزع اهل المدينة ذات ليلة فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعا وقد سبقهم الى الصوت ، وهو على فرس لابي طلحة عرى في عنقه السيف وهو يقول :(لم تراعوا ، لم تراعوا قال :(وجدناه بحرا او انه لبحر (٢) .

وثبت عن على رضي الله عنه انه قال وهو البطل المقدام والليث الضرغام : (كنا اذا حمي الوطيس واشتد البأس واحمرت الحدق ، اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون احد اقرب الى العدو منه وكان اشجعنا من كان اقرب اليه)(٣) وكان من خبر علي رضي الله عنه في غزوة خيبر ، ان خرج مرحب اليهودى يريد المبارزة وقال مرتجزا :

(قد علمت خيبر اني مرحب   شاكي السلاح بطل مجرب

انا الحروب اقبلت تلهب

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٣٣٥/١ .

(٢) متفق عليه اخرجه البخارى كتاب الجهاد والسير باب الشجاعة في الحرب والجبن فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٣٥/٦ ، واخرجه مسلم كتاب الفضائل باب في شجاعة النبي عليه السلام وتقدمه للحرب ١٨٠٢/٤ ــ ١٨٠٣ واللفظ له ، ومعنى قوله " لم تراعوا " اى روعا مستقرا او روعا يضركم ، ومعنى قوله "وجدناه بحرا " اى واسع الجرى .

(٣) حدائق الانوار ٨٣٣/٢ ، وانظر الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٣٣٧/١ ، وانظر شمائل الرسول ١١٠ وانظر صحيح مسلم كتاب الجهاد والسير باب في غزوة حنين ١٤٠١/٣ .

فقال علي :

انا الذى سمتني امي حيدرة (١) كليث غابات كريه المنظرة

اوفيهم بالصاع كيل السندرة (٢)

قال : فضرب رأس مرحب فقتله ثم كان الفتح على يديه)(٣) .

وما من شجاع الا عدت له كبوة الا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما فر رسول الله صلى الله عليه وسلم قط من مصاف ولو تولى عنه اصحابه (٤) .

وقد حول رسول الله صلى الله عليه وسلم بشجاعته وثباته وبشجاعة وثبات بعض الصحابة ممن معه هزيمة احد وحنين الى نصر ، ففي يوم احد عندما فر اكثر اصحابه ثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم في مقامه لا يبرح منه ولا يزال يرمي عن قوسه حتى صارت شظايا ويرمي بالحجر ولم يبق معه الا اثنا عشر قتل منهم سبعة وبقي الخمسة (٥) ، ثم رجع صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم واستمر القتال في الصفوف واجهد الجانبان ، ثم انسحب رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو شعاب احد ولحق به المسلمون حتى صعد في احد وتمكن المسلمون من صد المشركين عنه (٦) .

ولقد ضرب صحابته الذين ثبتوا معه اروع الامثلة على الاستبسال والشجاعة ، فعندما خلص بعض المشركين الى الرسول صلى الله عليه وسلم وهو في سبعة من الانصار ورجلين من قريش فقال :(من يردهم عنا وهو رفيقي في الجنة ، فقاتلوا عنه واحدا واحدا حتى استشهد الانصار السبعة)(٧) ، ثم قاتل عنه طلحة بن عبيد الله قتالا مشهورا حتى شلت يده ، فعن ابي حازم قال :(رأيت يد طلحة التي وقى بها النبي صلى الله عليه وسلم قد

---

(١) الحيدرة : اسم للاسد وكان علي قد سمي اسدا في اول ولادته صحيح مسلم بشرح النووى ١٨٥/١٢ .

(٢) معناه اقتل الاعداء قتلا واسعا ذريعا والسندرة مكيال واسع صحيح مسلم بشرح النووى ١٢ / ١٨٦ .

(٣) اخرجه مسلم كتاب الجهاد والسير باب غزوة ذى قرد وغيرها ١٤٤١/٣ .

(٤) شمائل الرسول ١١٠ .

(٥) المصدر السابق بنفس الصفحة وانظر عيون الاثر ١٢/٢ .

(٦) انظر جوامع السيرة ١٣٠ وانظر عيون الاثر ١٤/٢ وانظر المجتمع المدني ٧٨-٧٩ .

(٧) انظر صحيح مسلم كتاب الجهاد والسير باب غزوة احد ١٤١٥/٣ .

شـلت)(١) .

وقاتل سعد بن ابي وقاص بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يناوله السهام ويقول :(ارم فداك ابي وامي)(٢) ، ودافع ابو طلحة الانصارى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان راميا ، فكان النبي يشرف على القتال ، فيقول له ابو طلحة :(لا تشرف فيصيبك سهم من سهام القوم نحرى دون نحرك) وكان اذا مر الرجل معه جعبة السهام يقول الرسول :(انثرها لابي طلحة)(٣) وتترس ابو دجانة بظهره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والنبل يقع فيه وهو لا يتحرك)(٤) ،

(وانتهى انس بن النضر عم انس بن مالك رضي الله عنهما الى جماعة من الصحابة قد القوا بايديهم ، فقال لهم : ما يجلسكم ، قالوا : قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال لهم : ما تصنعون بالحياة من بعده قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم استقبل الناس ولقي سعد بن معاذ فقال يا سعد : اني والله لاجد ريح الجنة من قبل احد فقاتل حتى قتل رضوان الله عليه ووجد به بضع وثمانون منطعنة ، وضربة ، ورمية بسهم)(٥).

وتضرب المرأة الموءمنة ايضا المثل في الشجاعة والثبات فهذه ام عمارة تثبت وتقاتل دون رسول الله صلى الله عليه وسلم فما يلتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم يمنة ولا يسرة الا وجدها تقاتل دونه ، وضربت عمرو بن قمئة بالسيف ضربات فوقاه درعان كانتا عليه ، وضربها عمرو بالسيف فجرحها جرحا عظيما على عاتقها (٦) .

---

(١) اخرجه البخارى كتاب فضائل الصحابة باب ذكر طلحة بن عبيد الله ...، فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٧ / ٨٢ .

(٢) اخرجه البخارى كتاب المغازى باب اذا همت طائفتان منكم ان تفشلا ... فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٣٥٨/٧ .

(٣) اخرجه البخارى بنفس الكتاب والباب فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٣٦١/٧ .

(٤) انظر جوامع السيرة ١٣٠ .

(٥) الدرر في اختصار المغازى والسير ١٦٣ ، وانظر صحيح البخارى كتاب المغازى باب غزوة احد فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٣٥٥/٧ .

(٦) انظر الدرر ١٦٢ وانظر عيون الاثر ١٣/٢ ـ ١٤ .

وفي غزوة حنين ثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانه لا يبرح ، ولم يكتف صلى الله عليه وسلم بذلك ، بل اخذ يخبر الناس عن مكانه وينوه باسمه ، وثبت حوله بعض الصحابة ، وبشجاعته صلى الله عليه وسلم وثباته وثبات من حوله ، حول الفرار الى ثبات ، والهزيمة الى نصر وسأترك شاهد عيان يصف لنا ما حدث وهو العباس رضي الله عنه قال : ـ

(شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين فلزمت انا وابو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم نفارقه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلة له بيضاء اهداها له فروة بن نفاثة الجذامي ، فلما التقى المسلمون والكفار ولى المسلمون مدبرين ، فطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم يركض ببغلته قبل الكفار ، قال عباس وانا آخذ بلجام بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم اكفها ارادة ان لا تسرع ، وابو سفيان آخذ بركاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اى عباس ناد اصحاب السمرة (١) ، فقال عباس وكان رجلا صيتا ، فقلت باعلى صوتي : اين اصحاب السمرة ، قال : فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على اولادها ، فقالوا : يا لبيك يا لبيك ، قال : فاقتتلوا والكفار والدعوة في الانصار يقولون : يا معشر الانصار يا معشر الانصار ، قال : ثم قصرت الدعوة على بني الحارث بن الخزرج ، فقالوا : يا بني الحارث ابن الخزرج يا بني الحارث بن الخزرج ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على بغلته كالمتطاول عليها الى قتالهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذا حين حمي الوطيس ..)(٢) .

---

(١) هي الشجرة التي بايعوا تحتها بيعة الرضوان ، صحيح مسلم بشرح النووى ١٢ / ١١٥ .

(٢) صحيح مسلم كتاب الجهاد والسير باب في غزوة حنين ٣ / ١٣٩٨ ـ ١٣٩٩ .

وهكذا لم يثبت المشركون رغم كثرتهم امام شجاعة اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فولوا مدبرين فهزمهم الله عز وجل وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم غنائمهم بين المسلمين (١) .

وهكذا انتصر المسلمون في غزوة احد وحنين بعد الهزيمة فيهما بفضل ثبات وشجاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم والقلة المؤمنة التي ثبتت معه .

بهذه الروح المعنوية العالية والشجاعة وعشق الشهادة والاستهانة بالعدو وعدم الخوف منه انتصر المسلمون في معاركهم وفتحوا البلاد شرقا وغربا وسيطروا على ملك اعظم امبراطوريتين وجدتا في عهدهم ، وتلاحقت الانتصارات تلو الانتصارات في تاريخ الاسلام المشرق ما دام المسلمون معتصمين بكتاب الله وسنة رسوله يقبلون على الموت بشجاعة وحماس حبا في الجنة وطلبا لرضى الله عز وجل .

ولو اردت استقصاء اخبار شجاعة جنود الاسلام في معاركهم الطويلة الحاسمة فانه سيطول بي المقام ، ولكني سأكتفي بذكر اثر الشجاعة في حسم معركة القادسية وانتصار المسلمين فيها بفضل شجاعتهم واقبالهم على الموت ، ومن اكثر الصور اشراقا ووضاءة شجاعة ابي محجن الثقفي رضي الله عنه ، فقد اخرج عبد الرزاق عن بن سيرين قال :(كان ابو محجن الثقفي رضي الله عنه لا يزال يجلد في الخمر ، فلما اكثر عليهم سجنوه واوثقوه ، فلما كان يوم القادسية رآهم يقتتلون ، فكأنه رأى ان المشركين قد اصابوا من المسلمين فارسل الى ام ولد سعد او امرأة سعد يقول لها : ان ابا محجن يقول لك : ان خليت سبيله وحملته على هذا الفرس ودفعت اليه سلاحا ، ليكونن اول من يرجع اليك الا ان يقتل ، وانشأ يقول :

---

(١) صحيح مسلم كتاب الجهاد والسير باب في غزوة حنين ٣/ ١٤٠٢ .

كفي حزنا ان تلتقي الخيل بالقنا　　　واترك مشدودا علي وثاقيا
اذا قمت عناني الحديد وغلقت　　　مصارع دوني قد تصم المناديا ٠

فذهبت الاخرى فقالت ذلك لامرأة سعد ، فحلت عنه قيوده وحمل على فرس كان في الدار واعطي سلاحا ، ثم خرج يركض حتى لحق بالقوم ، فجعل لا يزال يحمل على رجل فيقتله ويدق صلبه ، فنظر اليه سعد فجعل يتعجب منه ويقول : من ذلك الفارس؟ فلم يلبثوا الا يسيرا حتى هزمهم الله ، ورجع ابو محجن رضي الله عنه ورد السلاح وجعل رجليه في القيود كما كان ٠

فجاء سعد رضي الله عنه فقالت له امرأته او ام ولده : كيف كان قتالكم ؟ فجعل يخبرها ويقول : لقينا ولقينا حتى بعث الله رجلا على فرس ابلق لولا اني تركت ابا محجن في القيود لظننت انها بعض شمائل ابي محجن ، فقالت : والله انه لابو محجن كان من امره كذا وكذا ٠٠٠)(١) ٠

ومن الصور المشرقة يومها شجاعة عمرو بن معدي كرب الزبيري رضي الله عنه ، فقد اخرج بن ابي شيبة وغيره بسند صحيح عن قيس بن ابي حازم رضي الله عنه قال : (شهدت القادسية فكان سعد رضي الله عنه على الناس ، فجعل عمرو بن معدي كرب يمر على الصفوف ويقول : يا معشر المهاجرين كونوا اسودا اشداء ، فان الفارس اذا القى رمحه يئس ، فرماه اسوار(٢) من الاساورة بنشابة فاصاب سية قوسه (٣) ، فحمل عليه عمرو فطعنه فدق صلبه ونزل اليه فاخذ سلبه)(٤) ٠

---

(١) الاستيعاب في معرفة الاصحاب ١٧٤٨/٤ وسنده صحيح ، كما في الاصابة في تمييز الصحابة ١٧٤/٤ ، وانظر مصنف ابن ابي شيبة ٥٨٨/١٢ ٠
(٢) الاسوار : والاسوار الواحد من اساورة الفرس قال ابو عبيدة هم الفرسان الصحاح ٦٩١/٢ ٠
(٣) سية القوس : ما عطف من طرفيها ٠ الصحاح ٦/ ٢٣٨٧ ٠
(٤) الاصابة ١٩/٣ وانظر مصنف ابن ابي شيبة ١٢ / ٥٦١ ٠

وكان عمرو بن معدى كرب يعد بالف رجل لشجاعته وقوة بـأسه ، فقد كتب عمر الى سعد رضي الله عنهما : (اني امددتك بالفي رجل : عمرو بن معدى كرب وطليحة بن خويلد (١) .

وقال سعد بن ابي وقاص واصفا المؤمنين الذين قاتلوا وانتصروا على الفرس :(ـ... وهم اساد الناس لا يشبههم الاسود)(٢) .

(١) الاصابة ١٩/٣ وانظر في شجاعة الصحابة رضوان الله عليهم اجمعين ، حياة الصحابة للعلامة الشيخ محمد بن يوسف الكاندهلوى ٥٤٠/١ ـ ٥٧٤ .
(٢) تاريخ الطبرى ٣/ ٥٨٣ .

ب ـ الأسباب المادية للنصر :ـ

النصر الذى ينزله الله على عباده المؤمنين هو منحة لهم من ربهم اذا قاموا باتخاذ الاسباب التي امرهم الله بها سواء كانت معنوية او مادية ٠ واذا كانت الاسباب المعنوية هي الاهم والاكثر حسما للمعركة ، فان الاسباب المادية مكملة لها ولا يتم نصر بدونها ٠

وقد امر الله سبحانه وتعالى المؤمنين بان يعدوا كل قوة يستطيعونها فقال عز من قائل : (واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم) (١) وان الرسول صلى الله عليه وسلم بافعاله واقواله كان يعد لأعدائه العدة ويبذل ما في وسعه من طاقة وجهد من اجل الاستعداد للقتال ٠

اولا الانفاق : واذا كان المال هو عصب الحياة في جميع مناحيها ، والذى لا غنى عنه في سلم ولا حرب ٠ وبدونه لا يمكن للأمة ان تقف امام اعدائها وتحاربهم (٢) ، فان توفير المال عنصر مهم في توطيد النفس وقوة العزيمة عند لقاء العدو ، لأن المقاتل يكون واثقا بأن معه ما يكفيه (٣) ، ثم ان المال ضرورى لتوفير عتاد المعركة من سلاح وذخيرة ومراكب وكل ما يلزم المقاتل من نفقات للقتال ، وهو كذلك ضرورى لأسر المجاهدين الذين يخرجون للقتال في سبيل الله ٠

ومن ثم كان انفاق المال في سبيل الله هو شطر الجهاد الاول الذى بدونه لا قيام للشطر الثاني الذى هو القتال (٤) ، ولقد قرن الله سبحانه وتعالى امره وحثه للمؤمنين وترغيبهم في الجهاد وترهيبهم من تركه ببذل

---

(١) ٦٠ : الانفال
(٢) انظر المدرسة العسكرية الاسلامية ٢٩٧ وانظر الجهاد طريق النصر ١٨٣
(٣) الجهاد في الاسلام ٩٠ صالح اللحيدان
(٤) القتال في الاسلام ١٤٠

المال والنفس في سبيله فلا جهاد الا بهما معا ، فقال تعالى :(..وجاهدوا باموالكم وانفسكم في سبيل الله ...(١) ، وقال تعالى :(يا ايها الذين آمنوا هل ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم ، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله باموالكم وانفسكم ...(٢) وقال ايضا : (ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم واموالهم بان لهم الجنة)(٣) ، وغير ذلك كثير في كتاب الله .

ولاهمية المال في القتال فان الاسلام لم يترك الانفاق في سبيل الله لاحسان المحسنين وصدقات المتصدقين فقط ، وانما نظم له موارد كثيرة تنظيما ثابتا منها (٤) : ـ

١ ـ سهم ثابت من اسهم فريضة الزكاة يقدر بالثمن فيها ، يقول تعالى :(انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم)(٥)

قال القرطبي :(وفي سبيل الله) : (هم الغزاة وموضع الرباط يعطون ما ينفقون في غزوهم اغنياء كانوا او فقراء ، وهذا قول اكثر العلماء)(٦) .
وقال محمد بن عبد الحكم :(ويعطى من الصدقة في الكراع والسلاح وما يحتاج اليه من آلات الحرب وكف العدو عن الحوزة لأنه كله في سبيل الغزو والمنفعة) (٧) ، ونهب بعض العلماء الى ان الغزو من جملة سبيل الله ولكن الأمام ابن العربي فند هذا القول وأبطله (٨)

---

(١) ٤١ : التوبة
(٢) ١٠ ـ ١١ : الصف
(٣) ١١١ : التوبة
(٤) القتال في الاسلام ١٤٣
(٥) ٦٠ : التوبة
(٦) تفسير القرطبي ٤ / ٣٠٢٤
(٧) المصدر السابق ٤ / ٣٠٢٥
(٨) انظر احكام القرآن لابن العربي ٢ / ٩٦٩

٢ـ جزء من الغنائم والانفال التي يغنمها المسلمون في حربهم عنوة من الكفار ، يقول تعالى : (واعلموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ...) (١) واختلف العلماء في كيفية قسمة الخمس الذى ياخذه الامام بعد ان يعطي المجاهدين اربعة اخماس ما غنموه الى اقوال ،منها قول الامام مالك : انه موكول الى نظر الامام واجتهاده باجتهاد ، فيأخذ منه بغير تقدير ويعطي منه الغزاة ويصرف الباقي في مصالح المسلمين (٢) ،وقال القرطبي : وبه قال الخلفاء الاربعة وبه عملوا وعليه يدل قوله صلى الله عليه وسلم : (ما لي مما افاء الله عليكم الا الخمس والخمس مردود عليكم) (٣) ، فانه لم يقسمه اخماسا ولا اثلاثا وانما ذكر في الاية من ذكر على وجه التنبيه عليهم لأنهم من اهم من يدفع اليهم) (٤) . وقال العلماء : وجائز باجماع ان ينفق في غير هذه الاصناف اذا راى ذلك (٥) ، فاذا كان الجيش بحاجة الى المال فان للامام ان ياخذ ما شاء من هذا الخمس وينفقه عليه .

٣ـ الفيء : وهو المال الذى ياخذه المسلمون من الكفار بغير حرب (٦)

---

(١) ٤١ : الانفال
(٢) فتح القدير ٢ / ٣١٠
(٣) اخرجه البيهقي كتاب قسم الفيء والغنيمة باب بيان مصرف خمس الخمس ٦ / ٣٠٣ عن عبادة بن الصامت قال : اخذ النبي صلى الله عليه وسلم يوم حنين وبرة من جنب بعير ، فقال : (ايها الناس انه لا يحل لي مما افاء الله عليكم قدر هذه الا الخمس والخمس مردود عليكم) واخرجه ابن حبان في صحيحه ٧ / ١٧٢ ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ٦ / ١٨٨ رواه احمد ورجال احمد اسانيده ثقات
(٤) تفسير القرطبي ٤ / ٢٨٥٠
(٥) انظر فتح القدير ٢ / ٣١٠ وانظر تفسير القرطبي ٤ / ٢٨٥٠
(٦) انظر ابن كثير ٤ / ٣٣٥

يقول تعالى : (وما افاء الله على رسوله منهم فما اوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير) (١) ، ثم بين سبحانه حكم هذا الفيء فقال : (ما افاء الله على رسوله من اهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم...) (٢) ، قال المفسرون : طلب المسلمون من رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يخمس اموال بني النضير لما اجلوا ، فنزلت هذه الاية تبين انه فيء لم يحصل لهم بمحاربتهم ، وانما هو بتسليط رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو له خاصة يفعل فيه ما يشاء ، فيصرفه الرسول صلى الله عليه وسلم (والامام من بعده) في مصالح المسلمين . (٣)

وعلى الامام ان يبتدئ في القسمة بالأهم فالمهم من مصالح المسلمين كاعطاء من يحصل للمسلمين به منفعة عامة . فمنهم المقاتلة : الذين هم اهل النصرة والجهاد ، وهم احق الناس بالفيء فانه لا يحصل الا بهم ؛ حتى اختلف الفقهاء في مال الفيء : هل هو مختص بهم ، او مشترك في جميع المصالح ؟ . (٤)

٤- جزء من مال الجزية الذى يؤخذ من الكفار لاقامتهم بدار الاسلام (٥) ، وحكم مال الجزية انه يوضع في بيت مال المسلمين ويتصرف فيه الامام لمصلحة المسلمين

ولا شك ان ما قدمناه عن مال الفيء من انه يصرف في المصالح العامة ، وان الاولى ان يصرف في الجهاد فان ذلك ينطبق على الجزية ايضا . (٦)

---

(١) ٦ : الحشر
(٢) ٧ : الحشر
(٣) زاد المسير ٨ / ٢٠٩ (٤) السياسة الشرعية ٥٥
(٥) المغني والشرح الكبير ١٠ / ٥٦٧
(٦) انظر السياسة الشرعية ٤٥

٥ ـ الاموال الاضافية التي يأخذها الامام من الرعية لتجهيز الجيش بما يحتاجه ، اذا احتيج الى ذلك ولم يكن في بيت مال المسلمين ما يفي بالحاجة (١) ،

وعلى كل فان للامام ان يصرف من بيت مال المسلمين على المجاهدين وما يحتاجونه من ذخيرة وعتاد ومرابطة بالقدر الذى يكفيهم ويرهب اعداءهم .

وفضلا عن ذلك فان نفوس المسلمين مهيأة بدعوة القرآن الكريم واحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم الى انفاق اموالهم في سبيل الله طوعا وطمعا في رضى الله وطلبا لمغفرته وجنته . والايات والأحاديث التي جاءت ترغب المؤمنين في الانفاق في سبيل الله كثيرة منها :ـ

قوله تعالى : (وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف اليكم وانتم لا تظلمون ..) (٢) ، ولما كان اعداد العدة يقتضي اموالا ، وكان النظام الاسلامي كله يقوم على اساس التكافل فقد اقترنت الدعوة الى الجهاد بالدعوة الى انفاق المال في سبيل الله (٣) ، ثم بين سبحانه وتعالى جزاء المنفقين وانه يوفي اليهم جزاءهم في الاخرة فالحسنة بعشرة امثالها الى سبعمائة ضعف الى اضعاف كثيرة ولا يظلمون فينقص من اجرهم وثوابهم شيئا بل يأخذونه كاملا غير ناقص (٤) (... وان تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه اجرا عظيما) (٥) ، ويقول تعالى : (مثل الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم) (٦) ، (يعني به الانفاق في الجهاد من

---

(١) انظر القتال في الاسلام ١٤٣
(٢) ٦٠ : الأنفال
(٣) في ظلال القرآن ٣ / ١٥٤٢
(٤) انظر فتح القدير ٢ / ٣٢١
(٥) ٤٠ : النساء
(٦) ٢٦١ : البقرة

رباط الخيل واعداد السلاح وغير ذلك ... ثم بين جزاءهم ، فقال : (كمثل حبة ...) الاية ، وهذا المثل ابلغ في النفوس من ذكر عدد السبعمائة ، فان هذا فيه اشارة الى ان الاعمال الصالحة ينميها الله عز وجل لأصحابها كما ينمي الزرع لمن بذره في الارض الطيبة) (١)

ثم بين سبحانه وتعالى الى ان ترك النفقة في سبيل الله سبب في الهلاك ، يقول تعالى : (وانفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة واحسنوا ان الله يحب المحسنين) (٢) ، واخرج البخارى عن حذيفة : (وانفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بايديكم الى التهلكة) نزلت في النفقة (٣) . وروى ذلك عن ابن عباس ايضا ، وعن ابن جبير قال: كانت الانصار يتصدقون وينفقون من اموالهم ، فاصابتهم سنة فامسكوا عن النفقة في سبيل الله ، فنزلت الاية ، وقال الحسن البصرى ايضا : هو البخل ، ومضمون الاية الامر بالانفاق في سبيل الله في سائر وجوه القربات ووجوه الطاعات ، وخاصة صرف الاموال في قتال الاعداء وبذلها فيما يقوى به المسلمون على عدوهم ، والاخبار عن ترك فعل ذلك بانه هلاك ودمار لمن لزمه واعتاده ، ثم عطف الامر بالاحسان وهو اعلى مقامات الطاعة فقال : (ان الله يحب المحسنين) (٤)

وفضل الله سبحانه وتعالى المؤمنين الذين انفقوا اموالهم قبل الفتح على من انفقها بعده ، قال تعالى : (وما لكم الا تنفقوا في سبيل الله ولله ميراث السموات والارض لا يستوى منكم من انفق من قبل الفتح وقاتل اولئك اعظم درجة من الذين انفقوا من بعد وقاتلوا وكلا

---

(١) تفسير ابن كثير ١ / ٣١٦
(٢) ١٩٥ : البقرة
(٣) اخرجه البخارى كتاب التفسير باب وانفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بايديكم الى التهلكة فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٨ / ١٨٥
(٤) تفسير ابن كثير ١ / ٢٢٩

وعد الله الحسنى ٠٠٠) (١) فالمؤمنون يتفاضلون في الدنيا والاخرة بقدر جهادهم وانفاقهم في سبيل الله ، والسبق فيه ٠

ومن الاحاديث التي رغبت في انفاق المال في سبيل الله قوله عليه الصلاة والسلام :(من جهز غازيا في سبيل الله فقد غزا ومن خلف غازيا في اهله بخير فقد غزا) (٢) ، وقال عليه الصلاة والسلام :(من احتبس فرسا في سبيل الله ايمانا بالله وتصديقا بوعده فان شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة) (٣)

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : (جاء رجل الى الرسول صلى الله عليه وسلم بناقة مخطومة ، فقال : هذه في سبيل الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة) (٤)

وقوله صلى الله عليه وسلم : (افضل الصدقات فسطاط في سبيل الله ومنحة خادم في سبيل الله او طروقة فحل في سبيل الله) (٥)

ولقد ضرب الرعيل الاول من سلف هذه الامة اروع الامثلة في الانفاق في سبيل الله فايدهم الله بنصره الذى وعدهم اياه حيث قال تعالى :

(يا ايها الذين امنوا هل ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم

---

(١) ١٠ : الحديد

(٢) متفق عليه اخرجه البخارى كتاب الجهاد باب فضل من جهز غازيا او خلفه بخير فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٦ / ٤٩ واخرجه مسلم كتاب الامارة باب فضل اعانة الغازى في سبيل الله بمركوب وغيره ١٥٠٦/٣ ـ ١٥٠٧

(٣) اخرجه البخارى كتاب الجهاد باب من احتبس فرسا في سبيل الله فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٦ / ٥٧

(٤) اخرجه مسلم كتاب الامارة باب فضل الصدقة في سبيل الله وتضعيفها ٣ / ١٥٠٥

(٥) اخرجه الترمذى كتاب فضائل الجهاد باب ما جاء في فضل الخدمة في سبيل الله وقال الترمذى : هذا حديث صحيح غريب ، وقال محقق جامع الاصول اسناده حسن ٩ / ٤٩٣

تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله باموالكم وانفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون · يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الانهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم ، واخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين) (١) ·

ومن هذه الامثلة ما فعله ابو الدحداح الانصارى ، فعن ابن مسعود رضي الله عنه لما نزلت (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له ...) (٢) ، قال ابو الدحداح يا رسول الله : أن الله يريد منا القرض قال نعم يا ابا الدحداح ، قال : ارنا يدك فناوله يده ، قال : قد اقرضت ربي حائطي وحائطه فيه ستمائة نخلة ، فجاء يمشي حتى اتى الحائط وام الدحداح فيه وعيالها ، فنادى : يا ام الدحداح قالت لبيك قال : اخرجي فقد اقرضته ربي)· (٣)

ومن ذلك ما اخرجه الامام مسلم في صحيحه عن انس بن مالك رضي الله عنه : ان فتى من اسلم قال : يا رسول الله : اني اريد الغزو ، وليس معي ما اتجهز به قال ائت فلانا فانه كان قد تجهز فمرض ، فاتاه فقال : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤك السلام ويقول : اعطني الذى تجهزت به ، قال : يا فلانة اعطه الذى تجهزت به ولا تحبسي عنه شيئا فيبارك لك فيه) (٤)

وفي غزوة تبوك عندما ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين

---

(١) ١٠ ـ ١٣ : الصف

(٢) ٢٤٥ : البقرة

(٣) اخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٢٢ / ٣٠٠ وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد رواه ابو يعلى والطبراني ورجالهما ثقات ، ورجال ابي يعلى رجال الصحيح ٩ / ٣٢٤

(٤) اخرجه مسلم كتاب الامارة باب اعانة الغازى ٣ / ١٥٠٦

الى جهاد الروم ودعاهم الى الانفاق ورغبهم فيه ، فتسابق اصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الغني منهم والفقير الى الانفاق فجاء ابو بكر الصديق رضي الله عنه بجميع ماله ، ثم جاء عمر رضي الله عنه بنصف ماله .

فقد روى ابو داود في سننه عن زيد بن اسلم عن ابيه ، قال : سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : امرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما ان نتصدق فوافق ذلك مالا عندى فقلت : اليوم اسبق ابا بكر ان سبقته يوما ، فجئت بنصف مالي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما ابقيت لأهلك ؟ قلت : مثله ، قال : واتى ابو بكر رضي الله عنه بكل ما عنده ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما ابقيت لأهلك ؟ قال : ابقيت لهم الله ورسوله ، قلت : لا أسابقك الى شيء أبدا) (١)

وجهز عثمان بن عفان رضي الله عنه جيش العسرة ، فعن ابي عبد الرحمن (ان عثمان رضي الله عنه حيث حوصر اشرف عليهم وقال : انشدكم الله ، ولا انشد الا اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : ألستم تعلمون ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من جهز جيش العسرة فله الجنة فجهزته ؟ قال : فصدقوه ...) (٢)

واما فقراء المسلمين فقد قدموا ما يستطيعونه من مال استجابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحبا في طاعة الله ورغبة في نصر

---

(١) اخرجه ابو داود كتاب الزكاة باب في الرخصة في ذلك ، ٢ / ٣١٣ طبعة حمص واخرجه الترمذى كتاب المناقب باب في مناقب ابي بكر وعمر رضي الله عنهما كليهما ٥ / ٦١٥ طبعة مصطفى الحلبي .

(٢) اخرجه البخارى كتاب الوصايا باب اذا وقف ارضا او بئرا فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٥ / ٤٠٧

امتهم على اعدائها ، ولكن المنافقين لم يعجبهم موقف الأغنياء ولا الفقراء ، فاذا انفق الغني قالوا : انما انفقه رياء ، واذا انفق الفقير قالوا ان الله غني عما اتى به ، فقال تعالى موبخا لهم على قولهم هذا : (الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات ، والذين لا يجدون الا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب اليم)(١) .

واخرج الامام مسلم في صحيحه عن ابن مسعود قال : (امرنا بالصدقة ، قال : كنا نحامل في رواية : على ظهورنا قال : فنتصدق فجاء ابو عقيل بنصف صاع ، قال : وجاء انسان بشيء اكثر منه فقال المنافقون : ان الله لغني عن صدقة هذا ، وما فعل الآخر الا رياء فنزلت (الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون الا جهدهم) (٢) .

هذا هو سبيل النصر انفاق في سبيل الله وتضحية بالمال طلبا لجنة الله ورضوانه ثم طلبا لعزة الامة الاسلامية وانتصارها ، واما اذا بخل المسلمون عن الانفاق فانهم مهددون من ربهم بان يستبدل بهم قوما غيرهم ينصرون دين الله باموالهم كما قال تعالى :(ها انتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه والله الغني وانتم الفقراء ، وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا امثالكم)(٣) .

وبين سبحانه وتعالى مصير الذى يبخل بماله عن الانفاق ، وان بخله عائد الى نفسه ، و ضرر ذلك يعود اليه ، فالبخيل مهدد بتلف

---

(١) ٧٩ : التوبة

(٢) متفق عليه اخرجه البخارى كتاب التفسير باب الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٨ / ٣٣٠ ، ومسلم كتاب الزكاة باب الحمل اجرة يتصدق بها ، والنهي الشديد عن تنقيص المتصدق بقليل ٢ / ٧٠٦

(٣) ٣٨ : محمد

ماله كما جاء في الحديث : (ما من يوم يصبح العباد فيه الا ملكان ينزلان فيقول احدهما اللهم اعط منفقا خلفا ويقول الآخر اللهم اعط ممسكا تلفا) (١) ، ومهدد ايضا بعذاب الله يوم القيامة ، قال عليه الصلاة والسلام : (مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثديهما الى تراقيهما ، فاما المنفق فلا ينفق الا سبغت - او وفرت - على جلده حتى تخفي بنانه واثره ، واما البخيل فلا يريد ان ينفق شيئا الا لزقت كل حلقة مكانها ، فهو يوسعها ولا تتسع) (٢) .

وهو تمثيل لنماء الصدقة والانفاق والبخل بضد ذلك ، وقيل معنى يمحو اثره اى يذهب بخطاياه ويمحوها ، وقيل في البخيل قلصت ولزقت كل حلقة مكانها ، اى يحمى عليها يوم القيامة فيكوى بها . (٣)

واليوم والمسلمون يخوضون معارك شتى مع اعدائهم مدعوون للانفاق في سبيل الله حتى يحقق الله لهم النصر على اعدائهم ، واذا بخلوا عن ذلك وقصروا فيه ، فهم مهددون باحتلال اراضيهم وسبي ذراريهم وظهور الفساد في الارض ، ومهددون بان يستبدل الله بهم قوما غيرهم يحملون هذا الدين ويضحون في سبيل الله بكل غال ونفيس .

---

(١) متفق عليه اخرجه البخارى كتاب الزكاة باب قول الله (فاما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى ... الاية فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٣ / ٣٠٤ ومسلم كتاب الزكاة باب في المنفق والممسك ٢ / ٧٠٠

(٢) متفق عليه اخرجه البخارى كتاب الزكاة باب مثل المتصدق والبخيل ٣ / ٣٠٥ ، ومسلم كتاب الزكاة باب مثل المنفق والبخيل ٢ / ٧٠٨ - ٧٠٩

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى ٧ / ١٠٩

ثانيا ـ اعداد العدة والسلاح :

ومن القوة المادية التي امر الله المؤمنين بها اعداد جميع الاسلحة المعروفة ، وسبق الأمم في صناعة الاسلحة كي تكون عنصر مفاجأة ورعب لأعدائهم ، وهذا الاعداد داخل في قوله تعالى : (واعدوا لهم ما استطعتم من قوة) (١) .

والقوة المذكورة في الاية كما يقول الرازي : (والمراد بالقوة ههنا : ما يكون سببا للقوة ، وذكروا فيها وجوها : الاول المراد بالقوة انواع الاسلحة ، والثاني : وهو ما ورد أن الرسول صلى الله عليه وسلم فسرها بالرمي (الا ان القوة الرمي قالها ثلاثا) (٢) .

الثالث : قال بعضهم : هي الحصون .

الرابع : قول أصحاب المعاني : الاولى ان يقال : هذا عام في كل ما يتقوى به على حرب العدو ، وكل ما هو آلة للغزو والجهاد فهو من جملة القوة .

وقوله عليه الصلاة والسلام : (القوة هي الرمي) لا ينفي كون غير الرمي معتبرا كما ان قوله عليه الصلاة والسلام : (الحجة عرفة والندم توبة) (٣) لا ينفي اعتبار غيره بل يدل على ان هذا المذكور جزء شريف

---

(١) ٦٠ : الأنفال

(٢) اخرجه مسلم كتاب الامارة باب فضل الرمي والحث عليه وذم من علمه ثم نسيه ٣ / ١٥٢٢

(٣) هذا الحديث لم اعثر عليه مجتمعا وانما قول الحج عرفة اخرجه الترمذى كتاب الحج باب فيمن ادرك الامام بجمع فقد ادرك الحج ٣ / ٢٢٨ وقال هذا اجود حديث رواه سفيان الثورى والنسائي كتاب الحج باب فيمن لم يدرك صلاة الصبح مع الامام بمزدلفة ، واخرجه ابن ماجة كتاب المناسك باب من اتى عرفة قبل الفجر ليلة جمع ٢ / ١٠٠٣ ، واما قوله (الندم توبة) فقد اخرجه ابن ماجة كتاب الزهد باب ذكر التوبة ٢ / ١٤٢٠ واحمد ١ / ٣٧٦ ـ

من المقصود فكذا ههنا ، وهذه الاية تدل على ان الاستعداد للجهاد بالنبل والسلاح وتعليم الفروسية والرمي فريضة الا انه من فروض الكفايات) (١) .

وقال ابن كثير :(ثم امر تعالى باعداد آلات الحرب لمقاتلتهم حسب الطاقة (٢) فقال : وذكر الآية .

وقال ابو السعود : (من كل ما يتقوى به في الحرب كائنا ما كان ثم قال :ولعل تخصيص الرسول صلى الله عليه وسلم القوة بالرمي لأنافته على نظائره من القوى) (٣)

وتنكير كلمة قوة في الآية الكريمة جعلها تشمل جميع القوى في كل عصر ، وان هذا الشمول وهذا الخلود من مزايا القرآن الكريم ، فهو يأتي بالكلمة الواحدة تحسبها كثيرها من الكلمات ، فاذا تتابعت العصور وتطور الناس من حال الى حال وجدتها اوسع من هذه العصور ومن تلكم التطورات ، فكلمة القوة شملت ما عرفه الصحابة ايام الرسول صلى الله عليه وسلم من سيف ورمح ودرع ، وهي تشمل اليوم ما نعرفه من كل اسلحة متطورة .

وكلمة الرمي التي فسر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم القوة التي في الاية تنبيها لأهميتها ومكانتها ولأنها اداة حسم في المعركة تشمل الرمي بالسهام والنبل بالأمس وتشمل اليوم الرمي بالرصاصة او القنبلة او الصاروخ من البندقية او من المدفعية او من راجمات الصواريخ (٤)

---

(١) تفسير الرازى ١٥ / ١٩١ ـ ١٩٢
(٢) تفسير ابن كثير ٢ / ٣٢١
(٣) تفسير ابي السعود ٤ / ٣٢
(٤) انظر نظم الحرب في الاسلام ٦٠ ـ ٦١

(وقد كشف القرآن الكريم للمؤمنين عن منابع القوة وعناصرها وامرهم بالبحث عنها واستخدامها ، ومسايرة التقدم البشرى والسبق في الكشف والاختراع والسلطان وبين لهم انها في الحديد وما يستخرج منه من المصنوعات النافعة بواسطة النار التي هي اقوى منه ، كنتيجة للفكر والعمل ؛ واثبت لهم هذه الحقيقة حتى جعلها عقيدة لا قيام لدينهم ولا لدولتهم الا بها حيث اعلمهم انه انزل الحديد مع الكتاب اشارة الى ان القوة مع الحق ؛ ولا قيام له الا بها فقال تعالى : (... وانزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ان الله قوى عزيز) (١) ، فلا عزة اذن ولا قوة ولا منعة الا بالحديد والنار . وهذه سنة الله . (٢)

ولا زال الحديد منذ القديم الى هذا اليوم هو العنصر الأساسي في مختلف الصناعات ، سواء اكانت هذه الصناعات عسكرية مثل السيف والدرع والرمح قديما ، او البندقية والمدفع والطائرة حديثا ، واصول الحياة تقوم على الحديد ايضا وهي الزراعة والحياكة وبناء البيوت وكل هذه الأمور يدخل الحديد فيها ، كما هو ظاهر ، واما الحكم والتمكين فلا يتم ولا يكمل الا بالحديد ، ومن هنا يظهر ان اكثر مصالح العالم لا تتم الا بالحديد . (٣)

وقوله تعالى : (ليقوم الناس بالقسط) فيه دلالة على انه تعالى انزل الميزان والحديد ، ومراده من العباد ان يقوموا بالقسط وان ينصروا الرسول . (٤)

---

(١) ٢٥ : الحديد
(٢) انظر فتح القدير ٥ / ١٧٨ وتفسير ابن كثير ٤ / ٣١٥
(٣) انظر تفسير الرازى ٢٩ / ٢٤٣ وانظر نظم الحرب في الاسلام ٦١
(٤) انظر تفسير الرازى ٢٩ / ٢٤٤

وقوله : (ليعلم الله من ينصره ورسله) عطف على محذوف يدل عليه ما قبله فانه حال متضمنة للتعليل كأنه قيل ليستعملوه ، وليعلم الله علما يتعلق به الجزاء من ينصره ورسله باستعمال سائر الاسلحة في مجاهدة اعدائه . (١)

ويقول ابن تيمية : (فالمقصود ان يكون الدين كله لله ، وان تكون كلمة الله هي العليا ، وكلمة الله : اسم جامع لكلماته التي تضمنها كتابه ، وهكذا قال تعالى (لقد ارسلنا رسلنا بالبينات ...) الاية ، فالمقصود من ارسال الرسل ، وانزال الكتب ان يقوم الناس بالقسط في حقوق الله ، وحقوق خلقه ثم قال تعالى : (وانزلنا الحديد ...) الآية ، فمن عدل عن الايات قوّم بالحديد ؛ ولهذا كان قوام الدين بالمصحف والسيف) (٢)

وفي كل هذا اشارة الى ما في الحديد من قوة لشد عضد المسلمين في التمسك بحقهم والمحافظة عليه ، ولنتأمل قوله تعالى (ولقد ارسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا الحديد ...) وكيف زاوج بين الكتاب والميزان والحديد في انه انزل الجميع في آن واحد ، وكيف خلع على الحديد الذى به قوام الميزان وحفظ القسط هذين الوصفين البأس الشديد والنفع العظيم ... ثم نتأمل بعد ذلك قوله تعالى : (وليعلم الله من ينصره ..) لنعلم ان نصر الله معقود لمن سخر الحديد والقوة والبأس .(٣)

وقد قص القرآن الكريم علينا كيف ان انبياء الله والمؤمنين السابقين استفادوا من الحديد وغيره من المعادن في صناعة الاسلحة ليكون في ذلك عبرة لنا نسير على هديهم ونقتدى بهم لكى نحمي عقيدتنا

---

(١) تفسير ابي السعود ٨ / ٢١٢
(٢) مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية ٢٨ / ٢٦٣ ـ ٢٦٤
(٣) الاسلام والعلاقات الدولية ٩ ، ٤٩

وننشر اسلامنا فقال تعالى : (ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال اوبي معه والطير ، وألنّا له الحديد ، ان اعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحا اني بما تعملون بصير ، ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر واسلنا له عين القطر ، ومن الجن من يعمل بين يديه باذن ربه ومن يزغ منهم عن امرنا نذقه من عذاب السعير ، يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادى الشكور). (١)

قال القرطبي : (وهذه الاية أصل في اتخاذ الصنائع والاسباب وهو قول اهل العقول والالباب ، لا قول الجهلة والاغبياء القائلين بان ذلك انما شرع للضعفاء ، فالسبب سنة الله في خلقه ، فمن طعن في ذلك فقد طعن في الكتاب والسنة ، وقد اخبرنا الله تعالى عن نبيه داود انه كان يصنع الدروع ، والصنعة يكف الانسان نفسه عن الناس ويدفع بها عن نفسه الضرر والبأس). (٢)

والدروع التي كان يصنعها داود عليه السلام كانت في غاية الاتقان لأن الله عز وجل ألان له الحديد فاصبح في يديه كالشمع ، وكذلك علمه كيفية صناعتها فقال له : (وقدر في السرد) فهو امره بصناعة الدروع الواسعة الضافية وكانت قبله صفائح ، وامره بالاقتصاد في نسجها بحيث تتناسب حلقاتها (٣) ، قال قتادة : (كانت الدروع قبله صفائح فكانت ثقالا فلذلك امره بالتقدير فيما يجمع بين الخفة والحصانة ، وقال ابن زيد : التقدير الذى امر به في قدر الحلقة اى لا تعملها صغيرة فتضعف فلا تقوى الدروع على الدفاع ، ولا تعملها كبيرة

(١) ١٠ ـ ١٣ : سبأ
(٢) تفسير القرطبي ٥ / ٤٣٦١
(٣) تفسير ابي السعود ٧ / ١٢٤

فيـنال لابسـهـا) (١)

وهذا ارشـاد دقيق لكيفية صـناعة الدروع بحـيث تجـمع بيـن القوة والمنعـة والخـفة والاتقـان ، وهذا تعليـم الله لنبيـه داود ، وهـو تعليم للمسلمين ايضا ، ولا شك ان هذه الصفات هي الصفات اللازمـة في كل سلاح وفي كـل زمـان ٠

وقد علم الله عز وجل نبيه داود صـناعة اسلحـة اخـرى غير صناعة الدروع ، كما قال تعالى : (وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصـنكم مـن بـأسكم ٠ فهل انتم شـاكـرون) واللبوس عند العرب السلاح كله درعـا كان او جوشنا او سيـفا او رمحـا) (٢)

وقد من الله على نبيـه سـليمان بأن أسـال لـه عين القطـر ، والقطر هو النحـاس وكان يتخـذ منه صـناعات كثيرة من محـاريب وهي القصور الحصينة سميت بذلك لأنهـا يذب عنهـا ويحـارب عليهـا والتماثيل وهي الصـور وكانت مباحـة في شـرعهـم وجفان كالجـواب اى قصـع كـبيرة كالأحـواض وقدور راسيات ثابتات على الأثافي لا تنـزل لعظـمهـا ٠ (٣)

واشار القرآن الكـريم ايضا الى السفن وصـناعتهـا واستغلال البحـار فقال : (فاوحـينا اليه ان اصنع الفلك بـأعيننا ووحـينا ٠٠٠) (٤) ، واشار ايضا الى استغلال قوة الريـح فقال : (ولسليمان الريح عاصـفـة تجـرى بامره الى الارض التي باركنا فيهـا وكنا بكل شيء عالمين)(٥)

وقد نبـه الله تعالى الى استخـدام الحـديد والنار في قصة ذي

---

(١) تفسـير القرطبي ٦ / ٥٣٤٩

(٢) المصـدر السابق ٥ / ٤٣٦٠ ، الآيـة ٨٠ : الانبياء

(٣) انظـر تفسـير ابي السعود ٧ / ١٢٥ ـ ١٢٦ وانظر تفسير المراغي ٦٥/٢٢

(٤) ٢٧ : المـؤمنـون

(٥) ٨١ : الأنـبيـاء

القرنين : (قالوا يا ذا القرنين ان يأجوج ومأجوج مفسدون في الارض فهل نجعل لك خرجا على ان تجعل بيننا وبينهم سدا .... ، آتوني زبر الحديد ، حتى اذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى اذا جعله نارا قال اتوني افرغ عليه قطرا ، فما اسطاعوا ان يظهروه وما استطاعوا له نقبا)(١) .

ومن هذه القصص التي بينها الله لنا في كتابه ما يفيدنا ونخلص الى ما يلي :-

١- ان الصناعات انما تكون بهمم الرجال الصالحين وعقولهم ، وقوة العاملين معهم من الجنود الصادقين .

٢- ان الارض اسرارها كثيرة فعلى المسلمين فك اسرار هذا الكون وتسخيره في خدمة الاسلام والمسلمين ، وان العزلة عن الكون وعلومه جريمة في حق الاسلام واهله .

٣- عدم الاكتفاء بالموروثات القديمة والعلوم السابقة والسعي الى كشف الجديد واختراع الحديث .

٤- استخدام وتسخير العلوم الطبيعية من كيمياء وفيزياء ورياضيات وهندسة في صناعة الاسلحة والقلاع والتحصينات .

٥- ان يكون الهدف من كل ذلك خدمة الاسلام ورفع رايته (٢) .

٦- لعل في كل ما قدمنا ما يدفع المسلمين اليوم الى التعاون في انشاء كافة الصناعات وخاصة الحربية ، لكي نستغني عن الغرب الكافر والشرق الملحد ، ولكي نملك حريتنا وقرارنا لا ان يعطونا من السلاح ما هو للدفاع فقط !! ويعطوا اعداءنا السلاح الهجومي حتى نبقى في ذل وخنوع !! (٣) .

---

(١) ٩٤ ـ ٩٧ : الكهف .
(٢) انظر القتال في الاسلام أحمد نار ٩٥ـ٩٦ وانظر مشكلات في طريق الحياة الاسلامية محمد الغزالي ٣٤ ـ ٤٠ .
(٣) تفسير القران الكريم شلتوت ٧٤٧ .

ومن وحي القصص القرآني والتوجيه الرباني ، فقد اهتم المسلمون بهذا الجانب من القوة وهو السلاح اهتماما كبيرا واعطوه كل عناية وبذلوا كل جنهد في سبيل اعداده وتوفيره بالجودة والقدر الذى تتطلبه احتياجات المعركة .

وقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلف هذه الامة المثل الاعلى في حرصهم على تأمين السلاح وصناعته والتفوق على اعدائهم فيه ، وبذلوا غاية ما يستطيعون في الاعداد .

فمن هديه صلى الله عليه وسلم ، ان جعل صناعة الاسلحة ومنها السهام سببا في دخول الجنة ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : (ان الله ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة ، صانعه يحتسب في عمله الخير والرامي به ، والممد به وفي رواية منبله ...)(١) ، فجعل صانع السلاح والمجاهد في سبيل الله في المعركة سواء في الاجر !.

وجعل اقتناء الخيل والابل سببا في ثواب الله الجزيل فقال عليه الصلاة والسلام مبينا اهمية الخيل :(الخيل معقود في نواصيها الخير الى يوم القيامة الاجر والمغنم)(٢) ، وجعل ثواب من احتسب فرسا في سبيل الله ان جعل شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة !! (٣) ، وجعل الانفاق القليل في عدة الحرب سببا في مضاعفة الاجر فجعل الناقة المخطومة الواحدة بسبعمائة ناقة يوم القيامة !! (٤) .

---

(١) رواه ابو داود كتاب الجهاد باب الرمي رقم ٢٥١٣ ، والترمذى فضائل الجهاد باب ما جاء في فضل الرمي في سبيل الله تعالى رقم ١٦٣٧ والنسائي كتاب الجهاد باب ثواب من رمى بسهم في سبيل الله تعالى ٢٨/٦ وقال الترمذى حديث حسن .

(٢) متفق عليه اخرجه البخارى كتاب الجهاد باب الخيل معقود في نواصيها الخير الى يوم القيامة فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٥٤/٦ ، ومسلم كتاب الامارة باب الخيل في نواصيها الخير الي يوم القيامة ١٤٩٢/٣ واللفظ له

(٣) سبق ذكر هذا الحديث عند الحديث عن الانفاق .

(٤) سبق ذكره في الموضع السابق .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حريصا على تأمين السلاح الجيد لصحابته فيشجعهم على صناعته ويبعث البعثات العلمية للتمرس على صناعة الاسلحة ، فقد ذكر ابن سعد وابن هشام ان عروة بن مسعود وغيلان بن سلمة لم يحضرا لحصار الطائف اذ كانا بجرش يتعلمان صنع العرادات والمنجنيق والدبابات والضبور (١) ، واذا لم تكف الصناعة المحلية فانهم كانوا يبحثون عن السلاح الجيد ويستجلبونه من اى بلد يشتهر بصناعته ، ويشترونه وقد خصص رسول الله صلى الله عليه وسلم جزءا من مال بني النضير في تأمين السلاح سواء كان صناعة او شراءا .

فقد اخرج البخارى عن عمر رضي الله عنه : (كانت اموال بني النضير مما افاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم مما لا يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب فكانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة وكان ينفق على اهله نفقة سنته ، ثم يجعل ما بقي في السلاح والكراع عدة فى سبيل الله) (٢)

ولقد كانت اسلحة المسلمين في عهد النبوة السيف وهو اشهرها واكثرها استخداما ، ومن اسلحة الحرب الهجومية الرمح ، وقد كان المسلمون يتميزون باستخدامه ، ومن اسلحة الهجوم ايضا القوس ، وقد كان المسلمون متفوقين في استخدامه نظرا لحدة ابصارهم ، ومن الاسلحة الثقيلة التي استخدمها المسلمون في هجومهم خلال الحصار المنجنيق والذى استخدمه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الطائف ، قال ابن هشام : (ورماهم رسول الله بالمنجنيق ، وان رسول الله اول من

---

(١) انظر الدرر في اختصار المغازى والسير ٢٣٣

(٢) متفق عليه اخرجه البخارى كتاب الجهاد باب المجن ومن يترس بترس صاحبه فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٦ / ٩٣ واللفظ له ومسلم كتاب الجهاد والسير باب حكم الفيء ٣ / ١٣٧٦ ـ ١٣٧٧

رمى في الاسلام بالمنجنيق اذ رمى اهل الطائف) (١) ، وكذلك استخدموا الدبابة ، قال ابن اسحق : (حتى اذا كان يوم الشدخة عند جدار الطائف دخل نفر من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت دبابة ، ثم زحفوا الى جدار الطائف ليحرقوه) (٢)

ومن الاسلحة التي استخدموها الكبش وهو كالدبابة ولكن له رأس يتحصن الرجال في داخله ويستخدمونه في هدم الأسوار ، فرأس الكبش مركب به عمود غليظ معلق بحبال تجرى على بكر ويتعاون الرجال في داخل الكبش بدفع العمود في الاسوار حتى تتهدم ٠

وقد طور المسلمون القوس ، فقد صنع المسلمون آلات مركبة كالمجراة وهي عبارة عن انبوب من حديد او خشب فيه شق يوضع السهم فيه ويقذف قذفا شديدا ، وهذه صورة لبندقية اليوم ٠

وقد استخدم المسلمون فيما بعد النار اليونانية التي اقتبسوها منهم والتي يقذفونها من اسطوانة نحاسية مستطيلة ٠

هذه هي اسلحة الهجوم ، واما اسلحة الدفاع فكان منها الدروع وكانت كثيرة الأنواع ، منها ما هو من الحديد او الفولاذ او الكتان ، وهي من صنع الفرس والروم ٠

وكانت الدرع مؤلفة من جزء يقي الصدر يسمى الجوشن ، وجزء يقي الرأس يسمى الخوذة والمغفر ، واجزاء تحمي الساعدين والساقين والكفين ، وكانت الدرع حلقات متصلة ، واستخدم المسلمون ايضا التروس ٠ (٣)

---

(١) انظر زاد المعاد ٣ / ٤٩٦ وانظر جوامع السيرة ١٩٢
(٢) انظر زاد المعاد ٣ / ٤٩٦ وانظر جوامع السيرة ١٩٢
(٣) المدرسة العسكرية الاسلامية ٢٦٠ ـ ٢٦١

وقد كانت وسائل النقل في عصرهم تنحصر في الخيل والبغال والحمير والابل ٠

وكانت الخيل في مقدمة اسلحة الهجوم ، وهي السلاح الراكب عند المسلمين وهي اعز اسلحة الحرب عندهم ، وكانوا يستخدمونها في وقت الحرب فقط ، وكانوا في مرحلة التحرك يستخدمون الابل ، وكانوا يتخيرون من الخيل ما يلائم المعارك ، ففي قتال الصفوف والحصون ، ولما ظهر من امور الحرب كانوا (يستحبون الفحولة لأنها اجرى وأجسر)(١) ، اما في الغارات والبيات ولما خفي من امور الحرب فكانوا يميلون الى اناث الخيل (٢) ، روي عن خالد بن الوليد (انه كان لا يقاتل الا على انثى ، لأنها تدفع البول وهي اقل صهيلا ، والفحل يحبسه في جريه حتى ينفق ويؤذي بصهيله) (٣)

وكانوا يضمرون الخيول حتى تقوى على الجرى وتصبح اكثر نشاطا وحركة عند النزال ، وكانوا يسابقون بينها ؛ فقد سابق رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الخيل المضمرة على حدة وغير المضمرة على حدة ٠ (٤)

وقد كان لهذه الاسلحة اثر كبير في انتصار المسلمين في معاركهم التي خاضوها ، فلقد كان لضرباتهم القاصمة بالسيف (٥) وتصويبهم الرائع

---

(١) وهو قول راشد بن سعد عن السلف الصالح فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٦/٦
(٢) انظر المصدر السابق بنفس الصفحة
(٣) المصدر السابق بنفس الصفحة
(٤) انظر باب السبق بين الخيل وباب اضمار الخيل للسبق وباب غاية السباق للخيل المضمرة المصدر السابق ٦ / ٧١
(٥) انظر المدرسة العسكرية الاسلامية ٢٤٦ ـ ٢٤٨

بالسهم (١) ، ولسرعتهم وخفة حركتهم على الخيل (٢) ، وكونها اسلحة برمائية (٣) .

وفي غزوة حنين عندما تعجل بعض المسلمين دون استكمال عدة القتال فكان بعضهم حاسري الرؤوس ، ولم يحملوا السلاح الكافي ولم يحسبوا للأمر حسابه هزموا ، فقد قال البراء عندما سئل عن فرار المسلمين يوم حنين قال : (لا والله ما ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنه خرج شبان من اصحابه وخفافهم حسرا ليس عليهم سلاح او كثير سلاح ، فلقوا قوما رماة فرشقوهم وشقا ما يكادون يخطئون فانكشفوا) . (٤)

وطبيعي ان اسلحة اليوم ليست هي اسلحة الامس واسلحة الغد غير اسلحة اليوم ، لأن تطور الاسلحة مستمر لا يقف عند حد وعلى المسلمين في كل عصر ان يواكبوا هذا التطور .

ولقد طور المسلمون في السابق بعض الاسلحة ، فهم الذين طوروا القوس .

واستفادوا ايضا من النار اليونانية واستخدموها ، وقد كان لهم السبق في بعض انواع الاسلحة فهم اول من رمى باللهب في الحرب للعد

وكيف انهم فقئوا الف عين

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٣٧٤ وانظر كيف اثر ذلك في معركة الانبار ، المدرسة العسكرية الاسلامية ٢٥٢

(٢) انظر آثرها في تحرك خالد السريع من العراق الى الشام ، انظر المدرسة العسكرية الاسلامية ٢٥٥ ـ ٢٥٨ وانظر اثرها في نهاوند حيث كانت خطة الحرب تعتمد على سرعة الخيل ، المدرسة العسكرية الاسلامية ٢٥٩ـ٢٦٠

(٣) انظر عبور المدائن وكيف ان الخيول خاضت غمار النهر والفرس ينظرون اليهم ويصيحون مجانين مجانين انظر المدرسة العسكرية ٢٥٨ ـ ٢٥٩

(٤) متفق عليه اخرجه البخاري كتاب الجهاد باب من صف اصحابه عند الهزيمة ونزل عن دابته واستنصر . فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٦/١٠٥ ، واخرجه مسلم كتاب الجهاد والسير باب في غزوة حنين ٣ / ١٤٠٠ ـ ١٤٠١

الصليبية ـ فضلا عن اختراعهم المدافع واكتشافهم البارود واستخدامه في حرب الأندلس (١) .

وقد تطورت قوة المسلمين على مر الزمن فكونوا اسطولا بحريا ، واصبح البحر الابيض المتوسط بحيرة اسلامية ، ومن المعارك البحرية الفاصلة معركة ذات الصواري بقيادة عبد الله بن ابي السرح (٢) .

وهكذا بقي المسلمون ينتصرون في معاركهم طالما اتخذوا اسباب النصر ولم ينحرفوا عن سنة الله فيها .

فلقد انتصر العثمانيون في معاركهم ضد الصفويين والمماليك بسبب تسلحهم الحديث وصناعتهم لمدافعهم وبنادقهم النارية مع حسن استخدامها ، وانهزم الصفويون والمماليك بسبب جمودهم ، ويورد بعض المؤرخين على لسان المماليك كلمة معناها : (اننا نحن المسلمين ورثنا عن ديننا الحنيف ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم تعاليم الفروسية ، وتقاليدها من سيف ورمح ، فلن نستخدم غيرها) (٣)

واذا كان العثمانيون قد انهزموا في معاركهم امام اوروبا واستطاع الاوربيون احتلال بلاد المسلمين (٤) ، فان تاريخنا المعاصر يدلنا ويبين لنا اهمية صناعة الاسلحة واهمية التفوق العسكرى ، فمن اسباب هزيمة المسلمين امام اليهود ، فساد اسلحتهم واقتصارها على اسلحة دفاعية كما يريد الاعداء ، وتفوق الاعداء علينا وخاصة في مجال السلاح الجوى وحصول المفاجأة كما حصل عند تدمير القوات المصرية وهي في مرابضها .

---

(١) القتال في الاسلام ٨٩
(٢) انظر المدرسة العسكرية الاسلامية ٢٦٦
(٣) عوامل النصر والهزيمة ١١٤ ـ ١١٦
(٤) انظر عوامل النصر والهزيمة ١١٩

هذا واذا كانت الاسلحة تتطور فلا بد للمسلمين من ان يواكبوا هذا التطور ، والا اصبحوا ضغافا لا وزن لهم ، ومن هنا جاء التعبير بلفظ القوة مطلقا دون تقييد كما قدمنا .

وقد نبه الى هذه الحقيقة ابو بكر الصديق وهو يوصي خالد بن الوليد رضي الله عنهما (اذا لاقيت الروم فقاتلهم بالسلاح الذى يقاتلونك به السهم للسهم والرمح للرمح والسيف للسيف) (١) ، ونحن نقول اليوم المدفع بالمدفع والصاروخ بالصاروخ والطائرة بالطائرة ، والقنبلة الذرية بالقنبلة الذرية ، والقنبلة الهيدروجينية بالقنبلة الهيدروجينية والاسلحة الكيماوية والجرثومية بالاسلحة الكيماوية والجرثومية ، ولكل شيء مثله ، بل لا نكتفي بذلك بل علينا ان نسبقهم ، ونتفوق عليهم ، هذا هو الذى يأمرنا به الدين ويرشدنا اليه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولا بد للمسلمين ان ارادوا النصر على اعدائهم ، من صناعة الاسلحة في ديارهم وبأيدى ابنائهم ، لأن اعتماد الامة الاسلامية في ذلك على غيرها ينطوى على مخاطر كثيرة يضعها في مهب تقلبات المصالح والأهواء وموازين القوى العالمية ، ولا يمكنها من الوفاء بالمهمة التي كلفت بها وهي نشر هذا الدين فى الارض ، وجعل كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى .

والتاريخ يشهد في كل مراحله ان الأمة القوية التي تعد للقتال عدته لا تنهزم امام عدوها ، وان الأمة غير المستعدة تنهزم لأول وهلة فلو ان فرنسا أو بلجيكا أو هولندا استعدت للحرب واعدت مثل ما اعد الألمان لما سمعنا عن انهيارهم ولما سمعنا قول بيتان : اننا في قلة من الجنود

---

(١) القتال في الاسلام ٢٠١

وقلة من الاسلحة ؟ ولذلك انهزمنا . ولو ان الروس استشعروا برد الراحة ، فأراحوا انفسهم من عناء الجهد كما فعل الفرنسيون لخضعت بلادهم للألمان كما خضعت فرنسا ، ولكنهم لم يغفلوا عن اسلحتهم وعدتهم ، فمضوا في سياسة التسلح ما وسعهم المضي حتى اذا هاجمهم الألمان لم نسمع بانهيار مفاجئ او استسلام ذليل ، بل سمعنا كيف ثارت ستالينجراد ، فطردت الألمان شر طردة ، وكيف توالت جهود الروس بعد ذلك حتى حفظوا لبلادهم حريتها وكرامتها . (١)

فاذا كان هذا هو دأب الملحدين الكافرين فحري بالمسلمين ، والقرآن يدعوهم لاعداد العدة ، والرسول صلى الله عليه وسلم يجعل الاعداد سببا في دخول الجنة ، وهم اهل الحق ويدافعون عنه ان يسبقوا هؤلاء الذين يعيشون في باطل ويدافعون عنه .

وحري بالمؤمنين والقرآن الكريم يقول : (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الالباب) (٢) ان ينتبهوا لذلك ، وان يشمروا عن ساعد الجد ، وان يضاعفوا العمل وساعاته (٣) في سبيل اللحوق بالأمم الناهضة ، وسبق هذه الامم ، كما سبق اجدادنا اجدادهم ، وحتى نرهب اعداءنا ، فلا يفكرون في الاعتداء علينا ، وحتى نستعيد مجدنا الاثيل وكرامتنا المهانة ، و نعود سادة كما كنا ونكون كما قال الله تعالى فينا (كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) (٤)

---

(١) نظم الحرب في الاسلام ٦٢ بتصرف يسير (٢) ١١١ : يوسف

(٣) حيث كانت المانيا تجعل ساعات العمل ١٢ ساعة في بداية استقلالها وان دولة مثل اليابان بدا استقلالها في وقت استقلال معظم البلاد الاسلامية وهي اليوم تغطي العالم في صناعاتها ، ونحن لو قطع عنا الغرب صناعته لما استطعنا ان نعيش !! اليس هذا من التقصير الذى سيحاسب عليه المسلمون !

(٤) ١١٠ : يوسف

ثالثا : اعداد المجاهدين عسكريا :ـ

ومن الأسس والقواعد التي يقوم عليها اعداد القوة المادية ـ كما بينت ـ اعداد الرجال المقاتلين ، فالرجال اساسا هم عماد الحرب ، وبهم تكون وهذا الاعداد يحتاج الى تدريب ، لأن الحرب تحتاج الى نوع معين من الرجال يتميز بقدرات خاصة تأتي نتيجة لاعداد خاص بدنيا وفنيا ،

ومن هنا كان التدريب ركن الزاوية في الحرب (١) ، لأنه (لا قيمة لأى سلاح من الاسلحة الا باستعماله ، والتدريب على استعمال السلاح تدريبا راقيا دائما هو الذى يؤدى الى استعماله بكفاءة ، والمقاتل المدرب على استعمال سلاحه هو وحده الذى يستطيع استعماله بنجاح ، اما المقاتل غير المدرب فلا يستفيد من سلاحه كما ينبغي ، والمدرب يستطيع التغلب على غير المدرب بسهوله ويسر .

ومن الضرورى ان يثق المقاتل بسلاحه ، والثقة تتم بالتدريب على استعمال السلاح ، فاذا كان المقاتل لا يثق بسلاحه لضعف تدريبه او لضعف السلاح ، فان مصير المقاتل مصير لا يحسد عليه) (٢)

ونظرا لأهمية التدريب هذه ؛ فقد حرص الاسلام حرصا شديدا على تنشئة ابنائه تنشأةً قويةً في اجسامهم وعلى اعدادهم عسكريا بالتدريب على السلاح .

ومرحلة الاعداد هذه تبدأ من مرحلة مبكرة في حياة المسلم ، انها تبدأ من مرحلة الطفولة بان يرعى الاباء ابناءهم برعاية اجسامهم لتقوى ، وتدريبهم على انواع الرياضة من السباحة والرماية وركوب

---

(١) انظر الجهاد في التشريع الاسلامي ٧١ ، وانظر المدرسة العسكرية الاسلامية ٢٠٤ وانظر الاسلام والحرب ٩٤

(٢) العسكرية العربية الاسلامية ١٤٦ وانظر نظم الحرب في الاسلام ٦٩

الخيل والمصارعة والجرى وغير ذلك كما كتب عمر الى اهل الشام يقول : (علموا اولادكم السباحة والرماية وركوب الخيل) (١) مع تعويدهم على الخشونة والقسوة ، وغرس معاني الرجولة والقوة والجهاد في نفوسهم ٠

وكذلك يجب على المجتمع المسلم بكل مؤسساته التربوية والاجتماعية ان يرعى هذا الطفل بالتدريب والرعاية والعناية وغرس معاني الرجولة في نفسه حتى يصل الى سن البلوغ والرجولة ٠ (٢)

فاذا بلغ مرحلة الرجولة والتي تبدأ من قدرة الغلام على حمل السلاح فانه ينبغي على ولي الأمر والحكومة الاسلامية تدريبه على السلاح ليكون جنديا من جنود الاسلام يذب عن دينه ويقوم بتبليغ رسالة ربه للعالمين ، وذلك لأن الجهاد فرض على كل مسلم قادر على حمل السلاح ، فالمسلمون كلهم جند في الجيش الاسلامي يجاهدون لاعلاء كلمة الله في الارض ، الا من عذره الله ٠ (٣)

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم باعتباره قائد الجيش الاسلامي يحث المسلمين على التدريب ويقوم بالاشراف عليه ، ويقوم هو بنفسه بالتدرب والمسابقة ، فمن حثه صلى الله عليه وسلم على التدرب ما اخرجه مسلم في صحيحه عن عقبة بن عامر يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (واعدوا لهم ما استطعتم من قوة الا ان القوة الرمي الا ان القوة الرمي الا ان القوة الرمي) (٤)

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الاسلام ابن تيمية ٢٨ / ٩ ــ ١٠
(٢) انظر القتال في الاسلام ٩٦ ــ ٩٩
(٣) انظر المغني والشرح الكبير ١٠ / ٣٦٦ ــ ٣٦٧ ، وانظر ايات الجهاد ١١٢ وانظر العسكرية العربية الاسلامية ١٤٦ وانظر المدرسة العسكرية ١٤٩
(٤) اخرجه مسلم كتاب الامارة باب الرمي والحث عليه وذم من علمه ثم نسيه ٣ / ١٥٢٢

وقد فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم القوة بالرمي بيانا لأهميته ولأنه انكى للعدو (١) ـ كما بينت عند حديثي عن اعداد السلاح ـ ولا يكون الرمي انكى للعدو الا بالاعتياد والتدريب ، وفي ذلك حث عليه ، يقول الصنعاني في سبل السلام : (افاد الحديث تفسير القوة في الاية بالرمي بالسهام ، لأنه المعتاد في عصر النبوة ، ويشمل الرمي بالبنادق للمشركين والبغاة ، ويؤخذ من ذلك شرعية التدريب فيه لأن الاعداد انما يكون مع الاعتياد ، اذ من لم يحسن الرمي لا يسمى معدا للقوة) (٢) ٠

وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يشارك اصحابه التدريب والرماية ، فقد اخرج البخارى وغيره عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال : (مر النبي صلى الله عليه وسلم على نفر من اسلم ينتظلون فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ارموا بني اسماعيل فان اباكم كان راميا ، ارموا وانا مع بني فلان ، قال فأمسك احد الفرقين بايديهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما لكم لا ترمون ؟ قالوا : كيف نرمي وانت معهم ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : انا معكم كلكم) (٣)

والرسول صلى الله عليه وسلم اذ يرمي مع بني اسلم وهو سيد الأمة ورئيسها وزعيمها ، بل هو النبي الذى اصطفاه الله ليبلغ رسالته وليكون للعالمين نذيرا ، انما يحث المسلمين على المران الحربي والتدريب كل الحث ، ويكرم هذا العمل كل التكريم ، كي يقبل عليه المسلمون اقبال من يريد الشرف ، ويبتغى العزة والكرامة ٠ (٤)

---

(١) انظر تفسير القرطبي ٤ / ٢٨٧٦
(٢) سبل السلام لمحمد بن اسماعيل الصنعاني ٤ / ٧١ ـ ٧٢
(٣) اخرجه البخارى كتاب الجهاد باب التحريض على الرمي وقول الله عز وجل (٦٠ الانفال) (واعدوا لهم ما استطعتم من قوة) فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٦ / ٩١
(٤) نظم الحرب في الاسلام ص ٧٠ بتصرف يسير

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم اصحابه الوقت المناسب للرمي خلال المعركة وهو عند اقتراب العدو من مرمى السهم ولا يرموا قبل ذلك لأن في ذلك مضيعة للسهام التي كل سهم منها برأس كافر(١) ، وفي ذلك ايضا تعليم للصحابة الاقتصاد في استعمال الذخيرة ، فعن ابي اسيد رضي الله عنه قال النبي صلى الله عليه وسلم : (يوم بدر حين صففنا لقريش وصفوا لنا : اذا اكثبوكم فعليكم بالنبل) (٢) ، والمقصود بالقرب هو القرب النسبي ، واما عند الالتحام ؛ فالسيف هو الاجدى .(٣)

وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ان المران والتدريب وان كان يأخذ صورة اللهو الا انه من الحق الذى ينبغي للمسلمين ان يقوموا به ، وان لا يترفعوا عنه باعتباره من اللهو ، فعنه صلى الله عليه وسلم انه قال : (كل لهو يلهو به الرجل فهو باطل ، الا رميا بقوسه وتأديبه فرسه ، ومداعبته امرأته : فانهن من الحق) (٤) .

يقول القرطبي : (ان كل ما يتلهى به الرجل مما لا يفيده في العاجل ولا الآجل فائدة فهو باطل والاعراض عنه اولى ، وهذه الامور الثلاثة ، فانه وان كان يفعلها على ان يتلهى بها وينشط فانها حق لاتصالها بما يفيد ، فان الرمي بالقوس وتأديب الفرس جميعا من تعاون القتال ، وملاعبة الأهل قد تؤدى الى ما يكون عنه ولد يوحد الله ويعبده ؛ فلهذا

---

(١) انظر فتح البارى ٦ / ٩٢

(٢) صحيح البخارى كتاب الجهاد باب التحريض على الرمي وقول الله عز وجل (٦٠ : الانفال) (واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ...) فتح البارى ٦/ ٩١

(٣) انظر فتح البارى ٦ / ٩٢

(٤) اخرجه ابو داود كتاب الجهاد باب في الرمي رقم ٢٥١٣ ، والترمذى كتاب الفضائل باب ما جاء فضل الرمي في سبيل الله تعالى رقم ١٦٣٧ والنسائي كتاب الجهاد باب ثواب من رمى بسهم في سبيل الله ٦ / ٢٨ وقال الترمذي حديث حسن

كانت هذه الثلاثة من الحق) (١) (ويدخل في معناهما ـ اى الرمي وتأديب الفرس ـ ما كان من المثاقفة (٢) بالسلاح والشد على الاقدام ونحوهما ، مما يرتاض به الانسان فيتوقح (٣) بذلك بدنه ، ويتقوى به على مجالدة العدو) (٤)

وشدد الاسلام في ترك المران والتدريب وجعل ذلك كفرا لنعمة الله وخروجا عن جماعة المسلمين وسمتهم ومعصية لله عز وجل . فقد قال عليه الصلاة والسلام : (من ترك الرمي بعد ما علمه ، رغبة عنه ، فانها نعمة تركها او قال كفرها) (٥) ، وقال في رواية اخرى : (من تعلم الرمي ثم تركه فليس منا ـ او قد عصى) (٦) ، قال النووى : (وهذا تشديد عظيم في نسيان الرمي بعد علمه وهو مكروه كراهة شديدة لمن تركه بلا عذر) (٧)

وحذر رسول الله صلى الله عليه وسلم امته من ترك التدريب والمران عليه ، وان كانت منتصرة ظاهرة فقال : (ستفتح عليكم ارضون ويكفيكم الله فلا يعجز احدكم ان يلهو بأسهمه) (٨)

وقد كان سلف هذه الأمة حريصين على التدريب حرصا شديدا حتى في

---

(١) تفسير القرطبي ٤ / ٢٨٧٤ ـ ٢٨٧٥ وانظر مختصر سنن ابي داود ومعالم السنن للخطابي ٣ / ٣٧١
(٢) التدريب حتى يصبح حاذقا خفيفا انظر مختار الصحاح ٨٤
(٣) اى يصبح صلبا انظر مختار الصحاح ٧٣١
(٤) مختصر سنن ابي داود للحافظ المنذرى ومعالم السنن للخطابي ٣ / ٣٧١
(٥) هو تكملة للحديث (كل لهو ..) سبق تخريجه
(٦) اخرجه مسلم كتاب الامارة باب فضل الرمي والحث عليه ٣ / ١٥٢٢
(٧) صحيح مسلم بشرح النووى ١٣ / ٦٥.
(٨) اخرجه مسلم كتاب الامارة باب فضل الرمي والحث عليه ٣ / ١٥٢٢

شيخوختهم وعند كبرهم وكانوا يتواصون به (فعن فقيم اللخمي قلت لعقبة ابن عامر : تختلف بين الغرضين وانت شيخ كبير فيشق عليك؟ فقال عقبة لولا كلام سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم اعانه ، قال : قلت وما ذلك ؟ قال سمعته يقول : وذكر الحديث (من تعلم الرمي ٠٠) (١) وقد كان يمر على خالد بن زيد الجهني فعندما ابطأ مرة ذكره بحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحث على الرمي ٠ (٢)

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يجعلون اهدافا يصوبون عليها ، ويجوز ان يجعل الهدف اى شيء غير ذى روح قال عليه الصلاة والسلام :(لا تتخذوا شيئا فيه الروح غرضا) (٣)

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في اشرافه وتدريبه للمسلمين لا يقتصر على نوع واحد من انواع الاسلحة وانما كان يشرف عليهم ويحثهم على التدرب على كافة الاسلحة ، فقد كان يشرف على بعض اصحابه وهم يتمرنون على الحراب في اشرف بقاع الله في الارض ، ويمنع من يعارض في ذلك ، لأن التدريب على السلاح في المساجد امر مشروع ولا يتنافى مع حرمتها ، بل في ذلك حفظ لها من ان تدنسها ارجل الكفار باحتلالها ، فعن ابي هريرة قال : (بينما الحبشة يلعبون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بحرابهم ٠ اذ دخل عمر بن الخطاب فاهوى الى الحصباء يحصبهم بها فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم دعهم يا عمر !) (٤) ، ولقد كان يشرف عليهم وهم يلعبون بالحراب

---

(١) بداية الحديث السابق ٠ (٢) بداية الحديث (من ترك الرمي)

(٣) اخرجه مسلم كتاب الصيد باب النهي عن صبر البهائم عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بلفظ (لا تتخذوا شيئا فيه روح غرضا) ٣ / ١٥٤٩

(٤) صحيح مسلم كتاب صلاة العيدين باب الرخصة في اللعب الذى لا معصية فيه ، في ايام العيد ٢ / ٦١٠

وعائشة رضي الله عنها تنظر اليهم - فعن ابن عمير قال :(اخبرتني عائشة ، انها قالت للعابين وودت اني اراهم • قالت فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقمت على الباب انظر بين اذنيه وعاتقه ، وهم يلعبون في المسجد)• (١)

قال الزين بن المنير : (سماه لعبا وان كان اصله التدريب على الحرب وهو من الجد ؛ لما فيه من شبه اللعب لكونه يقصد الى الطعن ولا يفعله ويوهم بذلك قرنه ، ولو كان اباه او ابنه) (٢)

ويستفاد من هذا الحديث (جواز اللعب بالسلاح على طريق التواثب للتدريب على الحراب والتنشيط عليه ، واستنبط منه جواز المثاقفة لما فيها من تمرين الأيدى على آلات الحرب) (٣) ، وجواز اللعب بالسلاح ونحوه من آلات الحرب في المسجد ويلحق به ما في معناه من الاسباب المعينة على الجهاد وانواع البر (٤) •

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسر من المقاتل المدرب المتقن لاستخدام سلاحه ، فقد جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد ابويه فعن سعد بن ابي وقاص رضي الله عنه قال :(نثل لي رسول الله صلى الله عليه وسلم كنانته يوم احد وقال (ارم

---

(١) متفق عليه اخرجه البخارى كتاب العيدين باب الحراب والدرق يوم العيد ٢ / ٤٤٠ فتح البارى بشرح صحيح البخارى ومسلم كتاب صلاة العيدين باب الرخصة في اللعب الذى لا معصية فيه ، في ايام العيد ٢ / ٦١٠ واللفظ له
(٢) فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٢ / ٤٤٣
(٣) المصدر السابق ٢ / ٤٤٥
(٤) صحيح مسلم بشرح النووى ٦ / ١٨٤

فـداك ابي وأمـي) (١) ، وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنـه : ما سمعت رسـول الله صلى الله عليـه وسـلم جمع ابويـه لأحـد الا لسعد فاني سمعته يقـول يـوم احـد : يا سعد ارم فـداك ابي وامـي) .(٢)

وقـد كـان رسـول الله صلى الله عليه وسلم يعلم اصحابـه الفروسـية ويسابق بين الخـيل ، فعن ابن عـمر رضي الله عنـه ، قال : اجرى النبي صلى الله عليـه وسـلم ما ضمر (٣) منهـا من الحـفياء (٤) الى ثنيـة الـوداع (٥) ، واجـرى ما لم يضمر من الثنيـة الى مسـجد بني زريـق (٦) قال ابن عـمر كنت فيمن اجـرى) (٧) ، واخـرجـه مسـلم عن طريق نافع وقال فيه :(فسبقت الناس فطفف بي فرس مسجد بني زريـق)(٨) وفي الصحيحين عن موسى بن عقبة ان بين الحفياء الى ثنية الوداع ستة اميال او سبعة)(٩) وقال البخاري قال سفيان :(من الحفياء الى ثنية الوداع خمسة

---

(١) متفق عليه اخرجه البخاري كتاب المغازي باب (اذا همت طائفتان منكم ان تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٣٥٨/٧ ، ومسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضل سعد بن ابي وقاص رضي الله عنه ١٨٧٦/٤ نحوه .

(٢) متفق عليه واللفظ للبخاري اخرجاه في نفس الموضع السابق وبنفس الصفحة .

(٣) والمراد بالضمر ان تعلف الخيل حتى تسمن وتقوى ثم يقلل علفها بقدر القوت وتدخل بيتا وتغشى بالجلال حتى تحمى فتعرق ، فاذا جف عرقها خف لحمها وقويت على الجرى) فتح الباري ٧٢/٦ .

(٤) وهو مكان خارج المدينة من جهة سافلتها صحيح مسلم بشرح النووي ١٤/١٣ .

(٥) فهي عند المدينة سميت لان الخارج من المدينة يمشي معه المودعون اليها ، صحيح مسلم بشرح النووي ١٤/١٣ .

(٦) مسجد بني زريق : نسبة الى بني زريق صحيح مسلم بشرح النووي ١٥/١٣ .

(٧) متفق عليه اخرجه البخاري كتاب الجهاد باب السبق بين الخيل ، ومسلم كتاب الامارة باب المسابقة بين الخيل المضمرة ١٤٩١/٣ .

(٨) صحيح مسلم بنفس الموضع السابق .

(٩) متفق عليه اخرجه البخاري كتاب الجهاد باب غاية السبق ومسلم كتاب الامارة باب المسابقة بين الخيل المضمرة ١٤٩١/٣ .

اميال او ستة ، ومن ثنية الوداع الى مسجد بني زريق ميل)(١) .

وقد كان يسابق بين الابل ايضا ففي صحيح البخاري تعليقا عن انس بن مالك قال : كان للنبي صلى الله عليه وسلم ناقة تسمى العضباء لا تسبق فجاء اعرابي على قعود له فسبقها الاعرابي ، وكأن ذلك شق على اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :(حق على الله ان لا يرتفع شيء من الدنيا الا وضعه)(٢) .

يقول ابن حجر :(وفي الاحاديث (الحديث) مشروعية المسابقة وانه ليس من العبث بل من الرياضة المحمودة الموصلة الى تحقيق المقاصد في الغزو والانتفاع بها عند الحاجة)، ويقول القرطبي :(لا خلاف في جواز المسابقة على الخيل وغيرها من الدواب وعلى الاقدام وكذا الترامي بالسهام واستعمال الاسلحة لما في ذلك من التدريب على الحرب)(٣) .

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتسابق بالاقدام فعن عائشة رضي الله عنها قالت :(سابقني النبي صلى الله عليه وسلم فسبقته فلبثنا حتى اذا ارهقني اللحم سبقني فقال هذه بتلك)(٤) .

وتسابق الصحابة على الاقدام بين يديه فعن سلمة بن الاكوع قال : (فبينما نحن نسير وكان رجل من الانصار لا يسبق شدا فجعل يقول الا مسابق الى المدينة ، هل من مسابق ، فجعل يعيد ذلك قال : فلما سمعت كلامه قلت : الا تكرم كريما ولا تهاب شريفا قال : لا الا ان يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : قلت يا رسول الله بابي انت وامي ذرني فلأسابق الرجل فقال : ان شئت ... فسبقته الى المدينة)(٥) ولقد كان لسرعة سلمة بن الاكوع

---

(١) اخرجه البخاري كتاب الجهاد باب السبق بين الخيل فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٧١/٦ .

(٢) اخرجه البخاري كتاب الجهاد باب ناقة النبي صلى الله عليه وسلم فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٧٣/٦ .

(٣) فتح الباري ٧٢/٦ وانظر صحيح مسلم بشرح النووي ١٤/١٣ .

(٤) سنن ابي داود كتاب الجهاد باب السبق على الرجل ٢٩/٣ ـ ٣٠ واحمد ٢٦٤/٦ .

(٥) اخرجه مسلم كتاب الجهاد والسير ، غزوة ذي قرد وغيرها ١٤٣٩/٣ ـ ١٤٤٠ .

في الجرى اثر كبير في صد الاعداء والرجوع بالغنائم وانهزام الكثرة من امامه (١) .

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكتفي بتدريب اصحابه على الخيل وغيرها من الاسلحة الموجودة في عصره بل يحرضهم ويبعث في نفوسهم الامل على قتال الاعداء وغزوهم في البحر فعن انس بن مالك رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم :(كان يدخل على ام حرام بنت ملحان فتطعمه وكانت ام حرام تحت عبادة بن الصامت ، فدخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فأطعمته ثم جلست تفلي رأسه فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم استيقظ وهو يضحك قال : فقلت يا رسول الله ما يضحكك يا رسول الله قال : ناس من امتي عرضوا علي غزاة في سبيل الله يركبون ثبج (٢) هذا البحر ملوكا على الاسره او مثل الملوك على الاسره ..)(٣) فرسول الله صلى الله عليه وسلم يسر لامته التي تركب البحر تغزو في سبيل الله ويعبر عن غاية سروره بالضحك !! .

واذا كان التدريب وقتال الاعداء يحتاج الى القوة الجسمية فان الاسلام حرص على صحة اجسام المسلمين حتى ميز بين المؤمنين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(المؤمن القوى خير واحب الى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير ..)(٤) ، وحرص على قوة اجسام المؤمنين فطلب منهم العلاج من الامراض التي توهن القوة فقال صلى الله عليه وسلم :(نعم يا عباد الله تداووا فان الله لم يضع داء الا وضع له شفاء او دواء ..)(٥)

---

(١) انظر قصته الرائعة في صحيح مسلم كتاب الجهاد والسير باب غزوة ذى قرد وغيرها ١٤٣٥/٣-١٤٣٨ وصحيح البخارى مختصرة كتاب المغازى باب غزوة ذات قرد فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٤٦٠/٧ .

(٢) الثبج وهو ظهره ووسطه صحيح مسلم بشرح النووى ٥٨/١٣ .

(٣) متفق عليه اخرجه البخارى كتاب الجهاد باب ركوب البحر فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٨٧/٦ - ٨٨ ومسلم كتاب الامارة باب فضل الغزو في البحر ١٥١٨/٣ واللفظ له .

(٤) اخرجه مسلم كتاب القدر باب في الامر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير الى الله ٢٠٥٢/٤ .

(٥) اخرجه ابو داود كتاب الطب باب الرجل يتداوى رقم ٣٨٥٥ ، واخرجه الترمذى كتاب الطب باب ما جاء في الدواء والحث عليه رقم ٢٠٣٩ وقال

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قوى الجسم حتى انه صرع اشد العرب وهو ركانة بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب (١) ·

وكذلك كان اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اقوياء اشداء فبرغم المسافة الطويلة التي قطعوها وبرغم السفر المضني حين قدومهم من المدينة الى مكة فانهم اظهروا قوتهم عند طوافهم بالبيت حين طمعت قريش ان ترى اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ضعافا اوهنتهم حمى يثرب فعن ابن عباس رضي الله عنهما (قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم واصحابه فقال المشركون : انه يقدم عليكم وفد وهنهم حمى يثرب فامرهم النبي صلى الله عليه وسلم ان يرملوا الاشواط الثلاثة وان يمشوا ما بين الركنين ولم يأمرهم ان يرملوا الاشواط كلها الا الابقاء عليهم وزاد في رواية عن ابن عباس (لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم لعامه الذى استأمن قال : ارملوا ليرى المشركون قوتكم ، والمشركون من قبل قعيقعان (٢) ، ينظرون اليهم ويتعجبون من قوتهم)! انها القوة والفتوة التي يحبها الله ، والتي هي مصدر عزهم ونصرهم على عدوهم ·

هذه هي بعض السمات الرئيسية لاعداد الرجال الذين رباهم الاسلام ليكونوا جنودا لله يطهرون الارض من ارجاس الجاهلية ، ويرفعون راية التوحيد خفاقة عالية ، وهذا بعض ما يفسر سر انتصارات المسلمين في معاركهم ،

---

(١) انظر سيرة ابن هشام مجلد ١-٢ / ٣٩١ والفروسية لابن القيم ٦ ·

(٢) راجع الحديث بتمامه صحيح البخارى كتاب المغازى باب عمرة القضاء فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٥٠٨/٧ - ٥٠٩ ، ٣٧١/٣ ، وقعيقعان جبل يشرف على الركنين الشاميين ، ومن كان به لا يرى ما بين الركنين اليمانيين انظر فتح البارى ٥١٠/٧ ·
ولمسلم من هذا الوجه في آخره فقال المشركون :(هؤلاء من اجلد من كذا وكذا) كتاب الحج باب استحباب الرمل في الطواف والعمرة ، وفي الطواف الاول من الحج ٢/ ٩٢٣ ·

فلقد كان لتدريبهم العالي وخفة حركتهم ولسرعة تحركاتهم على وسائط النقل من الخيل وغيرها الاثر الكبير في انتصاراتهم التي حققوها (١) .

فلقد كان لسيف حمزة سيد الشهداء في غزوة احد ومهارته العالية وشجاعته الفائقة الاثر البالغ في صفوف المشركين فقد كان كما قال وحشي يصف قتله له (... حتى رايته في عرض الناس مثل الجمل الاورق يهد الناس بسيفه هدا ، ما يقوم له شيء) (٢)

ولقد كان لتحرك خالد بن الوليد رضي الله عنه السريع بخيوله من العراق الى الشام عندما طلب منه ابو بكر رضي الله عنه ذلك الاثر الكبير في نصر المسلمين وحسم المعركة لصالحهم في معركة اليرموك (٣)

ولقد كان لمهارتهم في استخدام القوس ، ودقة تصويبهم للرمي ان فقؤوا الف عين في معركة واحدة !! وسميت بغزوة ذات العيون .

ففي معركة الانبار تقدم خالد الى رماة المسلمين ، وقال لهم : (اني ارى اقواما لا علم لهم بالحرب فارموا عيونهم ولا توخوا غيرها ، فاستجابوا لامره ورموا رشقا واحدا ثم تابعوا ففقئ لاهل الانبار الف عين فتصايحوا (ذهبت عيون اهل الانبار) ولم يكد زعيمهم وقائدهم شيرزاد يسمع تصايح اصحابه حتى اوفد الى خالد يطلب منه الصلح)(٤) .

هؤلاء هم سلف هذه الامة وهؤلاء هم جدودها ، حرص على التدريب وتفوق فيه ومثابرة واجتهاد في مواكبة التقدم البشري ، وتشوق الى قوة

---

(١) انظر العسكرية العربية الاسلامية ١٤٩ .

(٢) سيرة ابن هشام ٢٢/٣ ، وقتله غيلة واني لوحشي ان يواجه مثل حمزة ؟ ! وفي البخاري وصف وحشي مبارزة حمزة رضي الله عنه وسباع فقال :(وشد يعني حمزة - عليه فكان كأمس الذاهب) كتاب المغازي باب قتل حمزة رضي الله عنه فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٣٦٧/٧ .

(٣) المدرسة العسكرية الاسلامية ٢٥٢ .

(٤) تاريخ الطبري ٣٧٤/٣ بتصرف ، والمدرسة العسكرية الاسلامية ٢٥٢ .

لم تكن عندهم وهي ركوب البحر ومنافسة وتعلم وتسابق في وجوه الخير ومنه التدريب والاعداد ، كل ذلك اهلهم لنصر الله لهم بعد ان استوفوا عناصره الاخـــرى .

وامتنا اليوم مدعوة الى السير على نهج السلف الصالح من اعداد وتدريب ومثابرة وحرص عليه مع الاخذ بكافة الاسباب الاخرى حتى يتحقق لها النصـر على اعدائها وتتحقق فيها سنة الله في نصر المؤمنين وهزيمـــة الكافرين سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا .

رابعا ـ الرباط في سبيل الله :ـ

ومن اسباب النصر ومن القوة المادية التي امر الله بها المؤمنين وحثهم عليها الرباط في سبيل الله قال تعالى :(واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ..)(١) .

وقال تعالى في آية اخرى :(... اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون)(٢) .

والمرابطة : ان يربط كل من الفريقين خيولهم في ثغرة ، وكل معد لصاحبه فسمي المقام في الثغر رباطا (٣) وقال ابن جرير :(رابطوا اعداءكم واعداء دينكم من اهل الشرك في سبيل الله وارى ان اصل الرباط : ارتباط الخيل للعدو ، كما ارتبط عدوهم لهم خيلهم ، ثم استعمل ذلك في كل مقيم في ثغر ، يدفع عمن وراءه من اراده من اعدائهم بسوء ، ويحمي عنهم من بينه وبينهم ممن بغاهم بشر كان ذا خيل ارتبطها ، او ذا رجلة لا مركب له)(٤)

وقال الزمخشري : (اقيموا في الثغور رابطين خيلكم فيها مترصدين مستعدين للغزو) (٥)

واذا كانت الآية الاولى جاءت تخصص الرباط بالخيل ، فقد جاءت الاية الثانية عامة لتشمل كل شيء يرابط فيه في سبيل الله ، ولتشمل ما يرابط به المؤمنون اليوم من دبابة ومدفع وصاروخ وطائرة ، وليشمل فيما بعد ما يتطور من انواع الاسلحة والقوى .

---

(١) ٦٠ : الأنفال
(٢) ٢٠٠ : آل عمران
(٣) نيل الاوطار للشوكاني ٧ / ٢٤٠
(٤) تفسير الطبرى ٤ / ٢٢٢ ـ ٢٢٣ وانظر تفسير القرطبي ٢ / ١٥٦٥
(٥) الكشاف للزمخشرى ٤٩١/١

وقد خصت الخيول بالذكر في الآية الاولى لأن الخيول كانت في القديم هي اساس الحرب وعمادها ، وهي التي عقد الله في نواصيها الخيره وهي اقوى القوة واشد العدة وحصون الفرسان وبها يجالٍ في الميدان (١)

وقد جعل الاسلام الرباط وسيلة من الوسائل التي اتخذها لحمايته والدفاع عن اراضيه ، والمحافظة على كرامته وهيبته ، ويكون بان تبعث الدولة الاسلامية على حدودها جنودا مستعدين بكامل اسلحتهم ليراقبوا العدو ويبقوا على حذر ، ويردوا العدوان ويمنعوه من التغلغل في ديار المسلمين وانتهاك حرمات المسلمين (٢) ٠

والرباط يتضمن معاني ثلاثة :

الاول : الحراسة الشديدة بحيث لا تكون ثغرة ينفذ منها العدو الى الديار الاسلامية لأنه كما قال الامام علي رضي الله عنه (ما غزى قوم في عقر دارهم الا ذلوا)

الثاني : الذى تؤدى اليه المرابطة هو ارهاب العدو وجعله في خوف ووجل ؛ اذ يعلم ان وراء المرابطة جيشا يحمي الديار ٠

الثالث : هو ان يكون هناك استعداد مستمر للقتال يكون معه مران وتدريب فيتكامل بذلك الاستعداد ، ولا يؤتى المؤمنون على حين غرة ٠(٣)

والمرابطة نوع من اخذ الحذر حتى لا تغزى الديار على غرة ، وقد امرنا الله بالحذر فقال : (٠٠٠ وليأخذوا حذرهم واسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن اسلحتكم وامتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة

---

(١) انظر تفسير القرطبي ٤ / ٢٨٧٦

(٢) انظر شريعة القتال في الاسلام ١٨٢ وانظر آيات الجهاد ١١٩

(٣) الجهاد في التشريع الاسلامي ٧٦ ٠

... وخذوا حذركم ان الله اعد للكافرين عذابا مهينا) (١) .

فالله يأمر المرابطين في سبيله الا يغفلوا عن اسلحتهم طرفة عين حتى لا يأخذهم العدو على غرة فيستأصل شأفتهم (فيميلون عليكم ميلة واحدة) ويحقق مقصوده ومراده من القضاء على الاسلام واهله . (٢)

ونظرا لأهمية الرباط في سبيل الله ، والذى ذكر بعض الصحابة انه افضل من الجهاد لأنه حقن لدماء المسلمين والجهاد سفك دماء المشركين (٣) ، فلقد جاءت عدة احاديث تحث عليه وتبين فضيلته .

قال عليه الصلاة والسلام : (رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها وموضع سوط احدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها ، وللروحة يروحها العبد في سبيل الله او الغدوة خير من الدنيا وما عليها) (٤)

فرباط يوم واحد في سبيل الله خير من الدنيا !!

والرباط في ميزان الاسلام خير من الجوار عند المساجد الثلاثة ، وافضل من سائر عبادات التطوع جميعها ، لأن فائدته عامة للمسلمين وذاك خاص بالعابد وحده فقد اخرج مسلم عن سلمان قال : (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه ، وان مات جرى عليه عمله الذى كان يعمله ، واجرى عليه رزقه وأمن الفتان) (٥)

---

(١) ١٠٢ : النساء . (٢) آيات الجهاد ١٢٠ بتصرف يسير وانظر شريعة القتال في الاسلام ١٨٣

(٣) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوى ٣ / ٩٤ (٤) اخرجه البخارى كتاب الجهاد باب فضل رباط يوم في سبيل الله فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٦ / ٨٥

(٥) اخرجه مسلم كتاب الامارة باب فضل الرباط في سبيل الله ٣ / ١٥٢٠

قال النووي :(هذه فضيلة ظاهرة للمرابط ، وجريان عمله بعد موته فضيلة مختصة به لا يشاركه فيها احد)(١) .

وقد جاء صريحا بجريان عمل المرابط بعد موته في حديث آخر قال عليه الصلاة والسلام :(كل ميت يختم على عمله الا المرابط فانه ينمو له الى يوم القيامة ويؤمن فتان القبر)(٢) .

يا لها من فضيلة عظيمة ان يضاعف الاجر وهو في قبره وان يأتيه كل يوم من الاجر والثواب اكثر من صيام شهر ، (ما من عبد يصوم يوما في سبيل الله (٣) الا باعد الله بذلك اليوم وجهه عن النار سبعين خريفا)(٤) فكم سيباعد الله بينه وبين النار الى ان تقوم الساعة ! .

وجعل الرسول صلى الله عليه وسلم ان من خير حياة الانسان ان يبقى مرابطا حريصا مستعدا للجهاد فقال :(من خير معاش الناس لهم ، رجل ممسك عنان فرسه في سبيل الله ، يطير على متنه كلما سمع هيعة او فزعة طار عليه ..)(٥)

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ١٣ / ٦١ .

(٢) اخرجه ابو داود كتاب الجهاد باب فضل الرباط ٣ / ٢٠ طبعة حمص والترمذي في فضائل الجهاد باب ما جاء في فضل من مات مرابطا وقال حسن صحيح ٤ / ١٦٥ طبعة الحلبي .

(٣) اي قاصدا وجه الله ولا اري وجها لتخصيصه بالصيام وقت الجهاد ، وان كان الجمع بين الفضيلتين اولى اذا كان يستطيع ذلك انظر فتح الباري ٦ / ٤٨ ، فيباعد الله بينه وبين النار سبعين خريفا لكل يوم يصومه وهو مرابط او مجاهد في سبيل الله .

(٤) متفق عليه اخرجه البخاري كتاب الجهاد باب فضل الصوم في سبيل الله فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٦/ ٤٧ واللفظ له ومسلم كتاب الصيام باب ما جاء في فضل الصوم في سبيل الله ٢ / ٨٠٨ .

(٥) اخرجه مسلم كتاب الجهاد باب فضل الجهاد والرباط ٣ / ١٥٠٣ .

ومن هنا كان الرباط من خير الاعمال واستحق المرابط في سبيل الله ان يأخذ وساما الهيا ونبويا ويقال له طوبى لك فقد اخرج البخارى بسنده عن ابي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (... طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله ، أشعث رأسه مغبرة قدماه ، ان كان في الحراسة كان في الحراسة ، وان كان في الساقة كان في الساقة ...) (١) . ولا شك ان الرباط هو الحراسة المستمرة .

وعن ابن عباس رضي الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (عينان لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله وعين باتت تحرس في سبيل الله) (٢)

وهذه الأحاديث الكثيرة التي تعد المرابطين أجزل الثواب تدل صراحة على اهمية حراسة الثغور ، وانها من القوة التي يجب على المسلمين ان يهتموا بها وبأعدادها حتى لا يفاجأهم العدو في عقر دارهم ، وحتى تكون حصونهم منيعة لا يطمع فيها طامع . (٣)

---

(١) اخرجه البخارى كتاب الجهاد باب الحراسة في الغزو في سبيل الله فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٦ / ٨١
(٢) اخرجه الترمذى كتاب فضائل الجهاد باب ما جاء في فضل الحرس في سبيل الله ٤ / ١٧٥ وقال حديث حسن غريب

(٣) انظر آيات الجهاد ١٢١

خامسا : التخطيط والاخذ بمبادىء الحرب:

والاسلام حين يأمر باعداد العده لمواجهة الاعداء سواء كانت عدة معنوية او مادية . فانه يقوم بذلك كله من اجل خوض معاركه مع الاعداء ، وخوض المعركة واكتساب النصر فن يحتاج الى مهارة وتخطيط ووعى بطبيعة احوال العدو وامكانياته ومواقعه ، واختيار الزمان والمكان الى غير ذلك فى اصول الحرب ومبادئه .

واذا كان النصر الذى حققه المؤمنون فى تاريخهم الحميد انما كان بالدرجة الاولى بسبب ايمانهم بالله وحده وعونه سبحانه لهم ، ثم بقوتهم المعنوية العالية التى فاقت قوة الاعداء ، الا انه كان للقوة المادية من اعداد للسلاح اوالتدريب العالي او الرباط او تطبيق مبادىء فن الحرب اثر لاينسى ايضا .

وهذا من مزايا الاسلام (وحده) يجمع بين اسباب السماء ، التى تمد بالنصر، واسباب الارض التى تفرض على المسلمين ان يواجهوا القوة بالقوة والسلاح بالسلاح والتخطيط بالتخطيط ، واذا كان تفوق اعدائنا عبر تاريخنا الطويل علينا بكثرة العدد والعتاد ، فلقد كان تفوقنا عليهم بايماننا بالله واتصالنا به وتمسكنا بديننا الذى هو مصدر عزنا ونصرنا ، وتفوقنا عليهم فى التخطيط والاخذ باسس الحرب ومبادئها .

وقد كان اعداء امتنا ايضا عبر التاريخ يقومون بالتخطيط ومحاولة الاخذ بمبادىء الحرب ، ولكن شتان بين من ينظر ويخطط بنور الايمان ، وبعقل المؤمن الذى لم تلعب به الاهواء ، ولم يذهب بعقله او ببغضه الخمر وماشاكلها من سائر الشهوات ، وبين من يخطط بظلام الكفر ، وبعقل كافر تشتته الاهواء والالهة المتصارعة فى نفسه ، وتذهب ببهاء عقله و قوته الخمرة وغيرها من الخبائث.

فالحرب وبدون شك مبادىء تقوم عليها ، وهذه المبادىء هى التى تهىء للمحاربين طريق النصر.

فالقائد الذى يدرك هذه المبادىء ويتفهمها ويعرفها ويقوم بتنفيذها ويضع خطته على ضوئها ويلتزم بها فى مرحلتى الاستعداد والقتال يضمن النصر فى المعركة باذن الله.(١) وهذا ماكان يفعله المؤمنون ، وان لم تكن هذه المبادىء تدرس ولم تكن مدونه ، كانوا يفعلون ذلك بتفكيرهم السليم وعقلهم النير وبتوفيق من الله.

ومبادىء الحرب كانت ومازالت موضع بحث كثير من العسكريين ، واختلاف بينهم ، ولقد اجمع الكثيرون على تحديد مبادىء الحرب باختيار المقصد والحشد وادخار القوى ، والمباغته والتعرض والمرونه ، والامن ، والتعاون والمطارده .(٢)

١ـ اختيار المقصد وادامته :

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يختار مقصده بالضبط ، ويفكر فى اقوم طريقة للوصول اليه ، ثم يقرر خطة مناسبة للحصول عليه ،(٣) واذا كان الهدف العام ، هو تحرير الارض من العبودية لغير الله ، فانه ليس من الحكمة ان يواجه جميع اعداء الاسلام فى وقت واحد ،(٤) فالقائد العسكرى البارع هو الذى لايقاتل على اكثر من جبهة فى وقت واحد ، ولايواجه الا عدوا واحدا ينفرد به ، فاذا تفرغ منه انتقل الى غيره ،(٥) وان تحديد سلم الاوليات فى الاهداف ومعرفة الاهم براعة فى فن القتال.(٦)

ولقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا المبدأ نصب عينه وهو يحارب اعداء الله. والواضح ان اعداء الاسلام كانوا يشكلون اكثر من جبهة جبهة قريش فى المقدمة ، وجبهة اليهود ، ثم جبهة القبائل المتناثرة فى انحاء الجزيرة ، ثم جبهة الروم.(٧)

---

(١) انظر الاسلام والحرب ٦٣ وانظر المدرسة العسكرية الاسلامية ٤٠٠ - ٤٢١ وانظر العبقرية العسكرية ٧١٣ - ٧١٥ وانظر الرسول القائد ٤٤٣ .

(٢) انظر هذه المبادىء فى المدرسة العسكرية الاسلامية ٤٠٠ ومابعدها . وانظر العبقرية العسكرية ٧١٣ ، وانظر الرسول القائد ٤٤٣

(٣) الرسول القائد ٤٤٤

(٤) انظر استراتيجية الفتوحات الاسلامية ٣٦ - ٣٧

(٥) انظر العبقرية العسكرية ١٩٦

(٦) انظر استراتيجية الفتوحات الاسلامية ٢٥

(٧) انظر العبقرية العسكرية الاسلامية ١٩٥- ١٩٦ وانظر استراتيجية الفتوحات الاسلامية ٢٥ - ٢٦ .

لقد ادرك رسول الله صلى الله عليه وسلم ان جبهة قريش هى اهم الجبهات لانها هى اهم القبائل فى الجزيرة ، ولان لها مكان الصدارة والاتباع ، وادرك كذلك ان مكة المكرمة هى الهدف العسكرى الاول الذى اذا دان له ، دانت له سائر البلاد لمكانتها عند جميع العرب.

ومن خلال هذا اليقين والادراك عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم معاهدة حسن جوار مع يهود المدينة حتى يضمن سلامة الجبهة الداخلية ، وحتى يقوم بتحييدها (١) فى الصراع الذى سيقوم بينه وبين قريش ، ونجحت خطة الرسول فعندما وقعت غزوة بدر لم يتحرك يهود المدينة ، فلما تم له النصر فى بدر ، قاتل يهود قينقاع دون تدخل من جانب قريش ليحرر المدينة ولتكون قاعدة آمنة له ، وقاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا فى احد لوحدهم ثم حارب يهود بنى النضير وحاصرهم واجلاهم عن المدينة. (٢)

وفى غزوة الخندق عندما اراد الكفار تأليب الاعداء فى صف واحد اراد الرسول صلى الله عليه وسلم تحييد غطفان ومصالحتهم على ثلث ثمار المدينة وعندما استشار الرسول اصحابه رفضوا ذلك ولم يتم الصلح (٣). ولكنه استطاع ان يفتت شملهم ويفرق وحدتهم بخديعة نعيم بن مسعود (٤).

---

(١) انظر جوامع السيرة ٧٦ ، وانظر العبقرية العسكرية ١٩٦ .

(٢) انظر سيرة ابن هشام ٣/ ٩٧ ومجلد ٣ - ٤/ ١٩٠ - ١٩١ . طبعة الحلبى وانظر العبقرية العسكرية ١٩٦ ، وانظر الرسول القائد ١٤٢ ، ١٩٧ .

(٣) كشف الاستار ١/ ٣٣٢ باسناد حسن والطبرانى باسناد حسن انظر المجتمع المدنى ١١٩ ، جوامع السيرة ١٤٩ - ١٥٠ ، زاد المعاد ٣/ ٢٧٣ الدرر فى اختصار المغازى والسير ١٩٥ ، العبقرية العسكرية ١٩٨ ، غزوة الاحزاب محمد احمد باشميل ١٩٩ - ٢٠٤ .

(٤) انظر سيرة ابن هشام ٣/ ١٣٧ - ١٣٨ ، السيرة النبوية لابن كثير ٣/ ٢١٤ الدرر فى اختصار المغازى والسير ١٩٨ - ٢٠٠ .

وبعد انتصار المسلمين فى الاحزاب ، فاجأ بنى قريظة واراح المدينة من شرهم واذاهم.[١] وعندما تمت الهدنة بين الرسول صلى الله عليه وسلم وقريش، غزا يهود خيبر بعد ان استطاع ان يعزل اليهود عن حلفائهم من غطفان بذهابه الى الرجيع وايهامه لهم بانه يقصدهم فعادوا ليحموا ديارهم وبهذا استطاع ان يقاتل اليهود وحدهم.[٢]

وكان يقوم بحروب خاطفة ومفاجئة لقبائل الجزيرة حتى لا تفكر فى القتال ثم فتح مكة وكانت فيها قريش منعزلة عن بقية القوى ، ثم كانت غزواته عليه الصلاة والسلام بعد ذلك الى حنين والطائف وتبوك ، وفى كل منهما واجه عدوا واحدا وقاتل فى جبهة واحدة.[٣]

وهكذا سار المسلمون فى مسيرتهم المظفرة يحددون الاهداف ويقدرون الاوليات حسب ظروفهم وظروف اعدائهم وحسب امكانياتهم المتاحة.[٤]

٢- حشد القوى :

ان حشد القوة الكافية والمتكافئة مع قوة العدو امر لازم ، ولا يتم نصر الابه ، والرسول صلى الله عليه وسلم طبق هذا المبدأ تطبيقا رائعا[٥] ، فلم يشرع الجهاد فى مكة اصلا ، لان عدد المسلمين لم يكن كافيا لمجابهة قريش، ولذلك جاء التوجيه الالهي (الم تر الى الذين قيل لهم كفوا ايديكم واقيموا الصلاة).[٦]

وعندما اراد الانصار الذين بايعوا بيعة العقبة الثانية ان يميلوا على قريش ويقاتلوهم منعهم من ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لهم : (لم نؤمر بذلك ارجعوا الى ارحالكم).[٧]

---

(١) انظر جوامع السيرة ١٥٢.

(٢) سيرة ابن هشام ٣/٢١٢- ٢١٣ ، سيرة ابن كثير ٣/٣٤٥ ، جوامع السيرة ١٦٧. زاد المعاد ٣/٣١٧ وقال محققه رجاله ثقات وانظر الرسول القائد ٢٨٦.

(٣) انظر سيرة ابن هشام ٢/٤٣٦ ، ٤٧٧ ، ٥١٥ ، ٥١٦ طبعة الحلبى وانظر العبقرية العسكرية ١٩٨.

(٤) انظر ذلك فى استراتيجية الفتوحات الاسلامية ٢٣ - ٢٦.

(٥) انظر استراتيجية الفتوحات ٣٨.

(٦) النساء : ٧٧.

(٧) سيرة ابن هشام ٢/٦٨ وقال الالباني حديث صحيح وذكر من خرجه انظر فقه السيره ١٥٠ ، ١٥٣.

والرسول صلى الله عليه وسلم لم يبدأ مرحلة الجهاد العسكرى الا بعد أن استقرت له الظروف فى المدينة ، ودخل كثير من الناس فى الاسلام، واصبحوا جنودا يستطيع ان يقابل بهم اعداءه.(١)

وفى كل معركة او غزوة كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحشد لها مايستطيعه من القوات ليحسم المعركة لصالحه. ففى(٢) فتح مكة حشد عشرة آلاف مقاتل وعندما سمعت به قريش ورأته هابته وامتلكها الرعب، وعلمت انها لا قبل لها به،(٣) وفى غزوةتبوك استطاع ان يحشد اكبر قوة ممكنة وصرح بوجهته اليها من اجل هذا المقصد ، فخرج معه ثلاثون الف مقاتل ، وعندما سمع الروم بقوتهم تفرقوا ولم يلق المسلمون حربا(٤).

وعندما انسحب خالد بالجيش من موءته ورفض مواجهة الروم الذين بلغ عددهم مائتى الف، ورجع بجيشه اعتبره الرسول صلى الله عليه وسلم كرارا وليس فرارا(٥)، بل اعتبر انسحابه المنظم فتحا حيث قال : (حتى اخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم)(٦).

وقد اصبح هذا المبدأ مبدأ اساسيا فى العسكرية الاسلامية فى ايام الصحابة ومن بعدهم فاستطاع ابوبكر رضى الله عنه ان يحشد للمرتدين احد عشر لواء - وعلى هذه السيرة سار من بعده.(٧)

---

(١) الرسول القائد ٤٤٩ - ٤٥٠
(٢) انظر المدرسة العسكرية الاسلامية ٤٠٤ و، الرسول العربى مصطفى طلاس ٢٧٥.
(٣) انظر سيرة ابن هشام ٤/ ٣٠ - ٣٤ و طبقات ابن سعد ٢/ ٣٩٧ و الدرر فى اختصار المغازى والسير ٢٥٣.
(٤) انظر فتح البارى ٨/١١٧ - ١١٨ .
(٥) سيرة ابن هشام ٤/ ١٦ بسند حسن الى عروه لكنه مرسل ضعيف . المجتمع المدني ١٦٨ وانظر استراتيجية الفتوحات الاسلامية ٣٨ .
(٦) اخرجه البخارى كتاب المغازى باب غزوة موءته فى ارض الشام فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٧/ ٥١٢.
(٧) انظر الهدرسة العسكرية الاسلامية ٤٠٥ - ٤٠٦ و، استراتيجية الفتوحات الاسلامية ٣٨ و تفسير الطبرى ٣/ ٢٤٩.

٣ـ الاقتصاد في القوة وادخارها :

لقد راعى رسول الله صلى الله عليه وسلم مبدأ الاقتصاد في القوة في كل غزواته ولم يندب قوة لواجب ما ، الا وهي كافية لذلك الواجب من كافة الوجوه بدون زيادة او نقصان (١) .

واما عن ادخار القوى فقد تجلى ذلك في موقف الرسول الاعظم عندما جعل قوة قوامها اربعمائة مجاهد ترابط في المدينة حفاظا عليها من اليهود ، وكان يقود سلمة بن اسلم مائتي رجل وزيد بن حارثة ثلاثمائة رجل يتجولون في انحاء المدينة ويظهرون التكبير (٢) .

وهذا المبدأ الذي سبق الرسول صلى الله عليه وسلم كبار العسكريين اليه جعله كلاوزميز مبدأ اساسيا و مهما لمواجهة الحالات غير المتوقعة او لمعاونة قوة تحتاج الى عون (٣) .

والامثلة كثيرة على تطبيق القواد العسكريين المسلمين لهذا المبدأ اذكر منها مافعله ابو عبيده رضي الله عنه ، وهو يقوم بهجوم شامل على مدينة دمشق ولكنه كان يدرك ان هناك قوات للروم في فحل ، ولذلك وضع قوة بازائهم وبعث ايضا ذا الكلاع حتى كان بين دمشق وحمص رد ءا ، وبعث حكيم ومسروقا فكانا بين دمشق وفلسطين والامير يزيد (٤) وظلت هذه القوة تؤدي واجبها حتى فتح الله دمشق للمسلمين (٥) .

---

(١) الرسول القائد ٤٥٠ ، وانظر الرسول العربي ٢٧٤ .
(٢) انظر طبقات ابن سعد ٢ / ٦٧
(٣) انظر الوجيز في الحرب ٢٠٩
(٤) تاريخ الطبري ٣ / ٢٣٢
(٥) انظر المدرسة العسكرية الاسلامية ٤٠٨ وانظر امثلة اخرى في الصفحات التي تليها . . . .

وفى فتح عمرو بن العاص لمصر وفى معركة هيلوبليس مع الروم ، طبق مبدأ ادخار القوى تطبيقا رائعا ، حيث فاجأ الروم بالقوة المدخرة وظن الروم انهم يقاتلون ثلاثة جيوش ، فقد خصص قوتين من المسلمين كل منهما خمسمائة مقاتل لا تشترك فى القتال الا بعد ان يكون الجهد قد نال من الروم ، ووضع القوة الاولى عند قلعة الجبل ، ووضع القوة الاخرى عند ام دنين والتحم هو معهم بالقوة الرئيسية ، ثم تدخلت تلك القوات لتحسم الموقف لصالح المسلمين ولتدخل الرعب والهلع فى نفوس الروم.(١)

٤ ـ المباغتة :

ان المباغتة هى اساس كل الاعمال العسكرية بلا استثناء (٢) ، وهى احداث موقف لا يكون العدو مستعدا له ، مما يوقعه فى الحيرة والارتباك ثم التخبط ويحول بينه وبين التفكير السليم المرتب الذى يؤهله للقيام بفعل اورد فعل مناسب ويعتبر الكتمان والسرعة العاملين الفعالين فى تحقيق المباغتة ، وتكون المباغتة فى المكان او الزمان او الاسلوب.

ومن اسس المباغتة التى تقوم عليها الخديعة ، وقد جعلها رسول صلى الله عليه وسلم اساس الحرب ، بل هى الحرب فقال مبينا اهميتها: (الحرب خدعة) (٤).

---

(١) فتوح مصر واخبارها ٥٩ وانظر شخصيات عسكرية اسلامية ٢٥٢ - ٢٥٣ .
(٢) الوجيز فى الحرب ١٩٧ .
(٣) انظر الرسول القائد ٤٥٦ و استراتيجية الفتوحات الاسلامية ٥٨
(٤) اخرجه البخارى كتاب الجهاد باب الحرب خدعه فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٦ / ١٥٨ وجعل البخارى عنوانا لباب من ابواب الجهاد باب الكذب فى الحرب واورد فيه قتل كعب بن الاشرف وتقول محمد بن مسلمه على الرسول صلى الله عليه وسلم واذنه له بذلك فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٦/١٥٨ - ١٥٩ .

وجعل الكتمان وهو العنصر المهم فى الخديعة امرا الهيا فقال (استعينوا على انجاح الحوائج بالكتمان فان كل ذي نعمة محسود) (١) . ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى معاركه يصرح بوجهته بل كان يورى بغيرها فقد اخرج البخارى فى صحيحه من حديث كعب بن مالك الطويل قوله : (ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة الا ورى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة) (٢) .

ومن امثلة الكتمان الشديد تلك الرسالة التى ارسل بها مع عبد الله بن جحش والتى امره ان لايفتحها الا بعد مسيرة يومين عند وصوله لموضع نخله (٣) ، ومن الامثلة الرائعة فى الكتمان ، كتمانه مسيره الى فتح مكة ، واستطاعته ان يصل الى ضواحى مكة دون ان تستطيع قريش معرفة وقت حركته ولا نواياه ، فاضطرت قريش للتسليم وانطلق ابو سفيان الى مكة يصرخ فى قومه باعلى صوته (يامعشر قريش هذا محمد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار ابى سفيان فهو آمن .. من اغلق عليه بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن فتفرق الناس الى دورهم والى المسجد) (٤) .

وجعل التعريض والكذب على الاعداء امرا مباحا فقال عليه الصلاة والسلام : (ليس الكذاب الذى يصلح بين الناس ويقول خيرا وينمى خيرا) . وقال باسناد آخر : (ولم اسمعه يرخص فى شى مما يقول الناس الا فى ثلاث الحرب والاصلاح بين الناس وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها) (٥) .

---

(١) اخرجه السهمى فى تاريخ جرجان ٢٢٣ وابن حبان فى روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ١٨٧ واورده الالباني فى سلسلة الاحاديث الصحيحة برقم ١٤٥٣ ، ٣/١٤٤٦ ، وقال بعد ان اورد الحديث بالسند السابق (فالحديث بهذا الاسناد جيد عندى) وذكر من خرجه غيرهم ، واخرجه فى صحيح الجامع الصغير برقم ٩٥٦ ، ١/٣٢٠ .

(٢) صحيح البخارى كتاب المغازى باب حديث كعب بن مالك فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٨/١١٣ .

(٣) سيرة ابن هشام ٢/١٧٨ - ١٧٩ وانظر جوامع السيرة النبوية ٨٢ وانظر زاد المعاد ٣/١٦٧ .

(٤) سيرة ابن هشام مجلد ٣ - ٤ /٤٠٤ - ٤٠٥ طبعة الحلبى .

(٥) اخرجه مسلم كتاب البر والصلة والاداب باب تحريم الكذب وبيان المباح منه ٤/٢٠١١ واخرج البخارى الجزء الاول من الحديث فى كتاب الصلح باب ليس الكاذب الذى يصلح بين الناس فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٥/٢٩٩ .

ومن الامثلة الرائعة للتورية النبوية ماأجاب به رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ان اخبره خبر قريش فقد قال ابن اسحاق : (حتى وقف على شيخ من العرب فسأله عن قريش وعن محمد واصحابه ومابلغه عنهم ، فقال الشيخ : لا اخبركما حتى تخبراني ـ وكان معه ابوبكر ـ فمن انتما ؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا اخبرتنا اخبرناك ، فقال : اوذاك بذاك ؟ قال : نعم . قال الشيخ: فانه بلغني ان محمدا واصحابه ، فان كان صدق الذى اخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا ، للمكان الذى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبلغني ان قريشا خرجوا يوم كذا وكذا فان كان الذى اخبرني صدقني فهم اليوم بمكان كذا وكذا ، للمكان الذى به قريش ، فلما فرغ من خبره قال : فمن انتما ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نحن من ماء ! ثم انصرف عنه ، قال يقول الشيخ ما : من ماء ؟ امن ماء العراق ؟!)(١)

ومن امثلة الكذب على الاعداء في المعارك ، مافعله نعيم بن مسعود من الكذب على اليهود وقريش وغطفان ففي ذلك المثل الرائع والذى تحقق بفضل الله على اثره تفرق الاحزاب وتشتيت شملهم.(٢)

ومن امثلة المباغتة في المكان غزوة بني لحيان ، فقد تحرك رسول الله صلى الله عليه وسلم شمالا باتجاه بلاد الشام حتى لا تعرف قريش وبنو لحيان اتجاه حركته الحقيقية فلما انتشرت اخبار حركة المسلمين الى الشمال ، عاد الرسول صلى الله عليه وسلم باتجاه بني لحيان و بذلك باغتهم في المكان.(٣)

ومن امثلة المباغتة في الزمان غزوة بني قريظة اذ تحرك اليهم في وقت لا يتوقعونه وامر اصحابه بالسرعة فقال : (لا يصلين احدكم العصر الا في بني قريظة)(٤) فشل بذلك حركتهم وفاجأهم في عقر دارهم.

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ٢/٣٩٦

(٢) انظر سيرة ابن هشام ٣/١٣٧ - ١٣٨ والسيرة النبوية لابن كثير ٣/٢١٤ و نظم الحرب في الاسلام ٩٣ - ٩٤

(٣) اتحاف الورى باخبار ام القرى ١/٤٤٦ والدرر في اختصار المغازي والسير ٢١٢ والرسول القائد ٤٤٧ - ٤٤٨

(٤) سيرة ابن هشام ٣/١٤٠ والمغازي النبوية للزهري ٨٠ وانظر الرسول القائد ٤٤٨ و الرسول العربي ٢٧٥.

ومن امثلة المباغتة فى الاسلوب قتاله صلى الله عليه وسلم فى بدر باسلوب الصف الذى لم يعرفه العرب (١).

ومن امثلة المباغتة باستعمال اسلحة جديدة ، استخدام الرسول صلى الله عليه وسلم الدبابه والمنجنيق فى حصار الطائف (٢).

هذا هو مبدأ المباغتة الذى طبقه الرسول صلى الله عليه وسلم فى غزواته وكان له اعظم الاثر فى نتائجها الحاسمة (٣).

وبروح هذا الهدى الاسلامى ، واتباعا لسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم العطرة سار صحابته وقادة الفتوح الاسلامية فى فتوحاتهم فحقق الله لهم النصر على عدوهم (٤).

ومن امثلة ذلك الكثيرة مافعله عمرو بن العاص حين سار لفتح مصر ، حيث تجنب كافة الحصون والمقاومات الثانوية الممتدة من حدود فلسطين حتى الفرما حيث سار من رفح فى طريق غير متوقع ، ودون ان يمر بالعريش او الغاربا حتى يحقق المفاجأة التى ادركها يوحنا المصرى الذى كان قد اسلم فى الشام ورافق جيش المسلمين الى مصر اذ قال لعمرو بن العاص (انك تريد ان تدهم مصر على حين غرة من اهلها وانا ممن يمكننى ذلك) (٥).

---

(١) سيرة ابن هشام ٣/١٧٤ و السيرة النبوية لابن كثير ٣/٢٨٥ وانظر الرسول القائد ٤٤٨

(٢) انظر الرسول العربى ٢٧٥ و الرسول القائد ٤٤٨ وسبق ذكر ذلك عند الحديث عن الاعداد المادى.

(٣) انظر الرسول القائد ٤٤٩

(٤) انظر المدرسة العسكرية الاسلامية ٤١٣

(٥) انظر فتوح البلدان للبلاذرى ١/٢٤٩

ولقد كان لعنصر المفاجأة اثر بالغ فى نصر هوازن فى بداية غزوة حنين عند ما كمنت للمسلمين فى شعاب الجبل ، ثم امطرت المسلمين بوابل من السهام فارعبت هذه المفاجأة المسلمين وجعلت كثيرا منهم يفرد ون تفكير او روية ولولا ثبات الرسول والقلة التى معه لكانت هزيمة ساحقة للمسلمين .(١)

٥ - التعرض:

ان احراز النصر وفتح البلاد لايكون بالدفاع ، وانما يكون بالهجوم ، وان كان ايضا هو وسيلة للدفاع (لان افضل وسيلة للدفاع هى الهجوم والهجوم يوءدى الى كسب السيطرة ويمنح حرية العمل ، ويلزم العدو باتخاذ خطة الدفاع ويرفع من روح المقاتلين المعنوية فى الوقت الذى يضعف فيه روح الطرف الاخر.)(٢)

واذا كان الهجوم هو وسيلة النصر والفتح ، فان للدفاع اهميته ايضا اذا استخدم فى وقته المناسب واتخذت كافة الاستعدادات ، فليس اخيب للجيش من ان يرجع بخفى حنين .

ونظرا لاهمية مبدأ الهجوم (التعرض) فقد كانت كل غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم هجومية ماعدا غزوتى (احد) و(الخندق) اذ ان المشركين هم الذين هاجموا المدينة بقواتهم .(٣)

ولكن لكل من هاتين الغزوتين خطتها الرائعة فى الدفاع وكان النصر حليف المسلمين فيهما .

---

(١) سيرة ابن هشام ٤/ ٦٣ من حديث الصحابى الجليل جابر بن عبد الله الانصارى باسناد صحيح صرح فيه ابن اسحاق بالسماع. والمجتمع المدني ٢٠٠ وانظر موارد الظمآن الى زوائد ابن حبان ٤١٧ ، و المدرسة العسكرية الاسلامية ٤١٣ - ٤١٤ .

(٢) انظر المدرسة العسكرية الاسلامية ٤١٤ و الرسول العربى ٢٧٤

(٣) انظر الرسول القائد ٤٤٥ و الرسول العربى ٢٧٤ .

وقد كان هذا المبدأ هو الاساس في الحروب الاسلامية فيما بعد ولو اردنا هنا ان نقدم امثلة للتعرض ، فهذا يعني ان ننشر تاريخ الحرب في الاسلام ، فبلاد الشام والعراق ومصر وافريقيا والاندلس وغيرهما انما فتحت بهذا المبدأ الاسلامي الرائع.(١)

٦- المرونة :(٢)

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يولي مبدأ المرونة اهتماما كبيرا في معاركه وقد استطاعت القوات الاسلامية ان تصل الى اهدافها في الوقت المناسب فتحبط نوايا العدو العدوانية قبل ان يستكمل العدو استعداداته للمعركة وان المرونة وسرعة الحركة لاتتم الا بالتدريب ، وقد رأينا كيف كان حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على تدريب المسلمين .(٣)

وفي غزوة خيبر التي وصل فيها الرسول صلى الله عليه وسلم مواقع اليهود في اربعة مراحل بدلا من خمس دليلا على سرعة الحركة ، وكيف تحققت مفاجأتهم بذلك وقالوا محمد والخميس محمد والخميس .(٤)

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مرنا في وضع خططه وفي تنفيذها وكان يعدل في الخطط عند الحاجة وحسب الظروف .(٥)

---

(١) انظر شخصيات عسكرية اسلامية ٢٣٠ .

(٢) (ان المبدأ الذي كان يسمى قبل الحرب العالمية الثانية بمدأ قابلية الحركة اصبح يسمى الان مبدأ (المرونة) ذلك لان قابلية الحركة) تدل على الحركة المادية وهي صفة نسبية لايعبر عنها تعبيرا صحيحا الا بالمقارنة مع قابلية حركة العدو ولكن (المرونة) تعني اكثر من ذلك انها لاتتضمن قوة الحركة فحسب بل قوة العمل السريع كذلك) الرسول القائد ٤٥٢

(٣) انظر الرسول القائد ٤٥٢ و الرسول العربي ٢٧٤

(٤) انظر خبر مسيره ليلا وخبر مفاجئته لليهود صحيح البخاري كتاب المغازي باب غزوة خيبر فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٧/٤٦٧ و زاد المعاد ٣/٣١٩ و الدرر في اختصار المغازي والسير ٢٢٩ وانظر امثلة اخرى في كتاب المدرسة العسكرية الاسلامية ٤١٦ .

(٥) الرسول القائد ٤٥٢ .

ومن امثلة المرونة فى الحركة مابعد عصر النبوة ، مافعله خالد بن الوليد عند ما تحرك من العراق الى اليرموك ، فقد سار بقواته فى بادية لا ماء فيها والى الروم فى مأمنهم وفاجأهم بمالم يحتسبوا (١).

٧- الامن :

ونقصد بالامن توفير الحماية للقوة ولمواصلاتها لوقايتها من المباغتة و منع العدو من الحصول على المعلومات.

لقد حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذا المبدأ حرصا شديدا فقد كان يؤمن قواته فى كافة الغزوات ، وكان يبذل غاية الجهد لمنع العدو من الحصول على المعلومات.

فدوريات الاستطلاع والطلائع و الساقات التى كان يؤمنها الرسول صلى الله عليه وسلم فى مسيره للعدو وعند العوده ، كان لغرض حماية قواته فى مباغتة العدو لها (٢).

وكذلك تأمين الحراسات والعسس والعيون كان لحماية قواته. وكما حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على معرفة اخبار عدوه ، فقد حرص كل الحرص على عدم وصول اخباره لاعدائه. وذلك بكتمانه كافة تحركاته العسكرية ، بل ايهام الناس ثم اتخاذ جهة اخرى (٣).

---

(١) المدرسة العسكرية الاسلامية ٤١٦ وانظر امثلة اخرى للمرونة والحركة فى الصفحات التى تليها. وانظر ايام العرب فى الاسلام ٢٠٦- ٢٠٧ محمد ابو الفضل ابراهيم وعلى محمد البجاوى وانظر خالد بن الوليد المخزومي محمود شيت خطاب ٢٣٥. ٤٥٠- ٤٥١

(٢) انظر المدرسة العسكرية ٤١٨ - ٤٢٠ وانظر الرسول القائد وانظر اقتباس النظام العسكرى فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ٢٥٤- ٢٥٨. وانظر نماذج هذا الاستطلاع والحرص على المعلومات وتطبيقها فى غزواته صلى الله عليه وسلم فى كتاب الرسول القائد ١٧٨ ، ٣٣٩ ، ٣٧٤ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، وانظر العبقرية العسكرية ٢٥٤ ، ٣٤٢ ، ٤١٧ ، ٤٣١ ، وانظر نظم الحرب ٨٥- ٨٧. وقد اورد البيهقى فى سننه كثيرا من الامثلة الواردة فى الصحيحين او احدهما وغيرهما فى كتاب السير باب بعث العيون والطلائع من المسلمين ١٤٨/٩.

(٣) انظر الرسول القائد ٤٥١، نظم الحرب ٨٥- ٨٧، غزوة الاحزاب محمد ابو فارس ٩٠ و اقتباس النظام العسكرى فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ٢٥١

ولقد اثبت تاريخ صدر الاسلام ان من اسباب انتصار المسلمين على اعدائهم الكثيرين ،أن أسرار النبى صلى الله عليه وسلم واسرار المسلمين كانت مصونة وبعيدة عن متناول الاعداء، فى الوقت الذى كان هو يعرف اخبارهم بواسطة عيونه وارصاده .(١)

وعلى هذا سار قادة الاسلام العظام، فهذا عمرو بن العاص وكان قائد سرية ذات السلاسل قد منع المسلمين من ايقاد النار خوفا من ان يكشفهم العدو ، وكان خلال مسيره يسير ليلا ويكمن نهارا .(٢)

٨- التعاون :

ويعنى توحيد العمل والتضامن من اجل الوصول الى الهدف(٣)، واذا كان التعاون ضروريا ومبدءا اسلاميا فى كل شؤون الحياة ، فان التعاون عند لقاء العدو اكثر لزوما وضرورة ، ولا يتصور انتصار على العدو اذا لم يكن هناك تعاون بين كافة فئات المجاهدين .

فالعمل العسكرى امر عظيم يحتاج الى كل تكاتف وتعاون ، والتعاون امر الهى للمؤمنين يقول تعالى : (وتعاونوا على البر والتقوى)(٤) .

وقد كان التعاون هو سمة غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم ففى غزوة بدر كانت الخطة . ان يمطر رماة المسلمين المشركين عند قربهم ، ثم يلتحم المسلمون مع المشركين بسيوفهم، وقام الرماة بالمهمة خير قيام ، مما سهل مهمة المشاة بسيوفهم .(٥)

---

(١) اقتباس النظام العسكرى فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ١٧٤ .

(٢) انظر طبقات ابن سعد ٢/١٣١ وانظر زاد المعاد ٣/٣٨٦ وانظر شخصيات عسكرية اسلامية ٢٢٨ - ٢٢٩، ٢٣١ .

(٣) المدرسة العسكرية الاسلامية ٤٢٠ .

(٤) ٢ : المائدة .

(٥) انظر صحيح البخارى كتاب المغازى دون تسمية الباب فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٧/٣٠٦ . وانظر الرسول القائد ٤٥٣ .

وعلى هذا المبدأ درج المسلمون في معاركهم الحاسمة عبر تاريخهم الحافل بالانتصارات، واعظم امثلة التعاون ما كان في معركة اليرموك، عندما رأى خالد بن الوليد المسلمين يقاتلون باربع قيادات فعرض على القادة ان يوحدوا القيادة ويقاتلوا متعاونين فاستجاب القادة لطلب خالد على ان يتولى القيادة كل يوم واحد، فحقق الله للمسلمين بفضل تعاونهم واتحادهم النصر على جموع الروم الكثيرة.(١)

٩ـ المطاردة:

وتعني متابعة المنهزم ومحاولة القضاء عليه حتى لا يملك القدرة على العودة الى الميدان ليحارب من جديد(٢)، ولعل الآية الكريمة تشير الى هذا المبدأ حيث يقول تعالى: (فاما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم)(٣).

وللمطاردة اثر كبير في النصر الدائم وعدمه، فاذا قام القائد البارع بمتابعة الجيش المنهزم حقق النصر، واذا غفل عنه، فقد تدور الدائرة عليه وينهزم مرة ثانية، ففي غزوة حنين لم ينجح مالك بن عوف في مطاردته للمسلمين بفضل ثبات القلة مع الرسول صلى الله عليه وسلم، وقيامها بعرقلة المطارده، ولهذا ظل الجيش الاسلامي بقوته متكاملا، حتى اذا عاد الى المعركة عاد قويا فانتزع نصرا كاد يفقده.(٤)

---

(١) الكامل لابن الأثير ٢/٢٠٠، وانظر المدرسة العسكرية الاسلامية ٤٢١ وانظر اثر التعاون في النصر شخصيات عسكرية اسلامية ٢٢٦ وانظر تفسير الطبري ٣/٣٩٥ - ٣٩٦.

(٢) المدرسة العسكرية الاسلامية ٤٢١ وانظر الرسول القائد ٣٧٣ - ٣٧٤ وانظر الرسول العربي ٢٣٦ وانظر خالد بن الوليد ٢٤٣

(٣) ٥٧: الانفال.

(٤) انظر صحيح البخاري كتاب المغازي باب قول الله تعالى (ويوم حنين اذ اعجبتكم كثرتكم.. فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٨/٢٧ - ٢٨

وعند ما انتصر المسلمون فى الجولة الثانية قاموا بمطاردة مثالية استطاعوا القضاء على المشركين المتجهين الى اوطاس ونخلة، ووصلوا بمطاردتهم الى الطائف، وماحمى المشركين من سيوف المسلمين سوى حصونها التى حاصرها الرسول تتميما للمطاردة.(١)

لذلك

واستغلال رسول الله صلى الله عليه وسلم وصدور اوامره بالمطاردة سبق عسكرى، اعترفت به القيادات العسكرية التى جاءت بعد الاسلام بثلاثة عشر قرنا على الاقل.

فنابليون كان يرى ان الانتصار لايعد شيئا اذ يجب اتمام وتعزيز هذا النصر، وقال : (ان سر الحرب هو ان تمشي اثني عشر فرسخا وتخوض غمار المعركة، ثم تمشى اثنى عشر فرسخا أخرى للمطاردة).(٢)

وهكذا سار قادة الفتح الاسلامى فى كافة ميادين القتال. ففى حروب العراق كان خالد حريصا على مطاردة المنهزمين من قوات الفرس وكذلك المثنى بن حارثة ومن بعده سعد بن ابى وقاص.

وكذلك كان عمرو بن العاص فى قتاله للروم فى مصر، وكذلك موسى بن نصير وطارق بن زياد وهما يقودان جيوش المسلمين فى شمال افريقيا وفى حروب الاندلس وغيرها، كل ذلك ايمانا منهم بان المطاردة هى الضربة القاصمة التى تكسر العدو فيوءمن جانبه.(٣)

---

(١) انظر صحيح البخارى كتاب المغازى باب غزوة اوطاس وغزوة الطائف فتح البارى بشرح صحيح البخارى وتعليق ابن حجر عليه ٤١/٧ - ٤٢، ٤٣ - ٤٤ وانظر زاد المعاد ٤٧٢/٣، وانظر جوامع السيرة ١٨٩ - ١٩٠ وانظر المجتمع المدني ٢٠٧، ٢٠٩ وانظر الرسول القائد ٣٧٤ وانظر العبقرية العسكرية ٦٠٢

(٢) المدرسة العسكرية الاسلامية ٤٢٢ والفرسخ يقدر بـ ٦، ٣ ميل.

(٣) انظر شخصيات عسكرية اسلامية ٢٦ وانظر المدرسة العسكرية الاسلامية ٤٢٢

وبعد فهذه هى اهم اسباب النصر التى ارشد الله تعالى اليها لتحقيق سننته فى نصر المؤمنين وهزيمة الكافرين ،فاذا استوفى المؤمنون ماامرهم الله بـه مـن اسباب معنوية من اتصال بالله وتوكل وايمان وصبر وشورى . لا واسباب ماديـه سواء كان سلاحا او تدريبا اورباطا او تخطيطا او فن حرب، اذا استوفـى المؤمنون هذا كله وفى الله لهم بما وعدهم اياه من النصر والتمكين ،ولكـن يبقى ان انبه الى شرط مستقبلى اشترطه الله لنصره للمؤمنين ،وهو اهلية المؤمنين (او الجماعة) الذين ينصرهم لحمل امانة الاسلام والدعوة اليه والاستقامـة على منهجه ،فالله عزوجل لاينصر مؤمنين اذا منحهم النصر لايقومـون بتبعات هذا النصر من اظهار لشعائر الله وتمكنها فى النفوس ومن دعوة الـى الله بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر .(١)

وبتعبير آخر يمكن القول ان الله لاينصر جماعة لاتوفى الغاية التى من اجلها شرع الله الجهاد وهو اعلاء كلمة الله فى الارض وجعل كلمته هى العليا وكلمة الذين كفروا هى السفلى . وقد جاء هذا الشرط صريحا فى قوله تعالى : (الذيـن ان مكناهم فى الارض اقاموا الصلاة واتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكـر ولـله عاقبة الامور) .(٢)

وقد خص الله هذه الامور الثلاثة لتحقق النصر ودوامه نظرا لاهميتها فالصلاة هى ارفع مظاهر الشكر للخالق المنعم بمافى هيئتها من خضوع وتذلل وخشـوع

---

(١) انظر بصائر للمسلم المعاصر ١٨٧

(٢) ٤١ : سورة الحج .

وبما اشتملت عليه من اسمى مراتب العبادة لله الواحد الاحد ، وبما تضمنته من تفرد بالتوجه اليه بمالا ينبغى لسواه ، وهى اجل دعائم الايمان بمافيها من الانقطاع بالاشتغال بها عن كل ماسوى الله تعالى فهى عماد الدين من اقامها كاملة بحقيقتها الروحية فقد اقام الدين كله ، فالصلاة رمز الامتثال العبد امر الله كله.(١)

واما الزكاة فهى الدعامة الرئيسية لقيام المجتمع الاسلامى على العدل والرحمة والتعاطف والبر والتكافل ، وهى السبيل لتطهير النفس من الشح المهلك وتطهير للمجتمع من امراض الحقد والحسد والطمع وهى سبيل الامان للغنى وسبيل الحياة الشريفة للفقير (خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها).(٢)

والزكاة ليست احسانا مذلا ولكنها حق واجب وهى اخت الصلاة وصاحبتها الملازمة فى القرآن (٣).

واما الامر بالمعروف والنهى عن المنكر، فهو خصيصة هذه الامة التى تميزت بها والتى اخرجت ليكون هدفها هو بذل المهج والارواح والاموال فى دعوتها الناس كافة الى الخير، بالترغيب فى فعل ماينبغى من البر والخير والعمل الصالح القائم على العلم والمعرفة والعزة والكرامة ، وهذا هو المعروف ، والترهيب فى ترك مالا ينبغى من الكفر بالله والكنود والشر والجهل باسرار الكون ، والرضا بالعبودية للمخلوق او الهوى او الشهوات وهو الذى عبر عنه النص القرآنى بالنهى عن المنكر وماالجهاد والذى يشمل جهاد النفس والشيطان والكفار والمنافقين الا الصورة العليا لهذا الامر بالمعروف والنهى عن المنكر.(٤)

---

(١) انظر القرآن العظيم هدايته واعجازه محمد صادق عرجون ٣٠٣ - ٣٠٤ وانظر التفسير الواضح ١١/ ٦٢ وانظر تفسير المنار ١/ ٤٢٢

(٢) التوبة : ١٠٣

(٣) انظر القرآن العظيم هدايته ٣٠٤ وانظر تفسير المنار ١/ ٤٢٢

(٤) انظر القرآن العظيم هدايته واعجازه ٣٠٦ - ٣٠٧

هذه هي اهم العوامل والاسباب التى ان أخذ بها المؤمنون والتزموا بها واجتنبوا الوقوع فى اسباب الهزيمة منحهم الله النصر وهزم عدوهم ولكن اذا قصروا فى الاخذ بالاسباب ، او وقعوا فى اسباب الهزيمة هزموا امام اعدائهم تحقيقا لسنته في الهزيمة لمن خالف امره ، ولكن الله عزوجل يرحم المؤمنين ، ولا تكون هذه الهزيمة هى النهاية بل هى حلقة من سلسلة الصراع بينهم وبين الكفر.

٤ـ تداول النصر والهزيمة بين المؤمنين والكفار وحكمة ذلك :

هذه هى سنة الله فى نصر المؤمنين وهزيمة الكافرين، ولكن قد يغلب الكفار المؤمنين لا حبا من الله فى الكفار ولا نصرة لهم ولكن قد يكون ذلك عقابا للمؤمنين الذين يفرطون فى الاخذ بما امرهم الله به من اسباب نصره وتأييده وفى ذلك ايضا تحقيق لسنة اخرى من سنن الله عزوجل (١) وهى مداولة الايام بين الناس قال تعالى : (وتلك الايام نداولها بين الناس) (٢).

فتكون مرة للمؤمنين لينصر الله دينه ، ومرة للكافرين اذا عصى المؤمنون ربهم او خالفوا سنته فى نصره لهم. (٣)

ولكن شتان بين نصر وغلبة، فاما غلبة الكافرين فليس نصرا على الحقيقة انما هو نصر مؤقت واستدراج لهم حتى يطغوا ويبغوا (٤) . فيأتى نصر المؤمنين فيهلك الله اعداءهم ويمحقهم ، والمحق هو نقص الشيء قليلا قليلا ، فان كانت الدولة على المؤمنين فللتمييز والاستشهاد والتمحيص وغير ذلك مما هو اصلح لهم وان كانت على الكافرين فلمحقهم ومحو اثارهم . (٥)

---

(١) انظر فى ظلال القران ١ / ٤٨٠ وانظر تفسير المنار ٤ / ٧٩ .

(٢) ١٤٠ : آل عمران

(٣) انظر تفسير القرطبى ٢ / ١٤٦٠

(٤) انظر تفسير الطبرى ٤ / ٩٩ وانظر تفسير ابن كثير ١ / ٤٠٨

(٥) انظر تفسير البيضاوى ٢ / ٤٤ - ٤٥ وانظر التسهيل ١ / ٢١٢

ولمداولة الايام بين المؤمنين والكافرين ، وان كانت العاقبة والنهاية للمؤمنين - حكم كثيرة ، قال تعالى مبينا ذلك (ان يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الايام نداولها بين الناس ، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء ، والله لايحب الظالمين ، وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين) (١) .

وقد ذكرت هذه الآيات مجموعة حكم جليلة لادالة الكافرين على المؤمنين منها : ان حكمة الله وسنته في رسله واتباعهم ، جرت بان يدالوا مرة ويدال عليهم اخرى ، لكن تكون لهم العاقبة فانهم لو انتصروا دائما ، دخل معهم المؤمنون وغيرهم ، ولم يتميز الصادق من غيره ، ولو انتصر عليهم دائما لم يحصل المقصود من البعثة والرسالة ، فاقتضت حكمة الله ان جمع لهم بين الامرين ليتميز من يتبعهم ويطيعهم للحق ، وماجاءوا به ممن يتبعهم على الظهور والغلبة خاصة .

ومنها ان يتميز المؤمن الصادق من المنافق الكاذب ، فان المسلمين لما اظهرهم الله على اعدائهم يوم بدر ، وطار لهم الصيت دخل معهم في الاسلام ظاهرا من ليس معهم باطنا ، فاقتضت حكمة الله عزوجل ان سبب لعباده محنة ميزت بين المؤمن والمنافق ، فاطلع المنافقون رؤوسهم في غزوة أحد ، وتكلموا بما كانوا يكتمونه وظهرت مخبأتهم وعاد تلويحهم تصريحا وانقسم الناس الى كافر ومؤمن ومنافق انقساما ظاهرا وعرف المؤمنون ان لهم عدوا في نفس دورهم ، وهم معهم لايفارقونهم فاستعدوا لهم وتحرزوا .

---

(١) ١٤٠ - ١٤١ : آل عمران .

وبهذا يتميز المؤمنون من المنافقين فيعلمهم الله علم رؤية ومشاهدة بعد ان كانوا معلومين في غيبه ، وذلك العلم الغيبي لايترتب عليه ثواب ولاعقاب ، وانما يترتب الثواب والعقاب على المعلوم اذا صار مشاهدا واقعا في الحس.

منها اتخاذه سبحانه منهم شهداء ، فانه يحب الشهداء من عباده ، قد اعد لهم اعلى المنازل وافضلها ، وقد اتخذهم لنفسه فلابد أن ينيلهم درجة الشهادة ، ولاسبيل الى نيل هذه الدرجة الا بتقدير الاسباب المفضية اليها من تسليط العدو.

ومنها تمحيص الذين آمنوا وهو تنقيتهم وتخليصهم من الذنوب ، ومن آفات النفوس ، وايضا فانه خلصهم من المنافقين فتميزوا منهم فحصل لهم تمحيصان تمحيص من نفوسهم ، وتمحيص ممن كان يظهر انه منهم وهو عدوهم (١).

ويقول سيد قطب (والتمحيص بعد الفرز والتمييز ، التمحيص عملية داخل النفس وفي مكنون الضمير ، انها عملية كشف المكنونات الشخصية ، وتسليط الضوء على هذه المكنونات ، تمهيدا لاخراج الدخل والدغل والاوشاب وتركها نقية واضحة لاغبش فيها ولا ضباب ..) (٢)

ومن الحكم ايضا ان الله سبحانه وتعالى اذا اراد ان يهلك اعداءه ويمحقهم قيض لهم الاسباب التي يستوجبون بها هلاكهم ومحقهم ، ومن اعظمها بعد كفرهم بغيهم وطغيانهم ومبالغتهم في اذى اوليائه ومحاربتهم وقتالهم والتسلط عليهم فيتمحص بذلك اولياؤه من ذنوبهم وعيوبهم ويزداد بذلك اعداؤه من اسباب محقهم وهلاكهم (٣).

---

(١) زاد المعاد في هدى خير العباد ٣/٢١٩ - ٢٢٣ بتصرف يسير ،
وانظر تفسير البيضاوي ٢/٤٤ ، وانظر تفسير القرطبي ٢/١٤٦٠ - ١٤٦١
(٢) في ظلال القران ١/٤٨٢
(٣) زاد المعاد ٣/٢٢٢ وانظر فتح القدير ١/٣٨٥

وان تداول النصر بين المؤمنين والكافرين ،ثم محق الكافرين وكون العاقبة للانبياء والمؤمنين هى من اعلام الرسل (١) .

كما قال هرقل لابى سفيان هل قاتلتموه ؟

قال نعـــــم.

قال : فكيف كان قتالكم اياه ؟

قال : الحرب بيننا وبينه سجال ينال منا وننال منه ثم قال هرقل بعد ان سأله سألة اخرى ،وسألتك : هل قاتلتموه ؟ فزعمت انكم قد قاتلتموه . فتكون الحرب بينكم وبينه سجالا ينال منكم وتنالون منه ،وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لهم العاقبة) (٢) .

والعاقبة التى يجعلها الله للرسل هى فى الواقع تحقيق لسنة من سنن الله وهى سنته فى اظهار الحق وازهاق الباطل وهى موضوع حديثنا فى الفصل التالى ان شاءالله . . . . .

---

(١) انظر زاد المعاد ٣/٢١٩

(٢) متفق عليه اخرجه بعضه البخارى كتاب بدء الوحي باب ٧ فتح البارى بشرح صحيح البخارى ١ / ٣٠ ،واخرج الجزء الآخر كتاب الجهاد باب قول الله عزوجل (قل هل تربصون بنا الا احدى الحسنيين)والحرب سجال فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٦ / ٢٠ .
ومسلم كتاب الجهاد والسير باب كتاب النبى صلى الله عليه وسلم الى هرقل يدعوه الى الاسلام ٣/١٣٩٣ - ١٣٩٥

الفصل السابع

سنة الله في اظهار الحق وازهاق الباطل

١ـ الصراع بين الحق والباطل :

ان الله عزوجل ارسل رسله مبشرين ومنذرين كما هى سنته . ولكن الذين كفروا يجادلون بالباطل ، ليغلبوا الحق ويبطلوه ولكن ذلك ليس بحاصل لهم (١)

يقول تعالى : (ومانرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق . .) (٢) وقد جاء التعبير فى الآية بصيغة المضارع ليفيد الاستمرار (٣) وهو ان الكفار دائما يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق ، وقد جادل الكفار قديما قبل بعثة خاتم الرسل انبياءهم وارادوا دحض الحق وطمسه .

وقد بين الله عزوجل مصير هوءلاء المجادلين بالباطل فقال عزوجل : (وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فاخذتهم فكيف كان عقاب) (٤) .

هكذا يصور القرآن الكريم المعركة بين الايمان والكفر وبين الحق والباطل وانها معركة قديمة بدأت منذ فجر البشرية وان ميدانها اوسع من الارض كلها لان الوجود كله مستسلم لله والكافرون هم الشواذ فى هذا الكون لانهم يجادلون بالباطل ولايدينون دين الحق (٥) (...وان من شىء الا يسبح بحمده ولكن لاتفقهون تسبيحهم) (٦) . (وله اسلم من فى السموات والارض طوعا وكرها .) (٧)

---

(١) انظر فى ظلال القران ٤/٢٢٧٦ وانظر تفسير ابن كثير ٣/٩١ وانظر فتح القدير ٣/٢٩٦ .
(٢) ٥٦ : الكهف .
(٣) انظر النحو الوافى ١/٤٦ ، ٥٧
(٤) ٥ : غافر .
(٥) انظر فى ظلال القران ٥/٣٠٦٩
(٦) ٤٤ : الاسراء .
(٧) ٨٣ : آل عمران .

٢- تقرير سنة الله فى اظهار الحق وازهاق الباطل :

والله سبحانه يعلمنا نهاية هذه المعركة غير المتكافئة بين صف الحق الطويل الضخم الهائل وشرذمة الباطل القليلة الهزيلة مهما يكن تقلبها فى البلاد ومهما يكن مظهرها من القوة والسيطرة والمتاع.

هذه الحقيقة ،حقيقة المعركة والقوى البارزه فيها وميدانها فى الزمان والمكان يصورها القرآن لتستقر فى القلوب وليعرفها على وجه خاص اولئك الذين يحملون دعوة الحق والايمان فى كل زمان ومكان فلا تتعاظمهم قوة الباطل الظاهرة ،فى فترة محدوده من الزمان ورقعة محدوده من المكان فهذه ليست الحقيقة ،انما الحقيقة هى التى اعلمنا اياها القرآن والتى تنطق بها كلمة الله وهو اصدق القائلين .(١)

وفى كل هذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين معه فى زمنه ومن جاء بعدهم بأن لهم اسوة فى الامم السابقة فهم ظاهرون على عدوهم .(٢)

والحق ظاهر والباطل زاهق لان الله عزوجل هو الحق ومايدعون من دونه الباطل ،يقول تعالى : (ذلك بان الله هو الحق وان مايدعون من دونه الباطل وان الله هو العلي الكبير) .(٣)

اى هو سبحانه ذو الحق فدينه حق وعبادته حق ونصره لاوليائه على اعدائه حق ووعده حق فهو عزوجل فى نفسه وافعاله حق (وان مايدعون من دونه الباطل

---

(١) فى ظلال القرآن ٥/ ٣٠٧٠ بتصرف يسير.
(٢) انظر تفسير ابن كثير ٤/ ٧٠ - ٧١ و البحر المحيط ٧/ ٤٤٩ - ٤٥٠
(٣) ٦٢ الحج .

فكل مايدعى من دون الله من آلهة مزيفة فهى باطله لاثبوت لها ولا استقرار.(١)

(وذلك تعليل كاف وضمان كاف لانتصار الحق والعدل وهزيمة الباطل والبغى ، وهو كذلك ضمان لاطراد سنن الكون وثباتها وعدم تخلخلها او تخلفها) .(٢)

واذا كان الله سبحانه هو الحق وهو العلى الكبير، فانه عزوجل هو الذى يتولى القذف بالحق على الباطل ليدمغه فاذا هو زاهق، يقول تعالى : (لو اردنا ان نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون) .(٣) فالناموس المقرر والسنة المطرده الا يكون هناك لهو، انما يكون هناك جد ، ويكون هناك حق فيتغلب الحق الاصيل على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق، والتعبير يرسم هذه السنة فى صوره حسيه حية متحركة فكأنما الحق قذيفه فى يد القدره تقذف به على الباطل فاذا هو زاهق هالك ذاهب .(٤) ويصور هذه الصورة صاحب البحر المحيط فيقول : (والمعنى انه يدحض الباطل بالحق واستعار لذلك القذف والدمغ ، تصوير لابطاله واهداره ومحقه فجعله كأنه جرم صلب كالصخرة مثلا قذف به على جرم رخو اجوف فدمغه، اى اصاب دماغه وذلك مهلك فى البشر. فكذلك الحق مهلك الباطل) .(٥) واصل الدمغ شج الرأس حتى يبلغ الدماغ ومنه الدامغه ،فالحق اذا ظهر فانه يقضى على الباطل قضاء تاما .(٦)

ثم ان الباطل زهوق ، فصفته الزوال والاضمحلال وعدم الاستقرار ، لأنه مخالف لكل مافى الكون ، قال تعالى : (ان الباطل كان زهوقا) .(٧) (وزهوقا صفة مبالغة فى اضمحلاله وعدم ثباته فى وقت ما ،(٨) أى ان هذا شأنه فهو يبطل ولا يثبت والحق ثابت دائما .(٩)

---

(١) فتح القدير للشوكاني ٣/٤٦٥ وانظر تفسير ابن كثير ٣/٢٣٢
(٢) فى ظلال القران ٤/٢٤٣٩
(٣) ١٧- ١٨: الانبياء
(٤) فى ظلال القرآن ٣/١٨١٧ وانظر ٥/٢٩١٦
(٥) البحر المحيط ٦/٣٠٢
(٦) فتح القدير ٣/٤٠١ وانظر ٤/٣٣٥
(٧) ٨١: الاسراء .
(٨) البحر المحيط ٦/٧٤
(٩) فتح القدير ٣/٢٥٣

وضرب الله عزوجل مثلا – للاعتبار والاتعاظ – للصراع بين الحق والباطل وان الباطل قد يعلو وينتفش حينا من الدهر ولكن مصيره الزوال والاضمحلال وان الحق وان اختفى احيانا فان مصيره الظهور والبقاء ، يقول تعالى مبينا ذلك : (انزل من السماء ماء فسالت اودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية او متاع زبد مثله ، كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء واما ماينفع الناس فيمكث فى الارض كذلك يضرب الله الامثال). (١)

(اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق فى ثباته وبقائه والباطل فى اضمحلاله وفنائه فقال تعالى : (انزل من السماء ماء) اى مطرا (فسالت اودية بقدرها) اى اخذ كل واد بحسبه ، فهذا كبير وسع كثيرا من الماء وهذا صغير وسع بقدره (فاحتمل السيل زبدا رابيا) اى : فجاء على وجه الماء الذى سال فى هذه الاودية زبد عال عليه، هذا مثل . وقوله (ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية او متاع) الاية. هذا هو المثل الثانى وهو مايسبك فى النار من ذهب او فضة ليجعل حليه ، او نحاسا اوحديدا ، فيجعل متاعا فانه يعلو زبد منه كما يعلو ذلك زبد منه ، كذلك يضرب الله الحق والباطل ، اى اذا اجتمعا لاثبات للباطل ولا دوام له ، كما ان الزبد لايثبت مع الماء ولا مع الذهب والفضة ونحوها مما يسبك فى النار ، بل يذهب ويضمحل ، ولهذا قال (فاما الزبد فيذهب جفاء) اى لاينتفع به ، بل يتفرق ويتمزق ويذهب فى جانبى الوادى ويعلق بالشجروتنسفه الرياح ، وكذلك خبث الذهب والفضه والحديد والنحاس يذهب ولا يرجع منه شيء ولايبقى الا الماء وذلك الذهب

---

(١) ١٧ : الرعد .

ونحوه مما ينتفع به ولهذا قال : (واما ماينفع الناس فيمكث في الارض كذلك يضرب الله الامثال) (١) . ويقول الشوكاني : (وهذان مثلان ضربهما الله سبحانه وتعالى للحق والباطل ، فيقول ان الباطل وان ظهر على الحق في بعض الاحوال وعلاه فان الله سبحانه سيمحقه ويبطله ، ويجعل العاقبة للحق واهله كالزبد الذي يعلو الماء فيلقيه الماء ويضمحل وكخبث الاجسام فانه وان علا عليها فان الكير يقذفه ويدمغه ، فهذا مثل الباطل ، واما الماء الذي ينفع الناس وينبت المراعي فيمكث في الارض وكذلك الصفو من هذه الاجسام فانه يبقى خالصا لاشوب فيه وهو مثل الحق) (٢) .

وقد شبه الله الحق بالمعادن كالحديد الذي فيه بأس شديد وهذا كناية عن قوة الحق وثباته واستقراره وان الزبد مهما عظم وكثر وعلا وانتفش فانه لايوء ثر ولايقوى على الحديد الصلب الثابت القوى (٣) .

ودل هذا المثل على ان الحق يظهر ويستعلن متى وجد اهل له يصارعون الباطل .

هذه هي سنة الله اظهار للحق واهله وازهاق للباطل واهله ، ولو بعد حين .

واذا كان هذا الدين هو خاتم الاديان ورسول هذه الامة هو خاتم الانبياء والمرسلين ، فقد جاء الوعد من الله لنبيه ان يظهر دينه على الدين كله ولو كره المشركون . قال تعالى : (يريدون ان يطفئوا نور الله بافواههم ويأبى الله الا ان يتم نوره ولو كره الكافرون هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) (٤) .

---

(١) تفسير ابن كثير ٢ / ٥٠٨ ، وانظر تأويل مشكل القرآن ٣٢٦ ، وانظر في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٥٣ - ٢٠٥٤ .

(٢) فتح القدير ٣ / ٧٥ ، وانظر البحر المحيط ٥/ ٣٨٠ - ٣٨٤

(٣) انظر الكشاف للزمخشري ٢ / ٣٥٦ .

(٤) ٣٢ - ٣٣ : التوبة .

ان الكفار فى قديم الزمان وحديثه لايكتفون بالكفر، وانما يعلنون الحرب على دين الحق ، ويحاولون ابطاله بكافة مايستطيعون من وسائل ولكن مهما كثرت وسائلهم ومهما عظم مكرهم وانتفش باطلهم فان الله يأبى الا ان يتم نوره.

هذا الوعد الحق من الله الدال على سنته التى لاتتبدل فى اتمام نوره باظهار دينه ولوكره الكافرون ، وعد يطمئن اليه المؤمنون ووعيد شديد للكافرين .(١)

ويشبه الله فعل الكفار الذى يريدون بهابطال الحق ، بحال من يريد ان يطفئ نورا عظيما قد انارت به الدنيا وانقشعت به الظلمة ليطفئه ويذهب ضوءه ، وقد كنى بالافواه ليخبر عن قلة حيلتهم وضعفها لانهم يحالون امرا عظيما بسعى ضعيف وهو النفخ بالافواه .(٢) ولو رأيت واحدا ينفخ على الشمس او القمر ليذهب نورهما فلحسبته فاقد العقل فاقد البصيرة ، ولادركت ان هذا يطلب المستحيل ، وان جهده ضائع هباءً منثوراً .

وقد تحقق هذا الوعد زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وعلت راية الاسلام ، واخذ يحطم الاصنام التى تحيط بالكعبة وبداخلها(٣) ويردد قول الله تعالى (.. جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا)(٤) ، (قل جاء الحق ومايبدئ الباطل ومايعيد).(٥)

وتحققت سنة الله المقرره والمطردة فالحق اصيل فى طبيعة الكون ، عميق فى تكوين الوجود ، والباطل منفي عن خلقه

---

(١) انظر فى ظلال القرآن ٣/١٦٤٣ .

(٢) انظر تفسير البحر المحيط ٥/٣٣ ، وانظر فتح القدير ٢/٣٥٤ ، وانظر تفسير الرازى ١٦/٣٨ - ٣٩ .

(٣) وقد اخرج هذه الحادثه البخارى كتاب المغازى باب اين ركز النبى صلى الله عليه وسلم الراية يوم الفتح فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٨/١٥ - ١٦ . ومسلم كتاب الجهاد والسير باب ازالة الاصنام من حول الكعبة ٣/١٤٠٨ .

(٤) ٨١ : الاسراء .

(٥) ٤٩ : سبأ .

هذا الكون اصلا ، طارئ لا اصالة فيه ولا سلطان له ، يطارده الله ويقذف عليه بالحق فيدمغه ، ولا بقاء لشيء يطارده الله ، ولا حياة لشيء تقذفه يد الله فتدمغه .

ولقد يخيل للناس احيانا ان واقع الحياة يخالف هذه الحقيقة التي يقررها العليم الخبير. وذلك في الفترات التي يبدو فيها الباطل منتفشا كأنه غالب ويبدو فيها الحق منزويا كأنه مغلوب. وان هي الا فترة من الزمان ، يمد الله فيها مايشاء ، للفتنة والابتلاء ثم تجرى السنة الازلية الباقية التي قام عليها بناء السماء والارض ، وقامت عليها العقائد والدعوات سواء بسواء .

والمؤمنون بالله لا يخالجهم الشك في صدق وعده ، وفي اصالة الحق في بناء الوجود ونظامه وفي نصرة الحق الذى يقذف به على الباطل فيدمغه . فاذا ابتلاهم الله بغلبة الباطل حينا من الدهر عرفوا انها الفتنة ، وادركوا انه الابتلاء ، واحسوا ان ربهم يربيهم لان فيهم ضعفا او نقصا ، وهو يريد ان يعدهم لاستقبال الحق المنتصر ، وان يجعلهم ستار القدرة ، فيدعهم يجتازون فترة البلاء يستكملون فيها النقص ويعالجون فيها الضعف . . وكلما سارعوا الى العلاج قصر الله عليهم فترة الابتلاء ، وحقق على ايديهم مايشاء . اما العاقبة فهي مقررة : (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق) والله يفعل مايريد (١) .

ويصور القران الكريم نهاية المعركة بين الرسل والمؤمنين بهم مجتمعين وبين الكافرين في اقوامهم (٢) . وهي النصر . والتمكين في الارض للانبياء والمؤمنين والخيبة والخسران للكافرين فيقول تعالى : (وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من ارضنا او لتعودن في ملتنا فاوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الارض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد .) (٣)

---

(١) في ظلال القرآن ٤ / ٢٣٧٢

(٢) انظر في ظلال القرآن ٤ / ٢٠٧٨

(٣) ١٣ - ١٥ : ابراهيم . .

ويشبه الله عزوجل اعمال اهل الباطل بالرماد الذى تنثره الرياح الشديدة فلاتبقى منه شيأً فلا يقدرون منه على شيء ،ولا ينتفعون منه بشيء (١) فيقول تعالى : (مثل الذين كفروا بربهم اعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد) (٢) .

ثم يضرب الله تعالى مثلا آخر يوضح هذه الحقيقة للناس : وهى ظهور الحق وزهوق الباطل ،فيصور الحق بانه شجرة ثابتة لا تزعزعها الاعاصير ولا تعصف بها الرياح ولا تقوى عليها معاول الطغيان سامقة متعالية مثمرة لا ينقطع ثمرها وان الباطل مثله مثل شجرة خبيثة قد تهيج وتتعالى وتتشابك ويخيل الى بعض الناس انها اقوى واضخم من الشجرة الطيبة ،ولكنها تظل نافشة هشة وتظل جذورها فى التربة قريبة حتى لكأنها على وجه الارض ،وماهى الا فترة ثم تجتث من فوق الارض فلا قرار ولا بقاء (٣) .

(الم تركيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة ،اصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى اكلها كل حين باذن ربها ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون ، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض مالها من قرار) (٤) .

فظهور الحق و ازهاق الباطل هو سنة الله الجارية وسنته القديمة ،وهو نتيجة الصراع بين الحق والباطل وان طال الزمان او قصر.

---

(١) انظر فى ظلال القران ٤/ ٢٠٩٤ ،وقد ذهب بعض المفسرين،انظر تفسير ابن كثير ٢/ ٥٢٧ الى ان هذا يوم القيامه ولامانع من ذلك لكن السياق قبل هذه الآية يدل على ماذكرت وهو فى الدنيا والله اعلم.
وقد وقع فى نفسي ان الريح التى تذهب باعمال الكفار،هم المؤمنون الذين يصارعون الباطل حتى لا يبقى منهم ولا من اعمالهم ومكرهم شيء.

(٢) ١٨ : ابراهيم.

(٣) فى ظلال القران ٤/ ٢٠٩٨ - ٢٠٩٩ بتصرف يسير. وانظر تفسير ابن كثير ٢/ ٥٣١.

(٤) ٢٤ — ٢٦ : ابراهيم.

وهذا الظهور هو الظهور بشقيه المادى من التمكين فى الارض وعلو الكلمة او المعنوى ايضا بظهور دين التوحيد فى سائر الارض لا يعارضه دين ولا يقف امامه فكر انساني ، او خليط بين الانسانى والرباني مثل دين النصارى واليهود .

وقد تكون للباطل جولة ينتفش فيها ويظهر انه القوى ، ولكن العاقبة والنهاية هى للحق واهله . اذا كانوا موءمنين بالله حقا ، آخذين بما امرهم الله مجتنبين مانهاهم عنه (١) ، آخذين بسنن الله فى الكون غير متنكبين لها ، مصداقا لقوله تعالى بعد ان ذكر كثيرا من قصص الانبياء مع اقوامهم وظهور كلمة الحق والتمكين لهم فى الارض ، وزوال الباطل واهله : (تلك من انباء الغيب نوحيها اليك ماكنت تعلمها انت ولا قومك من قبل هذا فاصبر ان العاقبة للمتقين) (٢) .

---

(١) انظر تفسير المنار ١٢ / ٢٤٣

(٢) ٤٩ : هـود .

الفصل الثامن

سنة الله في عقاب الأمم

تقرير سنة العقاب الإلهي للأمم :-

ان العقاب الإلهي سنة الهية ثابتة للامم المكذبة المعاندة الحائدة عن منهج الله الرافضة للسير على طريقه الذى رسمه لعباده .

وعقاب الله للامم على ضربين :-

الاول :- عقابها بالاستئصال ، وذلك اذا استوجبته واستوفت موجباته وانتفت عنها موانعه كما سنبين ذلك في هذا الفصل .

الثاني :- عقاب الله للامم بما دون عذاب الاستئصال من انواع الابتلاء الالهي وذلك اذا لم تستوف موجبات استئصالها ، وكان بها من الموانع ما يمنع من نزول هذا الاستئصال .

والايات التي تدل على هذه الحقيقة كثيرة ، فبعض هذه الايات يصرح بلفظ السنة و بعضها يشير الى هذا المعنى والى استمرار العذاب للامم المستوجبة للعقاب ، ولو اردنا استقصاء جميع الايات لطال بنا المقام ، ولكن اكتفي ببعضها للدلالة على هذه السنة .

يقول تعالى :" وما منع الناس ان يؤمنوا اذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم الا ان تأتيهم سنة الاولين او يأتيهم العذاب قبلا " (١) . اى ما منع الناس من الايمان والاستغفار الا طلب اتيان سنة الاولين ، وسنة الاولين هي انهم اذا لم يؤمنوا عذبوا عذاب الاستئصال . (٢)

ثم اننا نجد القرآن الكريم يهدد كفار قريش بان يحيق بهم عقاب الله وفقا لسنته سبحانه وتعالى ان بقوا على نفورهم ومكرهم واستكبارهم في الارض ، فيقول تعالى مبينا هذه السنة وان هذه السنة قرار ثابت لا تتبدل ولا تتحول منصرفة عنهم ، فيقول الله : " وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من احدى الامم ، فلما جاءهم نذير ما زادهم الا نفورا ، استكبارا في الارض ومكر السئ ولا يحيق المكر السئ الا بأهله فهل ينظرون الا سنة الاولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا " (٣) .

وقوله : " فهل ينظرون الا سنة الاولين " اى انما ينتظرون العذاب الذى نزل بالكفار

---

(١) ٥٥ : سورة الكهف .

(٢) فتح القدير للشوكاني ٣/ ٢٩٥ .

(٣) الاية ٤٢ ـ ٤٣ : فاطر

الاولين ، وقوله :"(فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا)" ، اى اجرى الله العذاب على الكفار وجعل ذلك سنة فيهم ، فهو يعذب بمثله من استحق لا يقدر احد ان يبدل ذلك ولا ان يحول العذاب عن نفسه الى غيره .(١)

ويقول الشيخ المراغي عند هذه الاية : والعبرة في الامور بالعواقب والله يمهل ولا يهمل ... ثم هددهم بان يحل بهم ما حل بمن قبلهم من العذاب "(وقوله : "(فلن تجد لسنة الله ....تحويلا)" . اى وهذه سنة الله في كل مكذب فلا تغيير ولا تبدل ، ولن يجعل الرحمة محل العذاب ولن يحول العذاب من نفس الى أخرى "(ولا تزر وازرة وزر أخرى)" (٢) .

ثم يدعو الكفار الى السير في الارض لتحصيل المعرفة بسنن الله في الكافرين وهو العذاب الذى يأتيهم من الله بسبب كفرهم وتكذيبهم فيقول :"(قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين)" (٣) ، وعن مجاهد في تفسير هذه الاية يعني بالهلاك فيمن كذب قبلكم كعاد وثمود " (٤) .

ويقول تعالى :"(ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الاولين ، وما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزئون ، كذلك نسلكه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به وقد خلت سنة الاولين)(٥). "(وقد خلت سنة الاولين)" اى قد مضت سنة الله باهلاك الكفار فما أقرب هؤلاء الكفار من الهلاك . (٦)

ويقول تعالى :"(وان كادوا ليستفزونك من الارض ليخرجوك منها واذا لا يلبثون خلافك الا قليلا ، سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا)" (٧) "(في هذه الاية يبين الله سبحانه وتعالى سنته في عقاب الامم الكافرة التي تخرج نبيها من دار دعوته وبين ان سنته التي لا تتبدل ولا تتحول هي ان يعاقبهم الله فيستأصلهم ولكن كفار قريش)" قاربوا ان يزعجوك من ارض مكة لتخرج عنها ولكن لم يقع ذلك منهم ، بل منعهم الله منه حتى هاجر بأمر ربه بعد ان هموا به ، وقيل انه اطلق الاخراج على ارادة الاخراج تجويزا ، ثم بين لو انهم اخرجوه

---

(١) تفسير القرطبي ٦ / ٥٤٤١ ـ ٥٤٤٢

(٢) تفسير المراغي ٢٢ / ١٤٠

(٣) ١٣٧ : آل عمران

(٤) تفسير القرطبي ٦ / ٥٤٤١

(٥) ١٠ـ ١٣ الحجر . (٦) تفسير القرطبي ٣٦٢٢/٤ـ ٣٦٢٣ ، وانظر تفسير المراغي ١٠/١٤ . (٧) ٧٦ـ ٧٧ : الاسراء .

فانهم لا يلبثون خلافك الا قليلا) اى لا يبقون بعد اخراجك الا زمنا قليلا ثم يعاقبون عقوبة تستأصلهم جميعا فهذه سنتنا فيمن ارسلنا من قبلك انهم اذا اخرجوا نبيّهم من بين اظهرهم او قتلوه ان ينزل العذاب بهم . (ولا تجد لسنتنا تحويلا) اى ما اجرى الله به لم يتمكن احد من تحويله ولا يقدر على تغييره ») (١) « ويقول سيد قطب : « ولو اخرجوا يعني - كفار قريش - الرسول صلى الله عليه وسلم عنوة وقسرا لحل بهم الهلاك ، فهذه سنة الله النافذة ، فقد جعل الله هذه السنة جارية لا تتحول لان اخراج الرسول عليه الصلاة والسلام كبيرة تستحق التأديب الحازم ، وهذا الكون تصرفه سنة مطردة ، لا تتحول امام اعتبار فردى ، وليست المصادفات العابرة هي السائدة في هذا الكون ، انما هي السنن المطردة الثابتة ، فلما لم يرد الله ان يأخذ قريشا بعذاب الابادة كما اخذ المكذبين من قبل لحكمة علوية ، لم يرسل الرسول بالخوارق ، ولم يقدر ان يخرجوه عنوة بل اوحى اليه بالهجرة ومضت سنة الله في طريقها لا تتحول) .(٢)

ولتقرير هذه الحقيقة في نفوس المخاطبين بهذا القرآن قديما وحديثا فقد وردت آيات تؤكد هذا المعنى لتجعله حقيقة ثابتة لا تقبل الشك او الريب ليعتبروا بما حدث للامم من قبلهم فلا يسلكوا مسلكهم فيحل عليهم العقاب كما حل على غيرهم .

فيقول تعالى : ﴿ او لم يهد لهم كم اهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم ، ان في ذلك لآيات افلا يسمعون ﴾(٣)

« ان في كثرة القرون التي اهلكها الله والتي يمشي فيها كفار قريش لعبر وعظات للذين يسمعون ويرون آيات الله فيتعظون بها »(٤)

ويقول تعالى : (وكم اهلكنا قبلهم من قرن هم احسن اثاثا ورئيا) (٥)

(ان الامم الكثيرة المكذبة التي اهلكها الله عندما استحقت ذلك لم ينفعها الاثاث والزينة والمظهر بل دمرها الله ، وان هذا الانسان ينسى ولو تذكر وتفكر ، ما اخذه الغرور بمظهر . ومصارع الغابرين تلفته بعنف وتنذره وتخدره وهو سادر فيما هو فيه ، غافل عما ينتظره مما لقيه من كانوا قبله وكانوا اشد قوة واكثر اموالا واولادا)(٦)

ثم نجد ان الله سبحانه وتعالى يسأل المعاندين فيقول لهم : ﴿ افلم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين امثالها ﴾ (٧)

---

(١) فتح القدير للشوكاني ٣/ ٢٤٧ - ٢٤٨
(٢) تفسير في ظلال القران لسيد قطب ٤ / ٢٢٤٦
(٣) ٢٦ : السجدة
(٤) تفسير القرطبي ٦/ ٥١٩٢
(٥) ٧٤ : مريم
(٦) تفسير الظلال ٤ / ٢٣١٩
(٧) ١٠ : محمد

" اى افلم يسيروا في ارض الاقوام التي عذبها الله واستأصلها ليعتبروا من مصيرها ، ثم توعد مشركي مكة (وغيرهم) بقوله :" وللكافرين امثالها " اى لهوءلاء الكافرين امثال عاقبة الذين من قبلهم "(١)

ثم يقرر القرآن الكريم الحقيقة الثابتة التي لا تتغير وهي ان الامم التي لا تستجيب لوحي الله ولا تسير على منهجه بان مصيرها ، اما الهلاك وهو الاستئصال او ما دون ذلك من فتن وامراض وقحط ، فيقول تعالى :" وان من قرية الا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة او معذبوها عذابا شديدا كان ذلك في الكتاب مسطورا " (٢)

وفي هذه الاية يقول ابن كثير :" هذا اخبار عن الله عز وجل بأنه قد حكم وقضى بما كتب عنده في اللوح المحفوظ " ان من قرية "(٣) الا سيهلكها الله بأن يبيد اهلها جميعهم او يعذبهم عذابا شديدا ، اما بقتل او ابتلاء بما يشاء ، وانما يكون ذلك بسبب ذنوبهم وخطاياهم كما قال تعالى عن الامم الماضين :(وما ظلمناهم ولكن ظلموا انفسهم...) (٤) وقال :" فذاقت وبال امرها وكان عاقبة امرها خسرا " (٥) وقال :" وكأين من قرية عتت عن امر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا " (٦).

ومن الادله على سنة العذاب تحذير الرسول صلى الله عليه وسلم للناس من الوقوع في الاشياء المهلكة التي اهلكت الامم السابقة من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : " واتقوا الشح فإن الشح اهلك من كانوا قبلكم " (٧)، وقوله :" ذروني ما تركتكم فانما اهلك من كان قبلكم بكثرة سوءالهم واختلافهم على انبيائهم "(٨)

مما سبق يتضح معنا جليا ان العقاب الدنيوى سنة الهية ثابتة لا تتغير وان الله سبحانه وتعالى لا يعاقب امة الا اذا استحقت العقاب " وما اصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم ويعفو عن كثير " (٩) ، ويقول تعالى :"(...وما ظلمناهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون) (١٠).

---

(١) فتح القدير للشوكاني ٥ / ٣٢
(٢) ٥٨ : الاسراء
(٣) قيدها الشوكاني بقوله قرية كافرة انظر ٣ / ٢٣٧ فتح القدير
(٤) ١٠١ : هود
(٥) ٩ : الطلاق
(٦) ٨ : الطلاق ، تفسير ابن كثير ٣ / ٤٧
(٧) صحيح مسلم كتاب البر والصلة والادب باب تحريم الظلم ٤ / ١٩٩٦
(٨) المصدر السابق كتاب الفضائل باب توقيره صلى الله عليه وسلم ٤٠٠٠/ ١٨٣١
(٩) ٣٠ : الشورى — (١٠) ١١٨ : النحل

وهكذا فان سنة الله تقوم على مبدأ العدل الالهي المطلق ، وتقوم على مؤاخذة الامة بما تفعل ٠

ومن هنا فان للعقاب الالهي اسبابا يؤاخذ الله عليها فيوقع على الامة العقاب تبعا لتلك الاسباب وفيما يأتي ذكر هذه الاسباب :

اسباب العقاب الالهي للامم بالاستئصال : وفيما يلي ذكر اسباب العقاب التي وردت في عذاب الامم ٠ ولا اعني ان كل سبب يكون بمفرده سببا للعقاب ٠

١ـ الكفر بالله عز وجل :

ان من اهم اسباب العقاب الالهي الكفر بالله عز وجل ، واصل الكفر في اللغة الستر والتغطية ، قال الشاعر :

في ليلة كفر النجوم غمامها : اى سترها ، وقد سمي الكافر كافرا لانه يغطي بكفره ما يجب ان يكون عليه من الايمان ، والكفر ضد الايمان الذى هو التصديق والاعتقاد والاقرار بوحدانية الله وربوبيته والوهيته والايمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الاخر وبالقضاء والقدر خيره وشره من الله ، وقد يأتي الكفر بمعنى جحود النعمة والاحسان ٠

وقد يعبر عن الكفر بالفاظ اخرى مثل التكذيب والشرك والظلم فكلها الفاظ تدل على الكفر ، وان كان بين هذه الالفاظ عموم وخصوص (١)، وقد جاءت الآيات التي تبين سبب العقاب بهذه المعاني جميعا ، فعن الكفر وانه سبب العقاب قال تعالى : (كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم ان الله قوى شديد العقاب) (٢)، وقال ايضا :(الم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال امرهم ولهم عذاب اليم ، ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا ابشر يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غني حميد) (٣)، وقد يأتي الكفر بمعنى نفي الايمان مثل قوله تعالى (ما آمنت قبلهم من قرية اهلكناها افهم يؤمنون)(٤)

وعن الشرك بالله عز وجل وانه سبب في العقاب يقول تعالى :(قل سيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان اكثرهم مشركين) (٥)، ويقول ايضا : (٠٠٠٠فما اغنت عنهم الهتهم التي يدعون من دون الله من شئ لما جاء امر ربك وما زادوهم غير تتبيب) (٦)٠

---

(١) انظر في الكفر وانه سبب في العذاب تفسير ابن كثير ١ / ٤٥ ، ٦١ ، ٦٧ ، ٧٧ ، ١٢٥ ، تفسير القرطبي ١ / ١٥٨ ، وحاشية الشهاب ١/ ٢١٤ ، ٢٦٤

(٢) ٥٢ : الانفال (٣) ٥ـ٦ :التغابن (٤) ٦ : الانبياء

(٥) ٤٢ : الروم (٦) ١٠١ : هود

وليست هي دليلا على محبته سبحانه لهم ، بل هي ابتلاء لهم واختبار ، وليست انعاما وجزاء (١) ٠

٣ ـ اسناد شركهم ومعصيتهم الى مشيئة الله اتباعا للظن : فقد قال تعالى مبينا هذا الادعاء (سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما اشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء ، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن ، وان أنتم الا تخرصون) (٢) ،

فهم يقولون :(لو اراد الله منا الايمان به ، وافراده بالعبادة دون الاوثان والآلهة ، وتحليل ما حرم من البحائر والسوائب وغير ذلك من أموالنا ، ما جعلنا لله شريكا ، ولا جعل ذلك له آباؤنا من قبلنا ولا حرمنا ما نحرمه من هذه الاشياء التي نحن على تحريمها مقيمون ،لانه قادر ان يحول بيننا وبين ذلك ، حتى لا يكون لنا الى فعل شيء من ذلك سبيل ، اما ان يضطرنا الى الايمان وترك الشرك به ، والى القول بتحليل ما حرمنا ، واما بان يتلطف بنا بتوفيقه فنصير الى الاقرار بوحدانيته ، وترك عبادة ما دونه من الانداد والاصنام ، والى تحليل ما حرمنا ، ولكنه رضي منا ما نحن عليه من عبادة الاوثان والاصنام ، واتخاذ الشريك له في العبادة والانداد واراد ما نحرم من الحرث والانعام فلم يحل بيننا وبين ما نحن عليه من ذلك ، قال تعالى مكذبا لهم في قيلهم : ان الله رضي منا ما نحن عليه من الشرك ، وتحريم ما نحرم ، ورادا عليهم باطل ما احتجوا به من حجبتهم في ذلك (كذلك كذب الذين من قبلهم) ،

يقول : كما كذب هؤلاء المشركون يا محمد ما جئتهم به من الحق والبيان ، كذب من قبلهم من فسقة الامم الذين طغوا على ربهم ما جاءتهم به أنبياؤهم من آيات الله ، وواضح حججه ، وردوا عليهم نصائحهم (حتى ذاقوا بأسنا) يقول حتى أسخطونا فغضبنا عليهم ، فاحللنا بهم بأسنا فذاقوه ، فعطبوا بذوقهم اياه ، فخابوا وخسروا الدنيا والاخرة وهؤلاء الاخرون مسلوك بهم سبيلهم ان هم لم ينيبوا فيؤمنوا ويصدقوا بما جئتهم به من عند ربهم ٠ (٣)

والبأس هو انتقام الله تعالى منهم بان دمر عليهم وأدال عليهم رسله ٠(٤)

---

(١) انظر فتح القدير للشوكاني ٣٣٠/٣ وتفسير القرطبي ٦ / ٣٥٨٧

(٢) ١٤٨ : الانعام

(٣) تفسير الطبرى ٨ / ٧٨

(٤) انظر تفسير ابن كثير ٢ / ١٨٦

٤ ـ أيذاء الرسل بشتى انواع الايذاء :

من اسباب العقاب الالهي للامم ايذاؤهم لانبيائهم بالاستهزاء والسخرية ، والتكذيب ، وقتلهم لانبيائهم ، واخراجهم من مواطن دعوتهم والتطير بالنبى ومن معه ٠

فعن التكذيب للرسل وانه سبب في العقاب يقول عز من قائل :(وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلي فكيف كان نكير ٠)(١)

" فما بلغ هؤلاء المشركون ـ يعني أهل مكة ـ معشار ما آتينا المتقدمين من القوة والنعمة وطول العمر ، ثم ان الله أخذهم وما نفعتهم قوتهم ، فكيف حال هؤلاء الضعفاء ؟" (٢)٠

وعن الاستهزاء بالرسل والسخرية منهم يقول تعالى :(ولقد استهزئ برسل من قبلك فامليت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب) (٣) ٠

فهو يخبر سبحانه في هذه الاية ان امما استهزأت برسلها كما ان كفار قريش يستهزئون بك ، ثم أطال الله لهم مدة تأخير العقوبة ثم أخذهم الله بالعذاب فكيف كان عقابه لهم ٠(٤)

ويقول تعالى أيضا :(ولقد ارسلنا من قبلك في شيع الاولين ، وما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزئون ، كذلك نسلكه في قلوب المجرمين ، لا يؤمنون به وقد خلت سنة الاولين) (٥) ٠

وفي هذه الايات يبين سبحانه وتعالى ان عادة الاقوام المكذبة ان تستهزئ برسلها وتزدريهم وتحتقرهم ٠ ولذلك فان كفار قريش يسيرون مسلك الذين سبقوهم في الاستهزاء ، وقد جرت سنة الله باهلاك الكافرين المستهزئين ، فما أقرب هؤلاء من العقاب والهلاك ٠ (٦)

---

(١) ٤٥ : سبأ (٢) تفسير الرازى ٢٥ / ٢٦٨

(٣) ٣٢ : الرعد (٤) انظر تفسير الرازى ١٩ / ٥٧

(٥) ١٠ ـ ١٣: الحجر وانظر الايات ٤١ : الانبياء ، ١٠: الانعام

(٦) انظر جزاء الاستهزاء في تفسير القرطبي ٣ / ٣٣٩١ ، ٤ / ٣٥٥١ ، ٥ / ٤٣٣٠ وانظر تفسير ابن كثير ٢ / ٥٤٧ ، ٣/ ١٧٩ ، وانظر فتح القدير ٢/ ١٠١ ـ ١٠٢ ، ٣/ ١٣٣ ، وانظر في ظلال القران ٤/ ٢١٢٩ ، ٤/ ٢٠٦٢ ، ٤/ ٣٣٦٨ ، ٥/ ٢٩٦٧ ٠

وعن اخراج الانبياء (١) يقول تعالى :(وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا او لتعودن في ملتنا ، فاوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين) (٢)
ويقول تعالى مخبرا عن كفار قريش : (وان كادوا ليستفزونك من الارض ليخرجوك منها واذا لا يلبثون خلافك الا قليلا ، سنة من قد ارسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا ٠(٣)

وعن قتل الامم المكذبة لانبيائها او محاولتهم القتل وان ذلك سبب في العقاب يقول تعالى :(كذبت قبلهم قوم نوح والاحزاب من بعدهم وهمت كل امة برسولهم لياخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب) (٤)، وقوله : وهمت كل امة برسولهم ليأخذوه اى ليقتلوه، وهذا هو قول قتادة والسدى وهناك قول اخر وهو ليحبسوه ويعذبوه ، وكله ايذاء لرسل الله الكرام فاستحقوا بذلك عقاب الله ٠ (٥)
ومن ذلك ما حدث من بني اسرائيل ، يقول تعالى : (افكلما جاءكم رسول بما لا تهوى انفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون (٦)

ومن اسباب العقاب الالهي التطير بانبياء الله ورسله ومن معهم من المؤمنين واضافة ما يقع بهم من مصائب وابتلاءات اليهم (٧)، (قالوا انا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب اليم)٨ ، ويقول تعالى عن قوم فرعون :(ولقد اخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ، فاذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه الا انما طائرهم عند الله ولكن اكثرهم لا يعلمون ٠(٩)

---

(١) انظر تفسير القرطبي ٦٠٥٥/٧، ٣٩١٧/٥_ ٣٩١٨ ، وانظر تفسير المراغي ١٥/ ٨٠_ ٨١ وانظر سيكولوجية القصة للشيخ تهامي نقرة ٣٠٣٠
(٢) ١٣ : ابراهيم
(٣) ٧٦ _ ٧٧ : الاسراء
(٤) ٥ : غافر
(٥) انظر تفسير القرطبي ٥٧٣٦/٧_٥٧٣٧ وانظر تفسير المراغي ٤٥/٢٤
(٦) ٨٧ : البقرة
(٧) انظر تفسير القرطبي ٥٤٥٨/٦ ، ٥٤٦٦
(٨) ١٨ : يس
(٩) ١٣٠_١٣١: الاعراف

ثم بين جزاءهم فقال عن اهل القرية الذين قالوا انا تشاءمنا منكم :(وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين ، ان كانت الا صيحة واحدة فاذا هم خامدون ٠(١)

ويقول عن قوم فرعون : (فانتقمنا منهم فاغرقناهم في اليم بانهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين) ٠(٢)

٥ ـ تكذيب الامة بعد مجئ الايات التي تطلبها : ـ

ومن أسباب العقاب الالهي ان تطلب الامة من نبيها آية ثم عند مجيء الاية التي طلبتها تكفر بها ولا تؤمن فعندها يحل عليها عقاب الله كما جرت سنته بذلك (٣) ، يقول تعالى : (وما منعنا ان نرسل بالايات الا ان كذب بها الاولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالايات الا تخويفا) ٠(٤) (قال المفسرون : ان اهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهبا ، وان ينحي عنهم جبال مكة ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال ان شئت كان ما سأل قومك ولكنهم ان لم يؤمنوا لم يمهلوا ، وان شئت استأنيت بهم فأنزل الله هذه الاية ، والمعنى : وما منعنا من ارسال الايات التي سألوها الا تكذيب الاولين ، فإن أرسلناها وكذب بها هؤلاء عوجلوا ولم يمهلوا كما هي سنة الله سبحانه في عباده) (٥) وطلب ايضا كفار قريش نزول الملائكة يقول تعالى (وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو انزلنا ملكا لقضي الامر ثم لا ينظرون) (٦) اى قالوا لمحمد صلى الله عليه وسلم (هلا نزل عليك ملك من السماء في صورته يصدقك على ما جئتنا به ، ويشهد لك بحقيقة ما تدعي من ان الله ارسلك الينا ٠٠٠ ثم يقول تعالى : (ولو انزلنا ملكا) على ما سألوا ، ثم كفروا ولم يؤمنوا بي وبرسولي لجاءهم العذاب عاجلا غير آجل ، ولم ينظروا فيؤخروا بالعقوبة مراجعة التوبة كما فعلت بمن قبلهم من الامم التي سألت الايات ، ثم كفرت بعد مجيئها من تعجيل النقمة وترك الانظار) ٠(٧)

---

(١) ٢٨ ـ ٢٩: يس
(٢) ١٣٦ : الاعراف
(٣) انظر فتح القدير ٣ / ٣٣٧ ، وانظر تفسير القرطبي ٤ / ٣٦٢٠ ، وتفسير المنار ٧ / ٣١٤ ـ ٣١٥ ، وانظر تفسير المراغي ١٤ /٩ ، وانظر سيكولوجية القصة ٢٠٢، وتفسير النسفي ٢ / ٣١٩
(٤) ٥٩ : الاسراء
(٥) فتح القدير للشوكاني ٣/ ٣٣٧ ، وانظر تفسير الطبرى ١٠٩/١٥ وتفسير الزمخشرى ٢ / ٤٥٤ ٠ (٦) ٨: الانعام ٠
(٧) تفسير الطبرى ٧ /١٥٠ ، وانظر اضواء البيان ١٨٣/٢ ـ ١٨٤

٦ - استعجال العذاب :-

ومن أسباب العقاب الالهي للامم استعجالها للعذاب ، وقد كان كفار قريش يسألون في تحد واستعجال ، طالبين وقوع ما يوعدهم النبي صلى الله عليه وسلم - من قضاء الله فيهم ، كما قضى الله بين الامم التي جاءتها رسلها فكذبت " ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين " (١)، فقال لهم مهددا بنزول العذاب (قل أرأيتم ان أتاكم عذابه بياتا او نهارا ، ماذا يستعجل منه المجرمون) (٢) ، فهذا العذاب المغيب الذى لا يعلم وقوعه وموعده ، والذى يحل بياتا وانتم نيام ، او نهارا وانتم ايقاظ لا يجديكم في رده الصحو ما الذى يستعجل منه المجرمون ؟ وهو عذاب لا خير لهم في استعجاله على كل حال (٣) ، لانه قد خلت من قبلهم امم أمثالهم ، عذبهم الله عز وجل فان بقوا مصرين على عنادهم وسؤالهم للعذاب فسيحل بهم عقاب الله(٤)، كما قال تعالى :(ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات ...) (٥) .

ويبين الله لهم ان عذابه الذى يستعجلون به لن يرفع عنهم ولو آمنوا ، كما قال تعالى : (اثم اذا ماوقع آمنتم به آلآن وقد كنتم به تستعجلون) (٦) اى (هنالك اذا وقع عذاب الله بكم ايها المشركون آمنتم به ، يقول : صدقتم في حال لاينفعكم فيها التصديق ، وقيل لكم حينئذ ، الان تصدقون به وقد كنتم قبل الان تستعجلون ، وانتم بنزوله مكذبون ، فذوقوا الان ما كنتم به تكذبون) (٧)

---

(١) ٤٨ : يس

(٢) ٥٠ : يونس

(٣) انظر في ظلال القرآن ١٧٩٨/٣ ، وانظر تفسير الطبرى ١٢٢/١١ وتفسير الرازى ١١٤/١٧ ، فتح القدير ٤٥١/٢

(٤) انظر تفسير الرازى ١٢/١٩

(٥) ٦ : الرعد

(٦) ٥١ : يونس

(٧) تفسير الطبرى ١١ / ١٢٢ ، وانظر تفسير القرطبي ٣١٩٠/٤

٧ ـ الجدال بالباطل :ـ

ومن أسباب العقاب الالهي الجدال بالباطل لدحض الحق ومحاولة طمس الدين في مهده ، والوقوف امام الدعوة بالادعاءات الباطلة والافتراءات التي لا تقوم على أساس بل تقوم على الظن والوهم (١) يقول تعالى:(... وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب) (٢)

٨ ـ الاشتغال بالدنيا ونسيان الآخرة :ـ

ومن الاسباب التي ذكرها القرآن الكريم في عقاب الامم الغرور بالدنيا ونسيان الاخرة والعمل للدنيا والتفاخر بها والفرح بما عندهم من المال والعلم والمتاع الزائل (٣) ، يقول تعالى : (واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا اى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا ، وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن اثاثا ورئيا)(٤) فنجد في هذه الايات ان الكافرين يفتخرون على المؤمنين ويتطاولون عليهم بالدنيا ومتاعها الزائل من المنزل الحسن والاثاث الفاخر فيهددهم الله بالهلاك ويبين لهم ان حسن الاثاث والمتاع والمناظر الجميلة المزخرفة لا تغني عنهم من الله شيئا ، فقد أهلك من قبلهم وكانوا اعظم احرازا للدنيا منهم .(٥)

ويبين سبحانه وتعالى في آيات أخرى ان الامم اذا نسيت ما جاءها من وحي الله فانه يفتح عليها نعم الدنيا حتى اذا كثرت اموالهم واولادهم وابطرتهم هذه النعم الكثيرة ، ونسوا حكمة الله في سعة الرزق وهي الشكر والتذكر ، وقالوا ان هذه عادة الدهر يعاقب بين الناس في السراء والضراء ، وفوق ذلك فرحوا فرحا طاغيا وبغير حق جاءهم العذاب بغتة فاذا هم مخذولون ،(٦) كما قال تعالى :(وما ارسلنا في قرية من نبي الا اخذنا اهلها بالبأساء والضراء لعلهم

---

(١) انظر تفسير القرطبي ٥٧٣٦/٧ـ٥٧٣٧ وانظر تفسير المراغي ٢٤ / ٤٥

(٢) ٥ : غافر

(٣) انظر تفسير القرطبي ٧/ ٥٧٧٩ـ ٥٧٨٠

(٤) ٧٣ ـ ٧٤:مريم

(٥) انظر تفسير القرطبي ٤١٨١/٥ـ ٤١٨٢ ، وانظر تفسير المراغي ١٦/ ٧٧ـ ٧٩

(٦) انظر تفسير الطبري ١٩٤/٧ ، ٨ / ٦ـ٧ وتفسير القاسمي ٢٨٣٣/٧ ، وفي ظلال القران ٢٨٣٣/٧

يضرعون ، ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قدمس آباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون) (١) ، وقال تعالى ايضا : (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى اذا فرحوا بما آوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ٠) (٢)

٩ ـ الاسراف :ـ

ومن اسباب العقاب الالهي الاسراف ، يقول تعالى :(ثم صدقناهم الوعد فانجيناهم ومن نشاء واهلكنا المسرفين) (٣) ٠

ويقول عن قوم لوط : (لنرسل عليهم حجارة من طين مسومة عند ربك للمسرفين) (٤) والسرف في اللغة ضد الاعتدال ، والاسراف في النفقة التبذير (٥) ، وقد يراد بالاسراف الشرك بالله (٦) ، وهكذا فان تجاوز حد الاعتدال في النفقة او في الشهوة او في المتاع يكون سببا في العقاب ٠

١٠ ـ الترف :ـ

ومن اسباب العقاب الالهي الترف ، يقول تعالى : (٠٠ واتبع الذين ظلموا ما اترفوا فيه وكانوا مجرمين ، وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) (٧) ، فالظالمون وهم الاكثرون اتبعوا الذى انظرهم فيه ربهم من نعيم الدنيا ولذاتها ، آيثارا له على عمل الاخرة وما ينجيهم من عذاب الله (٨) ٠ ويقول تعالى : (واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) (٩) ، فاذا اراد

---

(١) ٩٤ ـ ٩٥ : الاعراف
(٢) ٤٤ : الانعام
(٣) ٩ : الانبياء
(٤) ٣٤ : الذاريات
(٥) الصحاح للجوهرى باب الفاء فصل السين ١٣٧٢/٤ ـ ١٣٧٣
(٦) انظر تفسير الطبرى ٦/١٧
(٧) ١١٦ ـ ١١٧ : هود
(٨) انظر تفسير الطبرى ١٣٩/١٢ وانظر تفسير القرطبي ٤٣١٤/٥ ـ ٤٣١٥
(٩) ١٦ : الاسراء

الله عز وجل اهلاك امة فانه يامر هؤلاء الذين اترفوا بالطاعة ، فيفسقون فيها ويبقوا على ترفهم ويبقون على معاصيهم ومخالفتهم لامره سبحانه ، فيجب عليهم بمعصيتهم لله وفسوقهم فيها ، وعيد الله الذى اوعد من كفر به وخالف رسله من الهلاك والدمار فيخربها سبحانه تخريبا ويهلك من كان فيها اهلاكا (١)

ويقول تعالى ايضا : (وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وانشأنا بعدها قوما آخرين فلما احسوا باسنا اذا هم منها يركضون ، لا تركضوا وارجعوا الى ما اترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون ، قالوا يا ويلنا انا كنا ظالمين ، فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين) (٢) .

وهنا يخبر الله عز وجل عن كثرة القرى الظالمة التي كان أهلها مترفين فاستحقت عقاب الله ، وعندما احسوا باس الله وارادوا الهروب قيل لهم (... ارجعوا الى ما اترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون) على سبيل التهكم ، (اى من العيش والرفاهية والحال الناعمة والاتراف ابطار النعمة وهي الترفة)(٣) فاعترفوا بذنوبهم وقالوا يا ويلنا انا كنا ظالمين ولكن لم ينفعهم ذلك بل بقوا يرددون هذا القول حتى جعلهم الله حصيدا خامدين (اى انهم اهلكوا بذلك العذاب حتى لم يبق لهم حس ولا حركة وجفوا كما يجف الحصيد وخمدوا كما تخمد النار) (٤) .

١١ ـ البطر :ـ

ومن الجرائم التي يعاقب عليها الامم البطر ، والبطر : هو الطغيان والاشر وكفر النعم . (٥)

يقول تعالى :(وكم اهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا وكنا نحن الوارثين) (٦)

---

(١) انظر تفسير الطبرى ١٥/٥٤ـ٥٧ وانظر التفسير الاسلامي للتاريخ عماد الدين خليل ٢٧٢ ـ ٢٧٣

(٢) ١١ـ١٣ : الانبياء

(٣) انظر تفسير الرازى ٢٢/١٤٦ ـ ١٤٧ وانظر تفسير الكشاف ٢/٥٦٤

(٤) تفسير الرازى ٢٢/١٤٧ وانظر تفسير الطبرى ١٧/٨

(٥) انظر تفسير ابن كثير ٣/٣٩٥ وانظر فتح القدير ٤/١٨٠

(٦) ٥٨ : القصص

وان الامم التي اهلكها الله عز وجل بسبب بطرها كثيرة ولا زالت بعض آثار أولئك الى يومنا هذا خربت من بعدهم، فلم يعمر منها الا قليل وكان الله عز وجل هو الوارث ، فلم يكن لما خرب الله من مساكنهم منهم وارث وعادت كما كانت قبل سكناهم فيها ، لا مالك لها الا الله ، الذى له ميراث السموات والارض . (١)

١٢ـ الاستكبار :ـ

ومن الكبائر التي يعاقب الله عليها الامم الاستكبار ، يقول تعالى مخبرا عن الامم التي عاقبها الله ، والتي كان من جرائمها الاستكبار : (وعادا وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الارض وما كانوا سابقين ، فكلا اخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من اخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الارض ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) (٢) ، وهكذا عذب الله تلك الاقوام عندما استكبرت عن عبادته وعن قبول الحق الذى جاءهم به أنبياؤهم ، فما كانوا فائتين من عذاب الله بل نزل بهم عقابه فمنهم من أرسل عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من أغرق كقوم فرعون (٣) ، ثم بين سبحانه في آية أخرى ان العذاب ليس مقتصرا على تلك الاقوام ، بل ان سنة الله مطردة في عقاب الامم التي تستكبر عن عبادته وتغمط الحق ولا تقبله فقال تعالى ذكره :(واقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن اهدى من احدى الامم فلما جاءهم نذير ما زادهم الا نفورا ، استكبارا في الارض ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء الا بأهله ، فهل ينظرون الا سنة الاولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا .) (٤)

---

(١) انظر تفسير الطبرى ٢٠/٩٥
(٢) ٣٧ ـ ٤٠ : العنكبوت
(٣) انظر تفسير القرطبي ٦/٥٠٦١
(٤) ٤٢ -٤٣ : فاطر

١٣ ـ المـكـر :ـ

يقول تعالى عن الاكابر الذين يمكرون في الارض ليبطلوا دين الله ويصدوا الناس عن الدخول فيه فهم يمكرون بأنبياء الله ومن آمن من الناس ، ليصدوهم عن الدعوة الى الله ويخططون للتخلص منهم اما باثارة الشبهات والاتهامات الباطلة ، واما بمحاولة اغرائهم بالمال والشهوات ، واما بمحاولة سجنهم او محاولة قتلهم كل هذا المكر وضروبه يفعلونه في قراهم (١)، يقول تعالى مبينا ذلك (وكذلك جعلنا في كل قرية اكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون الا بانفسهم وما يشعرون)،(٢)،(يعني وكما جعلنا في مكة صناديدها ليمكروا فيها كذلك جعلنا في كل قرية اكابر مجرميها لذلك)(٣)، وبين ان مكرهم يحيق بهم وهم لا يشعرون . ثم بين في اية اخرى مضير هؤلاء الكافرين الماكرين فقال تعالى ذكره (قد مكر الذين من قبلهم فاتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون)،(٤)(اى ان حال من قبلهم ـ وقد دبروا الحيل ونصبوا الحبائل ليمكروا برسل الله فابطلها الله وجعلها سبيلا لهلاكهم ـ كحال قوم بنوا بنيانا وعمدوه بالاساطين ، فضعفت اساطينه ، وسقط عليهم السقف فهلكوا تحته من حيث لا يشعرون بسقوطه ـ فما نصبوه من الاساطين وظنوه سبب القوة والتحصين في البنيان صار سبب الهلاك ، كذلك هؤلاء كانت عاقبة مكرهم وبالا عليهم)(٥)، وليس اهلاك الكافرين خاصا بقوم او امة او اكابر امة معينة وانما عام في الماكرين الذين يخططون لابطال دين الله واطفاء نوره يقول تعالى :(.. ومكر السيء ولا يحيق المكر السيء الا باهله ، فهل ينظرون الا سنة الاولين فلن تجد لسنة الله تبديلا و لن تجد لسنة الله تحويلا) (٦)، فاخذ الماكرين بعقاب الله سنة الهية ثابتة مطردة الى ان يرث الله الارض ومن عليها .

---

(١) انظر تفسير المراغي ٧١/١٤، وانظر القرطبي ٥٤٤١/٦ـ٥٤٤٢ وانظر تفسير القاسمي ٢٤٩٢/٦

(٢) ١٢٣ : الانعام

(٣) تفسير الزمخشري ٢/ ٤٨

(٤) ٢٦ : النحل .

(٥) تفسير المراغي ٧٠/١٤ـ٧١

(٦) ٤٢ـ٤٣ : فاطر

١٤ـ الصد عن مساجد الله عز وجل:ـ

ومن المعاصي التي يعاقب عليها الله منع بيوت الله ان يذكر فيها اسمه ويعبد ، والسعي في خرابها وتدميرها (١)، يقول تعالى :(ومن اظلم ممن منع مساجد الله ان يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها اولئك ما كان لهم ان يدخلوها الا خائفين ، لهم في الدنيا خزى ولهم في الاخرة عذاب عظيم)(٢)، وقد نزلت هذه الاية على ارجح الروايات عند الامام الطبرى في النصارى ، وذلك انهم هم الذين سعوا في خراب بيت المقدس واعانوا بختنصر على ذلك ، ومنعوا موءمني بني اسرائيل من الصلاة فيه بعد منصرف بختنصر الى بلاده)(٣)، وها هم اليهود اليوم يمنعون الموءمنين من الصلاة في المسجد الاقصى ويسعون في تدميره ، وقد منعوا الموءمنين ايضا من الصلاة في المسجد الابراهيمي ، وقد توعد الله المانعين والمخربين لبيوت الله بالخزى والذل والعذاب فقال (...لهم في الدنيا خزى ولهم في الاخرة عذاب عظيم) وقال في حق المشركين الذين صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم والموءمنين عن المسجد الحرام :(وما لهم الا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا اولياءه ان اولياؤه الا المتقون ولكن اكثرهم لا يعلمون)(٤)، قال الزمخشرى (هو حكم عام لجنس مساجد الله)(٥) ، فهوءلاء اليهود متوعدون من الله بالذل والخزى والعذاب وهو وعيد لكل من يفعل فعلهم ويسلك سبيلهم ٠ وما كان لهوءلاء اليهود والذين يفعلون فعلهم من الكفار ان يدخلوها الا خائفين على حال التهيب وارتعاد الفرائص من الموءمنين ان يبطشوا بهم فضلا ان يستولوا عليها ويلوها ويمنعوا الموءمنين منها ٠(٦)

---

(١) انظر تفسير الطبرى ٤٩٧/١ـ٤٩٨ وانظر تفسير الزمخشرى ١/ ٣٠٦
(٢) ١١٤ : البقرة
(٣) تفسير الطبرى ٤٩٩/١
(٤) ٣٤ : الانفال، وانظر تفسير القرطبي ٢٨٣٥/٤ـ ٢٨٣٦
(٥) تفسير الزمخشرى ٣٠٦/١
(٦) المصدر السابق ٣٠٦/١

١٥ـ الـذنـوب :ـ

ومن اسباب العقاب الالهي للامم مخالفة هذه الامة اوامر الله والوقوع فيما حرم الله من المعاصي وارتكاب الذنوب والخطايا ، والذنوب تعم جميع ما ذكرت من اسباب وغيرها ، لان كل مخالفة لامر الله ذنب يعاقب الله عليه ،واذا تجمعت الذنوب على امة فان هذه الامة تعاقب ويحل بها الهلاك كما قال تعالى: (ألم يروا كم اهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الارض ما لم نمكن لكم وارسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الانهار تجرى من تحتهم فاهلكناهم بذنوبهم وانشأنا من بعدهم قرنا اخرين)(١)، فالذنوب سبب للانتقام وزوال النعم (٢)، فهي تعزل الامم عن مصدر القوة الحقيقية ، وتستعدى عليهم قوى الايمان ومعها قوة الله (٣) ، وهذه سنة الله ان ياخذ الامم بالذنوب كما قال تعالى :(كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا باياتنا فاخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب)(٤)، قال القفال رحمه الله :(يحتمل ان تكون الاية جامعة للعادة المضافة الى الله تعالى ، والعادة المضافة الى الكفار كانه قيل : ان عادة هؤلاء الكفار ومذهبهم في ايذاء محمد صلى الله عليه وسلم كعادة من قبلهم في ايذاء رسلهم ، وعادتنا ايضا في اهلاك هؤلاء ، كعادتنا في اولئك الكفار المتقدمين ، والمقصود على جميع التقديرات نصر النبي عليه الصلاة والسلام على ايذاء الكفرة وبشارته ان الله سينتقم منهم)(٥).

---

(١) ٦ : الانعام

(٢) انظر القرطبي ٢٣٨٩/٣ والمنار ٣٠٨/٧ ـ ٣٠٩

(٣) انظر في ظلال القران ٣٠٧٧/٥

(٤) ١١ : آل عمران

(٥) تفسير الرازى ٢٠١/٧

نماذج من عقاب الامم السابقة التي عاقبها الله بالاستئصال

بعد هذا العرض لبعض اسباب العقاب ، هنالك اسباب اخرى لم اعرض لها وسيأتي بيانها عند حديثنا عن بعض الاقوام التي كذبت رسل الله وخالفت اوامرهم واصرت على الكفر والعناد ، فاستحقت بذلك العقاب الالهي ، مثل قوم نوح ، وقوم هود ، وقوم صالح ، وقوم لوط ، وقوم شعيب .

اولا : قوم نوح عليه الصلاة والسلام

بعث الله سبحانه وتعالى نبيه نوحا عليه السلام داعيا اياهم لتوحيد الله وافراده بالعبودية ، مبينا لهم انه نذير مبين ، قال تعالى :" ولقد ارسلنا نوحا الى قومه اني لكم نذير مبين ، ان لا تعبدوا الا الله .."(١)، وحذرهم من عقاب الله ، مبينا شفقته عليهم " ...اني اخاف عليكم عذاب يوم اليم "(٢) .

ورغبهم بالايمان وبين لهم انه سبب في السعادة والرخاء في الدنيا والنجاة في الاخرة فقال : (... فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم باموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم انهارا) .(٣)

ثم دعاهم الى تذكر نعم الله عليهم من جعل الارض لهم بساطا ليسلكوا فيها سبلا فجاجا قال تعالى : " مالكم لا ترجون لله وقارا ، وقد خلقكم اطوارا ، الم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا ، وجعل القمر فيهن نورا ، وجعل الشمس سراجا ، والله انبتكم من الارض نباتا ، ثم يعيدكم فيها ويخرجكم اخراجا ، والله جعل لكم الارض بساطا لتسلكوا فنها سبلا فجاجا "(٤).

وقد نوع معهم نبيهم نوح في اساليب الدعوة ، وسلك معهم جميع السبل والوسائل الممكنة من اجل هدايتهم ،ولكنهم بقوا مصرين ومعاندين لنبيهم ، فهم من الاقوام الذين ينكرون مجيء رسولهم ، فعن ابي سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" يجيء نوح عليه السلام وامته ، فيقول الله عز وجل هل بلغت؟ فيقول : نعم ، اى رب ، فيقول لامته : هل بلغكم ؟ فيقولون : لا ، ما جاءنا من نبي ، فيقول لنوح من يشهد لك ؟ فيقول: محمد وامته ، فنشهد انه قد بلغ"(٥).

---

(١) ٢٥-٢٦ : هود

(٢) ٢٦ : هود

(٣) ١٠ : نوح

(٤) ١٣ - ٢٠ : نوح

(٥) اخرجه البخارى كتاب الانبياء باب قول الله عز وجل (هود ٢٥) (ولقد ارسلنا نوحا الى قومه .فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٦/ ٣٧١

وعن دعوته لهم يقول تعالى :" قال رب اني دعوت قومي ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائي الا فرارا ، واني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا اصابعهم في اذانهم واستغشوا ثيابهم واصروا واستكبروا استكبارا، ثم اني دعوتهم جهارا ، ثم اني اعلنت لهم واسررت لهم اسرارا ..."(١)

هكذا كان نبي الله نوح عليه السلام يدعو قومه بكل وسيلة ممكنة مذكرا لهم بنعم الله عليهم مبينا لهم ان الايمان سبب في السعادة والنجاة ، ولكن قومه قابلوا هذه الدعوة السمحة المباركة بعناد وكفر واصرار .

فلننظر كيف رد هؤلاء دعوته وما هي ذنوبهم وجرائمهم التي استحقوا من اجلها عقاب الله عز وجل .

فقد قابل الملأ من قومه دعوته بالتكبر والحسد قال تعالى : (فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك الا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك الا الذين هم اراذلنا بادى الرأى ، وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين) (٢)، وقال تعالى ايضا :(فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا الا بشر مثلكم يريد ان يتفضل عليكم ، ولو شاء الله لانزل ملائكة ما سمعنا بهذا في ابائنا الاولين) (٣). وقال تعالى مبينا جرائم الملأ المتكبر عن دعوة الله :(قال الملأ من قومه انا لنراك في ضلال مبين)؛(٤)

وهكذا نجد الملأ يتكبرون على نبي الله نوح ويحسدونه على ما انعم الله به عليه ، منكرين ان يكون النبي بشرا ، وان الله عز وجل لو اراد ان يرسل رسولا لارسله ملكا ويعللون هذا الرأى الفاسد بانهم ما سمعوا بذلك في ابائهم الاولين ، ثم رموا نبي الله واتهموه بالضلال المبين .

وقد تبع قوم نوح عليه السلام - الا قليلا منهم - الملأ المتكبرين في كفرهم بالله وعدم طاعة نبيهم نوح عليه السلام يقول تعالى :(قال نوح رب انهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده الا خسارا).(٥)

---

(١) ٥-٩ : نوح
(٢) ٢٧ : هود
(٣) ٢٤ : المؤمنون
(٤) ٦٠ : الاعراف
(٥) ٢١ : نوح

وبقي قوم نوح مصرين على عبادة الاصنام من دون الله عز وجل :" وقالوا لا تذرن الهتكم ولاتذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا "،(١) وقد اخرج البخاري عن ابن عباس انه قال : (هذه اسماء رجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا اوحى الشيطان الى قومهم ان انصبوا الى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها انصابا وسموها باسمائهم ففعلوا فلم تعبد ، حتى اذا هلك اولئك و تنسخ العلم عبدت (٢).

ثم نجدهم يطعنون في نبي الله نوح ويسخرون منه ويهددونه ويؤذونه اشد الايذاء وعن هذا الامر يقول تعالى على لسانهم:" ان هو الا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين"،(٣) ويقول تعالى :" قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين قال رب ان قومي كذبون ".(٤) ويقول تعالى:" كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر ".(٥) ويقول تعالى :"ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملاء من قومه سخروا منه"(٦).

ومع هذا كله بقي عليه السلام يدعوهم ويرشدهم الى الحقيقة ويذكرهم بانه على الحق المبين وانه رسول من الله قال تعالى:"قال يا قوم ارأيتم ان كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم انلزمكموها وانتم لها كارهون . ويا قوم لا اسألكم عليه مالا ، ان اجري الا على الله ...".(٧)

ولقد طال الزمان به معهم ، وطالت المجادلة بينه وبينهم كما قال تعالى: "فلبث فيهم الف سنة الا خمسين عاما فاخذهم الطوفان وهم ظالمون "،(٨) وكان كلما انقرض جيل وصى من بعده بعدم الايمان به ومخالفته ، وكان الوالد اذا بلغ ولده وعقل عنه كلامه وصاه فيما بينه وبينه الا يؤمن بدعوة نوح ابدا ، وكانت سجاياهم تابى الايمان واتباع الحق (٩)، ولهذا قال تعالى:" ولا يلدوا الا فاجرا كفارا "،(١٠)

---

(١) ٢٣ : نوح
(٢) اخرجه البخاري كتاب التفسير سورة نوح فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٦٦٧/٨
(٣) ٢٥ : المؤمنون
(٤) ١١٦ : الشعراء
(٥) ٩ : القمر
(٦) ٣٨ : هود
(٧) ٢٨-٢٩ : هود
(٨) ١٤ : العنكبوت
(٩) قصص الانبياء ابن كثير ٧٤
(١٠) ٢٧ : نوح

وعندما يئس الكفار من مناهضة الحجة بالحجة فاذا هم على عادة طبقتهم قد اخذتهم العزة بالاثم ، واستكبروا وابوا الاذعان للبرهان العقلي والفطرى واذا هم يتركون الجدال الى التحدى، فقد كانوا قوما عمين كما وصفهم تعالى " قالوا يا نوح قد جادلتنا فاكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين "(١) انه العجز يلبس ثوب القوة، والضعف يرتدى رداء القوة ، والخوف من غلبة الحق يأخذ شكل الاستهانة والتحدى ، " فاتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين " وانزل بنا العذاب الاليم الذى انذرتنا فلسنا نصدقك ولسنا نبالي وعيدك ".(٢)

وعندما يئس نوح عليه السلام من صلاحهم واستجابتم لدعوته وراى انه لا خير فيهم ، وتوصلوا الى اذيته ومخالفته وتكذيبه بكل طريقة من فعال ومقال ، دعا عليهم دعوة غضب الله عليهم ، فلبى الله دعوته واجاب طلبه قال تعالى " ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون ، ونجيناه واهله من الكرب العظيم "(٣). وقال تعالى " ونوحا اذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه واهله من الكرب العظيم"(٤) وقال تعالى:" وقال نوح رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا ، انك ان تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا الا فاجرا كفارا ".(٥)

[فقد الهم قلب نوح ، ان الارض تحتاج الى غسل يطهر وجهها من الشر العارم الخالص الذى انتهى القوم اليه في زمانه ، واحيانا لا يصلح اى علاج اخر غير تطهير وجه الارض من الظالمين ، لان وجودهم يجمد الدعوة نهائيا ، ويحول بينها وبين الوصول الى قلوب الاخرين ، وهي الحقيقة التي عبر عنها نوح وهو يطلب الاجهاز على اولئك اجهازا كاملا لا يبقي منهم ديارا ، فهم يضلون عباد الله بفتنتهم عن عقيدتهم بالقوة الغاشمة او بفتنة قلوبهم بما ترى من سلطان الظالمين ،وتركهم من الله في عافية .]

ثم انهم يوجدون بيئة وجوا يولد فيه الكفار ، وتوحي بالكفر للناشئة بما يطبعهم به الوسط الذى ينشئه الظالمون ، فلا توجد فيه فرصة لترى الناشئة النور، من خلال ما تغمرهم به البيئة الضالة التي صنعوها وهي الحقيقة التي اشار اليها

---

(١) ٣٢ : هود
(٢) في ظلال القرآن ١٨٧٥/٤
(٣) ٧٥ : الصافات
(٥) ٧٦ : الانبياء
(٥) ٢٦ ـ ٢٧ : نوح

قول النبي الكريم عليه السلام وحكاها عنه القران: "(ولا يلدوا الا فاجرا كفارا)"(١) ، فهم يطلقون في جو الجماعة اباطيل واضاليل وينشئون عادات واوضاعا ونظما وتقاليد ينشأ معها المواليد فجارا ، كفارا كما قال نوح عليه السلام)٠(٢)

وعندما وصل الامر الى نهايته ولم تكن هناك امكانية في ايمان واحد حسب علم الله (واوحي الى نوح انه لن يوءمن من قومك الا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون)"(٣)

وفي الكلام تيئيس له من ايمانهم ، وانهم مستمرون على كفرهم فلن يوءمن احد الا من قد سبق ايمانه ، ثم دعاه الى عدم الحزن ٠ ثم انه سبحانه كما اخبره انهم لا يوءمنون البته ، عرفه وجه هلاكهم والهمه الامر الذى يكون به خلاصه وخلاص من امن معه(٤)٠

فامره سبحانه بان يصنع السفينة "(واصنع الفلك باعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا ، انهم مغرقون)"(٥)٠

ثم يصور نهايتهم الاليمة ومصرعهم الذى تقشعر منه الابدان فيقول تعالى:(فدعا ربه اني مغلوب ، فانتصر ٠ ففتحنا ابواب السماء بماء منهمر ٠ وفجرنا الارض عيونا فالتقى الماء على امر قد قدر ٠)"(٦)

ونجى الله نوحا ومن آمن معه يقول تعالى :"(وحملناه على ذات الواح ودسر تجرى باعيننا جزاء لمن كان كفر ، ولقد تركناها اية فهل من مدكر)"(٧)٠

ويقول :"(فاذا استويت انت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين ، وقل رب انزلني منزلا مباركا وانت خير المنزلين ، ان في ذلك لآيات وان كنا لمبتلين)"٠(٨) لينظر من ينظر عاقبة المكذبين ، وليتعظ من يتعظ بعاقبة الموءمنين الناجين ٠

وهكذا تحققت سنة الله ، فاهلك المكذبين واستخلف من بعدهم قوما اخرين كما قال تعالى :(ثم انشأنا من بعدهم قرنا اخرين)(٩)٠

---

(١) ٢٧ : نوح
(٢) في ظلال القران ٣٧١٧/٦
(٣) ٣٦ : هود
(٤) فتح القدير ٤٩٦/٢ بتصرف
(٥) ٣٧ : هود
(٦) ١٠-١٢ : القمر
(٧) ١٣-١٥ : القمر
(٨) ٢٨-٣٠ : الموءمنون
(٩) ٣١ : الموءمنون

ثانيا :- قوم هود عليه السلام

فهل اعتبر من جاء بعدهم بمصير من سبقهم فآمنوا واتبعوا رسولهم ام اقتدوا بمن قبلهم في الكفر والعناد : ولقد جاء من بعد قوم نوح قوم هود عليه السلام فجاءهم أخوهم هود يأمرهم بعبادة الله وحده وترك ما كانوا عليه من العقائد الفاسدة والعبادات الباطلة ، انها دعوة الانبياء جميعا التي دعوا اليها اقوامهم ، قال تعالى : (والى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره أفلا تتقون) .(١)

وقد سلك هود في دعوته لقومه اساليب شتى ، منها التحذير من العقاب يقول تعالى :(واذكر اخا عاد اذ انذر قومه بالاحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه الا تعبدوا الا الله اني اخاف عليكم عذاب يوم عظيم) . (٢)

وكان قوم هود عليه السلام عربا يسكنون الاحقاف ، وهي باليمن بين عمان وحضرموت(٣)، ثم بين لهم انه لا يريد منهم اجرا على دعوته فقال تعالى : (يا قوم لا اسألكم عليه أجرا ، ان أجرى الا على الذى فطرني ، افلا تعقلون .) (٤) " اى لماذا تردون نصيحة من لا يطلب عليها أجرا الا من الله وهو ثواب الاخرة " (٥)

ثم حبب اليهم الايمان ورغبهم فيه وبين لهم انه سبب في الرخاء والنعيم الدنيوى ، قال تعالى : (ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة الى قوتكم ولا تتولوا مجرمين) (٦)

ثم دعاهم الى التفكر في نعم الله التي أنعمها عليهم ، وان هذه النعم تستحق شكر الله الذى زودهم بها ، قال تعالى : " واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة ، فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون) . (٧) ، اى جعلهم اشد أهل زمانهم في الخلقة والشدة والبطش" (٨)

---

(١) ٦٥ : الاعراف
(٢) ٢١ : الاحقاف
(٣) قصص الانبياء لابن كثير ٩٤
(٤) ٥١ : هود
(٥) الكشاف للزمخشرى ٢ / ٢٧٥
(٦) ٥٢ : هود
(٧) ٦٩ : الاعراف
(٨) قصص الانبياء لابن كثير ٩٨ .

وقال تعالى : (واتقوا الذى امدكم بما تعلمون ٠ امدكم بانعام وبنين وجنات وعيون اني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) ٠ (١)

ولما أمرهم بعبادة الله ورغبهم في طاعته واستغفاره ووعدهم على ذلك خير الدنيا والآخرة (قال الملأ الذين كفروا من قومه انا لنراك في سفاهة) (٢) ، (اى هذا الامر الذى تدعونا اليه سفه بالنسبة الى ما نحن عليه من عبادة هذه الاصنام التي يرتجى منها النصر والرزق ، ومع هذا فنحن نظن انك تكذب في دعواك ان الله ارسلك) (٣) ٠

ثم ادّعوا ان هودا عليه السلام لم يات ببينة على صدق دعوته ، قال تعالى: (قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين ٠٠٠) (٤) ٠

(ولذا فانهم لن يتركوا عبادة أصنامهم لمجرد قول لا دليل عليه ٠ والتوحيد لا يحتاج الى بينة ، وانما يحتاج الى التوجيه والتذكير والى استجاشة منطق الفطرة ، واستنباء الضمير والتفكير في ملكوت السموات والارض) (٥) ٠

ولم يقفوا عند هذا الحد بل زعموا ان بعض آلهتهم غضب عليه فأصابه في عقله ، فاعتراه جنون بسبب ذلك ، لانه يعادى هذه الالهة - المزيفة - من أجل ذلك فهو يهذى هذيان المجانين (ان نقول الا اعتراك بعض آلهتنا بسوء) (٦) ٠

ثم يأتي بالدليل على صدقه فيقول : (قال اني اشهد الله واشهدوا اني برئ مما تشركون ٠ من دونه ، فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون ٠ اني توكلت على الله ربي وربكم ، ما من دابة الاهو آخذ بناصيتها ، ان ربي على صراط مستقيم) (٧) ٠

---

(١) ١٣٢ - ١٣٥ : الشعراء
(٢) ٦٦ : الاعراف
(٣) قصص الانبياء لابن كثير ٩٩٠
(٤) ٥٣ : هود
(٥) في ظلال القرآن ٤ / ١٨٩٨
(٦) ٥٤ : هود وانظر فتح القدير ٢ / ٥٠٥
(٧) ٥٤ - ٥٦ : هود

وهذا وحده برهان قاطع على ان هودا عبد الله ورسوله ، وانهم على جهل وضلال بعبادتهم غير الله ، لانهم لم يصلوا اليه بسوء ولا نالوا منه مكروها ، فدل على صدقه فيما جاءهم فيه ، وبطلان ما هم عليه وفساد ما ذهبوا اليه .(١)
ويقولون: (وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الاخرة واترفناهم في الحياة الدنيا ، ما هذا الا بشر مثلكم ياكل مما تاكلون منه ويشرب مما تشربون . ولئن اطعتم بشرا مثلكم انكم اذن لخاسرون) .(٢)
فهم يعترضون على بشرية الرسول ، وهو الاعتراض الناشئ عن انقطاع الصلة بين قلوب هؤلاء الكبراء وبين النفخة العلوية التي تصل الانسان بخالقه الكريم .(٣)
ويقول تعالى: (او عجبتم ان جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم).(٤)
فقد تعجب قوم هود من بعث بشر رسولا واعترضوا على ذلك ، (وما من عجب في هذا الاختيار ، فهذا الكائن الانساني شأنه كله عجيب ، انه يتعامل مع العوالم كلها ويتصل بربه بما ركب في طبيعته من نفخة الله فيه من روحه ، فاذا اختار الله من بينهم رسوله (والله اعلم حيث يجعل رسالته) فانما يتلقى هذا المختار عنه ، بما اودع في كيانه من امكانية الاتصال به والتلقي عنه ، بذلك السر اللطيف الذي به معنى الانسان ، والذى هو مناط التكريم العلوى لهذا الكائن العجيب التكوين).(٥)

ثم اتهموه بالكذب وادعاء النبوة وانه غير صادق فقالوا :(ان هو الا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين).(٦)

ثم اضافوا الى جرائمهم السابقة جريمة اخرى وهي انكار اليوم الاخر ، وعدم الايمان بالبعث والحساب ، بل ويتعجبون من دعوة النبي لهم بالايمان باليوم الاخر ويستبعدون هذا اليوم اشد الاستبعاد، (٧) (ايعدكم انكم اذا متم وكنتم ترابا وعظاما انكم مخرجون . هيهات هيهات لما توعدون . ان هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين).(٨)

---

(١) قصص الانبياء لابن كثير ١٠٠
(٢) ٣٣ـ٣٤: المؤمنون
(٣) في ظلال القران ٢٤٦٧/٤
(٤) ٦٩ : الاعراف
(٥) في ظلال القران ١٣٠٩/٣
(٦) ٣٨ : المؤمنون
(٧) انظر تفسير القرطبي ٤٥١٦/٥
(٨) ٣٥ ـ ٣٧ : المؤمنون

ويقول عن كفرهم باليوم الاخر ايضا :"(وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الاخرة ....)"(١)

ومن الجرائم التي استحقوا بسببها العذاب انكارهم لايات الله وجحودهم بها مع معرفتهم في قرارة نفوسهم انها حق ، يقول تعالى :"(وكانوا باياتنا يجحدون)"(٢)،(اى بمعجزات الرسل التي خصهم الله بها وجعلها دليلا على نبوتهم ، اوباياتنا التي انزلناها على رسلنا او باياتنا التكوينية التي نصبناها لهم ، وجعلناها حجة عليهم ، او بجميع ذلك)"(٣) ، ولا شك ان جميع ما ذكر من ايات الله فتعم الجميع والله اعلم .

وعن كبرهم وعلوهم في الارض واغترارهم بقوتهم التي منحهم الله ، يقول تعالى:"(فاما عاد فاستكبروا في الارض بغير الحق وقالوا من اشد منا قوة ، اولم يروا ان الله الذي خلقهم هو اشد منهم قوة)" (٤) ، فهم تكبروا عن الايمان بالله وتصديق رسله واستعلوا على من في الارض بغير استحقاق ثم ذكر سبحانه بعض ما صدر عنهم من الاقوال الدالة على الاستكبار فقال : "(وقالوا من أشد منا قوة)" ، وكانوا ذوى اجسام طوال وقوة شديدة فاغتروا باجسامهم حين تهددهم هود بالعذاب ومرادهم بذلك انهم قادرون على دفع ما ينزل بهم من العذاب . (٥)

يضاف الى ذلك تعصبهم لآبائهم واصرارهم على الشرك بالله واتخاذ آلهة من دون الله يعبدونها ، "(أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا ، فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين)" (٦) ، وقالوا : "(أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا ...)" (٧)

---

(١) ٣٣ : المؤمنون
(٢) ١٥ : فصلت
(٣) فتح القدير ٤ / ٥١٠
(٤) ١٥ : فصلت
(٥) انظر فتح القدير ٤ / ٥١٠
(٦) ٧٠ : الاعراف
(٧) ٢٢ : الاحقاف

فيه وجهان : الاول لتزيلنا عن عبادتها بالافك ، الثاني :- لتصرفنا عن آلهتنا بالمنع ...(١) فهم يستنكرون دعوة نبيهم لهم بعبادة الله وحده دون معبوداتهم التي جعلوها شركاء لله ، وانما كان هذا مستنكرا عندهم لانهم وجدوه مخالفا لما كان عليه آباؤهم .(٢)

ان هذا المشهد لمشهد بائس لاستعباد الواقع المألوف للقلوب والعقول ، وهذا الاستعباد الذى يسلب الانسان خصائص الانسان الاصيلة ، حرية التدبر والنظر وحرية التفكير والاعتقاد ، ويدعه عبدا للعادة والتقليد وعبدا للعرف المألوف وعبدا لما تفرضه عليه أهواؤه وأهواء العبيد من أمثاله ، ويغلق عليه كل باب للمعرفة وكل نافذة للنور . (٣)

ومن أسباب عقابهم غرورهم بالدنيا والبذخ فيها ، والترف الذى أعمى بصائرهم عن الحق ، فعن ترفهم يقول الله تعالى :"(وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا ...)" (٤)

ومن صور ترفهم وبذخهم وتعلقهم بالدنيا ما قاله تعالى :" (أتبنون بكل ريع آية تعبثون . وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون)" (٥) ، فقد كانوا يتخذون بكل مكان مرتفع من الارض بناء شامخا يلفت نظر من يراه ، ولكنهم لم يبنوه لمنفعة او مصلحة ، وانما بنوه لاعبين عابثين ، فانكر الله عليهم ذلك حيث كانوا يبعثرون الاموال ويضيعون الثروات ، وكانوا يتخذون للماء مآخذ يجمعونه فيها كالاحواض راجين ان يخلدوا في هذه الارض ، وما هم فيها بخالدين .(٦)

---

(١) تفسير القرطبي ٦٠٢٥/٧
(٢) فتح القدير ٢١٨/٢
(٣) في ظلال القران ١٣١١/٣
(٤) ٣٣ : المؤمنون
(٥) ١٢٨ - ١٢٩ : الشعراء
(٦) انظر دعوة المرسل ٣٥

ومن اسباب عقابهم قلة رحمتهم وشفقتهم فهم يتجبرون في عباد الله ويبطشون في الناس بغير حق ، وبذا فهم يستخدمون قوتهم التي منحهم الله اياها ليس لشكر الله وعمل الصالحات ، وانما للبطش بالضعفاء والمساكين ، فقد اعطاهم الله بسطة في الجسم {..وزادكم في الخلق بسطة ...} (١) ؛ {واذا بطشتم بطشتم جبارين} (٢) . وكانوا قوما مغترين بهذه القوة {وقالوا من اشد منا قوة ، اولم يروا ان الله الذى خلقهم هو اشد منهم قوة} (٣) . فالله سبحانه وتعالى الذى خلقهم ومنحهم هذه القوة قادر على اهلاكهم واستئصالهم ، فسبحانه لا يعجزه شيء في الارض ولا في السماء وهو السميع العليم .

وهكذا كان قوم هود كافرين بالله مصرين على الشرك ، كافرين باليوم الاخر منكرين للبعث والحساب ، كافرين برسوله متهمين له بالسفه والكذب وادعاء النبوة وانه لم يات ببينة على صدق دعوته ، معترضين على بشرية الرسول ، متعصبين لدين ابائهم واجدادهم ، متكبرين في الارض مغترين بما منحهم الله من قوة ، مترفين في الدنيا ، فاستحقوا بكل ذلك انزال عذاب الله عليهم ، ومن العجيب انهم كانوا قبل نزول العذاب بهم قد استعجلوا وقوعه فرارا من مواجهة الحق ، بل فرارا من تدبر تفاهة الباطل وقالوا لنبيهم ان كنت صادقا في دعواك فانزل العذاب الذي تتهددنا به ، وقد ذكرهم وبصرهم بالمصير الذى يترقبهم ان هم بقوا مصرين على كفرهم وعنادهم ، (٤) يقول تعالى : {واذكر اخا عاد اذ انذر قومه بالاحقاف} (٥) . فلقد انذر قومه ان لم يؤمنوا فسيحل بهم عقاب الله ، ومع هذا فقد استهتروا بالانذار وطلبوا نزول العذاب بقولهم : {قالوا اجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد ابلؤنا فاتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين ، قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب ، اتجادلونني في اسماء سميتموها انتم واباؤكم ما نزل الله بها من سلطان ، فانتظروا اني معكم من المنتظرين} (٦) .

---

(١) ٦٩ : الاعراف
(٢) ١٣٠ : الشعراء
(٣) ١٥ : فصلت
(٤) في ظلال القران ١٣١١/٣
(٥) ٢١ : الاحقاف
(٦) ٧٠ ـ ٧١ : الاعراف

(اى قد استحققتم بهذه المقالة الرجس والغضب من الله ، أتعارضون عبادة الله وحده لا شريك له بعبادة اصنام نحتموها وسميتموها آلهة من تلقاء أنفسكم ، اصطلحتم عليها انتم وآباؤكم ، ما نزل الله على ما نهبتم اليه دليلا ولا برهانا ، واذا أبيتم قبول الحق وتماديتم في الباطل ، فانتظروا الان عذاب الله الواقع بكم ، وبأسه الذى لا يرد ، ونكاله الذى لا يصد) (١)

وفي سورة الاحقاف قال تعالى عندما طلبوا نزول العذاب :(قال انما العلم عند الله وابلغكم ما ارسلت به ولكني اراكم قوما تجهلون) (٢)، فنزل العذاب الذى استعجلوه واستحقوه ، قال تعالى مصورا ذلك العذاب : (فلما رأوه عارضا مستقبل اوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا ، بل هو ما استعجلتم به ، ريح فيها عذاب أليم ، تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى الا مساكنهم كذلك نجزى القوم المجرمين) (٣) ، وقال تعالى في سورة القمر : (كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر ، انا ارسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر ، تنزع الناس كانهم أعجاز نخل منقعر) (٤) ، وقال أيضا في سورة الذاريات : (وفي عاد اذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ما تذر من شيء أتت عليه الا جعلته كالرميم) (٥) وفي سورة الحاقة قال تعالى : (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية) (٦)

والعذاب الذى نزل بعاد هو انهم عندما رأوا غيوما في السماء استبشروا خيرا وقالوا هذا غيم ممطرنا ، فجاءهم الجواب بأنه هو ما استعجلتموه من العذاب .

---

(١) قصص الانبياء لابن كثير ١٠٣
(٢) ٢٣ : الاحقاف
(٣) ٢٤ ـ ٢٥ : الاحقاف
(٤) ١٨ ـ ٢٠ : القمر
(٥) ٤١ ـ ٤٢ : الذاريات
(٦) ٥ ـ ٨ : الحاقة

الريح التي سخرها الله سبع ليال وثمانية أيام متتالية ، وكانت هذه الريح عقيما لا ماء فيها ولا خير ، بل فيها العذاب الذى يدمر كل شيء ويجعلهم كأعجاز نخل منقعر ، شبههم بأعجاز النخل التي لا رؤوس لها وذلك لان الريح كانت تجيء الى أحدهم فتحمله فترفعه في الهواء ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه فيبقى جثة بلا رأس ٠ (١)

وقد جاء في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور ٠) (٢)

والدبور : الريح الغربية ٠

وهكذا مضت سنة الله في اهلاك المكذبين المعاندين الذين يستحقون عذاب الله والخزى في الدنيا والعذاب في الاخرة أكبر لو كانوا يعلمون ٠

---

(١) قصص الانبياء لابن كثير ١٠٨

(٢) أخرجه البخارى كتاب الانبياء باب (والى عاد أخاهم ٠٠٠) فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٣٧٦/٦

مسلم كتاب صلاة الاستسقاء باب الصبا والدبور ٢ / ٦١٧

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى ٧ / ١٩٨

ثالثا :- قوم صالح عليه السلام ٠

وهذه صفحة أخرى من صحائف قصة البشرية ، وها هي نكسة أخرى الى الجاهلية ، التي تحققت فيها سنة الله في عقاب الامم يقول تعالى: " والى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره"(١) انها دعوة لهم بافراد الله سبحانه وتعالى بالعبودية لانه لا اله يستحق العبادة والدينونة غيره سبحانه ودعوة لهم الى ترك عبادة الاصنام والشركاء من دون الله ٠ وقد جاءهم بالبينة على صدق دعوته يقول تعالى :" قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم اية " (٢)، فالناقة اية لهم على صدق دعوته ولا بد ان تكون هذه الناقة غير عادية وانها فيها اية او آيات تدل على صدقه ٠

ثم نجد نبي الله صالحا يدعو قومه الى الاعتبار والاتعاظ بمن سبقهم ويدعوهم الى شكر هذه النعم التى انعم الله عليهم بها ، من استخلافهم في الارض بعد قوم عاد ومن نعمة الارض التي انعم عليهم بها ، من سهول وجبال وثمار وجنات وعيون يقول تعالى مبينا ذلك :" واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الارض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا ، فاذكروا الاء الله ولا تعثوا في الارض مفسدين"(٣)٠ ويقول ممتنا عليهم بالخلق والايجاد من الارض واستعمارهم فيها :"هو انشأكم من الارض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا اليه ان ربي قريب مجيب"(٤)، اى هو الذى خلقكم فانشأكم من الارض وجعلكم عمارها اى اعطاكموها بما فيها من الزروع والثمار فهو الخالق الرازق ، وهو الذى يستحق العبادة وحده لا ما سواه فاستغفروه وتوبوا اليه ، اى اقلعوا عما انتم فيه واقبلوا على عبادته فانه يقبل منكم ويتجاوز عنكم ان ربي قريب مجيب "(٥)٠ ويقول ايضا :" اتتركون في ما ها هنا آمنين ، في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين فاتقوا الله واطيعون ولا تطيعوا امر المسرفين "(٦)٠ الاستفهام هنا للانكار اى اتتركون في هذه النعم التي اعطاكم الله اياها آمنين من الموت والعذاب باقين في الدنيا "(٧)٠

---

(١) ٧٣ : الاعراف
(٢) الاية السابقة
(٣) ٧٤ : الاعراف
(٤) ٦١ : هود
(٥) قصص الانبياء لابن كثير ١١٦
(٦) ١٤٦-١٥١ : الشعراء
(٧) قصص الانبياء لابن كثير ١١٦

انها نعم كثيرة تستحق منهم الشكر والانعان لله والاستسلام له ، وتدعوهم الى الاستغفار والتوبة ، والى طاعة نبيهم ، وترك طاعة امر المسرفين من الطواغيت الذين يصدونهم عن الايمان ، فما كان من قومه بعد ان ذكرهم بنعم الله عليهم ودعاهم الى الشكر والاحسان وترك العصيان الا ان " قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا ، اتنهانا ان نعبد ما يعبد اباؤنا واننا لفي شك مما تدعونا اليه مريب "(١).

لقد كان لنا رجاء فيك ، كنت فينا مرجوا لعلمك او لعقلك او لصدقك او لحسن تدبيرك او لهذا جميعه ، ولكن هذا الرجاء قد خاب . اتنهانا ان نعبد ما يعبد اباؤنا ؟ انها للقاصمة ! فكل شيء يا صالح الا هذا ! وما كنا لنتوقع ان تقولها ، فيا لخيبة الرجاء فيك ثم انا لفي شك مما تدعونا اليه ، شك يجعلنا نرتاب فيك وفيما تقول .

وهكذا يعجب القوم مما لا عجب فيه ، بل يستنكرون ما هو واجب وحق ويدهشون لان يدعوهم اخوهم صالح الى عبادة الله وحده ، لماذا ؟ لا لحجة ولا لبرهان ولا لتفكير ، ولكن لان اباءهم يعبدون هذه الالهة . وهكذا يبلغ التحجر بالناس ان يعجبوا من الحق البين ، وان يعللوا العقائد بفعل الاباء "(٢) انه التقليد الاعمى للاباء دون بصيرة او نظر او تفكير .

ثم يجيبون دعوته لهم برميه انه من المسحرين " قالوا انما انت من المسحرين"(٣) اى من المسحورين ، يعنون مسحورا لا تدرى ما تقول في دعائك ايانا الى افراد العبادة لله وحده وخلع ما سواه من الانداد ، وهذا القول عليه الجمهور من المفسرين (٤).

ثم انهم انكروا نبوة صالح وكذبوه في ذلك وقالوا ما هو الا بشر مثلنا فكيف يعطى النبوة ؟ انه التكذيب والحسد من النفوس التي لا تصدق بالحق ولا تقر بالحقيقة " ما انت الا بشر مثلنا فات باية ان كنت من الصادقين"(٥).

وهذه الاية تدل على ان صالحا كان قد دعاهم الى الايمان والتصديق قبل الناقة وانهم كفروا واصروا على شركهم وطلبوا اية على صدقه ، فجاءهم بالناقة التي تحدثنا عنها قبل قليل .

---

(١) ٦٢ : هود
(٢) في ظلال القران ١٩٠٧/٤
(٣) ١٥٣ : الشعراء
(٤) قصص الانبياء لابن كثير ١١٧
(٥) ١٥٤ : الشعراء
(٦) ٢٤ ـ ٢٦ : القمر

ويستغربون ان يتبعوا واحدا مثلهم فيقولون (فقالوا ابشراً منا واحدا نتبعه انا اذا لفي ضلال وسعر ، االقي الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب اشر)(١).

وانهم اذا اتبعوه فهم في ذهاب من الصواب وفي جنون ، ثم يتساءلون منكرين لماذا خص صالح بالرسالة من بين آل ثمود وفيهم من هو اكثر مالا واحسن حالا(٢).

ثم نجدهم يطلبون الايات على صدق نبوته فياتيهم بالاية التى يطلبونها ، فيعصون امر الله في هذه الاية (...فات باية ان كنت من الصادقين ، قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ، ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم).(٣) انه التهديد بعدم مس ناقة الله بسوء ، فان هم مسوها فسيحل عذاب الله بهم .

ومن جرائمهم كذلك تطيرهم بنبي الله وبمن آمن معه (قالوا اطيرنا بك وبمن معك)(٤) ، اى تشاءمنا بك وبمن معك من المؤمنين فبين لهم ان مصائبهم مقدرة من عند الله عز وجل(قال طائركم عند الله ...)(٥).

ومن خلائقهم استحبابهم الضلال على الهداية والرشاد قال تعالى :(واما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ..)(٦)، اى بينا لهم الهدى والضلال فاختاروا الكفر على الايمان(٧).

ومن جرائمهم محاولتهم صد المؤمنين عن ايمانهم وتهديدهم ان بقوا على الايمان يقول تعالى:(قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم اتعلمون ان صالحا مرسل من ربه ، قالوا انا بما ارسل به مؤمنون ، قال الذين استكبروا انا بالذى آمنتم به كافرون)(٨)، فهو تهديد للضعفاء ومحاولة لصدهم عن الحق الذى اتبعوه .

---

(١) ٢٤ـ٢٦ : القمر

(٢) انظر تفسير القرطبي ٦٣٠٨/٧

(٣) ١٥٤ـ١٥٦ : الشعراء

(٤) ٤٧: النمل

(٥) ٤٧: النمل

(٦) ١٧: فصلت

(٧) انظر تفسير الطبرى ١٠٥/٢٤

(٨) ٧٥ـ٧٦ : الاعراف

ومن جرائمهم تكذيبهم بدعوة نبيهم وانهم في ذلك كذبوا الانبياء جميعا "كذبت ثمود المرسلين "(١)، ويقول " كذبت ثمود بالنذر "(٢) ، لانه من كذب نبيا كان كمن كذب جميع الانبياء ، لان دعوتهم واحدة وهي توحيد الله وافراده بالعبودية ثم جعلوا الكذب صفة من صفاته مبالغة في التكذيب فقالوا "...بل هو كذاب اشر"(٣) اى ليس كما يدعي انه نبي انما يريد ان يتعاظم ويلتمس التكبر علينا من غير استحقاق (٤)ـ ومن جرائمهم الطغيان والعتو عن امر الله " كذبت ثمود بطغواها (٥) الطغوى : اسم من الطغيان ، كالدعوى من الدعاء ، قال الواحدى : قال المفسرون " كذبت ثمود بطغواها "اى ان الطغيان حملهم على الكذب ، والطغيان مجاوزة الحد في المعاصي .(٦)

ثم بين سبحانه ان اكثر قوم صالح عليه السلام كانوا كفارا ، قال تعالى: "وما كان اكثرهم مؤمنين "(٧).

ومن سماتهم انقسام المجتمع الى قسمين :ـ مفسدين وطواغيت يتحكمون في الناس ويصدونهم عن الايمان . ورعاع مستضعفين يتبعونهم دون تفكير او اعتبار ، وعن هذه الظاهرة يقول تعالى:"وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الارض ولا يصلحون"(٨). وقوله تسعة رهط:ـ اى تسعة رجال.

ويقول تعالى عن الزعاع :" فاتقوا الله واطيعون . ولا تطيعوا امر المسرفين .الذين يفسدون في الارض ولا يصلحون "(٩).

ولكن القوم والعامة لم يعتبروا بل اصروا على عبوديتهم للطواغيت .

---

(١) ١٤١ : الشعراء
(٢) ٣٣ : القمر
(٣) ٢٥ : القمر
(٤) انظر تفسير القرطبي ٦٣٠٨/٧
(٥) ١١ : الشمس
(٦) انظر فتح القدير ٤٤٩/٥
(٧) ١٥٨ : الشعراء
(٨) ٤٨ : النمل
(٩) ١٥٠ـ١٥٢ : الشعراء

وكان من افعالهم انهم ينحتون الجبال بيوتا فارهين فيها اى بطرين ومعجبين بها وفرحين فيها بغير حق ، وقيل غير ذلك (١) ،فبطر النعم والفرح بها بغير حق سبب موجب لعقاب الله . قال تعالى:" وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين "(٢).

ومن صفاتهم السيئة انهم لا يحبون الناصحين ، فيقول تعالى :" فتولى عنهم وقال يا قوم لقد ابلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين"(٣) اى لم تكن سجاياكم تتقبل الحق ولا تريده فلهذا صرتم الى ما انتم فيه من العذاب الاليم .

ومن جرائمهم الشنيعة قتلهم للناقة التي اضافها نبي الله صالح الى الله عز وجل تعظيما لشأنها رغم تهديده لهم بأنهم ان مسوها بسوء فسيحل بهم عذاب الله ومع هذا فقد اعتدوا على الناقة وقتلوها ، وعن ذلك يقول تعالى :"هذه ناقة الله لكم اية فذروها تأكل في أرض الله ، ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب اليم "(٤) ولكنهم ما استجابوا " فعقروها فاصبحوا نادمين فاخذهم العذاب"(٥) .

وفوق جريمتهم السابقة وهي الاعتداء على ناقة الله نجدهم يمكرون ليقتلوا صالحا عليه السلام "...قالوا تقاسموا بالله لنبيتنّه واهله ، ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك اهله وانا لصادقون ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون، فانظر كيف كان عاقبة مكرهم انا دمرناهم وقومهم اجمعين "(٦) .

ومن اسباب عقابهم استعجالهم بالعذاب قبل الحسنة ، كما قال تعالى في حقهم :"قال يا قوم لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ، لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون "(٧)، قال مجاهد : بالعذاب قبل الرحمة ، والمعنى لم تؤخرون الايمان الذى يجلب لكم الثواب وتقدمون الكفر الذى يوجب العقاب ، وقيل : لم تفعلون ما تستحقون به العقاب "(٨) .

وهكذا كان امر قوم صالح مع نبيهم ..اصروا على الكفر وكذبوا نبيهم واتهموه بالسحر ، واستنكروا نبوته لكونه بشرا مثلهم ، وصدوا الناس عن قبول دعوته، وتطيروا بنبيهم وبالمؤمنين ، وعتوا في الارض وفرحوا بزينة الحياة الدنيا وكرهوا

---

(١) انظر تفسير القرطبي ٦/ ٤٨٤٥
(٢) ١٤٩ : الشعراء
(٣) ٧٩ : الاعراف
(٤) قصص الانبياء لابن كثير ١٢٤
(٥) ١٥٧ : الشعراء
(٦) ٤٩ـ ٥١ : النمل
(٧) ٤٦ : النمل
(٨) تفسير القرطبي ٦/ ٤٩٣٠

النصح والناصحين ، وقتلوا ناقة الله التي جعلها لهم اية ، ثم محاولتهم لقتل نبيهم ، ثم استعجالهم لعذاب الله، فاستحقوا بذلك كله ان ينزل بهم عقاب الله وفق سنته سبحانه باهلاك المكذبين المصرين على الكفر.

فقال لهم نبيهم " .. فقال تمتعوا في داركم ثلاثة ايام ، ذلك وعد غير مكذوب " .(١)

فلما جاء الموعد الذى حدده لهم نبيهم صالح ، وعند شروق الشمس جاءتهم صيحة من فوقهم من السماء ورجفة من اسفل منهم ففاضت الارواح وزهقت النفوس وسكنت الحركات وخشعت الاصوات ، وحقت الحقائق فاصبحوا في دارهم جاثمين(٢) كما قال تعالى مصورا ذلك :" انا ارسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر"(٣) وقال " فاخذتهم الرجفة فاصبحوا في دارهم جاثمين "(٤).

ثم يصور ديارهم وقد اصبحت خالية فقال :" فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ان في ذلك لاية لقوم يعلمون "(٥).

ثم انجى الله عز وجل نبيه والمؤمنين ، كما جرت سنته سبحانه بذلك ، قال تعالى :" وانجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون "(٦).

---

(١) ٦٥ : هود
(٢) قصص الانبياء لابن كثير ١٢٢
(٣) ٣١ : القمر
(٤) ٧٨ : الاعراف
(٥) ٥٢ : النمل
(٦) ٥٣ : النمل

رابعا :- قوم لوط عليه الصلاة والسلام

ومن الاقوام التي حلت بها سنة الله في العقاب قوم لوط عليه السلام الذين عاشوا في شرقي الاردن في منطقة تعرف بالبحر الميت .

فان هؤلاء القوم ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم اليها احد من بني ادم ، وهي اتيان الذكران من العالمين ، وترك ما خلق الله من النساء لعباده الصالحين .

ولقد دعاهم لوط الى عبادة الله وحده لا شريك له ونهاهم عن ارتكاب هذه المحرمات والفواحش والمنكرات والافاعيل المستقبحات ، فتمادوا في ضلالهم وطغيانهم واستمروا على فجورهم وكفرانهم ، فاحل الله بهم من البأس الذى لا يرد ، ما لم يكن في خلدهم وحسبانهم وجعلهم مثالة في العالمين ، وعبرة يتعظ بها الالباء من العالمين (١) .

وعن دعوة لوط الى قومه ، فقد دعاهم الى تقوى الله وتوحيده وافراده بالعبودية ونهاهم عن اتيان المنكرات ، يقول الله عز وجل :" اذ قال لهم اخوهم لوط الا تتقون ، اني لكم رسول امين فاتقوا واطيعون "(٢)، ويقول تعالى:" وما ارسلنا قبلك من رسول الا نوحي اليه انه لا اله الا انا فاعبدون " (٣) .

وقد قلنا- فيما سبق- ان من اشنع جرائمهم واقبحها اتيانهم الذكور من العالمين ، ولذا فان نبي الله لوطا حذرهم من هذه المعصية باساليب مختلفة من ذلك قوله تعالى :" ولوطا اذ قال لقومه اتاتون الفاحشة ما سبقكم بها من احد من العالمين ، انكم لتاتون الرجال شهوة من دون النساء ، بل انتم قوم مسرفون "(٤) .

فقال لوط موبخا قومه ، اتفعلون هذه الفعلة التي بلغت الغاية في الفحش ولم يعملها احد من قبلكم ، فانتم فيها قدوة واسوة سيئة فستبوؤن باثمها واثم من فعلها الى يوم القيامة ، ثم سجل عليهم انهم فقط يريدون الشهوة وحدها ، فهم اخس من سائر افراد الحيوان لان الذكور منها تطلب الاناث بدافع الشهوة والنسل الذى يحفظ النوع (٥) .

---

(١) قصص الانبياء لابن كثير ١٩٢
(٢) ١٦١-١٦٢ : الشعراء
(٣) ٢٥ : الانبياء
(٤) ٨٠- ٨١ : الاعراف
(٥) انظر تفسير المراغي ٨/٢٠٤

والاسراف الذي يدمغهم به لوط عليه السلام هو تجاوز منهج الله المتمثل بالفطرة السوية ، والاسراف في الطاقة التي وهبهمُ الله اياها لاداء دورهم في امتداد البشرية ونمو الحياة ، فاذا هم يريقونها ويبعثرونها في غير موضع الاخصاب (١)

ويذهب القرطبي الى ان اسرافهم هو في جمعهم هذه الفاحشة الى الشرك بالله (٢)

ويذهب الرازى الى ان اسرافهم في كل الاعمال ، فيقول :(والمعنى كأنه قال لهم انتم مسرفون في كل الاعمال ، فلا يبعد منكم ايضا اقدامكم على هذا الاسراف)(٣) وقال ايضا زاجرا لهم عن هذه الفاحشة (اتاتون الذكران من العالمين ، وتذرون ما خلق لكم ربكم من ازواجكم بل انتم قوم عادون)(٤) ، فقال منكرا لهم (اتنكحون الذكران من بني ادم في ادبارهم ٠٠٠وتدعون الذى خلق لكم ربكم من ازواجكم من فروجهن فاحله لكم ٠٠٠ بل انتم قوم تتجاوزون ما اباح لكم ربكم ، واحله لكم من الفروج الى ما حرم عليكم منها)(٥) ، فهم متجاوزون حدود الفطرة وحدود الشريعة (٦)، وقال لوط مخاطبا لقومه : (ولوطا اذ قال لقومه اتاتون الفاحشة وانتم تبصرون ، ائنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ، بل انتم قوم تجهلون)(٧) ، وقوله وانتم تبصرون فيه قولان : احدهما وانتم تعلمون ان هذه فاحشة (٨) ، والثاني وبعضكم يبصر بعضا (٩) ،وقوله :(بل انتم قوم تجهلون) (يقول ما ذلك منكم الا انكم قوم سفهاء جهلة بعظيم حق الله عليكم ، فخالفتم لذلك امره وعصيتم رسوله).(١٠)

---

(١) في ظلال القران ٣/٣١٥
(٢) انظر تفسير القرطبي ٣/ ٢٦٧٩
(٣) انظر تفسير الرازى ٤/ ١٧٨ ٠ (٤) ١٦٥ - ١٦٦ : الشعراء
(٥) تفسير الطبرى ١٩/١٠٥ ، وانظر زاد المسير في علم التفسير ٦/١٤٠
(٦) انظر دعوة الرسل محمد العدوى ٦٥
(٧) ٥٤_ ٥٥ : النمل
(٨) انظر تفسير الطبرى ١٩/ ١٧٥
(٩) زاد المسير في علم التفسير ٦/١٨٣
(١٠) تفسير الطبرى ١٩/١٧٥ وانظر زاد المسير في علم التفسير ٦/١٨٣

ويقول سيد قطب رحمه الله في هذه الاية (..فهو قد عجب في عبارته الاولى من اتيانهم الفاحشة ، وهم يبصرون الحياة في جميع انواعها واجناسها تجرى على نسق الفطرة ، وهم وحدهم الشواذ في وسط الحياة والاحياء ، وصرح في عبارته الثانية بطبيعة تلك الفاحشة ، ومجرد الكشف عنها يكفي لابراز شذونها وغرابتها لمالوف البشرية ولمالوف الفطرة جميعا ، ثم وصفهم بالجهل بمعنييه ، الجهل بمعنى فقدان العلم ، والجهل بمعنى السفه والحمق ، وكلا المعنيين متحقق في هذا الانحراف البغيض ، فالذى لا يعرف منطق الفطرة يجهل كل شيء ، ولا يعلم شيئاً اصلا ، والذى يميل هذا الميل عن الفطرة سفيه احمق معتد على جميع الحقوق)(١)

ولكن قوم لوط قابلوا دعوة نبيهم بالتكذيب ، يقول تعالى : ﴿ كذبت قوم لوط المرسلين ﴾ (٢) ، ويقول تعالى : ﴿ وان يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم وقوم لوط ﴾ (٣) .

ومن عجيب أمرهم انهم أصروا على ارتكاب فاحشتهم الشنيعة ، وعندما نصحهم بتركها قابلوا دعوته بالكبر والتهديد والتبجح في فعل المعصية وطلب العذاب ، وعندما أنذرهم وقوع العذاب لم يؤمنوا ويصدقوا قوله بل شكوا وكذبوا .

وهددوا نبيهم باخراجه من قريته اذا لم ينته عن نهيهم عن اتيان الذكران (٤) : ﴿ قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين ﴾(٥)

وفي آية أخرى قال تعالى مبينا عزمهم على اخراج لوط ومن آمن معه : ﴿ وما كان جواب قومه الا ان قالوا أخرجوهم من قريتكم انهم اناس يتطهرون ﴾(٦)

وفي الآية الاخرى بينوا من يعزمون على اخراجهم فقال تعالى : ﴿ فما كان جواب قومه الا ان قالوا اخرجوا آل لوط من قريتكم انهم اناس يتطهرون ﴾(٧)

---

(١) في ظلال القرآن ٢٦٤٧/٥
(٢) ١٦٠ : الشعراء
(٣) ٤٢ ـ ٤٣ : الحج
(٤) انظر تفسير الطبرى ١٩/ ١٠٦
(٥) ١٦٧ : الشعراء
(٦) ٨٢ : الاعراف
(٧) ٥٦ : النمل

يقول تعالى ذكره : فلم يكن لقوم لوط جواب له اذ نهاهم عما امره الله بنهيهم عنه من اتيان الرجال الا قال بعضهم لبعض (أخرجوا آل لوط من قريتكم انهم اناس يتطهرون) عما نحن فيه من اتيان الذكران في أدبارهم(١)

وقال الرازي انما قالوا :(اناس يتطهرون على سبيل السخرية بهم وتطهرهم من الفواحش ، كما يقول الشيطان من الفسقة لبعض العلماء اذا وعظهم : ابعدوا عنا هذا المتقشف وأريحونا من هذا المتزهد)(٢)

وعن تبجحهم وقلة حيائهم ، نهيهم نبي الله لوطا عن استقبال الضيوف ومحاولتهم الاعتداء على ملائكة الله الذين جاؤا بصورة بشر على نبي الله لوط عليه السلام ، يقول تعالى مصورا هذا الموقف المخزي الشنيع (... وجاء أهل المدينة يستبشرون ، قال ان هؤلاء ضيفي فلا تفضحون واتقوا الله ولا تخزون ، قالوا أولم ننهك عن العالمين) (٣)

ولكن الله طمس أعينهم عن ملائكته كما قال تعالى (ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم ...) (٤) ، والطمس هو : ذهاب الرؤية حيث جعل أعينهم كسائر الوجه لا يرى لها شق (٥)

ومن جرائمهم انهم كانوا يقطعون السبيل ويأتون في ناديهم المنكر قال تعالى على لسان لوط مخاطبا لهم :(انكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر)(٦) ، وقوله (وتقطعون السبيل) قيل انهم كانوا يفعلون الفاحشة بمن كان يمر بهم من المسافرين ، فلما فعلوا ذلك ترك الناس المرور بهم ، فقطعوا السبيل بهذا السبب ، وقيل كانوا يقطعون الطريق على المارة بقتلهم ونهبهم ، وقيل ان معنى قطع الطريق هو قطع

---

(١) تفسير الطبري ١/٢٠ وانظر تفسير الرازي ١٧٨/١٤
(٢) تفسير الرازي ١٧٨/١٤
(٣) ٦٧ـ ٧٠ : الحجر
(٤) ٣٧ : القمر
(٥) تفسير الكشاف للزمخشري ٤٠/٤
(٦) ٢٩ : العنكبوت

النسل بالعدول عن النساء الى الرجال[١] ونهب الشوكاني الى انهم كانوا يفعلون ما يكون سببا لقطع الطريق من غير تقييد بسبب خاص[٢]، ويقول القرطبي : (ولعل الجميع كان فيهم فكانوا يقطعون الطريق لأخذ الاموال والفاحشة ، ويستغنون عن النساء بذلك) (٣) .

وأما المنكر الذى كانوا يأتونه في مجالسهم العامة دون رادع او حياء فقد اختلف فيه ، فقال بعضهم : كانوا يتضارطون في المجالس، وقال بعضهم كانوا يحذفون النساء بالحصى ويستخفون بالغريب والخاطر عليهم ، فعن أم هانئ قالت : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى : (وتأتون في ناديكم المنكر) قال:يحذفون أهل الطريق ويسخرون منهم ، وذلك المنكر الذى كانوا يأتونه) (٤) وقال بعضهم:كان ذلك اتيانهم الفاحشة في مجالسهم ، وقيل:كانوا يلعبون بالحمام وقيل:يلعبون بالنرد والشطرنج ويلبسون المصبغات وتتشبه الرجال بلباس النساء والنساء بالرجال ، ويضربون المكوس على كل عابر .(٥)

وقال بعضهم: هو لف القميص على اليد ، وجر الازار ، وحل الازار ، والحذف والرمي بالبندق والصفير في خصال أخر رواها ميمون بن مهران عن ابن عباس.(٦)

---

(١) انظر تفسير الطبرى ٢٠ / ١٤٥ ، وتفسير ابن كثير ٣ / ٤١١ والتسهيل لعلوم التنزيل ٣ / ٢٥١ ، وزاد المسير ٦ / ٢٧٠
(٢) فتح القدير ٣ / ٢٠١
(٣) تفسير القرطبي ٦ / ٥٠٥٧
(٤)الامام احمد في المسند ٣٤١/٦ رجاله ثقات والحديث صحيح .
(٥) انظر تفسير الطبرى ٢٠ / ١٤٥ ـ ١٤٦ ، وتفسير ابن كثير ٣ / ٤١١ وتفسير القرطبي ٦ / ٥٠٥٧ ـ ٥٠٥٨ ، وفتح القدير ٣ /٢٠١
(٦) زاد المسير في علم التفسير ٦ / ٢٧٠

يقول الطبرى : (واولى الاقوال في ذلك بالصواب قول من قال : معناه : وتحذفون من مجالسكم المارة بكم وتسخرون منهم لما ذكرنا في الرواية بذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم) (١) ويقصد به حديث أم هانيء .

ويلاحظ الانسان من فعلهم عبثهم فيما لا فائدة منه ولا طائل من ورائه ، ويلاحظ فساد أخلاقهم الاجتماعية ووصولها الى الحضيض ويلاحظ عدم أدراكهم لقيمة الحياة والوقت

ومما انتهى اليه امر قوم لوط قلة المؤمنين الذين آمنوا به عليه الصلاة والسلام واتبعوه (٢) ، قال تعالى (... وما كان أكثرهم مؤمنين) (٣) ، ويقول (وأخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين) (٤) ، والظاهر والله اعلم انه لم يؤمن من قوم لوط الا أهل بيته (٥) ، بدليل قوله تعالى (فأنجيناه وأهله الا امرأته كانت من الغابرين) (٦) جمعا بين هذه الآية والآية السابقة والله أعلم ، ومما يؤيد ذلك ما قاله ابن عباس : المراد لوط وابنتاه (٧) ، وقيل ان اهل بيت لوط الذين نجوا ثلاثة عشر (٨) ، والاصل ان نقف عند الآية ولا نتعرض للعدد اذا لم يأت به نقل صحيح .

وعندما توعدهم نبي الله بالعذاب كذبوه وشكوا في صدق قوله (٩) كما قال تعالى : (ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر) (١٠) ، وقال تعالى على لسان الملائكة مخاطبين لوطا بأنهم جاءوه بالعذاب الذى كان قومه يشكون فيه فقال : (قالوا بل جئناك بما

---

(١) تفسير الطبرى ٢٠/ ١٤٥ ـ ١٤٦
(٢) انظر تفسير الطبرى ٢/٢٧
(٣) ١٧٤ : الشعراء
(٤) ٣٥ـ٣٦ : الذاريات
(٥) انظر تفسير الطبرى ٢/٢٧
(٦) ٨٣ : الاعراف
(٧) انظر تفسير الرازى ١٧٨/٨
(٨) الكشاف للزمخشرى ١٩/٤
(٩) انظر الكشاف للزمخشرى ٤٠/٤
(١٠) ٣٦ : القمر

كانوا فيه يمترون) (١) .

ولأنهم كانوا يشكون بالعذاب ويستبعدونه تحدوا نبي الله بانزال العذاب عليهم قال تعالى:(... فما كان جواب قومه الا ان قالوا ائتنا بعذاب الله ان كنت من الصادقين)(٢) ،(وجواب قومه ما كان بشيء الا بهذا القول رجوعا منهم الى التكذيب واللجاج والعناد) (٣)

ثم ان لوطا لما يئس منهم طلب النصرة عليهم من الله سبحانه وتعالى فـ(قال رب انصرني على القوم المفسدين) (٤)

وهكذا استحق قوم لوط ان تنزل بهم سنة الله في عقاب الأمم بما كانوا عليه من تكذيب نبيهم ومحاولتهم اخراجه من دياره ، والتضييق عليه ومنعه من استضافة الناس ومحاولتهم الاعتداء على ملائكة الله الذين جاءوا بصورة البشر ، واصرارهم على ما هم فيه من عمل الفاحشة ، وكذلك قطع السبيل واتيان المنكر في ناديهم ، وشكهم في وعيد نبيهم بنزول العذاب ثم سؤال واستعجال ذلك العذاب وأخيرا دعاء نبيهم عليهم بنزول العذاب ، فاستحقوا بكل ذلك نزول العذاب واستجاب الله دعوة نبيه ، قال تعالى:(انا منزلون على هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون) (٦) ، والرجز هنا العذاب (٧) ، والعذاب الذى نزل بهم وصفه تعالى بقوله :(فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها ، وأمطرنا

---

(١) ٦٣ : الحجر
(٢) ٢٩ : العنكبوت
(٣) فتح القدير ٢٠١/٤
(٤) المصدر السابق بنفس الصفحة
(٥) ٣٠ : العنكبوت
(٦) ٣٤ : العنكبوت
(٧) تفسير الطبرى ١٤٨/٢٠

عليهم حجارة من سجيل منضود ، مسومة عند ربك وما هي من الظالمين ببعيد)(١)
وقال تعالى :(فأخذتهم الصيحة مشرقين)(٢) ، وقال تعالى :(ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر٠)(٣) ، وفي الصباح الباكر وعند شروق الشمس خسف الله بهم الارض ، وارسل عليهم من السماء حجارة صلبة ومتتالية ومعلمة لهؤلاء القوم المسرفين ٠

وهكذا مضت سنة الله ايضا في نجاة نبي الله والمؤمنين معه كما قال تعالى :(ولما جاءت رسلنا ابراهيم بالبشرى قالوا انا مهلكوا هذه القرية ان اهلها كانوا ظالمين ٠ قال ان فيها لوطا ، قالوا نحن اعلم بمن فيها لننجينه واهله الا امرأته كانت من الغابرين)(٥) ، الا ان امرأته كانت تابعة لقومها وكافرة كما قال عز من قائل (ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيلا ادخلا النار مع الداخلين)(٦) (اى خانتاهما في الدين فلم يتبعاهما فيه ، وليس المراد انهما كانتا على فاحشة ـ حاشا وكلا ـ فان الله لا يقدر على نبي قط ان تبغي امرأته كما قال ابن عباس وغيره من ائمة السلف والخلف : ما بغت امرأة نبي قط ومن قال خلاف هذا فقد اخطأ خطأ كبيرا)(٧) ٠
فتلك نهاية القوم المجرمين جزاء فعلتهم الشنيعة واصرارهم عليها ، وان ما حل بقوم لوط لعبرة للمتوسمين الذين ينظرون بعين الفراسة والاعتبار حتى لا يحل بهم عقاب الله ٠)(٨) ٠

---

(١) ٨٢ ـ ٨٣ : هود ٠
(٢) ٧٣ : الحجر ٠
(٣) ٣٨ : القمر ٠
(٤) انظر قصص الانبياء لتفصيل العذاب ٢٠١ ـ ٢٠٢ ٠
(٥) ٣١ ـ ٣٢ : العنكبوت ٠
(٦) ١٠ : التحريم ٠
(٧) قصص الانبياء لابن كثير ٢٠٢ ـ ٢٠٣ ، تنوير المقباس من تفسير ابن عباس ص ٤٧٨ ، زاد المسير ٣١٥/٨ ، الدر المنثور ٨/ ٢٢٨ ٠
(٨) ومما يؤسف اليه ان تنتشر هذه الفاحشة في الغرب ويصبح القانون لا يمانع فيها ، بل اصبحت امرا مشروعا ، ويتم عقد الرجل على الرجل ، فاصابهم الله بمرض "الايدز" وهو مرض فقدان المناعة ، واصبحت الان الصيحات تتعالى بمنعه ولا شك ان هذا عقاب الله عز وجل لتلك الامم التي رتعت في الفاحشة الى اذقانها ، ولعلهم قد فاقوا قوم لوط في هذه الفاحشة او قاربوهم ـ ولم يتمكنوا من ايجاد علاج ناجع له بل وقد يعقبه انواع من مرض السرطان مثل سرطان كابوسي ونسبة الوفيات عالية جدا قد تزيد على ٧٠٪ وكذلك مرض التهاب الكبد الوبائي والزهرى وامراض جنسية اخرى (مجلة مدسن دايجت فبراير ١٩٨٥ م) ، وورد في ملحق صحيفة اليوم بتاريخ ٢٩ / جمادى الآخرة ١٤٠٦ هـ انه ايضا يسبب سرطان الدبر (السرطانة الوسطية) والنزيف الجلدى والمخاطي) ٠

خامسا :ـ قوم شعيب عليه الصلاة والسلام :ـ

ومن الاقوام التي تحققت فيها سنة الله في عقاب الامم ، قوم شعيب عليه الصلاة والسلام ، الذين دعاهم الى تحقيق عبودية الله والدينونة له وحده وهي قاعدة التوحيد الاولى ، وقاعدة الحياة الاولى ، وقاعدة الشريعة الاولى ، وقاعدة المعاملات الاولى التى لا تقوم بغيرها عقيدة ولا عبادة ولا معاملة ٠ (١)

قال تعالى :" والى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره "٠ (٢)

وكان قوم شعيب من أسوأ الأقوام معاملة ، يبخسون المكيال والميزان ويطففون فيهما ، يأخذون بالزائد ويدفعون بالناقص ، (٣) فأرشدهم الى ترك هذه المعاصي بقوله : " فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الارض بعد اصلاحها ، ذلكم خير لكم ان كنتم مؤمنين " (٤) ، وقوله أيضا لهم :" ولا تنقصوا المكيال والميزان ، أني أراكم بخير وأني أخاف عليكم عذاب يوم محيط ، ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الارض مفسدين ٠ بقية الله خير لكم ان كنتم مؤمنين " (٥) ٠

وقال لهم أيضا :" وأوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين ٠ وزنوا بالقسطاس المستقيم ٠ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الارض مفسدين ٠ واتقوا الذى خلقكم والجبلة الاولين " (٦)

فهو في الاية الاولى قد أمرهم بالعدل ونهاهم عن الظلم وبين لهم ان هذا خير لهم في دنياهم وخير لهم في آخرتهم ، لأن المال الحرام ممحوق البركة ومصيره الى الزوال ، وفي الآية الثانية أمرهم بالأمر السابق مبينا لهم أنهم في نعمة من الله وفضل يستوجبان منهم الشكر والعرفان ، وحذرهم من عقاب الله ان بقوا على سوء معاملتهم ، وبين لهم ان ما عند الله أبقى وأفضل (٧) ، وعلى قول آخر أى ما يبقيه لكم من الحلال بعد آيفاء الحقوق

---

(١) في ظلال القرآن ٤ / ١٩١٨
(٢) ٨٥ : الاعراف
(٣) قصص الانبياء لابن كثير ٢٠٨
(٤) ٨٥ : الاعراف
(٥) ٨٤ ـ ٨٦ : هود
(٦) ١٨١ ـ ١٨٣ : الشعراء
(٧) انظر في ظلال القرآن ٤ / ١٩١٥

بالقسط اكثر خيرا وبركة مما تبقونه لأنفسكم من التطفيف والبخس والفساد في الارض ، ذكره ابن جرير وغيره من المفسرين (١) ،فان الحلال مبارك وان قل والحرام ممحوق وان كثر قال تعالى :(يمحق الله الربا ويربي الصدقات)(٢).

وفي الاية الاخرى امرهم بذلك واوصاهم بتقوى الله الذى انعم عليهم بالخلق هم والناس اجمعين(٣) ، وخوفهم بأس الله الذى خلقهم وخلق اباءهم الاولين(٤)

ومن معاصيهم انهم كانوا يفسدون في الارض فنهاهم عن الافساد في الارض بقوله: (... ولا تفسدوا في الارض بعد اصلاحها)(٥) وقوله لا تفسدوا : هو لفظ يعم دقيق الفساد وجليله (٦) ويكون بالظلم واكل اموال الناس بالباطل والبغي والعدوان على الانفس والاعراض وافساد الاخلاق والاداب بالاثم والفواحش الظاهرة والباطنة ، وافساد العمران بالجهل وعدم النظام (٧) ، وقال لهم أيضا :(... ولا تعثوا في الارض مفسدين) (٨) ، قال الشوكاني :(والعثي في الارض يشمل كل ما يعم فيهـا من الاضرار بالناس فيدخل ما في السياق من نقص المكيال والميزان ، وقيـده بالحال وهو قوله(مفسدين) ليخرج ما كان من صورته من العثي في الارض ، والمقصود به الإصلاح) (٩) ، والعثي في اللغة : الافساد (١٠) .

ثم حذرهم من عاقبة الفساد والنظر في مصير الاقوام المفسدة فقال لهم :(... وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين) (١١) ، وما لحقهم من الخزى والنكال ليصير ذلك زاجرا عن العصيان والفساد .

---

(١) فتح القدير للشوكاني ٢ / ٥١٩،

(٢) ٢٧٦ : البقرة ، وانظر قصص الانبياء لابن كثير ٢٠٨

(٣) في ظلال القرآن ـ سيد قطب ـ ٥ / ٢٦١٥

(٤) تفسير ابن كثير ٣/٣٤٦.

(٥) ٨٥ : الاعراف

(٦) تفسير القرطبي ٣/ ٢٦٨٤

(٧) دعوة الرسل محمد احمد العدوى ١٥٦

(٨) ٨٥ : هود

(٩) فتح القدير للشوكاني ٢/ ٥١٨

(١٠) الصحاح للجوهرى كتاب الياء فصل العين ٢٤١٨/٦ .

(١١) ٨٦ : الاعراف

واضافة الى جرائمهم ومعاصيهم السابقة ، فقد حدثنا القران عن معاص اخرى ذكرها لهم بقوله تعالى: (ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به ، وتبغونها عوجا واذكروا اذ كنتم قليلا فكثرتم ، وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين)(١) ، يقول الرازى في تفسير هذه الاية : (والحاصل انه نهاهم عن القعود على صراط الله حال الاشتغال باحد هذه الامور الثلاثة ، واعلم انه تعالى لما عطف بعض هذه الثلاثة على بعض ، وجب حصول المغايرة بينها فقوله (توعدون) يحصل بذلك انزال المضار بهم ، واما الصد : فقد يكون بالايعاد بالمضار ، وقد يكون بالوعد بالمنافع بما لو تركه ، وقد يكون بان لا يمكنه من الذهاب الى الرسول ليسمع كلامه . وأما قوله : (وتبغونها عوجا) فالمراد ألقاء الشكوك والشبهات ، والمراد من الآية ان شعيبا منع القوم من أن يمنعوا الناس من قبول الدين باحد هذه الطرق الثلاثة ، وانا تأملت علمت ان احدا لا يمكنه منع غيره من قبول مذهب او مقالة الا باحد هذه الطرق الثلاثة(٢) .

وقد ذهب بعض المفسرين الى القول بقطع الطريق الحسي بالنهب والسلب (٣) ولكن السياق لا يدل على ذلك بل يدل على ما قبله (٤) من قول الرازى وما رجحه الشوكاني لا ما رجحه ابن كثير (٦) من قطع الطريق الحسي .

هذه دعوة نبي الله شعيب الى قومه دعوة الى عبادة الله حق العبادة ، وترك ما هم عليه من معاص ، ولكنهم بدلا من ان يطيعوا نبيهم في دعوتهم الى الحق نجدهم يردون عليه بالوعيد والتهديد والاستهزاء فقد قابلوا دعوته الجادة

---

(١) ٨٦ : الاعراف
(٢) تفسير الرازى ١٤ / ١٨٢
(٣) تفسير القرطبي ٣ / ٢٦٨٥ ، كتاب التسهيل لعلوم التنزيل للغرناطي ٢ / ٧٠
(٤) تفسير القرطبي ٣ / ٢٦٨٥
(٥) تفسير الرازى ١٤ / ١٨٢ ، وفتح القدير ٢ / ٢٢٤
(٦) تفسير ابن كثير ٢ / ٢٢٢

بكلمات المتهكم الساخر (قالوا يا شعيب أصلاتك تامرك ان نترك ما يعبد آباؤنا او ان نفعل في أموالنا ما نشاء انك لأنت الحليم الرشيد) (١)
(أرادوا ان هذا الذى يأمر به من ترك عبادة الاوثان ، وان مثله لا يدعوك اليه واعي عقل ، ولا يأمرك به آمر فطنة فلم يبق الا ان يأمرك به آمر هذيان ، ووسوسة شيطان ، وهو صلاتك التي تداوم عليها في ليلك ونهارك ، وهي عندهم من باب الجنون الذى يتولع به المجانين والموسوسون ، فقد سخروا اولا من نبي الله شعيب عليه السلام في عبادته ثم سخروا منه في أمره ونهيه ، فقد أضافوا الامر الى الصلاة في تهكمهم لأنهم ينكرون ان يكون طريقه الوحي السماوى ، وقولهم (انك لأنت الحليم الرشيد) : أرادوا نسبته الى غاية السفه والغي فعكسوا ليتهكموا به ، كما يقال للشحيح الخسيس : لو رآك حاتم لسجد لك ، او انك معروف بالحلم والرشد ، فلماذا تأمرهم بترك دين ألفوه عن آبائهم وأسلافهم ، وترك عمل يعود عليهم بالثراء والمال الجم ، وفاتهم ان الرشد في ان يعرف الانسان ربه ، ويشكره على ما وهبه من النعم ، وان يضع نفسه حيث وضعها الله من إجلال وإكرام ، وان ما هم عليه من عبادة الاوثان وأكل أموال الناس بالباطل لا يتصل بالرشد في قليل او كثير) (٢) .
والواقع ان قوم شعيب اذ قالوا لنبيهم (أصلاتك تأمرك ...) كانوا لا يدركون او لا يريدون ان يدركوا ان الصلاة من مقتضيات العقيدة ، ومن صور العبودية لله سبحانه وتعالى ، وان العقيدة لاتقوم بغير توحيد الله ونبذ ما يعبدونه من دونه هم وآباؤهم ، كما أنها لا تقوم الا بتنفيذ شرائع الله في التجارة وتداول الاموال ، وفي كل شأن من شئون الحياة

---

(١) ٨٧ : هود

(٢) دعوة الرسل محمد أحمد العدوى ١٦٩

والتعامل ، فهي لحمة واحدة لا يفترق فيها الاعتقاد عن الصلاة عن شرائع الله ، عن أوضاع الحياة)٠ (١)

فهم في هذا القول قد أتوا بثلاث معاص ، معصية الاستهزاء بنبي الله ومعصية الاصرار على عبادة الآباء واتباعهم دون عبادة الله وحده وطاعته ثم الاصرار على تحكيم أهوائهم في شئون المعاملات ، وترك شرع الله ٠

ومن جرائمهم التي استحقوا بها عقاب الله كما جرت سنة الله بذلك تكذيبهم لنبيهم وحسدهم له على ما أنعم الله به عليه فقالوا : (وما أنت الا بشر مثلنا وان نظنك لمن الكاذبين)(٢) ، وقولهم : (ما أنت الا بشر مثلنا) اى لماذا تتفضل علينا بالنبوة وانت بشر مثلنا فلماذا اختصك الله بالرسالة من بيننا ، ونسوا ان الله يعلم حيث يجعل رسالته ، وان كان بشرا مثلهم ٠ ثم قالوا (وان نظنك لمن الكاذبين) اى وانا لنعتقد انك لست صادقا في دعواك بل أنت كاذب فيما تقول ٠ (٣)

وقد أضافوا الى جرائمهم جريمة أخرى باتهامهم نبيهم بالسحر ف(قالوا أنما أنت من المسحرين) (٤)، فانت رجل قد أصابك السحر فبطل عقلك لأنك بشر مثلنا فلم تدع الرسالة دوننا ! (٥)

وقد طلب شعيب من قومه ان يصبروا حتى يحكم الله بينه وبينهم ، فقال لهم : (وان كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين ٠(٦)

---

(١)في ظلال القرآن ٤ / ١٩١٩

(٢) ١٨٦ : الشعراء

(٣) فتح القدير للشوكاني ١١٥/٤

(٤) ١٨٥ : الشعراء

(٥) انظر تفسير القرطبي ٤٨٤٦/٦ ، وفتح القدير ١١٢/٤

(٦) ٨٧ : الاعراف

فهو في هذه الآية يطلب من قومه ان يصبروا والمعنى (وان كنتم يا قوم قد اختلفتم علي وشعبتم بكفركم أمرى فآمنت طائفة وكفرت طائفة فاصبروا حتى يأتي حكم الله بيني وبينكم ، وفي قوله: فاصبروا قوة التهديد والوعيد)(١) • فالخطاب موجه للكافرين وليس موجها للمؤمنين والكافرين (٢) ، لأن سياق الآيات وظاهر النص يدل على ذلك •

ويذهب سيد قطب رحمه الله الى ان نبي الله شعيبا (قد دعاهم الى أعدل خطة ولقد وقف عند آخر نقطة لا يملك ان يتراجع وراءها خطوة نقطة الانتظار والتريث والتعايش بغير أذى ، وترك كل ما اعتنق من دين حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين (٣) ، ولعل ما قاله سيد قطب رحمه الله هو المعنى الراجح ، يدل على ذلك رفضهم للعرض وتخييره هو ومن آمن معه اما بالرجوع الى دينهم او بالخروج من قريتهم •

وعرضهم السابق الذى عرضوه على نبيهم يحمل في طياته التهديد والوعيد حيث قالوا (قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا او لتعودن في ملتنا ...)(٤) اى كما قال الاشراف المستكبرون (لنخرجنك ...) فلم يكتفوا بترك الايمان والتمرد عن الاجابة الى ما دعاهم اليه ، بل جاوزوا ذلك بغيا وبطرا واشرا - الى توعد نبيهم ومن آمن معه بالاخراج من قريتهم او عودته هو ومن معه في ملتهم الكفرية)(٥)•

وعندما تمسك المؤمنون بايمانهم واعتصموا والتجأوا الى الله ويئس الملأ من عودة شعيب ومن معه اخذوا يقولون لمن معهم:(... لئن اتبعتم شعيبا انكم اذا لخاسرون)(٦) لشرفكم ومجدكم بايثار ملته على ملة ابائكم واجدادكم ، وخاسرون لثروتكم وربحكم بما تركتموه من تطفيف المكيال والميزان (٧)، وفي هذا القول ، ايضا تهديد للضعفاء بترك الدين والا فهم هالكون (٨) •

---

(١) تفسير البحر المحيط ٣٤١/٤
(٢) انظر تفسير القرطبي ٢٦٨٥/٣ ، فتح القدير للشوكاني ٢٢٤/٢
(٣) في ظلال القران ٣/ ١٣١٨
(٤) ٨٨ : الاعراف
(٥) فتح القدير ٢٢٥/٢ وانظر تفسير القرطبي ٢٦٨٦/٣ البحر المحيط ٤٤٢/٤
(٦) ٩٠ : الاعراف
(٧) دعوة الرسل محمد العدوى ١٦٦
(٨) تفسير القرطبي ٢٦٨٧/٣ وانظر فتح القدير ٢٢٥/٢ وانظر في ظلال القران ١٣٢٢/٣

ولما حذرهم اخوهم شعيب ان تحملهم مخالفتهم له وبغضهم لما جاء به ، على الاستمرار في ضلالهم ومخالفتهم ، فيحل بهم عذاب الله ، كما حل بالامم السابقة اذ قال لهم :(ويا قوم لا يجرمنكم شقاقي ان يصيبكم مثل ما اصاب قوم نوح او قوم هود او قوم صالح ، وما قوم لوط منكم ببعيد)(٢)ـ اجابوه بمعصية اخرى وتهديد اشد (قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وانا لنراك فينا ضعيفا ، ولولا رهطك لرجمناك ، وما انت علينا بعزيز)(٢) . وقولهم لشعيب (ما نفقه كثيرا مما تقول) هو كقول قريش لمحمد صلى الله عليه وسلم (قلوبنا في اكنة) قالوه على وجه الاستهانة او جعلوا كلامه هذيانا وتخليطا لا ينفعهم كثير منه ، وقالوا ذلك اخبارا بالواقع لانهم كانوا لا يلقون اليه اذهانهم رغبة عنه وكراهية له (٣) .

وقولهم (... انا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما انت علينا بعزيز) فهم يهددون نبي الله بكل تبجح ووقاحة بالقتل ويعللون عدم قتله لوجود اهله وعشيرته ولولاهم لقتلوه لانه ليس عليهم بغالب ولا قاهر ولا ممتنع ،(٤) وقد يكون المعنى (انه لولا رهطه الذين لم يختاروه عليهم ، ولم يتابعوه في الدين لقتلوه شر قتلة ، وما انت علينا بعزيز وانما يعز علينا رهطك لانهم من اهل ديننا وعلى ملة ابائنا)(٥) .

وكان قوم شعيب لقلة عقولهم وعدم صبرهم يطلبون من نبيهم انزال العذاب عليهم ، فيستعجلون ما يهددهم به نبيهم فلا الترغيب نفعهم ولا الترهيب اجدى معهم فقالوا (فاسقط علينا كسفا من السماء ان كنت من الصادقين)(٦) ، وهو اسلوب من الجحود بليغ يطلبون فيه ان كان صادقا ان يعاقبهم على انكاره؟ يريدون نفي كونه حقا ،(٧) فقالوا له هذا القول تعنتا واستبعادا وتعجيزا ومبالغة في التكذيب اي اسقط علينا جزءا من السماء فتعذبنا بذلك (٨) .

---

(١) ٨٩ : هود

(٢) ٩١ : هود

(٣) دعوة الرسل محمد العدوى ١٧١

(٤) فتح القدير للشوكاني ٥٢٠/٢ وتفسير القرطبي ٤/ ٣٣١٩

(٥) دعوة الرسل محمد العدوى ١٧١

(٦) ١٨٧ : الشعراء

(٧) دعوة الرسل محمد العدوى ١٧٤

(٨) انظر فتح القدير ١١٥/٤ والقرطبي ٦/ ٤٨٥٢

وعندما اشتد ايذاء قوم شعيب لنبيهم ومن آمن معه دعا ربه مستنصرا به في تعجيل ما يستحقونه من العذاب ، فقال:(ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وانت خير الفاتحين)(١) (اي الحاكمين ، والله لا يرد دعاء رسله اذا استنصروه على الذين جحدوه وكفروه ، وخالفوا رسوله)(٢) .

وقال شعيب لقومه كذلك:(ويا قوم اعملوا مكانتكم اني عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا اني معكم رقيب)(٣) .

---

(١) ٨٩ : الاعراف

(٢) قصص الانبياء ابن كثير ٢١٤

(٣) ٩٣ : هود .

فهذا تهديد شديد ووعيد أكيد ان استمروا على طريقتهم ومنهجهم وشاكلتهم فسوف يعلمون من له العاقبة ومن يحل عليه الهلاك والبوار .(١)

وبكل هذا الذى قدمناه عن قوم شعيب من تكذيبهم لنبيهم ، وتوعدهم اياه هو ومن آمن معه بالاخراج او القتل واتهامهم له بالسحر ، وتهكمهم بعقله وبعبادته ، واستهانتهم بأمره ، وأصرارهم على ما هم من معصية تطفيف الكيل والميزان وبخس الناس أشياءهم ، واستعجالهم ما توعدهم به نبيهم من العذاب ودعوة نبيهم عليهم - بكل هذا استحق قوم شعيب ان تنزل بهم سنة الله في عقاب الأمم ، اذ يقفون كل هذه المواقف من نبيهم ودعوته .

وقد أنزل الله عليهم هذا العقاب أجراء لسنة الله في أمثالهم فأخذهم بيوم الظلة والرجفة والصيحة وقد جاء تصوير ما نزل بهم من هذا العذاب في قوله تعالى : (فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين) (٢) ، وقال في سورة هود (... وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين ، كأن لم يغنوا فيها ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود) (٣)، وقال في سورة الشعراء :(فأخذهم عذاب يوم الظلة انه كان عذاب يوم عظيم) (٤)

يقول ابن كثير جامعا بين هذه الآيات مصورا العذاب الذى حل بقوم شعيب ، يقول : " وقد جمع الله عليهم أنواعا من العقوبات وصنوفا من المثلات وأشكالا من البليات ، وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات ، سلط عليهم رجفة شديدة أسكنت الحركات وصيحة عظيمة أخمدت الاصوات ، وظلة أرسل عليهم منها شرر النار من سائر أرجائها والجهات .

ولكنه تعالى تحدث عنهم في كل سورة بما يناسب سياقها ويوافق

---

(١) ٩٣ هود وانظر تفسير القرطبي ٣٣٢٠/٤ وفي ظلال القرآن ١٩٢٣/٤
(٢) ٩١ : الاعراف
(٣) ٩٤ _ ٩٥ : هود
(٤) ٨٩ : الشعراء

طباقها ، في سياق قصة الاعراف أرجفوا نبي الله واصحابه، وتوعدهم بالاخراج من قريتهم ، او ليعودن في ملتهم راجعين. فقال تعالى :(فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين)(١) فقابل الارجاف بالرجفة والاخافة بالخيفة ، وهذا مناسب لهذا السياق ومتعلق بما تقدمه من السياق .

وأما في سورة هود: فذكر انهم أخذتهم الصيحة فأصبحوا في دارهم جاثمين ، وذلك لانهم قالوا لنبي الله على سبيل التهكم والاستهزاء والتنقص: (أصلاتك تأمرك ان نترك ما يعبد آباؤنا...) (٢) الآية ، فناسب أن يذكر الصيحة التي هي كالزجر عن تعاطي الكلام القبيح، الذى واجهوا به هذا الرسول الكريم الأمين الفصيح، فجاءتهم صيحة أسكتتهم مع رجفة أسكنتهم.

وأما في سورة الشعراء: فذكر انه أخذهم عذاب يوم الظلة ، وكان ذلك أجابة لما طلبوا ، وتقريبا الى ما اليه رغبوا فانهم قالوا:(... فاسقط علينا كسفا من السماء ان كنت من الصادقين . قال ربي اعلم بما تعملون)(٣).

قال الله تعالى وهو السميع العليم: (فكذبوه فاخذهم عذاب يوم الظلة ، انه كان عذاب يوم عظيم) (٤) .

وهكذا تحققت سنة الله في المكذبين المعاندين المخالفين لامر الله ورسوله ونجى من بينهم نبيه والمؤمنين الصادقين كما هي سنته ايضا بذلك ، قال تعالى:(ولما جاء امرنا نجينا شعيبا والذين امنوا معه برحمة منا واخذت الذين ظلموا الصيحة فاصبحوا في ديارهم جاثمين)(٥) .

---

(١) ٩١ : الاعراف
(٢) ٨٧ : هود .
(٣) ١٨٧ ـ ١٨٨ : الشعراء
(٤) ١٨٩ : الشعراء
(٥) ٩٤ : هود ،قصص الانبياء لابن كثير ٢١٥

ضوابط سنة الله في عقاب الامم بعذاب الاستئصال

من خلال العرض السابق لبعض الاقوام الذين انزل الله بهم سنة العقاب بعذاب الاستئصال ، استطيع ان استخلص ضوابط هذه السنة :ـ

١ـ نلحظ فيما قدمناه عن اقوام الانبياء ، وموقفهم من انبيائهم وما كانوا عليه من الوان الفساد.

ان الله عز وجل لا يعذب امة من الامم قبل ان يبعث فيها رسولا يقيم الحجة به على الناس وهذا ضابط لم يتخلف في الامم التي تحدثت عنها كاملة ولا الامم الاخرى التي جاء ذكرها في القران الكريم . فهي سنة ثابتة ان لا يعاقب امة حتى يبعث فيها رسولا يبلغ الناس دعوة الله ، لئلا يكون للناس حجة بعد الرسل . والايات التي تقرر هذه الحقيقة كثيرة منها قوله تعالى :(وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في امها رسولا يتلو عليهم اياتنا وما كنا مهلكي القرى الا واهلها ظالمون)(١)، وقوله تعالى (وما اهلكنا من قرية الا لها منذرون)(٢) ، وقوله تعالى:(ذلك ان لم يكن ربك مهلك القرى بظلم واهلها غافلون)(٣)، اى لم ياتهم نبي يرشدهم وينصحهم .

وعن الحكمة من عدم العذاب حتى يرسل سبحانه رسولا يقول:(..لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ..) (٤)، ويقول تعالى ايضا :(ولو انا اهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا ارسلت الينا رسولا ..) (٥)

٢ـ ومن ضوابط سنة الله في عقاب الامم ان لا ينزل عليها العذاب حتى يعطيها فرصة ومهلة يمكنها فيها من الرجوع الى الحق ان ارادت ، فهو سبحانه من رحمته وحكمته الا يعاقب الامم بالعذاب ، بل يأخذها بالضراء والسراء حتى يثوبوا الى الحق ويعودوا الى الرشاد ، قال تعالى:(وما ارسلنا في قرية من نبي الا اخذنا اهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس اباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون)(٦) ، وقال تعالى ايضا :(ولقد ارسلنا الى امم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون =

---

(١) ٥٩ : القصص
(٢) ٢٠٨ : الشعراء
(٣) ١٣١ : الانعام
(٤) ١٦٥ : النساء
(٥) ١٣٤ : طه
(٦) ٩٤ـ٩٥ : الاعراف

فلولا اذ جاءهم بأسنا تضرعوا ، ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون ، فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم ابواب كل شيء حتى اذا فرحوا بما اوتوا اخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين)(١) .

فهو يبين سبحانه وتعالى في هاتين الآيتين ان عذابه للامم لا يكون حتى يختبرهم بالشدائد التي تهزهم وتذكرهم بأن لهذا الكون الها قادرا عليهم ، لكي يرجعوا اليه فاذا فكروا في هذا البلاء واعتبروا به ورجعوا الى دين الله كان خيرا لهم ، وان لم يعتبروا يأخذهم بالسراء محنة لهم واختبارا ، فان فرحوا ولم يعتبروا اخذهم بالعذاب فاذا هم مبلسون ،(٢) وتكون هذه فترة ابتلاء واستدراج يقول تعالى : (ولقد استهزئ برسل من قبلك فامليت للذين كفروا ثم اخذتهم فكيف كان عقاب) (٣) ويقول ايضا (والذين كذبوا باياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، واملي لهم ان كيدى متين)(٤) .

٣ ـ ومن ضوابط سنة الله في عقاب الامم ، ان الامم التى تطلب معجزات من انبيائها تعجيزا لهم وتعنتا ثم تجاب الى طلبها ولا تؤمن بها فان الله عز وجل يعاجلها بالعذاب ، فعندما طلبت قريش العذاب او نزول الملائكة بين لهم انهم اذا اجيبوا الى طلبهم ولم يؤمنوا فسيعاجلهم الله بالعذاب قال تعالى : (وما منعنا ان نرسل بالايات الا ان كذب بها الاولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالايات الا تخويفا)(٥) وقوله تعالى :(لو ما تأتينا بالملائكة ان كنت من الصادقين ، ما ننزل الملائكة الا بالحق وما كانوا اذا منظرين)(٦) .

---

(١) ٤٢ ـ ٤٥ : الانعام .
(٢) انظر تفسير القرطبي ٣ / ٢٦٨٨ وتفسير المنار ٩ / ١٤ ـ ١٩ وتفسير القاسمي ٧ / ٢٨٢٥ .
(٣) ٣٢ : الرعد .
(٤) ١٨٢ ـ ١٨٣ : الاعراف .
(٥) ٥٩ : الاسراء .
(٦) ٧ ـ ٨ : الحجر وانظر في هذه المعاني اضواء البيان ٢ / ١٨٢ ـ ١٨٤ .

٤ـ ومن ضوابط سنة الله في عقاب الامم ان الامة التي يدعو عليها نبيها بالعذاب فانه يجاب الى طلبه لان الله تعالى لا يرد دعوة نبيه وقد راينا كيف استجاب الله تعالى دعاء نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم السلام ، عندما دعوا على اقوامهم ولذا فان ملك الجبال عندما نزل على رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم يقول له ان شئت اطبقت عليهم الاخشبين فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم بل ارجو ان يخرج الله من اصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا فلم يعذبوا .

٥ـ ومن ضوابط هذه السنة أيضا ان الله عز وجل لا يهلك امة واهلها مصلحون كما قال تعالى :" فلولا كان من القرون من قبلكم اولو بقية ينهون عن الفساد في الارض الا قليلا ممن انجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما اترفوا فيه وكانوا مجرمين وما كان ربك ليهلك القرى بظلم واهلها مصلحون "(١)، فهو سبحانه وتعالى يبين ان عذابه لا يحل بامة وهناك من يدعو الى الخير والايمان وينهى عن الشر والكفر وتكون هذه سمة المجتمع ، الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، اما اذا كان الصالحون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر قلة لا وزن لهم ولا اعتبار ، فان الله ينزل عذابه بتلك الامة ، فعندما سالت عائشة رسول الله صلى الله عليه وسلم (انهلك وفينا الصالحون قال نعم اذا كثر الخبث)(٢) ويدل على ذلك قوله تعالى: (الا قليلا ممن انجينا) .

فاذا قل الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ولم يعد هناك امل في ايمان احد ووصل الامر الى حد اليأس من الايمان فان الله ينزل العذاب يقول تعالى: (حتى اذا استيأس الرسل وظنوا انهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجّي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين)(٣)، وقال تعالى مبينا ان الامة التي يصل حالها الى درجة اليأس من الايمان انه يحل بها عذابه قال : (فلما اسفونا انتقمنا منهم ...)(٤) (وقد كانوا قبل ذلك اغضبوه بمعصية رسوله ، لم يكن غضبه قد استقر واستحكم عليهم ، اذ كانوا بصدد ان يزول بايمانهم ، فلما ايس من ايمانهم تقرر الغضب واستحكم فحلت العقوبة)(٥)

---

(١) ١١٦ـ١١٧ : هود
(٢) اخرجه مسلم كتاب الفتن واشراط الساعة باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج ٢٢٠٧/٤
(٣) ١١٠ : يوسف
(٤) ٥٥ : الزخرف
(٥) شفاء العليل ١٠٨ وانظر سيكولوجية القصة ١٩٨ـ١٩٩

٦- ومن ضوابط سنة العقاب ان اهلاك المكذبين الظالين لا يتم حتى يكون هناك مفاصلة تامة بين المؤمنين والكافرين وحين يعجز المؤمنون عن الاستمرار ، او حين يخشى على المؤمنين الفتنة في دينهم ، حينئذ تتدخل قدرة الله وتهلك المكذبين وتنجي المؤمنين الصادقين ، وفي قصة موسى مع فرعون دليل على ذلك (لقد بغى فرعون على بني اسرائيل واستطال بجبروت السلطان والحكم ، ولقد بغى قارون عليهم واستطال بجبروت العلم والمال ، وكانت النهاية واحدة ، هذا خسف به وبداره ، وذلك اخذه عذاب اليم هو وجنوده ، ولم تكن هناك قوة تعارضها من قوى الارض الظاهرة ، فعندها تدخلت قدرة الله ووضعت حدا للبغي والفساد حينما عجز الناس عن الوقوف للبغي والفساد ، وولت هذه وتلك على انه حين يتمحض الشر ويسفر الفساد ويقف الخير عاجزا والصلاح حسيرا ، ويخشى من الفتنة بالبأس والفتنة بالمال ، عندئذ تتدخل قدرة الله مباشرة بلا واسطة من البشر لتضع حدا للشر والفساد(١) .

٧- ومن ضوابط سنة عقاب الامم بالاستئصال ان الله لا يعذب المؤمنين الصادقين مع اقوامهم بل ينجيهم سبحانه وتعالى ، دل على ذلك الاستقراء للامم التي استأصلها الله سبحانه وتعالى (فهل ينتظرون الا مثل ايام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا اني معكم من المنتظرين ، ثم ننجي رسلنا والذين امنوا كذلك حقا علينا ننج المؤمنين)(٢) وان الارض يورثها من بعد الكافرين عباده الصالحين ، يقول تعالى:(ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادي الصالحون)(٣) .

٨- وقد مضت سنة الله ايضا ان لا يعذب امة بعذاب الا حين يأتي اجلها المقدر والمكتوب في علم الله السابق كما قال تعالى :(وما اهلكنا من قرية الا ولها كتاب معلوم ما تسبق من امة اجلها وما يستأخرون)(٤) وقال تعالى:(لكل امة اجل) (٥) .

---

(١) في ظلال القران ٥/ ٢٦٧٤
(٢) ١٠٢ ـ ١٠٣ : يونس
(٣) ١٠٥ : الانبياء
(٤) ٤ـ٥ : الحجر
(٥) ٤٩ : يونس

٩- ومن ضوابط هذه السنة ايضا ان الامة التى تخرج نبيها من دار دعوته فان الله عز وجل يعاجلها بالعذاب ولا يمهلها كما قال تعالى :(وان كادوا ليستفزونك من الارض ليخرجوك منها وانا لا يلبثون خلافك الا قليلا سنة من قد ارسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا) (١) .

١٠- ومن ضوابط سنة الله في عقاب الامم ، ان الله عز وجل اذا انزل عقابه على امة لا يرفعه عنها ولو آمنت (٢) يقول تعالى (قل ارأيتم ان اتاكم عذابه بياتا او نهارا ماذا يستعجل منه المجرمون ، اثم اذا ماوقع آمنتم به آلان وقد كنتم به تستعجلون)(٣) فلا ينفع الايمان وقت نزول العذاب .
فعندما كان يسأل كفار قريش (ويقولون متى هذا الفتح ان كنتم صادقين، قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا ايمانهم ولا هم ينظرون)(٤) ويوم الفتح يعني العذاب (٥) ، ويقول تعالى :(فلما رأوا بأسنا قالوا امنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين ، فلم يك ينفعهم ايمانهم لما راوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون) (٦) .

---

(١) ٧٦ -٧٧ : الاسراء
(٢) انظر اضواء البيان ٢/٤٨٩- ٤٩٠
(٣) ٥٠ - ٥١ : يونس
(٤) ٢٨ - ٢٩ : السجدة
(٥) تفسير الطبري ٢١/ ١١٦
(٦) ٨٤ - ٨٥ : غافر

ظواهر سنة العقاب :

- سواء من ناحية الرسل او قومه او العقاب -

والمتتبع لسنة الله في عقاب الامم بالاستئصال يلحظ الظواهر الاتية :-

١- ان انبياء الله جميعا عليهم الصلاة والسلام جاءوا الى اقوامهم بدعوة واحدة ، وهي افراده سبحانه بالتوحيد وافراده بالعبودية يقول تعالى:(وما ارسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه انه لا اله الا انا فاعبدون)(١) .

٢- ان انبياء الله عليهم الصلاة والسلام ما كانوا يطلبون من اقوامهم اجرا دنيويا ، فنوح قال لقومه:(فان توليتم فما سألتكم من اجر ان اجرى الا على الله ....) (٢) ، وهكذا قال هود وصالح ولوط وشعيب لأقوامهم:(وما اسألكم عليه من اجر ان اجرى الا على رب العالمين)(٣).

(٣) انه ما من نبي دعا قومه الى الله الا وقف منه الملاء المتكبر موقف العناد والاستكبار والسخرية والمكر ومحاولة الصد عن الدين والتكذيب بالله وبرسله ، فما من امة عذبها الله الا كان فيها طواغيت يريدون ان يبقوا على الكفر لما فيه من مطامع دنيوية ومصالح شخصية (وعن الله والشرع) يقول تعالى:(وكذلك جعلنا في كل قرية اكابر مجرميها ليمكروا فيها ، وما يمكرون الا بانفسهم وما يشعرون واذا جاءتهم اية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما اوتي رسل الله ، الله اعلم حيث يجعل رسالته ،سيصيب الذين اجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون)(٤). ، ويقول تعالى عن هؤلاء الطواغيت والملأ المتكبر والذين عادة ما يكونون من اصحاب المال الكثير والجاه العريض ، يقول تعالى :(وما أرسلنا في قرية من نذير الا قال مترفوها انا بما أرسلتم به كافرون ، وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين) (٥) ، ويقول تعالى ايضا عن هؤلاء الملأ :(وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا

---

(١) ٢٥ : الانبياء
(٢) ٧٢ : يونس
(٣) ١٠٩ : الشعراء
(٤) ١٢٣ _ ١٢٤ : الأنعام
(٥) ٣٤ _ ٣٥ : سبأ

آباءنا على أمة وأنا على آثارهم مقتدون) (١) ، انه الاصرار على تقليد الآباء ولو كان آباؤهم ضالين !

واذا تبعت الامة هؤلاء الطواغيت المترفين وعصوا أمر رسولهم فأنه سبحانه ينزل عقابه بهم ، يقول تعالى :(واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا .) (٢) وهكذا رأينا الأمم تطيع طواغيتها وتتبعهم فتكذب دعوة أنبيائها ، وعن تشابه هؤلاء الكافرين في معاصيهم وعللهم وشبههم جاءت آيات كثيرة منها قوله تعالى : (ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء امة رسولها كذبوه فاتبعنا بعضهم بعضا وجعلناهم احاديث فبعدا لقوم لا يؤمنون)(٣) ، وعن استهزاء الامم بانبيائها يقول تعالى :(ولقد ارسلنا من قبلك في شيع الاولين وما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزئون)(٤) ، وعن تعللهم برفض الايمان لان الرسل بشر يقول تعالى :(وما منع الناس ان يؤمنوا اذ جاءهم الهدى الا ان قالوا ابعث الله بشرا رسولا) ؟ (٥) .

وعن اتهام الامم لرسلهم بالسحر والجنون (كذلك ما اتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر او مجنون اتواصوا به بل هم قوم طاغون)(٦) وهكذا وكأن الامم المكذبة يوصي بعضهم بعضا ، ويقول تعالى عن اعراض الكافرين عن قبول الهدى مصورا ذلك بتصوير حسي (الم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم الا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا ايديهم في افواههم ، وقالوا انا كفرنا بما ارسلتم به وانا لفي شك مما تدعوننا اليه مريب)(٧) ... (وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من ارضنا او لتعودن في ملتنا فاوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين ...واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد)(٨) اعراض عن دعوة الله واصرار على الكفر ، محاولة للصد عن دعوة الله ، محاولة

---

(١) ٢٣ : الزخرف
(٢) ١٦ : الاسراء
(٣) ٤٤ : المؤمنون
(٤) ١٠-١١ : الحجر
(٥) ٩٤ : الاسراء
(٦) ٥٢-٥٣ : الذاريات
(٧) ٩ : ابراهيم
(٨) ١٣ - ١٥ : ابراهيم

لاخراج النبي ومن آمن معه ، ثم استفتاح من المؤمنين والكافرين فنجاة للمؤمنين وهلاك للمكذبين الضالين) .

٤ ـ ومن مظاهر سنة الله في عقاب الامم ان عقاب الله اذا نزل بأمة كان شديدا مروعا ، يقول تعالى : (وكذلك أخذ ربك اذا أخذ القرى وهي ظالمة ان أخذه أليم شديد) . (١)

٥ ـ ان عقاب الله للأمم لا يأتي على وتيرة واحدة او صيغة معينة انما حسبما يريد ويشاء سبحانه فإنما أمره اذا اراد شيئا أن يقول له كن فيكون ، وما يعلم جنود ربك الا هو ، وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى : (فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الارض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) .(٢)

---

(١) ١٠٢ :هود
(٢) ٤٠ : العنكبوت

مناقشة القول برفع عذاب الاستئصال

وهكذا مضت سنة الله عز وجل في الامم الحائدة عن منهجه ، فمنهم من عذب بالاستئصال ومنهم من عذب بما دون ذلك ، وستمضي هذه السنة الى يوم القيامة كشأن بقية سنن الله عز وجل المطردة . وقد جعل الله لعذاب الاستئصال ضوابط معينة فاذا حلت الاسباب وزالت موانع هذا العذاب ، وقع الاستئصال ، وقد ذهب بعض العلماء قديما وحديثا الى رفع عذاب الاستئصال ، فمنهم من قال انه رفع منذ عهد موسى عليه السلام ، ومنهم من قال انه رفع ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم .

فأهل مكة كفروا بالله عز وجل وأشركوا في عبادته ، وآذوا الرسول صلى الله عليه وسلم أشد الايذاء ، واتهموه بالسحر والكذب والشعر والجنون ، وحاولوا قتله او اخراجه وطلبوا منه المعجزات والآيات تعنتا وتعجيزا ، واستعجلوا عذاب الله ، كل هذه الامور حدثت من قريش ، ولكن الله عز وجل ، لم ينزل بهم عذاب الاستئصال ، بل عذبهم بما دون ذلك من قتل لصناديدهم وكبرائهم في غزوة بدر واحد وغيرهما من المواطن على ايدى المؤمنين ، وما نتج عن ذلك من خزى للكافرين واذلال لهم ، واظهار لدين الله ورفع كلمته .

واذا كان هذا ما حدث لقريش ، فهل يعني ان قريشا استحقت عذاب الاستئصال ؟ ولم يعذبها الله به ! واذا صح هذا ، فهل ينطبق هذا على الكافرين المستحقين للعذاب الى يوم القيامة ؟ فلا ينزل بهم عذاب الاستئصال كما يقال !

ولقد سجل القران الكريم على كفار مكة المعاصي الكثيرة ، فعن كفرهم وشركهم بالله :(ما كان للمشركين ان يعمروا مساجد الله شاهدين على انفسهم بالكفر ...) (١) ويقول تعالى :(فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادا كبيرا)(٢).

فلقد كان كفار قريش يعبدون من دون الله الهة اخرى ويشركون به ويعتقدون ان هذه الالهة واسطة بينهم وبين الله وعن بعض الالهة التي كانوا

---

(١) ١٧ : التوبة
(٢) ٥٢ : الفرقان

يعبدونها يقول تعالى:(أفرأيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ألكم الذكر وله الأنثى تلك اذن قسمة ضيزى ان هي الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ان تتبعون الا الظن وما تهوى الانفس ولقد جاءكم من ربكم الهدى) (١) ، وقال تعالى على لسانهم :(ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى) (٢) ، ودعاهم الرسول للتوحيد ونهاهم عن الشرك ولكنهم بقوا مصرين على الكفر وآذوا الرسول صلى الله عليه وسلم أشد الايذاء ، ولم يؤمنوا بالله عز وجل وكفروا واتهموا رسول الله بتهم كثيرة .

فلم يؤمنوا بالقرآن وانه منزل من عند الله ، بل ادعوا ان الرسول صلى الله عليه وسلم قد افتراه من عند نفسه (٣) ، وانه أعانه عليه رجل أعجمي ، قال تعالى :(أم يقولون افتراه قل فاتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين) (٤) ، وقال تعالى :(... لسان الذى يلحدون اليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين) (٥) ، واختلف في اسم هذا الذى قالوا انما يعلمه ، فقيل هو غلام الفاكه بن المغيرة واسمه جبر ، وكان نصرانيا فأسلم ، وكانوا اذا سمعوا من النبي صلى الله عليه وسلم ماهو آت وما مضى مع انه أمي لم يقرأ قالوا انما يعلمه جبر ، وهو أعجمي فقال الله :(لسان الذى يلحدون ...) اى كيف يعلمه جبر وهو أعجمي هذا الكلام الذى لا يستطيع الانس والجن ان يعارضوا منه سورة واحدة فما فوقها (٦)

وقد اتهموا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشعر تارة وبالكهانة أخرى ثم هداهم تفكيرهم الى انه ساحر ، قال تعالى عن شبههم وخراصاتهم (ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون) (٧) ، (بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر ...) (٨) .

فهؤلاء الكفار لم يصدقوا بالقرآن ، ولم يؤمنوا بانه وحي من عند الله

---

(١) ١٩ ــ ٢٣ : النجم
(٢) ٣ : الزمر
(٣) تفسير المراغي ١١ / ١٠٧
(٤) ٣٨ : يونس
(٥) ١٠٣ : النحل
(٦) انظر تفسير القرطبي ٥ / ٣٧٩٣
(٧) ٣٦ : الصافات
(٨) ٥ : الانبياء

بل قال بعضهم : هو أهاويل رؤيا رآها في النوم ، وقال بعضهم : بل محمد شاعرثم طلبوا آية كما جاء الرسل الذين سبقوه - آية حقيقية - مثل إحياء الموتى وإبراء الاكمه والابرص وكناقة صالح ، وما أشبه ذلك من المعجزات التي لا يقدر عليها الا الله ، ولا ياتي بها الا الانبياء والرسل (١) ، ونسوا ان هذا القرآن اعظم معجزة ، واكثر دلالة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم .

وقال تعالى عن الكفار (وقالوا يا ايها الذى نزل عليه الذكر انك لمجنون)(٢) اى في دعائك ايانا الى اتباعك وترك ما وجدنا عليه آباءنا . (٣)

واتهموه بالكهانة ، قال تعالى :(فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون) (٥)

وقد وصفوا القرآن بالسحر ، ووصفوا رسول الله بانه ساحر ، يقول تعالى : (... اذ يقول الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا) (٦) ، وقال تعالى :(قال الكافرون ان هذا لساحر مبين) (٢) ، اى سحر ظاهر واضح (٨)

هذه بعض معاصيهم ولكنهم لم يكتفوا بذلك بل اعتدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وآذوه ، وآذوا من آمن معه ، ووصل بهم الامر الى محاولة قتله كما قال تعالى في حقهم : (واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك او يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) (٨) ، فقد اجتمع الملأ من زعماء قريش في دار الندوة وقالوا : ان أمر محمد طال علينا فماذا ترون ؟ فأخذوا في كل جانب من القول ، فقال قائل : نرى

---

(١) تفسير الطبرى ١٧ / ٣
(٢) ٦ : الحجر
(٣) تفسير ابن كثير ٤ / ٥٤٧
(٤) تفسير الرازى ٢٨ / ٢٥٥
(٥) ٢٩ : الطور
(٦) ٤٧ : الاسراء
(٧) ٢ : يونس
(٨) انظر تفسير أبي السعود ٤ / ١١٧
(٩) ٣٠ : الانفال

أن يقيد ويحبس ، وقال آخر : نرى ان ينفى ويخرج ، وقال آخر : نرى ان يأخذ من كل قبيلة رجل سيفا فيضربونه ضربة واحدة ، فلا يقدر بنو هاشم على مطالبة القبائل ، وكان القائل بهذا ابو جهل . فاتفقوا) (١)

ومن شدة تعنتهم وعنادهم طلبوا منه الايات التي تدل على صدق دعوته في نظرهم ، وكلها ايات تعجيزية ، فمعجزة القران اعظم معجزة واية فلو ارادوا الايمان لامنوا ولكنهم جحدوا بها واستيقنتها انفسهم يقول تعالى : (وقالوا لن نوءمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا ، اوتكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيرا ، او تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا او تاتي بالله والملائكة قبيلا ، او يكون لك بيت من زخرف او ترقى في السماء ولن نوءمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقروءه ، قل سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا)(٢) .

فقد طلب كفار قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يفجر لهم عينا او ان يغلبهم باسقاط قطع من السماء عليهم او ان ياتي بالله عز وجل والملائكة فيعاينوهم ، او يكون له بيت من ذهب او يصعد في السماء وانهم لن يوءمنوا حتى ينزل عليهم كتابا يقرأوه على كل رجل منهم ، كما قال تعالى :(بل يريد كل امرئ منهم ان يوءتى صحفا منشرة) (٣) فأجابهم الرسول صلى الله عليه وسلم سبحان الله فان الله لا يعجزه شيء او قال ذلك تعجبا من فرط كفرهم واقتراحاتهم (٤) .

ومن شدة عنادهم وكفرهم فقد قالوا قولة المعاند الجاهل فقالوا :(واذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب اليم)(٥) اى اللهم ان كان هذا القران ، وما يدعو اليه هو الحق منزلا من عندك ليدين به عبادك كما يدعي محمد(صلى الله عليه وسلم) فانزل علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب اليم .

---

(١) احكام القرآن لابن العربي ١/٨٥٠ـ٨٥١
(٢) ٩٠ـ ٩٣ : الاسراء
(٣) ٥٢ : المدثر
(٤) انظر تفسير القرطبي ٥/٣٩٤٦ـ٣٩٤٧
(٥) ٣٢ : الانفال

وفي هذا ايماء الى انهم لا يتبعونه وان كان هو الحق المنزل من عند الله بل يفضلون الهلاك بحجارة يرجمون بها من السماء او بعذاب اليم سوى ذلك كما ان فيه تهكما واظهارا للجزم واليقين بانه ليس من عند الله ـ وحاشاه ـ ومنه يعلم ايضا انه دعاء كفر وعناد ، لا لان ما يدعوهم اليه قبيح وضار (١).

هذه هي بعض معاصي كفار قريش ـ ولا نريد الاطالة بكل ـ التي شابهوا فيها الكفار الذين سبقوهم ، ولكن وان شابهوا الكفار في كل تلك المعاصي الا انهم اختلفوا عنهم في اوصاف معينة وامور جعلت عذاب الاستئصال لم ينزل بهم وذلك ايضا وفق سنة الله عز وجل وحكمته ومشيئته سبحانه وتعالى.

فكفار قريش عندما طلبوا انزال الايات عليهم وعندما طلبوا نزول الملائكة لم يجابوا الى طلبهم ، لان الله عز وجل يعلم انه لو انزل اليهم ما ارادوه فلن يؤمنوا واذا لم يؤمنوا فانه يحل بهم عذاب الله ولهذا لم يجب طلبهم كما قال تعالى :(وما منعنا ان نرسل بالايات الا ان كذب بها الاولون واتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالايات الا تخويفا)(٢)(وفي الكلام حذف ، والتقدير : وما منعنا ان نرسل بالايات التي اقترحوها الا ان يكذبوا بها فيهلكوا كما فعل بمن كان قبلهم فاخر الله تعالى العذاب عن كفار قريش لعلمه ان فيهم من يؤمن وفيهم من يولد مؤمنا)(٣) .

ويقول تعالى ايضا على لسانهم :(لو ما تاتينا بالملائكة ان كنت من الصادقين ما ننزل الملائكة الا بالحق ، وما كانوا اذاً منظرين)(٤) اى هلا تاتينا بالملائكة تشهد لك بصحة دعواك فبين لهم انه لو اجاب طلبهم فانهم لن يؤمنوا وعندها ينزل بهم العذاب (٥) .

وعندما استعجل كفار قريش نزول العذاب بقولهم (واذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجارة من السماء او ائتنا بعذاب اليم)(٦)

---

(١) تفسير المنار بتصرف يسير ٢٠٣/٩
(٢) ٥٩ : الاسراء
(٣) تفسير القرطبي ٣٨٩٧/٥
(٤) ٧ـ٨ : الحجر
(٥) انظر تفسير ابن كثير ٥٤٧/٢ ، راجع ذلك في ضوابط سنة عقاب الاستئصال
(٦) ٣٢ : الانفال

فاجابهم سبحانه وتعالى بقوله :(وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون)(١) ، فالله عز وجل لا يعذب امة ونبيها بين ظهرانيها ولا يعذب امة وفيها من يستغفر الله ، وفي ذلك يقول ابو السعود وقوله (وما كان الله ليعذبهم ...) جواب لكلمتهم الشنعاء وبيان للموجب لامهالهم والتوقف في اجابة دعائهم ، واللام لتأكيد النفي والدلالة على ان تعذيبهم عذاب استئصال وعليه الصلاة والسلام بين اظهرهم خارج عن عادته تعالى غير مستقيم في حكمه وقضائه).(٢)

والمانع الثاني : هو وجود المستغفرين في مكة ، قيل هم المؤمنون الذين بقوا في مكة ، وقيل ان كفار قريش كانوا يستغفرون خلال طوافهم بالبيت او على فرض انهم لو استغفروا لم يعذبهم كقوله تعالى : (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم واهلها مصلحون)(٣) ، والله عز وجل لا يعذب امة وفيهم رجاء في العودة الى الله والايمان ، فالامة لا تعذب الا حين الوصول الى درجة اليأس كما بينت ذلك في ضوابط سنة العقاب ، وقد كان هناك امل ورجاء في اسلام اهل مكة وهذا ما حدث بالفعل عندما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ودخل الناس في دين الله افواجا .

وكما قلت سابقا فان كفار مكة حاولوا اخراج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة ولكنهم لم يخرجوه ، بل امره الله سبحانه وتعالى بالهجرة فهاجر بامر الله ، فعن ابن عباس رضي الله عنه (انزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن اربعين ، فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة ، ثم امر بالهجرة فهاجر الى المدينة...)(٤) وفي الحديث الطويل الذي يرويه البخاري (...اخرج من عندك فقال ابو بكر انما اهلك بابي انت يا رسول الله ، فقال : فاني قد اذن لي في الخروج) وفيه ايضا (... اني اريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين وهما الحرتان)(٥) فدلت هذه الاحاديث ان الرسول انما هاجر الى المدينة بامر ربه ولو اخرجوه بالفعل لحل بهم الهلاك كما هي سنة الله الماضية

---

(١) ٣٣ : الانفال
(٢) تفسير ابي السعود ٤ / ١٩ وانظر تفسير المنار ٩ / ٦٩٣-٢٠٣
(٣) ١١٧ : هود وانظر المصدرين السابقين
(٤) أخرجه البخاري كتاب مناقب الانصار باب مبعث النبي صلى الله عليه وسلم مع الفتح ٧ / ١٦٢
(٥) أخرجه البخاري كتاب مناقب الانصار باب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم الى المدينة فتح الباري بشرح صحيح البخاري ٧ / ٢٣١ واصحابه

يقول تعالى : (وان كادوا ليستفزونك من الارض ليخرجوك منها واذا لا يلبثون خلافك الا قليلا سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا) (١)

وقد بينت في ضوابط سنة الله في عقاب الامم بالاستئصال ، ان الله عز وجل يعجل للأمة عذابها اذا أراد نبيها ودعا عليها بذلك ، ولذا فان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يدع على امته بالعذاب ، بل انه سأل الله ان لا يعذبهم ، فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله هل اتى عليك يوم اشد من يوم أحد ؟ فقال : (لقد لقيت من قومك وكان اشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، اذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال (٢) ، فلم يجبني الى ما أردت ، فانطلقت وانا مهموم على وجهي فلم أستفق الا بقرن الثعالب (٣) ، فرفعت رأسي فاذا انا بسحابة قد أظلتني ، فنظرت فاذا فيها جبريل . فناداني فقال : ان الله عز وجل قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث الله اليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم . قال فناداني ملك الجبال وسلم علي ثم قال : يا محمد ان الله قد سمع قول قومك لك ، وانا ملك الجبال ، وقد بعثني ربك اليك لتامرني بامرك . فما شئت ، ان شئت اطبق عليهم الاخشبين . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : (بل ارجو ان يخرج الله من اصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا) (٤)

وكما قلت سابقا فان لكل امة اجلا ، واجل الله لا يتقدم ولا يتاخر والاجل كما قلت على ضربين اجل بعذاب الاستئصال او اجل بعذاب دون هذا العذاب ، وقد كان مقدرا على قريش اجل بالعذاب بأيدى المؤمنين ، وهذا ما حدث فعلا حيث نصر الله المؤمنين على الكافرين ، فعذبت قريش ونيل من كبريائها في غزوة بدر ثم توالت الانتصارات حتى فتحت مكة ،

---

(١) ٧٦ ـ ٧٧ : الاسراء ، تراجع ضوابط سنة عقاب الاستئصال

(٢) وهو من أكابر أهل الطائف ، ٦ / ٣١٥ فتح البارى

(٣) هو ميقات اهل نجد ويقال له قرن المنازل ، المصدر السابق بنفس الصفحة

(٤) متفق عليه اخرجه البخارى كتاب بدء الخليقة باب اذا قال احدكم آمين .. مع الفتح ٦/٣١٣ واخرجه مسلم كتاب الجهاد والسير باب ما لقي الرسول صلى الله عليه وسلم من المشركين والمنافقين ٣ / ١٤٢١

ثم انتصارات متلاحقة ومتتالية في جزيرة العرب ودخل الناس في دين الله ولعل دخول قريش والعرب من بعدهم هو المانع من عذاب الاستئصال ، فإن الامة لا تعذب - والله اعلم - حتى يصل الامر بها الى مرحلة اليأس من الصلاح (١) ، يقول تعالى : (ويستعجلونك بالعذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون) (٢) .

وان آجال الامم التي يحددها الله عز وجل ليست كآجال الافراد يقول تعالى :(ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وان يوما عند ربك كالف سنة مما تعدون ، وكأين من قرية امليت لها وهي ظالمة ثم اخذتها وإلي المصير)(٣) .

وهكذا فان عذاب الاستئصال لم ينزل باهل مكة لوجود هذه الموانع ، رغم ما كانوا عليه من ذنوب وجرائم ، بل عذبوا بما دون ذلك وبذا مضت سنة الله في عقابهم ، ولم تتخلف سنته سبحانه وتعالى ، فهو في سنته في عقاب الامم الكافرة ان يعذبها بالاستئصال كما حدث هذا لقوم نوح وصالح وشعيب عليهم الصلاة والسلام ، وان يعذبهم بما دون ذلك من قحط ومرض وابتلاء وانتصار للمؤمنين عليهم كما حدث ذلك مع قوم فرعون ، فالله عز وجل يعاقبهم بكل ما مضى من انواع العقاب ولكنه لم يستأصل الكافرين جميعا بل اغرق فرعون وجنوده ومثل هذا حدث لقريش.

فليس هناك دليل لمن يقول برفع عذاب الاستئصال عامة كما حدث مع اهل مكة - فقد كانت كما راينا - موانع تمنع من نزول عذاب الاستئصال حسب سنته سبحانه وتعالى ، فما انطبق عليهم لا ينطبق على غيرهم بالضرورة ، ورفع العذاب عنهم خاصة للاسباب التي اقتضته لا يستلزم رفعه بصفة عامة عن غيرهم من القرون التالية لهم الى يوم القيامة ، غير ان من يقول برفع عذاب الاستئصال لا يكتفون في الاستدلال عليه بما حدث لاهل مكة فقط بل يستدلون على دعواهم هذه بايات من الكتاب العزيز وبعض الاحاديث الشريفة .

ونعرض فيما يلي هذه الادلة ثم نناقشها لنتبين عدم دلالتها على رفع عذاب الاستئصال بصفة عامة ، بل على العكس من ذلك سنقيم الادلة على بقاء عذاب الاستئصال كسنة ماضية من سنن الله تعالى الى يوم القيامة .

---

(١) تراجع ضوابط سنة عقاب الاستئصال
(٢) ٥٣ : العنكبوت
(٣) ٤٧-٤٨ : الحج

اولا : قوله تعالى (وما ارسلناك الا رحمة للعالمين)(١) ، فعن ابن عباس رضي الله عنه قال : من امن بالله واليوم الاخر كتبت له الرحمة في الدنيا والآخرة ،ومن لم يؤمن بالله ورسوله عوفي مما اصاب الامم من الخسف والقذف)(٢) وعن ابن عباس ايضا قال : من تبعه كان له رحمة في الدنيا والاخرة ومن لم يتبعه عوفي مما كان يبتلى به سائر الامم من الخسف والمسخ والقذف)(٣) .

والواقع ان ليس في هذه الاية دليل على رفع عذاب الاستئصال وكون الرسول صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين لا يعني رفع عذاب الاستئصال ، فهو رحمة للكل (للعالمين) لو تدبروا ايات الله وايات الرسول .

واذا كان ابن عباس رضي الله عنه قد فسر هذه الآية بهذا التفسير فهناك اقوال اخرى في تفسير هذه الاية ، فقد قال عبد الرحمن بن زيد يعني المؤمنين خاصة (٤) وقال الامام ابو القاسم والقولان يرجعان الى معنى واحد ، لما بينا انه كان رحمة للكل لو تدبروا في آيات الله ورسوله فاما من اعرض واستكبر ، فانما وقع في المحنة من قبل نفسه ، وقال ابن عطية : ويحتمل ان يكون معناه ....اى هو رحمة في نفسه وهدى بين أخذ به من أخذ واعرض عنه من اعرض . ويقول الشوكاني في تفسير هذه الاية (اى وما أرسلناك يا محمد بالشرائع والاحكام الا رحمة لجميع الناس والاستثناء مفرغ من اعم الاحوال والعلل : اى وما ارسلناك لعلة من العلل الا لرحمتنا الواسعة ، فان ما بعثت به سبب لسعادة الدارين)(٥)

---

(١) ١٠٧ : الانبياء
(٢) انظر تفسير القرطبي ٥ / ٤٣٩٠ وفتح القدير ٣ / ٤٣٠ ، وتفسير الرازي ٢٢ / ٢٢٩ _ ٢٣٠
(٣) تفسير الرازي ٢٢ / ٢٢٥ _ ٢٣٠ ، وتفسير القرطبي ٥ / ٤٣٩٠

(٤) تفسير البحر المحيط ٦ / ٣٤٤
(٥) فتح القدير ٣ / ٤٣٠

ويقول الشيخ الشنقيطي عند هذه الآية : ذكر جل وعلا في هذه الاية الكريمة انه ما ارسل النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه الى الخلائق الا رحمة لهم ، لانه جاءهم بما يسعدهم وينالون به كل خير من خير الدنيا والأخرة ان اتبعوه ، ومن خالف ولم يتبع فهو الذى ضيع على نفسه نصيبه من تلك الرحمة العظمى ، وضرب بعض أهل العلم لهذا مثلا،قال : لو فجر الله عينا غزيرة الماء ، سهلة التناول فسقى الناس زروعهم ومواشيهم بمائها ، فتتابعت عليهم النعم بذلك وبقي اناس مفرطون كسالى عن العمل ، فضيعوا نصيبهم من تلك العين ، فالعين نفسها رحمة من الله ، ونعمة للفريقين ولكن الكسلان محنته على نفسه حيث حرمها ما ينفعها ، ويوضح ذلك قوله تعالى : (ألم تر الى الذين بدلوا نعمة الله كفرا واحلوا قومهم دار البوار) (١) .

ثم بين ان الرأى الاول وهو رفع عذاب الاستئصال ليس بالاظهر فقال :(وقيل كونه رحمة للكفار من حيث ان عقوبتهم أخرت بسببه وأمنوا عذاب الاستئصال والاول أظهر . (٢)

وكون الرسول صلى الله عليه وسلم رحمة للناس جميعا لا يعني رفع عذاب الاستئصال والا لزم رفع العذاب عنهم بالكلية ، والله عز وجل عذب الكافرين بأيدى المؤمنين ، وهذا اشد خزيا لهم وتحقيرا ، ثم ان رحمة الله جعلها للمؤمنين لانهم اهل لها كما قال تعالى ذكره :(... قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون) (٣)، والرسول صلى الله عليه وسلم بشير ونذير، بشير للمؤمنين ونذير للكافرين ، ويقول تعالى عن القرآن الكريم الذى جاء به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم :(ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته

---

(١) ٢٨ : ابراهيم
(٢) أضواء البيان ٤ / ٦٩٤ ـ ٦٩٥ وانظر تفسير ابي السعود ٦ / ٨٨ ، وانظر تفسير الرازى ٢٢ / ٢٣٠
(٣) ١٥٦: الاعراف

أأعجمي وعربي ، قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يوءمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى ٠٠٠)(١) ٠

ثانيا : قوله تعالى :(ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما اهلكنا القرون الاولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون)(٢) ، يقول ابن كثير : (وقوله تعالى :(من بعد ما اهلكنا القرون الاولى)يعني انه بعد انزال التوراة والانجيل لم يعذب امة بعامة بل امر الموءمنين ان يقاتلوا اعداء الله من المشركين كما قال تعالى :(وجاء فرعون ومن قبله والموءتفكات بالخاطئة فعصوا رسول ربهم فأخذهم اخذة رابية)(٣) ، وعن ابي سعيد الخدرى قال : ما اهلك الله قوما بعذاب من السماء والارض بعدما انزلت التوراة على وجه الارض غير القرية التي مسخت قردة بعد موسى ثم قرأ(ولقد آتينا ٠٠٠) الاية ، وعن ابي سعيد مرفوعا الى النبي صلى الله عليه وسلم قال :(ما اهلك الله قوما بعذاب من السماء والارض الا قبل موسى ثم قرأ(ولقد آتينا ٠٠٠) الاية ، وقال ابو سعيد الخدرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(ما اهلك الله قوما ولا قرنا ولا امة ولا اهل قرية بعذاب من السماء ولا من الارض منذ انزل الله التوراة على موسى غير القرية التي مسخت قردة ، الم تر الى قوله تعالى :(ولقد آتينا موسى الكتاب ٠٠٠) الاية اى من بعد قوم نوح وعاد وثمود وقيل اى من بعد ما اغرقنا فرعون وخسفنا بقارون)(٤) ٠

ولكننا اذا تدبرنا الاية التي استدلوا بها على رفع عذاب الاستئصال بعد موسى عليه السلام ٠ فاننا نجد ان الله عز وجل يخبر فيها عما انعم به على عبده ورسوله موسى الكليم عليه من ربه افضل الصلاة والتسليم من انزال التوراة عليه بعدما اهلك فرعون وملئه ، وهذه التوراة بصائر للناس من العمى وهدى الى الحق وارشاد الى العمل الصالح ٠

---

(١) ٤٤ : فصلت ٠
(٢) ٤٣ : القصص ٠
(٣) ٩ـ١٠ : الحاقة ، تفسير ابن كثير ٣٩٠/٣ ٠
(٤) اخرجه البزار وابن المنذر والحاكم وصححه ابن مردويه كلهم مرفوعا الدر المنثور ٤١٧/٦ عن ابي سعيد غير مرفوع واخرجه موقوفا ابن جرير القصص ٨٠/٢٠ في تفسيره
(٥) تفسير ابن كثير ٣٩٠/٣ ، فتح القدير ١٧٤/٤ ، وتفسير الرازى ٢٥٥/٢٤ وتفسير البحر المحيط ١٢٠/٧ ٠

وليس في القول بنزول التوراة بعد هلاك الامم السابقة ما يقتضي عدم نزول هذا الهلاك بالامم التالية ، مع التسليم بتصحيح الحكم للحديث فانه نفي للماضي وليس نفيا للمستقبل .

ومما يدل على امكانية نزول عذاب الاستئصال وقوعه على قوم يونس عليه السلام - لولا مبادرتهم بالتوبة والايمان قبل ان يحل بهم موعد نزول العذاب الذى حدده لهم نبيهم يونس ، يقول تعالى : (فلولا كانت قرية آمنت فنفعها آيمانها الا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى في الحياة الدنيا ومتعناهم الى حين) (١) ، فالمانع من نزول العذاب هو توبتهم وايمانهم ، لا بعثة موسى عليه السلام وانزال التوراة عليه .

ثالثا : يرى ابن كثير رحمه الله ان الله عز وجل كان يعاقب الامم السابقة بالهلاك من عنده ، ثم شرع الجهاد ليكون عقاب الكافرين بأيدى المؤمنين ، فيقول :(في حكمة الجهاد (.. وتلك الايام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين) (٢) ... فهذه حكم شرع الله جهاد الكفار بايدى المؤمنين لا جلها ، وقد كان انما يعاقب الامم السابقة المكذبة للانبياء بالقوارع التي تعم تلك الامم المكذبة كما اهلك قوم نوح بالطوفان ، وعاد الاولى بالدبور وثمود بالصيحة وقوم لوط بالخسف والقلب وحجارة السجيل وقوم شعيب بيوم الظلة ، فلما بعث الله موسى واهلك عدوه فرعون وقومه بالغرق باليم ثم انزل على موسى التوراة شرع فيها قتال الكفار ، واستمر الحكم في بقية الشرائع بعده على ذلك كما قال : (ولقد آتينا موسى ...) الاية ، وقتل المؤمنين للكافرين اشد اهانة لهم من موتهم على فراشهم بقارعة صاعقة او نحو ذلك)(٣) ، وايضا قال عند قوله سبحانه وتعالى : (فاذا لقيتم الذين كفروا

---

(١) ٩٨ : يونس
(٢) ١٤٠ - ١٤١ : آل عمران
(٣) تفسير ابن كثير ٢ / ٢٩٠ ٢٩١

فضرب الرقاب حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فاما منا بعد واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم)(١) ، اى هذا ولو شاء الله لانتقم من الكافرين بعقوبة ونكال من عنده ولكن ليبلو بعضكم ببعض ، ولكن شرع لكم الجهاد وقتال الاعداء ليختبركم ويبلو اخباركم كما ذكر حكمة الجهاد في سورتي آل عمران وبراءة٠٠٠)(٢) ويقول الشيخ تهامي نقرة ـ متابعة لهذا الراى ـ : (ومن السنن العامة التي اثبتها القرآن واخبار التاريخ عقاب كفار الامم الذين كذبوا رسلهم ، فان عاجزوهم بما اقترحوا عليهم من آيات كونية ثم لم يؤمنوا بها اهلكهم الله بعذاب من عنده كما اوعدهم ٠٠٠ وان عادوهم وقاتلوهم عاقبهم الله بالخزى ونصر رسله عليهم (قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف وان يعودوا فقد مضت سنة الاولين)(٣) ٠

والواقع ان ما يذهبون اليه من عذاب الامم الكافرة بعد موسى كان بايدى المؤمنين حيث امرهم بقتال الكافرين ولم يكن ذلك مشروعا قبل ذلك ٠

لا يعني رفع عذاب الاستئصال عن الامم الكافرة ، بل يعني ان الله اذا اراد عذب الكافرين بايدى المؤمنين فنصرهم عليهم ٠ وليس بالايات التي استدلوا بها نص يفيد ان الله قد رفع عذاب الاستئصال ، وليس ايضا في مشروعية الجهاد والحكم المنبنية عليه من نصر للمؤمنين واذلال للكافرين وتعذيبهم بايدى المؤمنين ٠٠٠ ليس في ذلك ما يمنع من انتقام الله من الكفار بما شاء من انواع العذاب الاخرى كما حدث وان اغرق الله فرعون وجنوده وقد يكون العذاب بالاستئصال ٠

ومما يجدر ذكره ان كثيرا من المفسرين عند تفسيرهم لهذه الايات السابقة لم يذكروا في تفسيرها انها تقتضي رفع عذاب الاستئصال ولا تدل عليه ٠(٤)

---

(١) ٤ : محمد

(٢) تفسير ابن كثير ١٧٤/٤

(٣) ٣٨ : الانفال، سيكولوجية القصة ٢٠٢

(٤) انظر تفسير القرطبي ٦٠٥٠/٧ وانظر تفسير الرازى ٢/١٦ ، ١٨/٩ ، وانظر تفسير الطبرى ٤٣/٦ ، ١٠٨/٤ وانظر تفسير ابي السعود ٥٢٧/٢

رابعا : ان دعوة الانبياء السابقين كانت خاصة باقوامهم ، ولذا كان عذابهم عذاب استئصال ، اما دعوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم فهي دعوة عامة ، ولذا فان عذاب الاستئصال مرفوع ، وخاصة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين ، ويقول السيد محمد رشيد رضا رحمه الله عند قوله تعالى:(لكل امة اجل) (١) (والاجل على نوعين ، اجل من يبعث فيهم رسلا لهدايتهم فيردون دعوتهم كبرا وعنادا في الجحود ويقترحون عليهم فيعطونها مع انذارهم بالهلاك انا لم يؤمنوا بها فيكذبون فيهلكون ، وبهذا اهلك قوم نوح وعاد ... وهذا النوع كان خاصا باقوام الرسل اولي الدعوة الخاصة لاقوامهم ، وقد انتهى ببعثة صاحب الدعوة العامة خاتم النبيين المخاطب بقوله:(وما ارسلناك الا رحمة للعالمين) ولكن انتهاءه عند الله لا يمنع جعله انذارا لقومه بهلاكهم ان اعطوا ما اقترحوا من آيات ارضاء لعنادهم ، ليعلم اهل البصيرة بعد ذلك ان منعهم اياه انما كان رحمة بهم وبغيرهم . وقد مضت سنة الله بالامم ان الجاحدين الذين يقترحون الآيات لا يؤمنون بها ، ولاجل هذا لم يعط الله رسوله شيئا مما كانوا يقترحون ... وهذا الاجل لم يكن يعلمه احد الا بعد ان بينه تعالى على ألسنة الرسل (٢) .

وقال سيد قطب رحمه الله في هذا الموضوع:(لقد كانت القرون الاولى تهلك بعذاب من عند الله يستأصلها ، بعد ان تاتيهم رسلهم بالخوارق التي يطلبونها ثم يمضون في التكذيب ، ذلك انها كانت رسالات موقتة لامة من الناس ولجيل واحد من هذه الامة ، والمعجزة كذلك لا يشهدها الا هذا الجيل ، ولا تبقى لتشاهدها اجيال اخرى لعلها تؤمن بها اكثر مما آمن الجيل الذى شهدها اول مرة .

فاما الرسالة المحمدية فقد كانت خاتمة الرسالات ولجميع الاقوام ولجميع الاجيال ، وكانت المعجزة التي صاحبتها معجزة غير عادية ، فهي قابلة للبقاء، قابلة لان تتدبرها اجيال واجيال ، وتؤمن بها اجيال واجيال ، ومن ثم اقتضت

---

(١) ٤٩ : يونس
(٢) تفسير المنار ٨/٤٠٢ ، وانظر ٧/٢٠٨

الا تؤخذ هذه الامة بعذاب الاستئصال ، وان يقع العذاب على افراد منها في وقت معلوم ، وكذلك كان الحال في الامم الكتابية التي قبلها من اليهود والنصارى ، فلم يعم فيهم عذاب الاستئصال)(١) .

ومع التسليم بما قالوه من ان عذاب الاستئصال يقع بالامم التي تطلب من نبيها الآيات ثم لا تؤمن بها ، فليس في هذا ما يدل على ان عذاب الاستئصال لا ينزل بالامة الا لهذا السبب ، ومع ذلك فلم يحدثنا القران عن قوم طلبوا اية ثم لم يؤمنوا بها وعذبها لذلك الا قوم صالح عليه السلام .

ثم ان عذاب الاستئصال الذى اوقعه بالامم السابقة لم يرد نص في القران بانه خاص باقوام الانبياء الذين ارسلوا الى اقوامهم خاصة ، وكانت معجزاتهم حسية ، وانه لا ينزل باقوام الانبياء ذوى الرسالات العامة والمعجزات العقلية كما يقولون .

وقد بينت سابقا ان كون الرسول صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين لا يقتضي عدم نزول العذاب بالامم المكذبة له ، والتي لم تنتفع بما كان في بعثته صلى الله عليه وسلم من رحمة .

ومن هنا فانه يتبين لنا بوضوح ان هذه الادلة ليست كافية لاثبات رفع عذاب الاستئصال ، بل على العكس من ذلك توجد هناك ادلة كثيرة ، تثبت بقاء عذاب الاستئصال كسنة الهية ماضية عند وجود اسبابها وارتفاع موانعها ، وساعرض لبعض هذه الادلة فيما يأتي :

اولا : لقد بينت الايات الكثيرة ان سنة الله في المكذبين هي العقاب ، والعقاب - كما قدمت - على نوعين ، عذاب الاستئصال - والذى هو موضوع النزاع - وعذاب بما دون ذلك ، والسنة ماضية لا تتخلف ولا تتبدل ولا تتحول ، ومن هنا ، فان التهديد بانزال عذاب الاستئصال باق واحتمال وقوع العذاب قائم ، والآيات التي تقرر هذه الحقيقة كثيرة ، وقد قدمت بعضها في بداية هذا الفصل فلا اريد اعادتها هنا .

---

(١) في ظلال القران ٤/ ١٨٥٩

ثـانـيـا : الآيات التي جاءت تهدد كفار قريش بنزول عذاب الاستئصال وتنذرهم به يقول تعالى:(ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات)(١) اى عقوبات امثالهم من المكذبين والمستهزئين فما بالهم لا يعتبرون بذلك ، ويقول تعالى مخاطبا كفار قريش:(افلم يروا الى ما بين ايديهم وما خلفهم من السماء والارض ان نشأ نخسف بهم الارض او نسقط عليهم كسفا من السماء ان في ذلك لاية لكل عبد منيب)(٢) ويقول تعالى:(افنضرب عنكم الذكر صفحا ان كنتم قوما مسرفين ... فاهلكنا اشد منهم بطشا ومضى مثل الاولين)(٣) ويقول تعالى ايضا: (فهل ينتظرون الا مثل ايام الذين خلوا من قبلهم فانتظروا اني معكم من المنتظرين ...)(٤) ، هذه هي بعض الآيات التي جاءت تهدد بنزول العذاب باهل مكة واذا كانت قد نزلت تخاطب كفار قريش فهي تعم الكافرين الى يوم القيامة لان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .(٥)

ثـالـثـا : لم يقتصر التهديد بعذاب الاستئصال في القران بتهديد كفار قريش بل جاء التهديد بالفاظ تدل على العموم قال تعالى :(افأمن اهل القرى ان يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون، او امن اهل القرى ان يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون ، افأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون ، اولم يهد للذين يرثون الارض من بعد اهلها ان لو نشاء اصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون) (٦) ويقول تعالى :(افأمن الذين مكروا السيئات ان يخسف الله بهم الارض او يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون او يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين او يأخذهم على تخوف فان ربكم لرؤوف رحيم) (٧)

---

(١) ٦ : الرعد
(٢) تفسير ابي السعود ٣/٢٠١-٢٠٢
(٣) ٩ : سبأ
(٤) ٥-٨ : الزخرف
(٥) انظر مباحث في علوم القران مناع القطان ٧٢ يطلب من مكتبة وهبة مصر الطبعة الخامسة
(٦) ٩٧-١٠٠ : الاعراف
(٧) ٤٥- ٤٧ : النحل

وتهديد الكفار بصفة عامة على هذا النحو دليل على بقاء عذاب الاستئصال الى يوم القيامة ، حيث ينطبق ذلك التهديد على كل من يوصم بوصمة الكفر .

ثم ان هذا التهديد ما كان ليتوجه به الله عز وجل الى الكفار لو كان عذاب الاستئصال امرا مستحيل الوقوع ، فلا بد وان يكون ممكن الوقوع حتى يكون التهديد به معنى ويكون له اثره في النفوس .

والقول ببقاء هذا التهديد للكفار الى يوم القيامة وامكان حصوله وتأكيد ذلك في النفوس امر ضروري لردع الكافرين عن غيهم وضلالهم ، ولهذا اكده القران والا لما كان تأكيده له معنى وقيمة .

رابعا : ان رفع عذاب الاستئصال عن كفار قريش كان معلقا لوجود الموانع الخاصة التي تحول دون وقوعه كما جاء في قوله تعالى:(وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون)(١) والعذاب الذى رفعه الله عنهم هو عذاب الاستئصال (٢) . ومعنى ذلك ان هذه الموانع لو ارتفعت ـ بالاضافة الى الموانع التى دللت عليها عند حديثي عن رفع عذاب الاستئصال عن قريش ـ لحل بهم العذاب كما توعدهم وتهددهم به .

خامسا : الايات التي جاءت تعلق عذاب الاستئصال على صفات معينة ،وذلك يدل على انه اذا تحققت هذه الصفات نزل العذاب في اى قوم كانوا وفي اى زمان وفي اى مكان من هذه الايات قوله تعالى :(ولقد اهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزى القوم المجرمين)(٣) اى كل طائفة مجرمة ، وفيه وعيد شديد وتهديد اكيد لاهل مكة ـ ولغيرهم ـ لاشتراكهم واولئك المهلكين في الجرائم والجرائر التى هي تكذيب الرسول والاصرار عليه (٤) .

ويقول تعالى : (قل سيروا في الارض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين)(٥)

ويقول تعالى :(...فانظر كيف كان عاقبة الظالمين)(٦) .

---

(١) ٣٤ : الانفال

(٢) انظر تفسير الرازى ١٥٨/١٠

(٣) ١٣ : يونس

(٤) تفسير ابي السعود ١٢٧/٤

(٥) ١١ : الانعام

(٦) ٣٦ : يونس

سادسا : ومن الادلة على بقاء عذاب الاستئصال خوف رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوعه على أمته ، فعن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم اذا كان يوم الريح والغيم عرف ذلك في وجهه وأقبل وأدبر فأذا مطرت سر به ونهب عنه ذلك ، قالت عائشة فسألته فقال أني خشيت ان يكون عذابا سلط على أمتي ويقول اذا رأى المطر رحمة ، وعن عائشة ايضا في رواية أخرى (.. وكان اذا رأى غيما او ريحا عرف ذلك في وجهه فقالت يا رسول الله ارى الناس اذا رأوا الغيم فرحوا رجاء ان يكون فيه مطر وأراك اذا رأيته عرفت الكراهية في وجهك ، قالت فقال : يا عائشة ما يؤمنني ان يكون فيه عذاب قد عذب قوم بالريح ، وقد رأى قوم العذاب فقالوا : هذا عارض ممطرنا) . (١)

وقد حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم امته من ان تسألنه الآيات كما سألتها الامم التي عذبت فتعذب ، فعن جابر قال : لما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجر قال : (لا تسألوا الآيات فقد سألها قوم صالح فكانت - يعني الناقة - ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج فعتوا عن أمر ربهم فعقروها فأخذتهم الصيحة أهمد الله بها من تحت أديم السماء منهم ...) (٢) ، وقد حذر امته من الشح الذى كان سببا في عذاب الأمم فقال : (اياكم والشح ، انما أهلك الذين قبلكم انهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه واذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد) (٣) ، وقال رسول الله لأصحابه عند مروره بديار ثمود :(لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين ... لايصيبكم مثل ما أصابهم) (٤) .

---

(١) أخرجه مسلم كتاب صلاة الاستسقاء باب التعوذ عند رؤية الريح والغيم والفرح بالمطر ٦١٧/٢ والبخارى كتاب التفسير باب سورة حم الاحقاف ٤٦ فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٥٧٨/٨

(٢) أخرجه الامام أحمد ٣ / ٣٩١ وقال ابن كثير // هذا الحديث على شرط مسلم قصص الانبياء لابن كثير ١٢٢-١٣٣

(٣) متفق عليه أخرجه البخارى كتاب احاديث الانبياء باب ٥٤ ومسلم كتاب الحدود باب قطع السارق الشريف وغيره ٣ / ١٣٢٥

(٤) متفق عليه أخرجه البخارى كتاب الصلاة باب الصلاة في مواضع الخسف والعذاب مع الفتح ٥٣٠/١ ومسلم كتاب الزهد والرقائق باب لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم ... ٤ / ٢٢٨٥ - ٢٢٨٦

والرسول صلى الله عليه وسلم لا يخاف من شيء ويحذر امته منه وهو غير ممكن ، وانا استثنيت امة محمد من هذا العذاب فانه باق على الامم الكافرة .

والرسول صلى الله عليه وسلم سأل الله عز وجل ان لا يعذب امته بعذاب يعمها به ، (١) ولو كان عذاب الاستئصال مرفوعا ببعثته عن الامم ، فما فائدة سؤاله صلى الله عليه وسلم .

بعد هذا العرض لموضوع عذاب الاستئصال وكونه باقيا في الكافرين مرفوعا عن أمة محمد صلى الله عليه وسلم خاصة ، فلا يعني هذا رفع العذاب عنهم مطلقا ، ولا يعني أيضا انهم بدع من الامم ، ولكن الله يعلم ان هذه الامة لن تخلو من الطائفة القائمة بأمر الحق الى يوم القيامة وان هذه الامة لن تصل الى مرحلة اليأس من إيمانها او ان ترتد بكاملها عن الدين ، وهذا إخبار بعلم الله لا رفعا وخلافا لسنته سبحانه وتعالى .

---

(١) راجع ذلك في بداية فقرة عذاب الأمة الاسلامية .

سنة الله في عقاب الامم بما دون عذاب الاستئصال:-

قلنا في بداية هذا الفصل ان سنة الله في عقاب الامم اما ان تكون بالاستئصال ، او بما دون ذلك من انواع العقاب الالهي حسب حكمته وعدله سبحانه وتعالى ،

وانا كنت قد بسطت القول في الصفحات السابقة شرحا لسنة الله في عقاب الاستئصال في موجباتها وضوابطها ، وضربنا الامثلة بالامم التي نزلت بها تلك السنة ، فاني اتحدث في الصفحات التالية عن سنة الله في عقاب الامم بما دون عذاب الاستئصال من انواع العقاب الالهي ، فالله عز وجل قد يعذب بعض الامم التي وان اشتركت مع الامم التي عوقبت بالاستئصال في كثير من اسباب نزول العذاب بها ، الا انها لم تستوف موجباته ، ولم تتم لها ضوابطه التي ذكرتها من قبل - قد يعذبها بما دون عذاب الاستئصال كما قال تعالى:(وان من قرية الا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة او معذبوها عذابا شديدا كان ذلك في الكتاب مسطورا (١) .

وكما قال سبحانه (قل هو القادر على ان يبعث عليكم عذابا من فوقكم او من تحت ارجلكم او يلبسكم شيعا ، ويذيق بعضكم بأس بعض)(٢) وكما قال عز من قائل:(ولنذيقنهم من العذاب الادنى دون العذاب الاكبر لعلهم يرجعون)(٣)

والعذاب الادنى : مصائب الدنيا واسقامها وبلاؤها مما يبتلي الله بها العباد حتى يتوبوا (٤)

وقد تضمن القران الكريم عقاب بعض الامم بما دون عذاب الاستئصال وذكر انواع هذا العقاب ومنها ابتلاؤهم بالامراض والاسقام والاوبئة وابتلاؤهم بالزلازل والمحن ، وبالفقر والجوع والقحط ، او بالفيضانات والامطار والعواصف المدمرة ، او بفقد السعادة القلبية والطمأنينة النفسية ، او بضرب قلوب بعضهم ببعض حتى يكون بأسهم بينهم شديدا او بانتقال سيادتهم الى امة اخرى بتسليطها عليهم فتذلهم وتحتل اراضيهم وتسيطر عليهم وهذه هي العقوبات القدرية (٥) .

---

(١) ٥٨ : الاسراء

(٢) ٦٥ : الانعام

(٣) ٢١ : السجدة

(٤) تفسير الطبرى ٢١ / ١٠٨ .

(٥) انظر الاجوبة المفيدة لمهمات العقيدة ١٩- ٢٠
وانظر اضواء على تفسير التاريخ للدكتور نعمان عبد الرزاق السامرائي ٨٢-٨٤ مكتبة المعارف الرياض الطبعة الاولى .

ومن الامم التي عذبها الله دون عذاب الاستئصال قوم ابراهيم ٠

فقوم ابراهيم عليه الصلاة والسلام كفروا بالله عز وجل وآذوا نبيهم وارادوا حرقه ٠

فقد بعث ابراهيم عليه السلام الى قومه يدعوهم الى توحيد الله وترك عبادة الاصنام يقول تعالى : (وابراهيم اذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون ، انما تعبدون من دون الله اوثانا وتخلقون افكا ان الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له ، اليه ترجعون)(١) اى اعبدوا الله ايها القوم دون غيره من الاوثان والاصنام ، فانه لا اله لكم غيره ، واتقوا سخطه باداء فرائضه ٠٠٠ فانما تعبدون ايها القوم من دون الله اوثانا يعني مثلا ، وتصنعون كذبا وباطلا ، فان اوثانكم التي تعبدونها لا تقدر ان ترزقكم شيئا فالتمسوا عند الله الرزق لا من عند اوثانكم ، تدركوا ما تبتغون من ذلك ، فذلوا له سبحانه واشكروه على رزقه اياكم ، فالى الله تردون من بعد مماتكم ، فيسألكم عما انتم عليه من عبادتكم غيره ، وانتم عباده وخلقه ، وفي نعمته تتقلبون ، ورزقه تأكلون ٠(٢)

وقد كان قومه ينكرون يوم الجزاء فلفت نظرهم الى الخلق ليتفكروا فيه فقال لهم :(اولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده ، ان ذلك على الله يسير ، قل سيروا في الارض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الاخرة ان الله على كل شئ قدير)(٣) فكما يستأنف الله خلق الاشياء ابتداء ، فهو يعيده بعد فنائه وبلاه ، فهو سبحانه قادر على انشاء جميع خلقه بعد افنائه كهيئته قبل فنائه ، وعلى غير ذلك مما يشاء فعله قادر لا يعجزه شئ اراده (٤) ٠

وهكذا ارشدهم ابراهيم عليه السلام الى ترك عبادة الاصنام ولكنهم بقوا مصرين على ذلك وغرهم تعصبهم لابائهم وتعللوا بذلك في بقائهم على عبادة الاصنام التي لا تضر ولا تنفع ، ولا تدفع السوء عن احد حتى ولا عن نفسها فقالوا له بعد ان امرهم بترك عبادة =

---

(١) ١٦ ـ ١٧ : العنكبوت ٠
(٢) تفسير الطبرى بتصرف يسير ٢٠ / ١٣٦ ـ ١٣٨ ٠
(٣) ١٩ ـ ٢٠ : العنكبوت ٠
(٤) تفسير الطبرى بتصرف يسير ٢٠ / ١٣٨ ـ ١٣٩ ٠

الاصنام (قالوا وجدنا اباءنا لها عابدين ، قال لقد كنتم انتم واباؤكم في ضلال مبين)(١) (لم يجد القوم في جوابه الا التعليل الذى يوجب مزيد النكير لانهم انا كانوا على خطأ من امرهم لم يعصمهم من هذا الخطأ ان اباءهم ايضا سلكوا هذا الطريق ، فلا جرم ان ابراهيم عليه السلام قد خاطبهم بقوله :(لقد كنتم أنتم ...) فبين ان الباطل لا يصير حقا بسبب كثرة المتمسكين به)(٢) .

وبقي قوم ابراهيم مصرين على كفرهم وعبادتهم للأصنام ، فحطم ابراهيم هذه الاصنام لعلهم يعتبرون ، ولكن بقوا في غيهم وضلالهم سادرين ، وانتصروا لآلهتهم التي لم تنتصر لنفسها ، فأرادوا قتل ابراهيم او حرقه (فما كان جواب قومه الا ان قالوا اقتلوه او حرّقوه فأنجاه الله من النار) (٣) فآمن بدعوة ابراهيم لوط عليه السلام ، وقرر ابراهيم الهجرة الى الارض المباركة اعتزالا لقومه ولدعوتهم الباطلة ، قال تعالى:(فآمن له لوط،وقال اني مهاجر الى ربي انه هو العزيز الحكيم) (٤) ، وقال تعالى ايضا :(واعتزلكم وما تدعون من دون الله وادعو ربي عسى الا اكون بدعاء ربي شقيا) (٥) .

وكان جزاء قوم ابراهيم ابطال سعيهم وظهورهم بمظهر العاجز الذى لا يملك حولا ولا قوة ، وبذا كانوا هم الخاسرين وكانوا هم الاسفلين كما قال تعالى (قالوا احرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين ، قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على ابراهيم وأرادوا به كيدا فجعلناهم الاخسرين) (٦) اى ارادوا ان يكيدوا فما كانوا الا مغلوبين (٧) وقال تعالى في سورة الصافات :(قالوا ابنوا لنا بنيانا فالقوه في الجحيم فارادوا به كيدا فجعلناهم الاسفلين)(٨)(اى احتالوا لاهلاكه فجعلناهم الاسفلين المقهورين لانها قامت له بذلك عليهم الحجة التي لا يقدرون على دفعها ولا يمكنهم جحدها ، فان النار

---

(١) ٥٣ـ٥٤ : الانبياء
(٢) تفسير الرازى ٢٢ /١٧٩
(٣) ٢٤ : العنكبوت
(٤) ٢٦ : العنكبوت
(٥) ٤٨ : مريم
(٦) ٦٨ـ٧١ : الانبياء
(٧) تفسير الرازى ٢٢/١٩٠
(٨) ٩٨ : الصافات

الشديدة الاتقاد العظيمة الاضطرام المتراكمة الجمار ، اذا صارت بعد القائه بردا وسلاما ، ولم تؤثر فيه اقل تأثير ، كان ذلك من الحجة بمكان يفهمه كل من له عقل وصار المنكر له سافلا ساقط الحجة ظاهر التعصب واضح التعسف ،... ولما انقضت هذه الوقعة واسفر الصبح لذى عينين وظهرت حجة الله لابراهيم وقامت براهين نبوته وسطعت انوار معجزته (قال اني ذاهب الى ربي سيهدين)(١).

ومن الاقوام التي عذبها الله عز وجل بما دون عذاب الاستئصال قوم فرعون الذين كفروا بالله عز وجل واصروا على كفرهم واتاهم موسى بالمعجزات ولكنهم لم يؤمنوا واتبعوا امر فرعون ، وما امر فرعون برشيد وكما قال تعالى:(فاستخف قومه فاطاعوه)(٢) ، ولا اريد ان اطيل بمعاصي فرعون وقومه ، ومن اشد معاصي فرعون قوله:(ما علمت لكم من اله غيري فاوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا لعلي اطلع الى اله موسى واني لاظنه كاذبا)(٣)

وبعد ان اقام موسى الحجة عليهم ، بالترهيب تارة والترغيب تارة ، ولم يجد معهم ذلك اخذهم الله عز وجل بالعذاب كما قال تعالى:(ولقد اخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون)(٤) .

(يخبر الله تعالى انه ابتلاهم بالجدب التي لا يستغل فيها زرع ولا ينتفع فيها بضرع ، وابتلاهم بقلة الثمرات)(٥) .

ولكنهم لم يعتبروا بهذا العذاب بل تطيروا بموسى ومن معه ، كما قال:(وان تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه)(٦)، واصروا على عنادهم (فقالوا مهما تأتنا به من اية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين)(٧) .

ثم تتابع العذاب الى قوم فرعون لخمسة انواع من العذاب كلما انتهى عذاب جاءهم عذاب آخر قال الله تعالى:(فارسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين)(٨) .

---

(١)فتح القدير للشوكاني ٤٠٣/٤
(٢) ٥٤ : الزخرف
(٣) ٣٨ : القصص
(٤) ١٣٠ : الاعراف
(٥) قصص الانبياء لابن كثير ٣٤١
(٦) ١٣١ : الاعراف
(٧) ١٣٢ : الاعراف
(٨) ١٣٣ : الاعراف

فاما الطوفان : فهو كثرة الامطار المتلفة للزروع والثمار ، واما الجراد: فقد ارسله الله على آل فرعون بشكل غير معهود بحيث لم يبق لهم اخضرا ولا زرعا ولا ثمرا ٠

والقمل : اختلف فيه هل هو السوس ام هو القمل المعروف ، ام هو البراغيث فدخل هذا معظم البيوت والفرش فلم يقر لهم قرار ولم تمكنهم من الغمض والعيش ٠

الضفادع : وهي معروفة وقد كثرت عليهم حتى نغصت عليهم عيشهم ،

والدم : فقد استحال الماء دما وهذا من اشد العذاب ٠(١)

فلما بلغهم ذلك واشتد بهم الامر (قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني اسرائيل فلما كشفنا الرجز الى اجل هم بالغوه اذا هم ينكثون)(٢) ٠

وهكذا كشف الله عنهم العذاب بدعاء نبيه ولكنهم نكثوا قولهم ٠ وتمادي اقباط مصر على كفرهم وعتوهم وعنادهم متابعة لملكهم فرعون ، ومخالفة لنبي الله ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام ٠(٣)

فاوحى الله لنبيه موسى ليسر بعباده فقال تعالى :(واوحينا الى موسى ان اسر بعبادى انكم متبعون، فارسل فرعون في المدائن حاشرين، ان هؤلاء لشرذمة قليلون ، وانهم لنا لغائظون، وانا لجميع حاذرون ، فاخرجناهم من جنات وعيون، وكنوز ومقام كريم ، كذلك واورثناها بني اسرائيل، فاتبعوهم مشرقين ، فلما تراءى الجمعان قال اصحاب موسى انا لمدركون ، قال كلا ان معي ربي سيهدين ، فاوحينا الى موسى ان اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ، وازلفنا ثم الآخرين ، وانجينا موسى ومن معه اجمعين، ثم اغرقنا الآخرين، ان في ذلك لآية وما كان اكثرهم مؤمنين ، وان ربك لهو العزيز الرحيم)(٤) ٠

وهكذا كان مصير فرعون وجنوده الغرق والهلاك المبين ٠ وانجى الله من الغرق موسى ومن معه من بني اسرائيل فلننظر الان ماذا حدث مع موسى وقومه ، هل شكروا نعم الله واعتبروا ؟ ام ضلوا وعصوا امر ربهم ورسوله ؟ ويذكرهم الله عز وجل بما انعمه عليهم ويدعوهم الى شكر هذه النعم ويحذرهم عصيان امره فيقول تعالى: (يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم واوفوا بعهدى اوف بعهدكم واياى فارهبون)(٥) ٠

---

(١) انظر قصص الانبياء لابن كثير ٣٤٢ ـ ٣٤٣

(٢) الاعراف : ١٣٤ـ١٣٥

(٣) انظر النبوة والانبياء محمد علي الصابوني ١٨٢ ٠

(٤) الشعراء : ٥٢ـ٦٨

(٥) البقرة : ٤٠

واول معاصي بني اسرائيل انهم عندما نجوا من الغرق وجاءوا على قوم يعبدون الاصنام طلبوا من موسى ان يجعل لهم اصناما كما لهؤلاء له، قال تعالى:(وجاوزنا ببني اسرائيل البحر فاتوا على قوم يعكفون على اصنام لهم ، قالوا يا موسى اجعل لنا الها كما لهم الهة قال انكم قوم تجهلون)(١) .

وعندما امرهم بدخول الارض المقدسة (وهي فلسطين) بقوله :(يا قوم ادخلوا الارض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على ادباركم فتنقلبوا خاسرين ، قالوا يا موسى ان فيها قوما جبارين ، وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فان يخرجوا منها فانا داخلون ... قالوا يا موسى انا لن ندخلها ابدا ما داموا فيها فاذهب انت وربك فقاتلا انا ههنا قاعدون)(٢) عصوا امر رسولهم وقالوا ان فيها قوما عظام الاجسام طوالاً فلن ندخلها حتى يسلموها لنا من غير قتال قالوا ذلك خوفا من الجبارين وقولهم الثاني عناد وحيد عن القتال واياس من النصر فاذهب انت وربك فقاتلا فاننا هنا لا نبرح ولا نقاتل .(٣)

وهنا دعا موسى عليه السلام ربه و(قال رب اني لا املك الا نفسي واخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين)(٤) ، فاستجاب الله دعاء نبيه (قال انها محرمة عليهم اربعين سنة يتيهون في الارض)(٥) اى ممنوعون من دخولها اربعين سنة يتحيرون في الارض لا يعرفون طريق الخروج منها (٦) .

وقد سالوا موسى عليه السلام ان يروا الله جهرة اى روءية مباشرة ، فقد سالوا امرا ليس لهم ان يسالوه فلم يقدروا الله عز وجل حق قدره فانزل الله عليهم صاعقة اماتتهم ثم احياهم الله لعلهم يشكرون)(٧) (واذ قلتم يا موسى لن نوءمن حتى نرى الله جهرة فاخذتكم الصاعقة وانتم تنظرون)(٨)

---

(١) ١٣٨ : البقرة
(٢) ٢١-٢٤ : المائدة
(٣) تفسير القرطبي ٣/٢١٢٣-٢١٢٥ بتصرف
(٤) ٢٥ : المائدة
(٥) ٢٦ : المائدة
(٦) تفسير القرطبي ٣/٢١٢٦
(٧) زاد المسير في علم التفسير ١/٨٣
(٨) ٥٥ : البقرة

وعندما اعتدى بنو اسرائل وخالفوا امر الله بصيدهم الحيتان مسخهم الله قردة (١) قال تعالى :(ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين)(٢) ٠

ويقول تعالى عما عذب به اليهود :(وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بانهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون)(٣) ٠

ومن الامم التي لم تعذب بعذاب الاستئصال اليونان والرومان ٠

فـ(لقد كانت امة اليونان امة موهوبة ، ومن انجب الامم في العالم واذكاها واكثرها استعدادا للعلم والادب ومن اخصبها اذهانا وعقولا ، وقد مثلت للعالم دورا خالدا بفلسفتها وادبها ووفرة من نبغ فيها من العلماء والحكماء والعبقريين الذين تزهو بآثارهم مكتبات العالم)(٤) ٠

ورغم هذا التقدم فقد كانت امة جاهلية وما من جاهلية لا تستمد منهج حياتها من وحي الله وتسير وفق ما امرها الله به الا وفيها بعض جوانب الخير ، ولكن جوانب الشر تطغى على هذا الخير فتجعله شرا فيعم الفساد او يوشك فتحل سنة الله بتلك الامة فيهلكها او يذهب سيادتها او يعذبها بما شاء سبحانه وتعالى ٠

فهذه الجاهلية رسخت فكرة الصراع بين البشر وبين الله او الالهة ، فكل الجاهليات جاءت بفكرة تعدد الالهة ، لكن الجاهلية اليونانية اضافت الى ذلك فكرة كما تصورها اسطورة بروميثيوس سارق النار المقدسة ، فطبيعة العلاقة بين البشر وبين الله ان نار المعرفة قد استولى عليها البشر سرقة واغتصابا من الالهة ، ليعرفوا اسرار الكون والحياة ويصبحوا الهة ، والالهة تنتقم منهم

---

(١) انظر زاد المسير في علم التفسير ١ /٩٤ ـ ٩٥ ٠
(٢) ٦٥ : البقرة ٠
(٣) ٦١ : البقرة ٠
(٤) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ١٧٦ بتصرف يسير ٠

في وحشية وعنف لتنفرد وحدها بالقوة وتنفرد دونهم بالسلطان هذه هي الفكرة التي قامت عليها تلك الاسطورة ٠

والجاهلية اليونانية هي التي قدست العقل على حساب الروح ، ولذا فقد كان الادراك الروحي لله ضعيف الاثر ، كذلك حدثت التجريدات الذهنية التي ملأت الفلسفة اليونانية ٠ وصارت الاخلاق قضايا ذهنية اكثر من واقع عملي ٠(١)

ويصور الشيخ ابو الاعلى المودودي رحمه الله انغماس اليونانيين في الشهوات والرذائل وفساد شئون الحياة فيقول :(٠٠٠ ثم جعلت الشهوات النفسية تتغلب على اهل اليونان ويجرف بهم تيار الغرائز البهيمية والاهواء الجامحة فتبوأت العاهرات والمومسات مكانة عالية في المجتمع لا نظير لها في تاريخ البشر كله ، واصبحت بيوت العاهرات مركزا يؤمه سائر الطبقات في المجتمع ومرجعا يلجأ اليه الادباء والشعراء والفلاسفة فكانت شموسا في سماء العلم والادب تدور حولها كواكب الفلسفة والادب والشعر والتاريخ وما عداها من الفنون بل اصبحت القطب الذي تدور حوله رحى الامة اليونانية فهن لم يرأسن اندية العلم ومجالس الادب فحسب ، بل كانت المشاكل السياسية ايضا تحل عقدها وتفك معضلاتها بحضرتهن وتحت اشرافهن ، وقد بلغ بهم التعسف في هذا الشأن ان كانوا يرجعون في المسائل الرئيسية التي تعلو بها امة وتسفل وتحى لها وتموت ، الى المرأة التي ربما لا ترضى ان تعاشر رجلا بعينه اكثر من ليلة او ليلتين ، ثم زاد اهل اليونان حبهم للجمال وتذوقهم المفرط له تماديا في الغي وارتطاما في حمأة الرذائل واضرم في قلوبهم نارا للشهوة لا تخمد فالتماثيل ، ـ نماذج الفن العارية ـ التي كانوا يظهرون بها وبالافتتان في صنعها واتقانها ذوقهم هذا كانت هي التي تحرك فيهم الشهوات دوما وتمد في غرائزهم البهيمية ، ولا يخطر لهم ببال ان الاستسلام للشهوات شيء ذميم في قانون الاخلاق ، والاندفاع وراء تيار الاهواء عار وهجنة ٠

---

(١) ٢٤ ـ ٢٦ : جاهلية القرن العشرين

وتبدلت مقاييس الاخلاق عندهم الى حد جعل كبار فلاسفتهم وعلماء الاخلاق عندهم لا يرون في الزنا وارتكاب الفحشاء غضاضة يلام عليها المرء ويعاب واصبح عامتهم ينظرون الى عقد الزواج نظرة من لا يهتم به ولا يرى اليه من حاجة وقلما يرون بأسا بان يعاشر الرجل المرأة ويخادنها علنا من غير عقد ولا نكاح ، فكانت النتيجة ان خضعت لاخلاقهم وغرائزهم الشهوانية هذه دياناتهم ايضا ، وانتشرت فيهم عبادة افروديت التي كان من قصتها عندهم في الاساطير ، انها خادنت ثلاثة الهة مع كونها زوجة اله خاص ، وايضا كان من اخدانها رجل من عامة البشر علاوة على تلك الالهة ، ومن بطنها تولد كيوبيد اله الحب نتيجة اتصالها بذلك الخدن البشرى .

وما رايك في اخلاق امة وانحطاطها المعنوى والخلقي اتخذت من هذه الطباع رمزا للكمال بل الها يعبد ويقدم له جميع اداب العبودية والذل والخنوع ، هذه ولا ريب درجة من الانحطاط الخلقي اذا تردت فيها امة ، لم تتمكن من النهوض مرة اخرى ، ولما انتشرت عبادة افروديت في اليونان اصبحت مواخير الدعارة واماكن الفجور مركزا للعبادة واصبحت المومسات متنسكات وخوادم للمعابد وعظم شأن الزنا الى ان البسوه كساء من العمل الديني المبرور! ...

ثم ظهرت الفريزة البهيمية في اهل اليونان بمظهر آخر هو ان انتشرت فيهم سوءة قوم لوط انتشارا كاد ياتي على الاخضر واليابس ورحبت بها الديانة والاخلاق ايضا ... وشهد علماء الاخلاق عندهم بان هذه العلاقة آصرة للصداقة وثيقة بين الرجلين ..

وبعد فالتاريخ شاهد بان اليونان لم يكن في نصيبهم المجد والرقي بعد ذلك مرة اخرى .) (١)

ومضت فيهم سنة الله ، وخلفهم قوم اخرون ، فهل عادوا الى الله وساروا على منهجه ام اقتفوا اثر الجاهليات التي قبلهم فحل بهم ما حل بالاقوام السابقة .

والذين جاؤا بعد اليونانيين الرومان ، ففاقوهم بالقوة والتنظيم للمملكة واتساع الدولة ، ولكنهم رغم تقدمهم هذا فان هذا الخير النسبي لم يمنع هذه الجاهلية من الانحراف ولم يمنعها بعد ذلك من الانهيار .

(واعظم انحرافات الجاهلية الرومانية ايمانها العنيف بالمادة على حساب الروح ، فالوجود هو الوجود المادى ، الوجود الذى تدركه الحواس ، اما الذى لا تدركه الحواس فهو شيء لا وجود له ، او في القليل شيء ساقط من الحساب ، ومن ثم كان اشد الجوانب ضآلة في حياة الرومان جانب العقيدة) (٢) .

---

(١) الحجاب لابي الاعلى المودودى ١٢-١٦ .
(٢) جاهلية القرن العشرين ٣٧ .

يقول سيسرو :(لما كان الممثلون ينشدون اليها في دور التمثيل ويسمعونها ابياتا معناها لهم ان الالهة لا نخل لها في امور الدنيا يصغي الناس بكل رغبة ويقول الراهب اغسطين :(ان الروم الوثنيين كانوا يعبدون الهتهم في المعابد ويهزأون بهم في دور التمثيل ..)(١) .

ومن اعظم انحرافاتها ايضا (العدل الروماني) الشهير للرومان فقط فهم وحدهم يستمتعون بالعدالة ، اما بقية العبيد ، وهم كل الشعوب المستعمرة والمستغلة التي تكون الامبراطورية الرومانية الواسعة فهم عبيد لا عدالة لهم ولا حقوق وعليهم فقط واجبات)(٢) .

وقد اجاد وصف ذلك ، العالم الالماني المسلم محمد اسد في كتابه النفيس " الاسلام على مفترق الطرق " قال :

(ان الفكرة التي كانت تسيطر على الامبراطورية الرومانية هي احتكار القوة لها واستغلال الامم الاخرى لمصلحة الوطن الرومي فقط ، لم يكن رجالها والقائمون عليها يتحاشون من اى ظلم ومشقة في سبيل حصول خفض العيش لطبقة ممتازة ...)(٣) .

ومن اعظم انحرافاتها كذلك التضخيم الشديد لعالم الحس واللذائذ الحسية (٤) ، (ففي نهاية دور الجمهورية سال بالروم سيل الانحطاط الخلقي والبهيمية ، وفاض بحر الترف بالعيش والبذخ فيضانا عظيما ، غاص فيه الرومان الى الاذقان وسالت فيه النظم الاخلاقية التي كان الروم معروفين بها كالغناء وتزعزع البناء الاجتماعي حتى كاد يتهدم ، وقد صور دارين الامريكي بقلمه البليغ (لما بلغت الدولة الرومية في القوة الحربية والنفوذ السياسي اوجها ووصلت في الحضارة الى اقصى الدرجات ، هبطت في فساد الاخلاق وفي الانحطاط في الدين والتهذيب الى اسفل الدركات ، بطر الرومان معيشتهم ، واخلدوا الى الارض واستهتروا استهتارا ، وكان مبدؤهم ان الحياة انما هي فرصة للتمتع ، ينتقل فيها الانسان من نعيم الى ترف ومن لهو الى لذة ولم يكن زهدهم وصومهم في بعض الاحيان الا ليبعث على شهوة الطعام ، ولم يكن اعتدالهم الا ليطول بهم عمر اللذة ، كانت موائدهم تزهو باواني الذهب والفضة ، مرصعة بالجواهر ويحتفي بهم خدام في ملابس جميلة ، خلابة ، وغادات رومية حسان وغوان عاريات كاسيات غير متعففات تدل دلالا ، ويزيد في نعيمهم حمامات باذخة وميادين

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ١٨٢ .
(٢) جاهلية القرن العشرين ٢٨ .
(٣) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ١٨٣ .
(٤) جاهلية القرن العشرين ٢٨ .

للهو واسعة ومصارع يتصارع فيها الابطال مع الابطال او مع السباع ، ولا يزالون يصارعون حتى يخر الواحد منهم صريعا يتشحط في دمه ، وقد ادرك هؤلاء الفاتحون الذين دوخوا العالم انه ان كان شيء يستحق العبادة فهو القوة ، لانه بها يقدر الانسان ان ينال الثروة التى يجمعها اصحابها بعرق الجبين وكد اليمين ، واذا غلب الانسان في ساحة القتال بقوة ساعده فحينئذ يمكن له ان يصادر الاموال والاملاك ويعين ايرادات الاقطاع وان رأس الدولة الرومية هو رمز لهذه القوة القاهرة فكان نظام رومة المدني يشف عن ابهة الملك ، ولكن كان طلاء خداعا كالذى نراه في حضارة اليونان في عهد انحطاطها)(١)

فكان انغماسهم في الشهوات البهيمية ومجاوزتهم الحد في ايجاد طرق لاطفاء اوارها ان دالت دولة الرومان وتمزق جمعها كل ممزق .(٢)

وهكذا مضت فيهم سنة الله (فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا)(٣) .

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ١٨٣ ـ ١٨٤

(٢) الحجاب ابو الاعلى المودودى ٢٠ .

(٣) ٤٣ : فاطر .

انواع العقاب الالهي للامة الاسلامية ، اسبابه ومظاهره ٠

بعد ان انتهيت من الحديث عن عذاب الامم الكافرة ، ساتحدث فيما يلي عن العذاب الذى يحل بامة محمد صلى الله عليه وسلم ان هم لم يتمسكوا بكتاب ربهم وسنة نبيهم سلوكا ومنهج حياة ، وقد بينت فيما سبق ان العذاب العام "او عذاب الاستئصال" قد رفع عن امة محمد صلى الله عليه وسلم بدعائه صلى الله عليه وسلم لامته بذلك :(٠٠٠ واني سالت ربي لامتي ان لا يهلكها بسنة عامة ، وان لا يسلط عليهم عدوا من سوى انفسهم فيستبيح بيضتهم ، وان ربي قال : يا محمد: اني اذا قضيت قضاء فانه لا يرد ، واني اعطيتك لامتك ان لا اهلكهم بسنة عامة ، وان لا اسلط عليهم عدوا من سوى انفسهم يستبيح بيضتهم ، ولو اجتمع عليهم من باقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضا ويسبي بعضهم بعضا): (١) ٠ وورد كذلك (٠٠٠ وسألته ان لا يهلك امتي بغرق فاعطانيها ، وسالته ان لا يجعل باسهم بينهم فمنعنيها)(٢)

وكذلك رفع الاستئصال عن هذه الامة لوجود الطائفة القائمة بامر الحق الى يوم الدين كما اخبر بذلك الحديث الشريف : "لا تزال طائفة من امتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي امر الله وهم كذلك "(٣) ٠

واذا كان العذاب العام مرفوعا عن امة محمد صلى الله عليه وسلم كما دلت على ذلك الاحاديث الشريفة ، فانه لا يعني ان لا يعذب الله هذه الامة بعذاب دون ذلك ٠

وان حال امتنا اليوم ليدل على ان هذا التأخر والانحطاط والهزيمة والذل وغير ذلك مما حل بها ، هو من باب العقاب لها كما قال تعالى: (وما اصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم ٠٠٠) (٤) وقد جاءت الايات والاحاديث تحذر هذه الامة من الوقوع في بعض المعاصي وتبين لها ان وقوعها في المعاصي وتهاونها في الواجبات سبب في نزول عذاب الله عليها ٠ فمن ذلك قوله تعالى : (وكأين من قرية عتت عن امر ربها ورسله فحاسبناها حسابا شديدا وعذبناها عذابا نكرا ، فذاقت وبال امرها وكان عاقبة أمرها خسرا ، اعد الله لهم عذابا شديدا ، فاتقوا الله يا اولي الالباب الذين آمنوا ، قد انزل الله اليكم ذكرا) (٥) ٠

---

(١) اخرجه مسلم كتاب الفتن باب هلاك هذه الامة بعضهم بعضا ٢٢١٥/٤
(٢) اخرجه مسلم في الموضع السابق ٢٢١٦/٤
(٣) اخرجه مسلم كتاب الإمارة باب قوله صلى الله عليه وسلم (لا تزال طائفة ٠٠) ٣ / ١٥٢٣ واخرجه بألفاظ أخر
(٤) ٣٠ : الشورى
(٥) ٨ ــ ١٠ : الطلاق

فهذه الايات جاءت تعقب على احكام الطلاق ، ومما يدل على ان المقصود بهذه الايات المؤمنون ، توجيه الخطاب لهم في اخرها .

ولقد حذرنا الله تعالى من عاقبة الارتداد والنكوص على الاعقاب ، حيث يعاقب الله عليه باستبدال المؤمنين بالمرتدين ، يقول تعالى : (يا ايها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف ياتي الله بقوم يحبهم ويحبونه اذلة على المؤمنين ، اعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم) (١) . فالمؤمنون اذا ارتدوا او كفروا بالله عز وجل فانما الضرر يقع عليهم فالله سبحانه وتعالى لا يضيره شيء ، بل يستبدل بهم مؤمنين لم يغيروا ولم يبدلوا يحبهم الله ويحبونه ، وهذا ما حدث عندما ارتد بعض الناس جاء بالمؤمنين الصادقين ، واليوم اذا ارتد المسلمون عن دينهم فسوف ياتي بغيرهم يحملون هذا الدين بصدق وامانة (٢) .

ومن المعاصي التي حذرنا عز وجل من الوقوع فيها واستحقاق عواقبها هو ترك الجهاد في سبيل الله ولاعلاء كلمته فالجهاد ضرورة تحكمه سنة الهية وهي سنة التدافع ، فلولا الجهاد لفسدت الارض ولهدمت صوامع وبيع مساجد يذكر فيها اسم الله ولكان هناك فتنة للمسلمين عن دينهم ، وفتنة للناس عن الدخول في هذا الدين ، والايات التي تتحدث عن هذه الحقيقة كثيرة (٣) يقول تعالى : (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض) (٤) ، ويقول تعالى : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فان انتهوا فان الله بما يعملون بصير) (٥) . ثم نجده يتوعد المؤمنين الذين لا ينفرون للجهاد بقوله : (يا ايها الذين آمنوا ما لكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم الى الارض ، ارضيتم بالحياة الدنيا من الاخرة فما متاع الحياة الدنيا في الاخرة الا قليل ، الا تنفروا يعذبكم عذابا اليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا والله على كل شيء قدير) (٦) .

---

(١) ٥٤ : المائدة
(٢) تفسير الطبري ٤٠٩/١٠ـ٤١٠
(٣) انظر تفسير الزمخشري ١٥٧/٢ ، وانظر تفسير الرازي ١٦٣/١٥
(٤) ٢٥١ : البقرة ، وانظر اضواء على الحضارة الاسلامية ١٧٩ـ١٨٥
(٥) ٣٩ : الانفال
(٦) ٣٨ـ ٣٩ : التوبة

(وهنا سخط عظيم على المتثاقلين حيث توعدهم بعذاب اليم ، وهو مطلق فيتناول عذاب الدارين ، وانه يهلكهم ويستبدل قوما اخرين خيرا منهم واطوع ، وانه غني في نصرة دينه لا يقدح تثاقلهم فيه شيئ) (١) ويخص ابو السعود العذاب بالدنيا فيقول: (اى الا تنفروا الى ما استنصرتم عليه يهلككم بسبب فظيع كالقحط ونحوه) (٢) ٠

(فهو تعالى يطلب من المؤمنين قتال الكافرين حتى لا يوجد فيهم شرط ولا قوة فيضمحل كل دين باطل ويبقى دين الاسلام ، وحتى لا يبقى المسلمون عرضة للكافرين فيحرفوهم عن دينهم بالشبهات ، وحتى يعلم الكافرون ان الكفر زائل لا محالة فيسارعوا في الدخول في الاسلام) (٣) ٠

وانا كان الجهاد ضروريا ، وانا لم يقم به المسلمون عذبهم الله واستبدل بهم قوما غيرهم ، فان الجهاد بحاجة الى المال ولهذا ندب الله تعالى المسلمين للانفاق وهددهم ان لم يقوموا بذلك بالعذاب قال تعالى: (ها انتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه والله الغني وانتم الفقراء وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا امثالكم) (٤) ٠

وقد حذرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشح وبين ان الشح سبب في الهلاك فقال صلى الله عليه وسلم: (واتقوا الشح فان الشح اهلك من كان قبلكم ، حملهم على ان سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم) (٥) ٠

هذه هي حقيقة الجهاد وعاقبة من يتخلى عنه ، وعندما تركت الامة الاسلامية ذلك المنهج غزيت في عقر دارها واحتلت بعض اراضيها ونزل بها من الاذلال والهوان وغير ذلك من العواقب التي حذرنا الله من نزولها بنا ان نحن تركنا الجهاد وبخلنا عن الانفاق في سبيله ٠

ويرى الدكتور عبد الحليم عويس ان من اهم اسباب سقوط الخلافة الاسلامية ترك الجهاد ، ولم يكن مبدأ الجهاد الدائم حماية لهذه الدولة المترامية احد اركان السياسة العباسية ، وقد كانت الحاجة ماسة لرفع راية الجهاد ولكنهم لم يفعلوا

---

(١) تفسير الزمخشرى ٢ / ١٩٠
(٢) تفسير أبي السعود ٤ / ١٦٦
(٣) تفسير الزمخشرى ٢ / ١٥٧
(٤) محمد : ٣٨ ٠
(٥) أخرجه مسلم كتاب البر والصلة والادب باب تحريم الظلم ٤ / ١٩٩٦

ذلك وغزوا في عقر دارهم فذلوا وصدق عليهم قول علي بن ابي طالب رضي الله عنه: (ما غزى قوم في عقر دارهم الا ذلوا)(١) .

وإذا كان قتال اعداء الاسلام واجبا ، فان موالاة اعداء الاسلام والركون اليهم جريمة نكراء فيجعل الله عز وجل الذين يوالون الكفار كفارا مثلهم ، يقول تعالى : (ومن يتولهم منكم فانه منهم) (٢) . والولاء هو النصرة والمعونة والمحبة (٣) .

وبين لنا ان هذا الولاء لا يجوز ولو كان لاقرب الاقربين ، فقال تعالى :(قل ان كان آباؤكم وابناؤكم وازواجكم وعشيرتكم واموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله ...) (٤) ففي هذه الاية وعيد للمؤمنين بالعقوبة العاجلة او الاجلة ، وهذه آية شديدة لا ترى آية أشد منها ، فهي تنعي على الناس ما هم فيه من رخاوة عقد الدين واضطراب حبل اليقين . (٥)

ويقول تعالى محذرا من اتخاذ الكافرين بطانة من دون المؤمنين ، ومن اتخانهم أصفياء وأخلاء ، لان هؤلاء لا يريدون الخير للمؤمنين فهم منطوون على الغش والخيانة : (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر) (٦) .

وهذه سنة ثابتة ان الامة التي تستعين بأعدائها وتتخذهم بطانة لها سيكون مصيرها الانحطاط والهلاك ، وفي ذلك يقول الشيخ محمد عبده : (ومن تتبع التواريخ التي تمثل لنا أحوال الامم الماضية وتحكي لنا عن سنة الله في خليقته وتصريفه لشئون عباده رآى ان الدول في عزها وبسطتها

---

(١) دراسة لسقوط ثلاثين دولة اسلامية الدكتور عبد الحليم عويس ١٢٥ ـ ١٢٦ .
(٢) ٥١ : المائدة . (٣) انظر الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لابن تيمية ٢٩ـ٣٠ وانظر الولاء والبراء محمد سعيد القحطاني ٩٢ .
(٤) ٢٤ : التوبة
(٥) تفسير الرازى ٢ / ١٨١ بتصرف يسير
(٦) ١١٨ : آل عمران، انظر تفسير الطبرى ٧ / ١٣٨ ـ ١٣٩

ما كانت مصونة الا برجال منها يعرفون حقها كما تعرف لهم حقهم ، وما كان شيء بيد أجنبي عنها ، وان تلك الدول ما انخفض مكانها الا عند بخول العنصر الاجنبي فيها ، وارتقاء الغرباء الى الوظائف السامية في اعمالها فان ذلك في كل دولة آية الخراب والدمار وخصوصا اذا كان بين الغرباء وبين الدولة التي يتناولون اعمالها منافسات واحقاد وعداء ...) (١)

ثم خوفهم من طاعة الكافرين ، وبين لهم ان طاعتهم للكافرين نتيجتها كفرهم وبذلك يخسرون دنياهم وآخرتهم ، يقول تعالى : (يا ايها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين اوتوا الكتاب يردوكم من بعد آيمانكم كافرين) (٢) فهو سبحانه وتعالى يحذر المؤمنين من طاعة الكافرين لانهم منطوون على غش وحسد وبغض . (٣)

ثم حذرهم من مجرد الركون الى الكافرين والاطمئنان اليهم وبين لهم ان ركونهم الى الكافرين سيكون سببا في هزيمتهم قال تعالى :(ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من اولياء ثم لا تنصرون) (٤) ، ومعنى لا تركنوا : اى لاتميلوا ولا تدنوا ولا ترضوا اعمالهم وهناك قول رابع وهو لا تدهنوا لهم في القول وهو ان يوافقهم في السر ولا ينكر عليهم في الجهر

وكما بينت الايات ان الركون الى الظالمين وموالاتهم سبب في الكفر وسبب في الهلاك فقد دل التاريخ على ذلك ، فسقوط صقلية المسلمة كان وراءه ابن حمود حاكم قصريانة احدى المدن الصقلية التي سقطت ، وكان هذا الرجل يزعم النسب الى العلويين ، وقد تواطأ هذا الرجل مع روجار لدرجة جلبت عليه سخط المسلمين في الجزيرة كلها ، ولم ينته أمر هذا الخائن لامته الا

---

(١) تفسير المنار ٤/٨٤ ـ ٨٧
(٢) ١٠٠ : آل عمران
(٣) تفسير الطبرى ٧/٥٩ـ٦٠
(٤) ١١٣ : هود

بالنهاية الطبيعية ، اذ انه حرصا على مزيد من الجاه لدى روجار أعلن نصرانيته وطلب من روجار ان ينقله الى ايطاليا ليقضي بقية حياته هادئا آمنا ، ونهب الخائن ، ومع نهاب الاسلام من اعماقه واعماق امثاله من المنهارين نهبت صقلية (١)

ومثل هذا ما حدث في الدولة الفاطمية التي استعانت باليهود والنصارى في شئون الحكم والسلطة حتى اصبح الامر في النهاية لهم واصبحوا الذين يحكمون ويدل على هذا الامر فعل اهل مصر حيث اضطروا الى ان يلفتوا نظر العزيز الحاكم الثاني في مصر ، الى هذه الظاهرة التي كان يبدى تغافلا عنها ، فقد صنعوا له صورة من الورق لرجل يطلب حاجته أثناء مرور موكبه ، وقد مد الرجل يده بورقة مكتوب فيها (بالذى اعز اليهود بموسى ، واعز النصارى بعيسى ، واذل المسلمين بك الا ما قضيت ظلامتي) (٢)

ويشهد واقع المسلمين اليوم ان موالاة بعضهم للكفار واتخاذهم بطانة من دون المؤمنين والركون اليهم ، وايثار النفس والمال والاقارب على مرضاة الله ورسوله ، ما هم عليه من ذلك كله ، قد استوجبت نزول العقاب الالهي على الامة الاسلامية ذلك العقاب الذى نرى مظاهره من ظهور الردة بين المسلمين ونزول الخبال بهم وتحكم هؤلاء الاعوان من غير المسلمين في امور المسلمين .

ومن المعاصي التي حذرنا الله عز وجل من الوقوع فيها التنازع والاختلاف حيث امرنا بالوحدة ونهانا عن الفرقة (فالواجب على المسلمين الاتحاد لان الدول لا تقوم الا اذا كان اتحاد وتعاون وتلاحم بين افرادها) (٣)

يقول تعالى : (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا) (٤) ، ويقول سبحانه :(... ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين) (٥)

ويقول صلى الله عليه وسلم : (انما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الامر)(٦)

---

(١) دراسة لسقوط ثلاثين دولة اسلامية ، عبد الحليم عويس ١٥٢ - ١٥٣

(٢) المرجع السابق ١١١ - ١١٥

(٣) انظر مقدمة ابن خلدون ١٤٢

(٤) ١٠٣ : آل عمران

(٥) ٤٦ : الانفال

(٦) الترمذى في كتاب الضرر ، باب ما جاء في التشديد في الخوض في القدر ٤/٤٤٣ وقال " هذا حديث غريب " .

ويقول ايضا : (فان من كان قبلكم اختلفوا فأهلكهم) (١) ، وخاصة الاختلاف والتنازع في الكتاب ، (انما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب) (٢) .

فالاختلاف والتنازع يؤدى الى الفشل ونهاب القوة والهلاك كما اخبرت بذلك الايات والاحاديث السابقة ويدل على ذلك ماضي هذه الامة وحاضرها ، فالتنازع والاختلاف كان من الاسباب الرئيسية في سقوط الاندلس ،(فكان الترامي في احضان العدو ممكنا ، وكان التنازل عن الارض ممكنا ، وكان الخلاف بين بعضهم البعض لدرجة الاستنجاد بالعدوممكنا ... أجل كان هذا كله ممكنا الا شيئا واحدا ... الا وهو العودة الى الاسلام الصحيح الخالي من حب السلطة واستعباد الدنيا والامر بالاعتصام بحبل الله وحده وعدم التفرقة) .(٣)

وكذلك فقد كان عدم الاتحاد واثارة النعرات القومية البغيضة وخاصة التعصب للعرب سببا رئيسيا في سقوط الخلافة الاموية ، فقد ضمت البلاد ولكنها لم تفتح القلوب بالايمان والاتحاد ، (٤) وعدم وحدة السلاجقة كان ايضا سببا في زوال دولتهم (٥) .

ثم حذرنا تعالى من الوقوع في الفتن ، قال تعالى :(واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا ان الله شديد العقاب) (٦)
والمراد بالفتنة الذنب وفسر بنحو اقرار المنكر والمداهنة في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وافتراق الكلمة وظهور البدع والتكاسل عن الجهاد .
ونهب ابن جرير الى ان المراد بالفتنة هو البلاء والاختبار الذى يكون سببه المعاصي ، " فهو يحذرهم جل ثناؤه ان يرتكبوا معصية او يأثموا مأثما يستحقون بذلك منه عقوبة . (٧)

وهذا البلاء او العقوبة لا تصيب الذين قارفوا الاثم او خالفوا الامر ، وانما تعم الصالح والطالح معا . (٨)

---

(١) اخرجه بنحوه البخارى كتاب فضائل القرآن باب اقرأوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم فتح البارى بشرح صحيح البخارى ٩ / ١٠١
(٢) اخرجه مسلم كتاب العلم باب النهي عن مناقشة القرآن ٤ / ٢٠٥٣
(٣) دراسة لسقوط ثلاثين دولة اسلامية ٤٦
(٤) المرجع السابق ٧٠
(٥) المرجع السابق ١٠٧ ـ ١١٠
(٦) ٢٥ : الانفال
(٧) تفسير الطبرى ١٣ / ٤٧٣ وانظر تفسير الخازن ٣ / ٢٣
(٨) الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٣ / ١٧٦

فهو سبحانه وتعالى شديد العقاب للامم والافراد الذين خالفوا سنته التي لا تبديل لها ولا تحويل.(١) ويذهب صاحب المنار وسيد قطب الى تخصيص الفتنة بترك الجهاد بدليل قوله تعالى بعد ذلك : (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة...)(٢) .

ومن اسباب العقاب لامتنا التكالب على الدنيا والحرص عليها وجعلها هي الغاية ، قال تعالى:(يا ايها الذين آمنوا لا تلهكم اموالكم ولا اولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فاولئك هم الخاسرون)(٣) .

ومن حديث طويل قال صلى الله عليه وسلم :(فابشروا وأمّلوا ما يسركم. فوالله ما الفقر اخشى عليكم ، ولكني اخشى عليكم ان تبسط الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما اهلكتهم)(٤) .

وفي رواية اخرى : (اني لست اخشى عليكم ان تشركوا بعدى ولكن اخشى عليكم الدنيا ان تنافسوا فيها وتقتتلوا فتهلكوا كما هلك من كان قبلكم)(٥).

ومن هذه الاحاديث التي تحذر من الافتتان بالدنيا وعواقبه قوله صلى الله عليه وسلم :(ان لكل امة فتنة وفتنة امتي المال)(٦).

ومن مظاهر الحرص على الدنيا جريمة اكل الربا وتعامل الناس به لتربو اموالهم وما هي برابية بل هي ممحوقة قال تعالى:(يمحق الله الربا ويربي الصدقات...)(٧) ، فهو سبحانه وتعالى ينقص الربا ويذهب بركته ثم يكون مصيره الزوال.(٨) .

وقد تأذن الله لمرتكبها بالحرب منه سبحانه ومن رسوله يقول تعالى:(فان لم تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله ...)(٩) اى فاستيقنوا بحرب من الله ورسوله.(١٠).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال :(اذا فشا الزنا والربا في قرية اوشك ان يعمهم الله بعقاب من عنده)(١١) .

---

(١) تفسير المراغي ١٩٠/٩
(٢) ١٩٣ : البقرة ، انظر في ظلال القران ١٩٠/١
(٣) ٩ : المنافقون
(٤) اخرجه مسلم كتاب الزهد ٢٢٧٤/٤
(٥) اخرجه مسلم كتاب الفضائل اثبات حوض نبينا صلى الله عليه وسلم ١٧٩٦/٤
(٦) الترمذى زهد ٢٦ ، احمد ١٦٠/٤
(٧) ٢٧٦ : البقرة
(٨) انظر تفسير الطبرى ١٥/٦ وانظر تفسير ابي السعود ٤٣١/١
(٩) ٢٧٩ : البقرة
(١٠) انظر تفسير الرازى ٤٣١/١٠ ، ٥٦/٦
(١١) الجواب الكافي لمن سال عن الدواء الشافي ابن القيم ٢٨/وانظر الفوائد لابن القيم ١٤٨

وان الاشتغال بالمال والحرص عليه والنهم في جمعه والتنافس عليه موءدٍ الى الترف اذا لم يراقب المجتمع ربه في جمع هذا المال وصرفه في حله ، وايما دولة حل فيها الترف كان ذلك سببا في زوالها قال تعالى: (واذا اردنا ان نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) (١).

وفي ذلك يقول ابن خلدون في مقدمته :(واذا كثر الترف في الدولة وصار عطاؤهم مقصرا على حاميتهم ونفقاتهم احتاج صاحب الدولة الذى هو السلطان الزيادة في اعطياتهم حتى يسد خلهم ويزيح علهم ، والجباية مقدارها معلوم ولا تزيد ولا تنقص ، وان زادت بما استحدث من المكوس فيصير مقدارها بعد الزيادة محدودا ، فاذا وزعت الجباية على الاعطيات ، وقد حدثت الزيادة فيها لكل واحد بما حدث من ترفهم وكثرة نفقاتهم نقص عدد الحامية حينئذ عما كان عليه قبل زيادة الاعطيات ، ثم يعظم الترف ويكثر مقادير الاعطيات لذلك فينقص عدد الحامية وثالثا ورابعا الى ان يعود العسكر الى اقل الاعداد فتسقط الحامية لذلك وتسقط قوة الدولة ويتجاسر عليها من يجاورها من الدول ، او من تحت يدها من القبائل والعصائب ويأذن الله فيها بالفناء الذى كتبه على خليقتم) (٢).

وقد حلت بالامة الاسلامية كل هذه العواقب التي جعلها الله نتيجة للترف .

وكذلك كان الحرص على الدنيا سببا في توقف المد الاسلامي في اوروبا فقد التقى المسلمون عربا وبربرا بالمسيحيين بين بلدتي تورو وبواتيه على مقربة من باريس ، وكان قائد النصارى شارل مارتل ، وقائد المسلمين عبد الرحمن الغافقي ، وكاد المسلمون ان ينتصروا لولا الحرص على الغنائم التي كانوا يجمعونها من طريقهم فانقض جيش النصارى على الغنائم ، فانقسم جيش المسلمين الى قسم يدافع عن حامية الغنائم وقسم يدافع في المقدمة فتخلخل الجيش الاسلامي وانهزم في معركة بلاط الشهداء (٣).

وقد حذرنا الله عز وجل من ارتكاب بعض المعاصي وبين لنا ان نتيجتها ايقاع العداوة والبغضاء بين المسلمين ، والصد عن ذكر الله فقال تعالى: (يا ايها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) (٤) فالقوم الذين تنتشر فيهم هذه المعاصي

---

(١) ١٦ : الاسراء
(٢) مقدمة ابن خلدون ١٦٧
(٣) دراسة لسقوط ثلاثين دولة اسلامية الدكتور عبد الحليم عويس ٢١
(٤) المائدة : ٩٠

قوم خاسرون لدينهم ودنياهم ، اما في دنياهم فتكون سببا للبغضاء والعداوة بين المؤمنين وبذلك يكون الهلاك يقول تعالى :(انما يريد الشيطان ان يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل انتم منتهون)(١) فهل انتم منتهون ايها المسلمون اليوم عن شرب الخمر وتسميتها بغير اسمها ؟ وهل انتم منتهون عن الميسر الذى يسمونه اليوم (اليانصيب الخيرى)؟ ام ستقع العداوة ويحل الهلاك ؟ .

هذه هي بعض المعاصي التي حذرنا الله عز وجل من الوقوع بها في كتابه الكريم ، وبين لنا انه اذا وقعنا في معصية من هذه المعاصي فسيكون الجزاء على تلك المعصية كما توعد عليها ، ورسولنا صلى الله عليه وسلم قد حذر امته من الوقوع في المعاصي ومن الفتن وبين لها اسبابها ، وقد وردت احاديث كثيرة تدل على ذلك .

فمن الاحاديث التي جاءت تحذر الامة من الابتعاد عن احكام الله وعدم التحاكم الى كتاب الله وعدم طاعة اوامره ونقض عهد الله ، ما جاء في الحديث الطويل: (وما لم تعمل أئمتهم بما انزل الله في كتابه الا جعل الله بأسهم بينهم شديدا)(٢) ويقول صلى الله عليه وسلم :(انما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب)(٣) ، واخرج الامام احمد في مسنده عن ابن مسعود رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :(اما بعد يا معشر قريش فانكم اهل لهذا الامر ما لم تعصوا الله فان عصيتموه بعث عليكم من يلحاكم كما يلحيُ هذا القضيب ، لقضيب في يده ثم لحيَ قضيبه فاذا هو ابيض يصلد)(٤) ومعنى كلمة لحى ، اى : قشر (٥) .

وقد فهم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ان مخالفة امر الله سبب في زوال السيادة وحلول المصائب ، فقد اخرج الامام احمد عن عبد الرحمن بن جبير عن ابيه قال :(لما فتحت قبرص ، فرق بين اهلها فبكى بعضهم الى بعض فرأيت ابا الدرداء جالسا وحده يبكي فقلت : يا ابا الدرداء ما يبكيك في يوم اعز الله فيه الاسلام واهله ؟ فقال: ويحك يا جبير ما اهون الخلق على الله عز وجل اذا اضاعوا امره بينما هي امة قاهرة ظاهرة لهم الملك تركوا امر الله فصاروا الى ما ترى)(٦) .

---

(١) المائدة : ٩١ .
(٢) اخرجه ابن ماجه كتاب الفتن باب العقوبات ١٣٣٣/٢ واخرجه الحاكم ٥٤٠/٤ كتاب الفتن ذكر خمس بلاء ...صححه الحاكم ووافقه الذهبي .
(٣) اخرجه مسلم كتاب العلم باب النهي عن متشابه القرآن ٢٠٥٣/٤ .
(٤) اخرجه احمد ٤٨٥/١ وفيه عبيد الله بن عبد الله بن مسعود عن ابيه مرسل ، ونص الحافظ في الفتح ١١٦/١٣ انه لم يدرك ابن مسعود لكن له شاهد عند البخارى في كتاب الاحكام باب الامراء من قريش فتح ١١٤/١٣ فيرتقي الى الحسن لغيره .
(٥) مختار الصحاح للرازى ٥٩٥ .
(٦) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ٢٧ .

ومن الواجبات التي امرنا الله عز وجل بالاهتمام بها الامر بالمعروف والنهي عن المنكر كما قال تعالى :(ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ٠)(١) وقد جعل الله عز وجل من صفات المنافقين انهم يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ٠٠٠٠٠)(٢) ٠

ولذا فان الامر بالمعروف امر واجب ، والتهاون فيه تهاون في شأن الاسلام كله ، فعن النعمان بن بشير رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال :(مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم اعلاها وبعضهم اسفلها ، فكان الذين اسفل اذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو انا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا ، فان تركوهم وما ارادوا هلكوا جميعا ، وان اخذوا على ايديهم نجوا ونجوا جميعا)(٣) ٠

وهكذا فان ترك الامر بالمعروف والنهي عن المنكر سبب في الهلاك وخصوصا انه اذا ترك هذا الامر فان المعاصي تزداد والقيام بالواجبات يقل وعندها تظهر المعاصي ويكثر الخبث فيكون الهلاك ، كما سألت عائشة رضي الله عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم: (انهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم ، اذا كثر الخبث)(٤) ٠

وفي مسند الامام احمد عن ام سلمة ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (اذا ظهرت المعاصي في امتي عمهم الله بعذاب من عنده ، فقلت : يا رسول الله اما فيهم يومئذ اناس صالحون ، قال : بلى ، قلت : كيف يصنع باولئك قال : يصيبهم ما اصاب الناس ثم يصيبون الى مغفرة من الله ورضوان)(٥) ٠

ومن المعاصي التي حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوقوع فيها التكذيب بالقدر ، فان جزاء المكذبين بالقدر خسف ومسخ ، فعن نافع مولى ابن عمر :(ان رجلا جاء ابن عمر فقال: ان فلانا يقرأ عليك السلام ، فقال عمر : انه بلغني انه قد احدث التكذيب بالقدر ، فان كان قد احدث فلا تقرئه مني السلام ، فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :(يكون في هذه الامة ، او في امتي الشك منه ـ خسف او مسخ او قذف وذلك في المكذبين في اهل القدر)(٦) ٠

---

(١) آل عمران : ١٠٤ (٢) التوبة : ٦٧ ٠
(٣) اخرجه البخاري كتاب الشركة باب هل يقرع في القسمة مع الفتح ٥/ ١٣٢ ٠
(٤) اخرجه مسلم كتاب الفتن واشراط الساعة باب اقتراب الفتن ٠٠٠ / ٢٢٠٧/٤ ٠
(٥) المسند للامام احمد ٣٠٤/٦ ، ٤١٨ قال ابن كثير في جامع المسانيد والسنن ١٨/ل ١٣٥ب ، ١٥٠أ : تفرد به الامام احمد قلت : الحديث فيه ليث بن ابي سليم وحديثه ضعيف تقريب ١٣٨/٢ وخلف بن خليفة وهو متكلم فيه تقريب ٢٢٥/١ لكنه حسن لغيره بالمتابعات فقد اخرجه ابو نعيم في الحلية ٢١٨/١٠، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٦٨/٧ وقال:"رواه احمد باسنادين ، ورجال احدهما رجال الصحيح" وذكره المتقي الهندي في كنز العمال ٣/رقم الحديث ٧٢٥٥ من رواية ابي نعيم وعزاه الى الطبراني في الكبير ، وله شاهد عن عائشة رضي الله عنها عن الترمذي ٤٧٩/٤ ٠
(٦) اخرجه الترمذي في كتاب القدر باب رقم ١٦ وقال " هذا حديث حسن صحيح غريب " ٠

ومن المعاصي التي حذر منها رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين لنا اننا اذا فعلناها حل بامتنا العقاب شرب الخمر وظهور القيان والضرب على المعازف والزنا وغير ذلك من المعاصي . فعن عمران ان الرسول صلى الله عليه وسلم قال : (في هذه الامة خسف ومسخ وقذف فقال له رجل من المسلمين ومتى ذلك قال : اذا ظهرت القيان والمعازف وشربت الخمور)(١) .

وفي حديث اخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لا تزال امتي بخير ما لم يفش فيها ولد الزنا)(٢) . وذكر ابن ابي الدنيا عن انس بن مالك (انه دخل على عائشة هو ورجل آخر فقال لها الرجل يا ام المؤمنين حدثينا عن الزلزلة فقالت : اذا استباحوا الزنا وشربوا الخمور وضربوا بالمعازف غار الله عز وجل في سمائه فقال للارض تزلزلي بهم ، فان تابوا ونزعوا والا هدمها عليهم قال: يا ام المؤمنين اعذابا لهم ، قالت : بل موعظة ورحمة للمؤمنين ونكالا وعذابا وسخطا على الكافرين)(٣) .

وتزلزلت الارض بالناس على عهد عمر بن الخطاب فقال :(يا ايها الناس ما كانت هذه الزلزلة الا عن شيء احدثتموه ...) وتزلزلت في عهد عمر بن عبد العزيز فكتب الى الامصار (اما بعد ، فان هذا الرجف يعاقب الله عز وجل به العباد)(٤) .

وفي الصحيحين في خطبته صلى الله عليه وسلم في صلاة الكسوف انه قال : (يا امة محمد ، والله انه لا احد اغير من الله من ان يزني عبده او تزني امته ، يا امة محمد والله لو تعلمون ما اعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا)(٥) ، وفي ذكر هذه الكبيرة بخصوصها عقيب صلاة الكسوف سر بديع لمن تأمله ، وظهور الزنا من امارات خراب العالم وهو من اشراط الساعة ...، وقد جرت سنة الله سبحانه وتعالى في خلقه عند ظهور الزنا ان يغضب الله سبحانه وتعالى ويشتد غضبه في الارض عقوبة و قال ابن مسعود :(ما ظهر الربا والزنا الا اذن الله في هلاكها)(٦) .

---

(١) اخرجه الترمذي ٤/٤٩٥ رقم ٢٢١٣ في الفتن باب ما جاء في الفتن وعلامة المسخ والخسف وقال هذا حديث غريب ، وحسنه الارناؤوط كما في جامع الاصول ١٠/٤١٥ .

(٢) اخرجه الامام احمد ٦/٣٣٣ عن ميمونة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ونصه " لا تزال امتي بخير ما لم يفش فيهم ولد الزنا

(٣) ذكره ابن ابي الدنيا كما في الجواب الكافي تحقيق محمود عبد الوهاب فايد ص ٣٧ ، ص ٥٨ ط ٣ ، ٤٦ تحقيق الخطيب .

(٤) انظر هذه الاقوال في الجواب الكافي ٢٩ - ٣٠ .

(٥) متفق عليه اخرجه البخارى كتاب الكسوف باب الصدقة في الكسوف مع الفتح ٢/٥٢٦ ، ومسلم كتاب الكسوف باب صلاة الكسوف ٢/٦١٨ .

(٦) الجواب الكافي ١١٤ .

وقد حذرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من بيع العينة واتخاذ اذناب البقر والرضى بالزرع وترك الجهاد ، فقال صلى الله عليه وسلم :(انا تبايعتم بالعينة واخذتم باذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد ، سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى ترجعوا الى دينكم)(١) .

ومن الاحاديث التي حذرت من نزول العقاب ، قوله صلى الله عليه وسلم :(يا معشر المهاجرين ، خمس خصال واعوذ بالله ان تدركوهن ، ما ظهرت الفاحشة في قوم حتى اعلنوا لها الا ابتلوا بالطواعين التي لم تكن في اسلافهم الذين مضوا ، ولا نقص قوم المكيال والميزان الا ابتلوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان ، وما منع قوم زكاة اموالهم الا منعوا القطر من السماء فلولا البهائم لم يمطروا ولا خفر قوم العهد الا سلط الله عليهم من غيرهم فأخذوا بعض ما في ايديهم ...)(٢) .

وقد حذرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من فتن النساء وبين انه ما ترك علينا فتنة اشد من فتنة النساء فقال :(ما تركت بعدي فتنة اضر على الرجال من النساء)(٣) ـ والنساء هن اللواتي اهلكن بني اسرائيل ،(اول فتنة بني اسرائيل كانت النساء)(٤) .

وعن حميد بن عبد الرحمن انه : (سمع معاوية بن ابي سفيان ـ عام حج على المنبر ـ ـ فتناول قصة من شعر ـ وكانت في يد حرسي ، فقال : يا اهل المدينة ، اين علماؤكم ؟ سمعت النبي صلى الله عليه وسلم ينهى عن مثل هذا ، ويقول : انما هلكت بنو اسرائيل حين اتخذ هذه نساؤهم)(٥) .

وهكذا فان التاريخ يحدثنا : (ان الدولة الايوبية التي حققت انتصارات رائعة ضد الصليبيين ، كان من اسباب سقوطها امرأة مملوكة هي شجرة الدر التي قتلت ابن زوجها كي تنفرد بالحكم ، ثم شربت من نفس الكأس حين قتلها المماليك اخذا بثأر زوجها منها)(٦) . يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :(لن يفلح قوم ولوا امرهم امرأة .)(٧) .

---

(١) اخرجه ابو داود كتاب البيوع باب في النهي عن العينة ٣/٢٧٤ والامام احمد ٢/٨٤ ، وانظر صحيح الجامع الصغير للالباني ١/١٧٥ (رقم ٤١٦) والاحاديث الصحيحة رقم ١١ خ ١/١٥
(٢) اخرجه ابن ماجه كتاب الفتن باب العقوبات ٢/١٣٣٢ ـ ١٣٣٣ واخرجه الحاكم في كتاب الفتن ، ذكر خمس بلاء اعاذ النبي صلى الله عليه وسلم منها المسلمين ٤/٥٤٠
(٣) اخرجه البخاري كتاب النكاح باب ما يتقى من شؤم المرأة واخرجه مسلم كتاب الذكر باب اكثر اهل الجنة ٤/٢٠٩٧ .
(٤) اخرجاه في نفس الكتاب والباب للبخاري ٩ / ١٣٧ ٦ / ٥١٢
(٥) اخرجه البخاري كتاب الانبياء باب رقم ٥٤ فتح الباري بشرح صحيح البخاري
(٦) دراسة لسقوط ثلاثين دولة اسلامية ص١٢٠ .
(٧) اخرجه البخاري كتاب الفتن باب رقم ١٨ فتح الباري بشرح صحيح البخاري ١٣ / ٥٣

ومن المعاصي التي حذرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوقوع فيها ، اختلال الموازين في تقدير الرجال فقال مرشدا لنا الى اهمية الميزان الاسلامي: (اذا جاءكم من ترضون دينه وامانته فزوجوه ، الا تفعلوا تكن فتنة في الارض وفساد كبير)(١) ، وهذا الحديث يدل على ما تدل عليه الاية الكريمة (٠٠ ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو اعجبكم ٠٠)(٢) .

هذه هي بعض المعاصي التي حذرنا القرآن الكريم والسنة النبوية الطاهرة من الوقوع فيها ، ولكن لسائل ان يسأل هل بقيت معصية لم يقع فيها المسلمون ؟ ويستطيع المجيب ان يقول : ما من معصية الا وقد فعلها المسلمون ، ولذا فقد حل بالامة الاسلامية الوهن ، وافل عن الارض نجم الاسلام ، فخسر بذلك المسلمون انفسهم وخسر العالم الحضارة الحقة ، واصبحت الحضارة الشرقية او الحضارة الغربية هي المتحكمة في شئون العالم ، واصبح اليهود بدهائهم ومكرهم يسيطرون معا على هاتين الحضارتين ، وغرس في جسم العالم الاسلامي خنجر مسموم يوشك هذا الخنجر ان يغرس في جميع انحاء العالم الاسلامي ، فيحل بامتنا الهلاك (٣) مصداقا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم :(يوشك الامم ان تداعى عليكم كما تداعى الاكلة الى قصعتها ، فقال قائل : من قلة نحن يومئذ ؟ قال : بل انتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن ، قيل : وما الوهن يا رسول الله ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت)(٤) .

وهذا ما حدث بالفعل ، تداعت علينا الامم من كل جانب وسيطروا علينا ، وفقدنا سيادة العالم ، وانتقلت هذه السيادة الى اوروبا ودول الشرق ، واصبحنا نحن المتخلفين وهم المتقدمين ونحن المنهزمين وهم المنتصرين وهم الحاكمين للعالم ونحن المحكومين ، واصبح حال امتنا لا يخفى على احد ، حالة يقصر المسلم عن وصفها ويصيبه الحزن والالم بسببها واصبح حال المسلمين اليوم كما قال الشاعر قديما في تيم : ـ

ويقضى الامر حين تغيب تيم ... ولا يستأمرون وهم شهود .(٥)

---

(١) اخرجه الترمذى كتاب النكاح باب (٣) ٣٨٦/٣ وقال: هذا حديث حسن غريب" وابن ماجه النكاح (٤٦) باب الاكفاء ٦٣٢/١ .

(٢) ٢٢١ : البقرة .

(٣) انظر ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ١٧٢ .

(٤) اخرجه ابو داود في الملاحم باب في تداعي الامم على الاسلام (٤٢٩٧) خ ١١١/٤ واخرجه احمد ٢٧٨/٥ وقال محقق جامع الاصول سنده قوى ، جامع الاصول ٢٨/١٠ .

(٥) ديوان جرير ص ١٢٩ .

ولكن هل هذا التغير حدث جزافا وظلما لهذه الامة ؟ ام لان هذه الامة غيرت ما بنفسها ؟ (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم)(١) .
وقد اختلفت تحليلات العلماء في اسباب انحطاط المسلمين وانتقال السيادة منهم وهو نوع من انواع العقاب الذى حل بهم ، بما احدثوه من تلك المآثم والمعاصي التي تحدثنا عنها .

وزيادة في التوضيح ننقل بعض اقوال العلماء ، خصوصا ان بعض ادعياء الثقافة من المسلمين يرجعون سبب تخلف المسلمين الى الاسلام ، وان الامة الاسلامية اذا ارادت التقدم فعليها ان توءم وجهها تجاه اوروبا الكافرة او دول الشرق الملحدة ، فيرى الشيخ ابو الحسن الندوى حفظه الله ان اسباب انحطاط المسلمين هي التحريفات والثلمات التي وقعت في الحياة الاسلامية قديما والتي لا زالت ، فمن الثلمات التي حدثت انتقال الامامة من جماعة الى جماعة فيقول :(سوء حظ العالم البشرى ان تولى هذا المنصب الخطير رجال لم يعدوا له عدة ولم ياخذوا له اهبة ، ولم يتلقوا تربية دينية وخلقية عميقة كما تلقى الاولون وكثير في عصرهم وجيلهم ، ولم يكن عندهم من روح الجهاد في سبيل الاسلام ومن قوة الاجتهاد ما يجعلهم يضطلعون باعباء الخلافة الاسلامية ، وهذا الحكم عام يشمل خلفاء بني امية وبني العباس حاشا الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز ،.... ووقع فصل بين الدين والسياسة عمليا فان هوءلاء لم يكونوا من العلم في الدين بمكان يستغنون به عن غيرهم من العلماء واهل الدين ، فاستبدوا بالحكم والسياسة واستعانوا - اذا ارادوا واقتضت المصالح - بالفقهاء ورجال الدين كمشيرين متخصصين ، واستخدموهم في مصالحهم واستغنوا عنهم اذا شاءوا وعصوهم متى شاءوا ، فتحررت السياسة من رقابة الدين واصبحت في كثير من الاحيان ملكا عضوضا ، واصبحت كجمل هائج حبله على غاربه ....

---

(١) الرعد : ١١ .

ولم يكن كثير من رجال الحكومة حتى الخلفاء امثلة كاملة في الدين والاخلاق بل كان في عدد منهم عروق الجاهلية ونزعاتها ، فسرت روحهم ونفسيتهم في الحياة العامة والاجتماع ، واصبحوا اسوة للناس في اخلاقهم وعوائدهم وميولهم وزالت رقابة الدين والاخلاق وارتفعت الحسبة ، وفقدت حركة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر سلطانها ، لانها لا تستند الى قوة ولا تحميها حكومة وانما يقوم بها متطوعون لا قوة لديهم ولا عقاب ، والدواعي الى خلافها متوفرة قوية ، فتنفست الجاهلية في بلاد الاسلام ورفعت راسها واخلد عدد كبير من الناس الى الترف والنعيم والى الملاهي والملاعب ، وانغمسوا في الملذات والشهوات واستهتروا استهتارا ... وبهذه السيرة ، وبهذه الاخلاق المنحطة ، ومع هذا الانهماك في الملاهي لا تستطيع امة ان تؤدى رسالة الاسلام ، وان تقوم في الدنيا مقام خلفاء الانبياء ، وتذكرهم بالله والاخرة وتحض على التقوى والدين ، وان تكون اسوة للناس في اخلاقها ، بل لا تستطيع ان تتمتع بالحياة والحرية زمنا طويلا ، ﴿ سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ (١).

وكان هؤلاء في كل ما ياتون ويذرون ممثلين لانفسهم وسياستهم فقط لا يمثلون الاسلام ولا سياسته الشرعية ، لا قانونه الحربي ، ولا نظامه المدني ولا تعاليمه الاخلاقية الا في النادر ، ففقدت رسالة الاسلام تاثيرها وقوتها في قلوب غير المسلمين ، وضعفت ثقتهم بهم ، وفي لفظ مؤرخ اوروبي - بدأ الاسلام بالانحطاط لان البشرية بدأت تشك في صدق القائمين بتمثيل الديانة الجديدة .

وان العلماء المفكرين منهم لم يعتنوا بالعلوم الطبيعية والتجريبية وبالعلوم المثمرة المفيدة اعتناءهم بعلوم ما بعد الطبيعة والفلسفة الالهية التي تلقوها من اليونان وما هي الا وثنيتهم القومية التي ترجموها في لغتهم الفلسفية ...

وقد اغناهم الله عن هذا كله بما انزل اليهم من آيات بينات من الهدى والفرقان وجعلهم على نور من ربهم ، ولكن المسلمين لم يشكروا هذه النعمة العظيمة وظلوا قرونا طويلة يجاهدون في هذه العلوم في غير جهاد ، ويضيعون ذكاءهم في مباحث فلسفية وكلامية لا تاتي بنتيجة ، وليس لها دعوة في الدنيا ولا في الآخرة ،

---

(١) ٦٢ : الاحزاب

وتشاغلوا بها عن علوم واختبارات تسخر لهم قوى الطبيعة ويسخرونها لمصلحة الاسلام ، ويبسطون بها سيطرة الاسلام المادية والروحية .

وان كان لهم جهد في هذا المجال ، فلا يقاس بالجهد الذي بذلوه في الفلسفة والمنطق ومباحث الروح وفلسفة الاشراق ومسائل وحدة الوجود .

وعاد يحجب توحيد الاسلام النقي حجب من الشرك والجهل والضلالة ، وطرأت على النظام الديني بدع شغلت مكانا واسعا من حياة المسلمين وشغلتهم عن الدين الصحيح ، وعن الدنيا ، وميزة المسلمين بين الامم وفضلهم انما هو من هذا الدين الذي جاءهم به محمد صلى الله عليه وسلم ، وميزة هذا الدين واعجازه في صحته وحفظه ، لانه يمتاز بانه وحي الله وشريعته ووضعه المعجز وشرعه الحكيم (تنزيل من حكيم حميد)(١) فاذا عملت فيه عقول الناس ودخلت فيه اعمال الناس واهواؤهم لم يكن له على الاديان التي حرفها اهلها ، والنظم التي نسجتها ايدي الناس الا بمقدار ما فيه من الوحي المحفوظ والعلم المعصوم ، ولم يكن ضامنا لسعادة الدنيا والاخرى ، ولم يكن حقيقا ان تخضع له العقول وينجذب اليه الناس) (٣) .

ثم ظهرت بعد ذلك الخلافة العثمانية ، وعاش المسلمون في تقدم وازدهار وكانوا في منعة وقوة ، ثم سرى الى هذه الدولة عوامل الانحطاط والفناء ، وعن اسباب هذا الانحطاط يقول الشيخ ابو الحسن الندوي :(.... فكان في استطاعة الترك - لو وفق الله - ان يتقدموا في ميدان العلم والعقل ويسبقوا امم اوروبا النصرانية ويصبحوا أئمة العالم يقودونه الى الحق والهدى قبل ان تملك اوروبا زمام العالم وتقوده الى النار والدمار ، ... ولكن من سوء حظ المسلمين - فضلا عن سوء حظ الاتراك - اخذ التدلي ودب اليهم داء الامم من قبلهم ، الحسد والبغضاء واستبداد الملوك وجورهم وسوء تربيتهم وفساد اخلاقهم وخيانة الامراء وغشهم للامة ، واخلاد الشعب الى الدعة والراحة الى غير ذلك من اخلاق الامم المنحطة .

(١) ٤٢ : فصلت .

(١) ١٤٧ - ١٥١ : ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين / بتصرف يسير .

وكان شر ما اصيبوا به الجمود العلمي والجمود في صناعة الحرب وتنظيم الجيوش ، وقد نسوا قول الله تعالى :(واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم ...)(١) ، وقول النبي صلى الله عليه وسلم :(الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو احق بها)(٢) وكان خليقا بهم لحرج مركزهم السياسي والجغرافي وقد احاطت بهم الدول الاوروبية ، احاطة السوار بالمعصم - ان يجعلوا وصية القائد الاسلامي الكبير عمرو بن العاص رضي الله عنه للمسلمين في مصر نصب اعينهم (واعلموا انكم في رباط الى يوم القيامة لكثرة الاعداء حولكم وتشوف قلوبهم اليكم والى داركم)ولكن الترك وقفوا وتقدم الزمان وتخلفوا وسبقت الامم الاوروبية ... .

ولم يكن الجمود العلمي والكلال الفكري مقتصرين على تركيا واوساطها العلمية والدينية فحسب ، بل كان العالم الاسلامي من شرقه الى غربه مصابا بالجدب العلمي وشبه شلل فكرى وقد اخذه الاعياء والفتور واستولى عليه النعاس... .

وعاصرت الدولة العثمانية دولتان قويتان في الشرق احداهما الدولة المغولية في الشرق ، والدولة الصفوية في افغانستان ، وكانت راقية متحضرة لكنها شغلت بنزعتها الشيعية وبالهجوم على الدولة العثمانية مرة والدفاع عن نفسها مرة .

وانحصرت هاتان الدولتان في قطرهما وكانتا بمعزل عما يقع في الشرق الادنى ، فضلا عن الغرب ، وفي البلاد الاسلامية فضلا عن البلاد الاجنبية ، اما التحالف والتكاتل فلم يكن يخطر من احدهم على بال .... وكذلك دراسة احوال اوروبا العلمية والحربية واقتباس العلوم والصنائع من الخارج فلم يكن يدور بخلد انسان في ذلك العصر)(٣) .

---

(١) ٦٠ : الانفال .

(٢) الترمذي في كتاب العلم باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة ٥١/٥ وقال هذا حديث غريب ، وابن ماجه في كتاب الزهد باب الحكم ١٣٩٥/٢ .

(٣) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين - ابو الحسن الندوى - ١٦٤ - ١٦٩ .

ويقول الدكتور البوطي :(ولكن تسلل اليها في اواسط عمر هذه الدولة " يعني الدولة العثمانية " ما تسلل الى الدولة الاموية التي اشاد بناءها عبد الرحمن الداخل في ربوع الاندلس من الافتتان بالمال والركون الى المتعة ، والانصراف الى البذخ واضاعة الوقت فيما لا طائل فيه ، فبدأت تنحدر عندئذ دولة بني عثمان نحو الضعف وظهرت فيما بينها عوامل التنافس ، فالتصارع وغفل الكل بذلك عن العدو المتربص ومنذ ذلك الحين اتخذ الخط البياني للحضارة الاسلامية طريقه نحو الهبوط والانحدار ولا يزال ينحدر الى يومنا هذا)(١) .

وعن سبب تخلف المسلمين:

يقول الدكتور البوطي :(ان العالم الاسلامي اليوم انما يعاني من وطأة تخلفه هذا بسبب الغشاوات والحجب الكثيفة التي اسدلت على بصيرته فاقصته عن معرفة حقيقة الانسان والحياة التى يتمتع بها ، والدنيا التى تطوف من حوله ، وعن معرفة المهمة التى خلق الانسان للنهوض بها في هذه الحياة . ثم انه لم يرض مع ذلك ان يقف حيث هو ليعترف بجهله بل مضى يستعير للتعرف على كل من هذه العناصر الثلاثة ، عقول الغربيين وابصارهم فهو لا يحاول ان يفهمها الا طبقا لما يفهمون ، ولا يحاول ان يراها الا بتلك العيون التي يرونه بها .

وانطلاقا من ذلك ، فقد غدا الانسان في نظر اكثر المسلمين اليوم بؤرة للملاذ العاجلة ، كما هو مقياس الحضارة الغربية ونظر قادتها تماما ، وتحول معنى الحياة التي يتمتع بها الانسان في نظر هؤلاء المسلمين الى ما يشبه الورقة الوحيدة في يد المقامر ليلعب بها . ليس له من ورائها مأمل ولا رجاء ، كما هي في ميزان الفلسفة الغربية ايضا ، وغدت الدنيا في اعينهم اشبه ما تكون بالمائدة العامرة بأشهى صنوف الاطعمة ، عندما ينحط امامها انسان جشع نهم ، لا يحسب انه يجلس امام مثل هذه المائدة مرة اخرى في حياته ...

وباختصار نقول ان الامة الاسلامية ، تقع اليوم بكل موازينها الفكرية ومشاعرها الوجدانية في منطقة الجاذبية الغربية ....)(٢)

ويقول الشيخ محمد قطب عن انحراف الامة الاسلامية :(ولقد انحرفت الامة الاسلامية كثيرا عن منهج الله ، ادركتها بالتدريج جهالة الجاهلية ، ففصلت العقيدة عن الشريعة واخذت الدين عقيدة مستترة في القلب منقطعة عن الواقع بينما الواقع يحكمه دين غير دين الله ، فلم يعد منهج الله المحكم في واقع الامة الاسلامية ...

(١) منهج الحضارة الانسانية في القران للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ١٦٨ .

(٢) انظر منهج الحضارة الانسانية في القران للبوطي ١٦٥-١٦٦

ثم انها كذلك فقدت حضارتها وحماستها العلمية الفريدة ، وانزوت في داخل نفسها تستسلم للضعف والهوان .. فازدادت بذلك بعدا عن الاسلام ، وانحلت اخلاقها ، فلم تعد تصدق ولا تخلص ولا تستقيم في المعاملة ولا تقوم بينها روابط الانسان ، ثم زادت فانزلقت في تيار الجنس الجارف ...في مصيدة يهود ".

ويقول في موضع آخر (وعلى الرغم مما اصاب المسلمين من انحراف تدريجي عن هذا المنهج ، فقد ظلوا قبسا منيرا في كل الارض ، يعلمون الناس ويهدونهم الى سواء السبيل ، حتى انحسروا في داخل انفسهم ، وكفوا عن الحركة والانطلاق ، وعندئذ انقضت عليهم الجاهلية تغمرهم بظلامها البالغ في الطغيان ، حتى خرجوا من دين الله واتبعوا خطوات الشيطان .

الاسلام في هذا (العالم الاسلامي) غريب على الناس كغربته يوم بدأ في جاهلية الجزيرة العربية ، وهو فوق ذلك مكروه من كثيرين ، وخطوة خطوة في هذا الفصل سنسير مع فئات مختلفة من الناس لنبين لماذا يكرهون الاسلام .

ان اى طاغية في داخل العالم الاسلامي سواء اعلن حربه صريحة على الاسلام ام تظاهر بالحدب على الاسلام ورعايته وهو في دخيلة نفسه له عدو ، ان اى طاغية لا يمكن ان يطيق الاسلام لسبب بسيط : ان الاسلام يجعل ولاء الناس لله بينما هو يريد الولاء لشخصه من دون الله ...اما الناس فهم فئات شتى في عداوتهم للاسلام (او في مخالفتهم للاسلام) ، فاما المثقفون فهم خلاصة الكيد الخبيث الذى وضعته الصليبية للقضاء على الاسلام .

اجيال لقنت ان الدين تاخر وانحطاط وتحجر ورجعية ، وان الوسيلة الوحيدة للتحضر والتقدم هي الانسلاخ من ذلك الدين ، وابعاده عن مجال الحياة العامة والغاء سيطرته على اى مفهوم من مفاهيم الحياة : السياسية او الاقتصادية او الاجتماعية او حتى الاخلاقية ، واستمداد هذه المفاهيم كلها من اوروبا ... اى من مفاهيم الصليبية والصهيونية في نهاية المطاف . وفي بلاهة غريرة راح اولئك المثقفون ينهلون من ينابيع الجاهلية الغربية المسمومة لا يفرقون بين ما ينفع ويضر ...

وفي بلاهة غريرة راح اولئك المثقفون يكرهون الاسلام ويحاربونه بكل الادوات ...

واما الكتاب والفنانون والقصاصون والاذاعيون والسينمائيون والتلفزيونيون ..الخ فهم ولا شك يكرهون الاسلام ، يكرهونه لان التجارة التي يقومون بها ويربحون عن طريقها تجارة افساد الاخلاق واشاعة الفاحشة في المجتمع واطلاق الاولاد والبنات بلا ضابط

ينزو بعضهم على بعض .. هي تجارة محرمة .

واما الاولاد والبنات الذين فتح لهم الباب على مصراعيه ليفسدوا ويفسدوا وانجرفوا في الانحلال الخلقي وصارت حياتهم اغنية مائعة او قصة داعرة او رقصة فاجرة او لحظة جنس مسعورة يمارسونها خفية او علانية ...فهؤلاء ولا شك يكرهون الاسلام .

يكرهونه لانهم يختلسون هذه الاعراض اعراض بعضهم البعض ويختلسون هذه الشهوات التي يمارسونها في غيبة من دين الله ...

والمرأة المتحررة بصفة خاصة تكره الاسلام ...

ووراء ذلك كله جماهير من الناس لا تكره الاسلام عقيدة ، ومع ذلك لا تحب تطبيقه في واقع الحياة .

هذه الجماهير التي تريد الاسلام عقيدة مستسرة في القلب ، او على اكثر تقدير عقيدة يصلي لها الانسان ويصوم ، اما ما وراء ذلك فتعب قلب ليس له لزوم .

انهم يريدون البحبحة بغير قيود ...

لكل مواقف الفئات المختلفة من الاسلام ... ماذا يتبقى اذن من المسلمين ؟

يتبقى افراد متناثرون على امتداد العالم الاسلامي يعرفون حقيقة هذا الدين ويحبونه ويقدرونه حق قدره ، يعرفون انه الدين الحق والمنهج الحق والعلاج الحاسم لكل عذابات البشرية)(١) .

لهذه الاسباب وغيرها ووفقا لسنة الله سقطت الخلافة العثمانية واصبحت الدول العربية دولا وامارات كبيرة وصغيرة وعاشت تحت الانتداب مدة طويلة ، ثم استقلت ، لم يبق يد قوية تحميها ولا سطوة عالمية تخشى وترهب ، وقامت اسرائيل في حضانة الدول الاوروبية وامريكا في الارض المقدسة في فلسطين ، واصبحت خنجرا في قلب الدول العربية في كل يوم تنزف منه دما ، وتتجرع كؤوس الذل والمهانة ، وتهان في عرضها ، وتمتهن في كرامتها ، وفوق ذلك تعيش تحت رحمة وفتات الامم المتقدمة وتحت سيطرتها ، فتنهب خيراتها وتسيطر على اسواقها وتعيث في بلاد المسلمين فسادا وتنشر القيم الغربية الجاهلية وتصدر فسادها وفجورها وكفرها الينا .

كل هذا وغيره حدث لاننا ابتعدنا عن الاسلام وما ظلمناهم ولكن كانوا انفسهم يظلمون (٢) .

---

(١) جاهلية القرن العشرين . محمد قطب ٢٧٣-٢٨٠ ، ٢٠٣-٢٠٤ ، ٢٣٢ .

(٢) انظر ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين - ابو الحسن الندوى ١٧٢

وانا كان ما حل بالامة الاسلامية انما كان وفقا لسنته سبحانه وتعالى في الذين يحيدون عن منهجه ولا يسيرون على وحيه الذى انزله من السماء ليسعد البشرية .

ولكن كيف انتقلت السيادة الى اوروبا ، وكيف امكنها الله عز وجل من السيطرة على العالم الاسلامي والتحكم بناصيته وهي امم شأنها عبادة اللذة العاجلة والخضوع لسلطان المادة وحدها ، وتعيش في جاهلية عمياء في كل مناحي الحياة من فكرية وسلوكية الى جاهلية في الاقتصاد والاجتماع والفن وغير ذلك من شئون الحياة ؟

ونقول في الجواب :

١- ان السيادة في الارض لا تكون للمستضعفين ، وانما تكون لمن يستحقون هذه السيادة كما قال تعالى :(وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من ارضنا او لتعودن في ملتنا ، فاوحى اليهم ربهم لنهلكن الظالمين ولنسكننكم الارض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد)(١)

فان القيد هو خوف مقام الله وخوف وعيده ، وانك لتجد صريح هذا القرار في ايات كثيرة اخرى مثل قوله عز وجل :(وعد الله الذين امنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم امنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا)(٢) .

فكلمة (وعملوا الصالحات) قد استوعبت كل مقتضيات دعوى الايمان بالله واليوم الاخر ، ودخل فيها دخولا اوليا ضرورة التزام المنهج القراني في التعامل مع الحياة والمكونات وسائر بني الانسان .

فقد خرج اذا بمقتضى هذا الالتزام الرباني ، كل من تحولت حقائق الايمان في حياتهم اطرا ومظاهر وانفصل واقعهم السلوكي عن سلطان ذلك الايمان ، ليدخل في سلطان الدنيا وشهواتها وما فيها من تيار اللذائذ والاهواء .

٢- ان من سنن الله في هذه الحياة الدنيا ان تظل هذه الارض معمورة حتى تقوم الساعة فاذا وجد المؤمنون المستحقون للاستخلاف استخلفوا والا فان الاستخلاف يكون لغيرهم لمن اخذ بالسنن الكونية حتى تستمر الحياة كما قال تعالى :(من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف اليهم اعمالهم فيها وهم لا يبخسون)(٣) . وكما قال تعالى :(وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون)(٤) .

---

(١) ١٣ : الرعد .
(٢) ٥٥ : النور .
(٣) ١٥ : هود
(٤) ١٢٩ : الانعام . انظر منهج الحضارة الانسانية: ١٧٧ ، وانظر بصائر للمسلم المعاصر ١٣-١٤ .

فان انتقال ازمة القيادة من المسلمين الى غيرهم ، ليس في حقيقته نصرا لأولئك الاخرين ولكنه تسليط .... يسلطهم الله تعالى على هؤلاء الذين خانوا الامانة ونبذوا العهد .(١)

٣- ان اوروبا متقدمة ماديا ومنحطة اخلاقيا ، وهذا الكون يعطي ثماره لمن يستغله ، وهم ساروا وفق سنة الله في المادة والكون فنجحوا وتقدموا ولكن المسلمين تاخروا وانحطوا في كل مناحي الحياة عندما ابتعدوا عن دينهم . فالمسلمون لم يسيروا حسب سنة الله في استغلال المادة ولم يسيروا حسب سنة الله في المجتمعات وتقدمها .

٤- وينطبق على امتنا الاسلامية واوروبا ما قرره الاستاذ جودت سعيد حفظه الله حيث يرى :-

١- ان المبدأ الحق والتطبيق الحق ينتج نتائج ايجابية هي اعلى ما تكون نسبتها كما تحققت على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٢- مثل اعلى باطل "مبدأ" وتطبيق جيد لسنن الكون يعطي نسبة عالية من النتائج ولكن دون الاول وهو ما حدث في اوروبا .

٣- مثل اعلى حق وجهل في التطبيق ويعطي نتائج اقل من الاول وهذا هو حال المسلمين اليوم .

٤- مثل اعلى باطل وتطبيق سيء وهذا لا يمكن ان ينشأ عليه مجتمع اصلا .(٣)

٥- ان جاهلية اوروبا على وشك الزوال والانحطاط كما هي سنة الله تعالى ، فاذا اخرجنا العلم من حصيلة الجاهلية الحديثة فلن يبق لها الا الجاهلية العمياء هناك حقا - خير متناثر في كل الارض ، وهناك تحقيقات مختلفة لكيان الانسان في السياسة والاقتصاد والاجتماع والاخلاق والفن ، هناك عدالة جزئية ومكاسب جزئية حصل عليها الانسان وهي ضخمة في ظاهرها

---

(١) انظر منهج الحضارة الانسانية في القرآن للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ١٧٦ . وانظر من المسئول عن تخلف المسلمين ٨١ .

(٣) انظر العمل قدرة وارادة للشيخ جودت سعيد ١٥٤ - ١٥٦ .

لان كل شيء في هذا العصر الحديث يتسم بالضخامة ، فهناك فضائل نفسية واجتماعية وتنظيمية ما زال يحملها الغرب ولا شك انها هي التي تحفظ كيانه الى هذه اللحظة امام هذا السيل الجارف من المدمرات في الفوضى الجنسية والخلقية والالحاد وتفكك الاسرة والمجتمع والانفلات من كل القيم وكل المعنويات .

والخير المتناثر في كل الارض على ضخامته جد ضئيل حين يقاس الى الشر المنتشر في هذه الارض في دكتاتورية رأس المال ، ودكتاتورية البروليتاريا ، وما يفرضه من المذلة على كيان الانسان . الملكية الطاغية التي تستعبد غير المالكين ، وانتزاع الملكية الطاغي الذى يستعبد غير المالكين .

الفردية الطاغية التي تدمر المجتمع ، والجماعية الطاغية التي تسحق كيان الفرد ، التدهور المستمر في الاخلاق ، الفساد الحادث في علاقات الجنسين ، وما ينشئه في النفس والمجتمع من شقاء بالغ وقلق واضطراب .

وشهادة القرن العشرين والشباب المهدد بالضياع وصيحة كندى حيث قال: (ان الشباب الامريكي مائع منحل مترف غارق في الشهوات ، وانه من بين كل سبعة شباب يتقدمون للتجنيد يوجد ستة غير صالحين ، بسبب انهماكهم بالشهوات . وانذر بان هذا الشباب خطر على مستقبل امريكا ، واهاب بالعلماء والمصلحين والاجتماعيين ان يبحثوا هذا الخطر ويقرروا العلاج).

وقال خروشوف :(ان الشباب الشيوعي قد بدأ ينحرف ويفسده الترف وان من بينه (عصبجية وصيعا !) وانذر بان الحكومة السوفيتية تبحث اطلاق يد البوليس في معالجة هؤلاء (البلطجية) كما انذر بان معسكرات جديدة قد تفتح في سيبيريا للتخلص من الشباب المنحرف لانه خطر على مستقبل روسيا)(١) .

ويقول الفيلسوف المعاصر برتراندرسل نبوءته الصادقة لقد انتهى العصر الذى يسود فيه الرجل الابيض وبقاء تلك السيادة الى الابد ليس قانونا من قوانين الطبيعة واعتقد ان الرجل الابيض لن يلقى اياما رضية كتلك التي لقيها خلال اربعة قرون .(٢)

كل ذلك يشير الى ان هذه الفضائل في طريقها الى التضاؤل والانهيار ، فحضارة الرجل الابيض قد اخذت مداها في الهبوط والانحراف ومن ثم لا بد ان تنهار .

---

(١) التطور والثبات للشيخ محمد قطب ١٧٣

(٢) المصدر السابق ٢٩٠ ـ ٢٩١

غير اننا نرى في هذه المرة انه لا مجال للاختيار ، فلقد جربت البشرية في هذه الجاهلية الحديثة كل نظام يمكن ان يخطر على بال الانسان ....
الفردية والجماعية والرأسمالية والشيوعية الملكية واللاملكية ، وجربت المتاع الحسي المنطلق بلا غاية في المأكل والمشرب والمسكن والملبس والجنس . وجربت الايمان بكل اله من صنع الانسان والانسان المتأله ، والالحاد بكل اله .

ثم ازدادت مع كل تجربة حيرتها وشقاؤها واضطرابها وخلخلة روابطها حتى جنت او كادت تجن ، ومن ثم فلم يعد هناك مجال للاختيار .

اما الله .....واما الانهيار !

ولسنا نتنبأ بما يحدث للبشرية غدا (قل : لا يعلم من في السموات والارض الغيب الا الله وما يشعرون ايان يبعثون)(١) . (وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا)(٢) ، ولكننا فقط نستقرى سنة الله (سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا)(٣) .

وسنة الله توحي بعد هذه التجارب المريرة التي مرت بها البشرية في الجاهلية الحديثة بانه اما الهدى واما الدمار .... .

ان الجاهليات تظل تعيش بمقدار ما فيها من خير متناثر حتى يغلب ما فيها من شر طاغ فيختنق الخير ولا يكاد يستطيع التنفس ، وحين تصل الامور الى هذا الحد من السوء تتدخل ارادة الله فتحدث التغير ولكنها تحدثه من خلال سعي البشر وحركتهم ، (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم)(٤) .

تتدخل تدخلا حاسما فتخسف الارض بالطغيان كله ، او تهدى الناس الى الله فيدخل الناس افواجا في دين الله . ونحن على ابواب تدخل سافر من تدخلات الارادة الالهية الحاسمة ، لان الطاغوت الحاكم على الارض وصل الى حد حاسم وانقلب الخير حسيرا لا يملك امرا في ظل الطاغوت .(٥)

---

(١) ٦٥ : النمل
(٢) ٣٤ : لقمان
(٣) ٦٢ : الاحزاب
(٤) ١١ : الرعد
(٥) انظر جاهلية القرن العشرين للشيخ محمد قطب ٢٠٢

ان الجاهلية مهما عتت فلن تعجز الله في الارض ... ولا بد ان تجرى فيها سنة الله . وسنته ان ياخذ الناس بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون ، فانا لم يضرعوا بدل الله لهم مكان السيئة الحسنة واعطاهم من متاع الارض بلا حساب حتى ينسوا ويستخفوا ويقولوا : قد مس اباءنا الضراء والسراء !

ونحن مثلهم تمسنا الضراء حينا وبعدها السراء وعندئذ يأخذهم الله بغتة وهم لا يشعرون .

ونحن اليوم على ابواب تدخل حاسم من ارادة الله !

اما التدمير على الكافرين الذين يملأون بجاهليتهم ارجاء الارض ، واما هدايتهم الى الله .....

او هداية جيل من البشرية ينبع من هذا الفساد بارادة الله (١)

(والله غالب على امره ولكن اكثر الناس لا يعلمون) .(٢)

ولكن سنة الله التي فرضت انهيار الجاهلية - بصورة حتمية - لما فيها من شر لم تفرض ان يعقبها - آليا - حكم الخير ، انما الناس هم الذين يختارون اما الهدى واما الانتقال الى طاغوت آخر .(٣)

فحرى بالمسلمين ان ينتهزوا هذه الفرصة التى تتيحها لهم ارادة الله فيقيموا حياتهم على الخير ويهتدوا الى منهج الله ويوءمنوا بالله ايمانا صادقا ويسعوا سعيا جادا لاقامة منهج الله بتغيير ما بنفوسهم (٤) (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم)(٥) .

---

(١) جاهلية القرن العشرين ٢٨٥
(٢) ٢١ : يوسف
(٣) جاهلية القرن العشرين ١٩٩
(٤) المرجع السابق ٢٠٠
(٥) ١١ : الرعد

الخاتمة

الخاتمة :

انتهيت بعون الله وتوفيقه من بحثي في سنن الله في الحياة الانسانية من خلال دراستي لما تضمنه القرآن الكريم عنها، وماتضمنته السيرة النبوية وقصص الانبياء والتاريخ الانساني بصفة عامة والتاريخ الإسلامي بصفة خاصة وملاحظة سير الافراد واحوال الامم في هذه الحياة ـ انتهيت من هذه الدراسة الى تقرير النتائج الاتية وشرحها والاستدلال عليها :

اولاً : عناية القرآن الكريم بالسنن الالهية في الكون والحياة عناية كبيرة ، كما يتضح ذلك من عنايته ببيانها ، فاساليبه في عرض هذه السنن اساليب متنوعة اما بذكرها صراحة، واما بذكر ماتضمنه منها الحديث عماله سبحانه في هذا الكون من الخلق والامر، والحكم والتقدير ، والمشيئة والاذن ، وكذلك حديثه عن ترتب النتائج على شروطها والمسببات على اسبابها ، وماتضمنه قصصه وهي تعدل ربع القران ـ من بيان عملي لسنن الله في الحياة الانسانية.

ثانيا : سنن الله في الحياة الانسانية ثابتة لاتتحول ولاتتغير ، بل اكثر ثباتاً من سنن الله الكونية ، ثم هي شاملة عامة لاتحابي أحداً ، واقعية نافذة قاهرة قائمة على مبدأ العدل والحكمة.

ثالثا : سنن الله في الحياة الانسانية تقوم إيجاباً على ارتباط الاسباب بالمسببات وسلباً على ارتفاع موانع تلك السنن ، وقيامها على مبدأ السببية لاينافي القدر الالهي ، فقدر الله مبني على علم الله الأزلي بالاسباب والمسببات جميعاً .

رابعا : إذا كان الله سبحانه وتعالى قد سخر الكون بكل مافيه للانسان فان هذا التسخير لايتم الا للذين يعرفون سنن الله في هذا الكون ، وينتفعون بهذه المعرفة في حياتهم المادية لكن ، السعادة الانسانية الحقة لاتتم إلا اذا جمع الانسان بين ذلك وبين إقامة حياته على مقتضى سنن الله في الحياة الانسانية على نحو مايجمع بينهما الاسلام.

خامسا : سنة الله في الهدى والضلال وأنهما يقومان على اسبابهما من فعل البشر ولاتناقض بين ذلك وبين تقدير الله عزوجل السابق للهدى والضلال ، ووقوع كل شيء في هذا الكون بمشيئة الله سبحانه وتعالى ، وأنه عزوجل هو خالق افعال العباد ، واسباب الضلال تكمن في أعراض الانسان عن الهدى وارتكاب المعاصي والذنوب واتباع الشيطان ، وامراض القلوب من الكبر والجحود . وغير ذلك من صوارف الهدى . . ، واما اسباب الهدى فهي سلبية وايجابية.

اما السلبية فهي المباعدة عن اسباب الضلال ، واما الايجابية ، فهي الاقبال على هدي الله ، واستعمال النعم والمواهب في التفكر في آيات الله والعلم والايمان وسؤال الله عزوجل الهداية الى غير ذلك من الاسباب. . .

سادسا : الابتلاء والتمحيص من سنن الله في الحياة الانسانية، وانواع الابتلاء حسب هذه السنة هي ابتلاء بالتكاليف وبالضراء والسراء، وتسليط الكافرين على المؤمنين امتحانا لهم في دينهم. والقيام باداء التكاليف والصبر على الضراء والشكر في السراء، واتباع هدى الله وشرعه يستتبع حسب سنته في الابتلاء والتمحيص عواقبه الطيبة في الدنيا والآخرة ، وعدم القيام به يستتبع عواقبه كذلك السيئة .

سابعا : سنة الله في الرخاء والشدة تقوم على قاعدة الاسباب والمسببات فالرخاء بشقيه المادي والمعنوي يكون بالايمان بالله واتباع هديه سبحانه وتعالى وتحكيم شرعه وتطبيق حدوده والشكر . . ، والشدة وضنك الحياة وضيق العيش يكون بنقائض ذلك كله ، واذا تخلفت هذه السنة في ظاهر العين فوجد الرخاء المادي عند من لم يستكملوا اسبابه السابقة، فان ذلك يكون مشوبا بالشقاء النفسي ، ثم هو مرحلة استدراج ليحل بهم جزاء تنكبهم سنته سبحانه وتعالى .

ثامنا : إن اساس تغير احوال الامم من سيء الى حسن او بالعكس هو تغير مابنفوس افرادها ، ولهذا فان الاسلام يقيم بناءه الإصلاحي على تغيير مابنفوس الافراد حتى تقوم عقائدهم وافكارهم ومشاعرهم واعمالهم على اساس الايمان الصادق بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر وبالقضاء والقدر ، وعلى اساس تغيير نظرة الانسان الى نفسه والكون والحياة وفق التصور الاسلامي الصحيح ، وتغيير مابنفوس الافراد على هذا النحو هو الطريق الى تغيير احوال الامم من السيء الى الاحسن في كل زمان ومكان .

تاسعا : التدافع بين الامم سنة الهية ماضية فاذا أخذت الامة المؤمنة باسباب النصر المادية والمعنوية - التى افاضت الرسالة في ذكرها وشرحها - كتب الله لها النصر حسب سنته سبحانه وتعالى في نصر المؤمنين وهزيمة الكافرين ، أما اذا تخلت عن ذلك ووقعت في بعض اسباب الهزيمة فانها تحيق بها تحقيقا لسنة الله في تداول الايام بين الناس، وان كان النصر في النهاية للحق اذا فاءت إليه الامة المؤمنة تحقيقا لسنته تعالى في إظهار الحق وازهاق الباطل .

عاشرا : من سنن الله في الحياة الانسانية عقاب الامم الحائدة عن منهجه وبمقدار بعدها من هديه يكون العقاب الالهي ، فبعض الامم يعاقبها بالاستئصال والأخرى يعاقبها بما دون ذلك ، وقد أثبت البحث بقاء عذاب الاستئصال لمن يستحقه من الامم خلافا للفكرة الشائعة برفعه، واثبت كذلك أن سنة العقاب لا تتخلف عن الامة الاسلامية وان كان عذاب الاستئصال مرفوعا عنها .

وبعد :

فقد اصبح جليا ان انحطاط الامة الاسلامية اليوم يرجع الى بعدها عن منهج الله وتنكبها لسننه سبحانه وتعالى .

ولن تعود هذه الامة الى موقع الشهادة على الأمم، وموقع الخيرية عليها ، الا بمعرفة سنن الله في الحياة الانسانية والسير على مقتضاها .

ومن هنا فلابد من تضافر جهود العلماء في جميع المجالات الكونية والدينية والانسانية لدراسة سنن الله تعالى في الكون والحياة الانسانية دراسة مستفضية واشاعة المعرفة بها بين افراد الامة الاسلامية بمختلف اساليب المعرفة وبناء مناهج النهضة الاصلاحية والصحوة الاسلامية ، على إساس السير على مقتضاها في مختلف جوانب الحياة سعياً للحصول على العواقب الطيبة للسير على منهج الله وتجنبا لما يحيق بالزائغين عن هديه والمتنكبين لسنته من العواقب الوخيمة .

واذا كانت هذه الرسالة تقدم جهداً متواضعاً في هذا السبيل فما هي الا خطوة على طريق طويل ، أهيب بالغيورين على دينهم وامتهم من العلماء ان يسيروا فيه بخطى واسعة ليضعوا بدراساتهم التفصيلية لسنن الله في الكون والحياة ، وكيفية انتفاع المسلمين بمعرفة هذه السنن ـ وليضعوا بذلك اساساً صالحا وقويا تقوم عليه النهضة الاسلامية القائمة على الاسلام الجامع بين الاخذ بسنن الله الكونية والانسانية والاخذ بسننه التشريعية ـ وهذا وحده ـ هو اساس التقدم والنجاح في الدنيا ، والطريق الى رضا الله وثوابه في الاخرى .

والله الهادى الى سواء السبيل .

المصادر والمراجع

القران الكريم .

(١) آيات الله تعالى ، سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، محمد وفا الاميرى ، دار الرضوان - حلب.

(٢) آيات الجهاد في القران الكريم، دراسة موضوعية وتاريخية ، الدكتور كامل سلامة الدقس، الناشر دار البيان .

(٣) الابتلاء والمحن في الدعوات، الدكتور محمد عبدالقادر ابو فارس ، دار الفرقان ، عمان - الاردن ، الطبعة الاولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.

(٤) الابداع في مضار الابتداع الشيخ على محفوظ دار الاعتصام - الطبعة السابعة.

(٥) اتحاف الورى باخبار ام القرى ، للنجم عمر بن فهد محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن فهد ٨١٢ - ٨٨٥هـ، تحقيق وتقديم فهيم شلتوت، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع.

(٦) اثر اقامة الحدود في استقرار المجتمع ، محمد حسين الذهبي، دار الاعتصام ، الطبعة الاولى ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

(٧) اثر الحضارة العربية الاسلامية على اوروبا ، تاليف مونتغمرى واط ، ترجمة جابر ابي جابر ، منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي دمشق ، ١٩٨١م.

(٨) الاجوبة المفيده لمهمات العقيدة ، لفضيلة الشيخ عبدالرحمن الدوسرى مكتبة الرشيد ، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.

(٩) الاحسان بترتيب صحيح ابن حبان ، ترتيب الامير علاء الدين على بن بلبان الفارسي ٧٣٩هـ، حققه كمال يوسف الحوت ، توزيع دار الباز ، عباس احمد الباز دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الاولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

(١٠) احكام القران لابن العربي .
لابى بكر محمد بن عبدالله المعروف بابن العربي ٤٦٨هـ- ٥٤٣هـ.
تحقيق على محمد البجاوى . طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه .

(١١) احياء علوم الدين ،تصنيف الامام ابى حامد محمد بن محمد الغزالي المتوفي ٥٠٥هـ، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت ـ لبنان .

(١٢) اخبار عمر بن الخطاب الشيخ على الطنطاوى دمشق- دار الفكر ١٣٧٩هـ - ١٩٥٩م.

(١٣) ارشاد الفحول الى تحقيق الحق من علم الاصول ،محمد بن على الشوكاني ،الطبعة الاولى .

(١٤) اساس البلاغة تاليف الامام الكبير جارالله ابى القاسم محمود بن عمر الزمخشرى المتوفى ٥٣٨هـ،تحقيق الاستاذ عبدالرحيم محمود ، مطبعة اولاد اورفاند ،القاهرة،الطبعة الاولى ١٣٧٢هـ- ١٩٥٣م.

(١٥) استراتيجية الفتوحات الاسلامية الرائد وليد محمد جرادات ،بدون دار نشر او تاريخ .

(١٦) الاستيعاب فى معرفة الاصحاب ، لابى عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر،تحقيق على محمد البجاوى ،مكتبة نهضة مصر.

(١٧) الاسلام بين الاديان ،دراسة فى طرق دراسة الدين واهم قضاياه الدكتور محمدكمال ابراهيم جعفر ،الناشر مكتبة دار العلوم.

(١٨) الاسلام فى عصر العلم ، الدين والرسول والكتاب ،تاليف المرحوم الاستاذ الكبير محمد احمد الغمراوى ،اعداد الاستاذ الدكتور احمد عبدالسلام الكرداني ،الناشر دار الكتب الحديثه لصاحبها توفيق عفيفى عامر.

(١٩) الاسلام وبناء المجتمع ،الدكتور احمد محمد العسال ،دار القلم،الطبعة الاولى ١٣٩٥هـ- ١٩٧٥م.

(٢٠) الاسلام والتاريخ ،الاسلام فى نظره الى الله والانسان والمجتمع والتاريخ تاليف عمر فروخ ، دار الكتاب العربي ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

(٢١) الاسلام والحرب،ابو لبابة حسين ، دار اللواء للنشر والتوزيع الطبعة الاولى ١٣٩٩هـ.

(٢٢) الاسلام والعلاقات الدولية فى السلم والحرب الشيخ محمود شلتوت دار الكتاب العربي ،الطبعة الثانية ١٩٦٨م.

(٢٣) الاسلام والعلم الحديث ،عبد الرزاق نوفل ، مطبوعات الشعب الطبعة السادسة ١٩٧٨م.

(٢٤) الاسلام وقضايا علم النفس الحديث ،تاليف الدكتور نبيل محمد توفيق السمالوطي ، دار الشروق ،الطبعة الاولى ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

(٢٥) الاسلام ومشكلات الحضارة ،سيد قطب، دار الشروق ،بدون تاريخ نشر.

(٢٦) الاسلام يتحدى ، وحيد الدين خان ترجمة ظفر الاسلام خان. المختار الاسلامي ،الطبعة الخامسة ١٩٧٤م.

(٢٧) الاسماء الحسنى ،حسن عز الدين الجمل ، دار الشعب - القاهرة ١٩٧٠م.

(٢٨) اسمى الرسالات. السيد عبد الحميد الخطيب تعليق حسنين محمد مخلوف دار الكتاب العربي القاهرة ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م.

(٢٩) الاشباه والنظائر فى القران الكريم ،المقاتل بن سليمان البلخي المتوفى ١٥٠هـ، دراسة وتحقيق دكتور عبد الله محمود شحاته ،المكتبة العربية - القاهرة ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

(٣٠) الاصابة فى تمييز الصحابة ،تاليف شهاب الدين ابي الفضل احمد بن على بن محمد بن محمد على العسقلاني ثم المصرى الشافعي المعروف بابن حجر ٧٧٣ - ٨٥٢هـ، دار الفكر بيروت ، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

(٣١) اصول التربية الاسلامية واساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع عبدالرحمن النحلاوى ، دار الفكر ، الطبعة الاولى ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

(٣٢) اضواء البيان في ايضاح القران بالقران ، تاليف محمد الامين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي المتوفى ١٣٩٣هـ ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

(٣٣) اضواء على تفسير التاريخ ، الدكتور نعمان عبدالرزاق السامرائى ، مكتبة المعارف الرياض ، الطبعة الاولى .

(٣٤) اضواء على الحضارة الاسلامية احمد عبدالرحيم السائح - الرياض دار اللواء ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

(٣٥) الاعتصام للعلامة المحقق الاصولي النظار الامام ابى اسحاق ابراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي ، وبه تعريف العلامة المدقق السيد محمد رشيد رضا ، يطلب من المكتبة التجارية مصر.

(٣٦) اعلام الموقعين عن رب العالمين ، تاليف شمس الدين ابى عبدالله محمد بن ابى بكر المعروف بابن قيم الجوزية المتوفى عام ٧٥١هـ ، راجعه وقدم له وعلق عليه طه عبدالروءوف سعد ، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة بيروت - لبنان ، ١٩٧٣م.

(٣٧) الاعمال الكاملة ، لجمال الدين الافغاني ، الموءسسة العامة للتأليف والنشر.

(٣٨) اغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ، للامام ابىعبدالله محمد بن ابى بكر بن ايوب بن قيم الجوزية ، راجعه وعلق عليه محمد الانور احمد البلتاجي الناشر دار التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع الطبعة الاولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

(٣٩) اقتباس النظام العسكرى في عهد النبى صلىالله عليه وسلم ، تاليف اللواء الركن محمود شيت خطاب واللواء الركن محمد جمال الدين على محفوظ والشيخ عبداللطيف زايد ، المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية قطر ، ١٤٠٠هـ.

(٤٠) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة اصحاب الجحيم ، تاليف شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله ٦٦١ - ٧٢٨ هـ . نشر وتوزيع رئاسة ادارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد . مطابع المجد التجارية .

(٤١) الله يتجلى فى عصر العلم لنخبة من العلماء الامريكيين حرره : جون كلوفرمونسما ترجمة الدمرداش عبد المجيد سرحان ، مطبعة عيسى البابي الحلبي القاهرة الطبعة الثانية .

(٤٢) امتاع الاسماع بما للرسول من الانباء والاقوال والهذة والمتاع للامام احمد بن على المقريزى تحقيق محمود محمد شاكر .

(٤٣) الانسان بين المادية والاسلام ، محمد قطب ، دار احياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبى وشركاه ، الطبعة الرابعة ١٩٦٥م .

(٤٤) الانسان ذلك المجهول ، تاليف الكسيس كاريل ، تعريب شفيق اسعد فريد مكتبة المعارف بيروت ، الطبعة الثالثة ١٩٨٠م .

(٤٥) الانسان فى القران الكريم ، عباس محمود العقاد ، دار الاسلام القاهرة بدون تاريخ نشر .

(٤٦) انيس الفقهاء فى تعريفات الالفاظ المتداولة بين الفقهاء ، تاليف الشيخ قاسم القونوى المتوفى ٩٧٨ هـ ، تحقيق الدكتور احمد بن عبد الرزاق الكبيسى الناشر دار الوفاء للنشر والتوزيع جدة ، الطبعة الاولى ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م .

(٤٧) اهداف كل سورة ومقاصدها فى القران الكريم ، الدكتور عبد الله محمود شحاته الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الثانية ١٩٨١م .

(٤٨) اوضح التفاسير ، لابن الخطيب ، المطبعة المصرية ومكتبتها ، بدون تاريخ نشر .

(٤٩) ايام العرب فى الاسلام ، تاليف محمد ابو الفضل ابراهيم وعلى محمد البجاوى دار احياء الكتب العربية عيس البابي الحلبي وشركاه الطبعة الثالثة ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨م .

(٥٠) الايمان اركانه ، حقيقته ، نواقضه ، الدكتور محمد نعيم ياسين ، جمعية عمال المطابع التعاونية ، عمان - الاردن ، الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ ١٩٧٩م.

(٥١) الايمان والحياة ، الدكور يوسف القرضاوى ، موسسة الرسالة ، الطبعة الرابعة ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

(٥٢) بحوث فى التربية الاسلامية د / محمود السيد سلطان ، موسسة على جراح الصباح ، الكويت.

(٥٣) البداية والنهاية للامام اسماعيل بن عمر بن كثير ت ٧٧٤هـ ، بيروت مكتبة المعارف الطبعة الثانية.

(٥٤) بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز ، تاليف مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز ابادى المتوفى ٨١٧هـ تحقيق الاستاذ عبد العليم الطحاوى ، المكتبة العلمية بيروت - لبنان.

(٥٥) بصائر للمسلم المعاصر ، عبد الرحمن حسن حنبكة الميدانى ، دار العلم للطباعة والنشر والتوزيع دمشق ، الطبعة الاولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

(٥٦) تأويل مشكل القران ، ابى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، شرحه ونشره السيد احمد صقر ، دار التراث القاهرة ، الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ ١٩٧٢م.

(٥٧) التاريخ الاسلامى العام د / على ابراهيم حسن ، مكتبة النهضة المصرية الطبعة السابعة ١٩٦٤م.

(٥٨) تاريخ جرجان ، للسهمى المتوفى ٤٢٧هـ تحت مراقبة محمد عبد المعيد خان مدير دائرة المعارف العثمانية ، عالم الكتب ، بيروت - لبنان ، الطبعة الثالثة ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

(٥٩) تاريخ دمشق الكبير ، الامام على بن الحسن بن عساكر ت ٥٧١ هـ دار المسيرة بيروت الطبعة الثانية ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م.

(٦٠) تاريخ الطبرى وهو (تاريخ الرسل والملوك) ،لابى جعفر محمد بن جرير الطبرى ٢٢٤ - ٣١٠هـ،تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، دار المعارف بمصر ،الطبعة الثانية.

(٦١) تاريخ العرب فيليب حتى ،نقله الى العربية محمد مبروك نافع ،بيروت دار الكتاب ١٩٦١م.

(٦٢) تاريخ العرب العام - امبراطورية العرب - حضارتهم ، مدارسهم الفلسفية والعلمية تاليف المستشرق ل . أ . سيديو ،نقله عادل زعيتر طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ،الطبعة الثانية ١٣٨٩هـ.

(٦٣) تبسيط العقائد الاسلامية ،الشيخ حسن ايوب الطبعة الرابعة ١٣٩١هـ ١٩٧١م الكويت.

(٦٤) التبصرة للامام عبدالرحمن بن على الجوزى ت ٥٩٧هـ وتحقيق د / مصطفى عبدالواحد عيسى البابي الحلبي وشركاه - القاهرة الطبعة الاولى ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.

(٦٥) تحصيل نظائر القران ،للحكيم الترمذى ،تحقيق حسنى نصر زيدان ، الطبعة الاولى ١٣٩٨هـ - ١٩٦٩م.

(٦٦) التربية الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى تاليف حسن عبدالعال ، مكتبة التربية الاسلامية ،الطبعة الاولى.

(٦٧) التربية الاسلامية والمشكلات المعاصرة ،عبدالرحمن النحلاوى ،المكتب الاسلامى ،بيروت الطبعة الاولى.

(٦٨) التربية والتغيير الثقافي ،عبدالهادى عفيفى ،مكتبة الانجلو المصرية.

(٦٩) التربية والمجتمع ،الدكتور بشير حاج التوم ،من سلسلة بحوث المؤتمر العالمي للتعليم الاسلامي مكة المكرمة ،الطبعة الاولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

(٧٠) الترغيب والترهيب ،تاليف الحافظ ابى محمد زكي الدين عبدالعظيم بن عبدالقوى المنذرى ٥٨١ - ٦٥٦هـ، دار احياء التراث العربى ،بيروت لبنان ،الطبعة الثالثة ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.

(٧١) تسلية اهل المصائب ،تاليف الامام ابى عبدالله محمد بن محمد بن محمد المنبجي الحنبلي ،مكتبة الفرقان ١٤٠٣هـ.

(٧٢) التصوير الفني فى القران ،سيد قطب ،دار الشروق ،الطبعة السادسة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

(٧٣) التطور والثبات فى حياة البشرية ،محمد قطب، دار الشروق الطبعة الخامسة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

(٧٤) تعجيل المنفعة بزوائد رجال الائمة الاربعة لخاتمة الحفاظ شيخ الاسلام الامام ابى الفضل شهاب الدين احمد بن على بن محمد بن حجر العسقلانى المتوفى ٨٥٢هـ . تحقيق عبدالله هاشم يماني دار المحاسن للطباعة بالمدينة المنورة ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م.

(٧٥) التغير الاجتماعى والمجتمع المتحضر ،د / حسن على خفاجي ،الطبعة الاولى ١٣٩٤هـ - ١٩٧٨م.

(٧٦) تفسير ابى السعود المسمى ارشاد العقل السليم الى مزايا القران الكريم لقاضي القضاة الامام ابى السعود محمد بن محمد العمادى المتوفى سنة ٩٥١هـ ،الناشر دار المصحف ،مكتبة ومطبعة عبدالرحمن محمد القاهرة.

(٧٧) التفسير الاسلامى للتاريخ ،الدكتور عماد الدين خليل ،دار العلم للملايين بيروت ،الطبعة الاولى ١٩٧٥م.

تفسير الالوسي ،انظر روح المعاني فى تفسير القران...

(٧٨) تفسير البحر المحيط ،لمحمد بن يوسف الشهير بابي حيان الاندلسي الغرناطي ،دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م.

(٧٩) تفسير البيضاوى ،مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني ،طبع تحت مراقبة ادارة البحوث والثقافة الاسلامية بالازهر الشريف ١٩٦٦م.

(٨٠) تفسير التبيان للشيخ الطوسي ٣٨٥ - ٤٦٠ هـ ،تحقيق احمد حبيب العاملي ،مكتبة الامين - النجف.

(٨١) التفسير الحديث، محمد عزة دروزة ، دار احياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه ١٣٨٣هـ.

(٨٢) تفسير الخازن ،المسمى لباب التأويل فى معاني التنزيل لعلاء الدين على بن محمد بن ابراهيم البغدادى الشهير بالخازن المتوفى ٧٢٥هـ وبهامشه تفسير البغوى المعروف بمعالم التنزيل لابى محمد بن مسعود الفراء البغوى ٥١٦هـ، الطبعة الثانية، شركة ومكتبة مصطفى البابى الحلبي واولاده بمصر.

(٨٣) تفسير روح البيان الشيخ اسماعيل حقي ت ١١٢٧هـ دار الفكر بيروت.

تفسيرالز مخشرى ،انظر الكشاف عن حقائق التأويل.

(٨٤) التفسير العلمي للايات الكونية فى القران ،تاليف حنفي احمد دار المعارف الطبعة الثالثة.

(٨٥) تفسير الفخر الرازى المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب ،للامام محمد الرازى فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين عمر المشتهر بخطيب الرى ٥٤٤ - ٦٠٤ هـ ،دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ،الطبعة الاولى ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

تفسير القاسمي ،انظر محاسن التأويل.

(٨٦) تفسير القران الحكيم احدث التفاسير ،محمد عبد المنعم خفاجى بدون دار نشر وتاريخ.

(٨٧) تفسير القران الحكيم الشهير بتفسير المنار، تاليف محمد رشيد رضا دار المعرفة بيروت - لبنان.

(٨٨) تفسير القران العظيم ،للامام الجليل الحافظ عماد الدين ابى الفداء اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي المتوفى ٧٧٤هـ،طبع بدار احياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه.

(٨٩) تفسير القران الكريم ،محمود شلتوت ،دار الشروق بدون دارنشر اوتاريخ .

(٩٠) التفسير القرآني للقران ،عبدالكريم الخطيب ،ملتزم الطبع والنشر دار الفكر العربي .

(٩١) تفسير القرطبى الجامع لاحكام القران لابي عبدالله محمد بن احمد الانصارى القرطبي ،دار الشعب.

(٩٢) تفسير المراغي ،تاليف صاحب الفضيلة الاستاذ الكبير المرحوم احمد مصطفى المراغي ملتزم الطبع والنشر شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده بمصر،الطبعة الرابعة ١٣٨٩هـ - ١٩٧٠م.

(٩٣) التفسير المنير لمعالم التنزيل ،للشيخ محمد نووى الجاوى سيد علماء الحجاز،طبع بمطبعة دار احياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه بدون تاريخ نشر.

(٩٤) تفسير النسفى ،مدارك التنزيل حقائق التأويل الامام ابو البركات عبدالله بن احمد النسفى ت ٧١٠ هـ،دار الكتاب العربي .

(٩٥) التفسير الواضح ،الدكتور محمد محمود حجازى ،مطبعة الاستقلال الكبرى ،الطبعة السادسة ١٣٩٨هـ.

(٩٦) تقريب التهذيب احمد بن على بن حجر العسقلاني ٧٧٣ - ٨٥٢هـ تحقيق عبدالوهاب عبداللطيف ،دار المعرفة للطباعة والنشر ،الطبعة الثانية ١٣٩٥هـ.

(٩٧) تلبيس ابليس للحافظ الامام جمال الدين ابى الفرج عبدالرحمن ابن الجوزى المتوفي سنة ٥٩٧هـ،دار الكتب العلمية بيروت - لبنان.

(٩٨) التلخيص بهامش المستدرك على الصحيحين للحافظ الذهبي دار الكتاب العربي بيروت - لبنان .

(٩٩) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، يطلب من المكتبة الشعبية ، وطبعة اخرى وهى التى بهامش الدر المنثور.

(١٠٠) توجيه النظر فى اصول الاثر ،طاهربن صالح بن احمد الجزائرى الدمشقى ، دار المعرفة بيروت- لبنان .

(١٠١) جامع الاصول فى احاديث الرسول ، تاليف الامام مجد الدين ابي السعادات المبارك بن محمد بن الاثير الجزرى ٥٤٤ - ٦٠٦هـ تحقيق عبد القادر الارناؤوط، نشر وتوزيع مكتبة الحلواني ، مطبعة الملاح - مكتبة دار البيان ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.

(١٠٢) جامع بيان العلم وفضله وماينبغى فى روايته وحمله ، للامام المحدث المجتهد حافظ المغرب ابى عمر يوسف ابن عبد البر النمرى القرطبى الاندلسي المتوفي ٤٦٣هـ، توزيع دار الباز للنشر والتوزيع ، عباس احمد الباز ، مكة المكرمة، دار الكتب العلمية ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

(١٠٣) جامع البيان عن تأويل آى القران المشهور بتفسير الطبرى ، تاليف ابى جعفر محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠هـ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي واولاده بمصر، الطبعة الثالثة، ١٣٨٨هـ، وطبعة تحقيق الاستاذ احمد شاكر.

(١٠٤) جامع الرسائل ، لابن تيمية ابى العباس تقي الدين احمد بن عبد الحليم المجموعة الاولى ، تحقيق محمد رشاد سالم، الطبعة الاولى ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.

الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وايامه (صحيح البخارى) الامام ابى عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى وبهامشه فتح البارى، تحقيق محمد فوءاد عبد الباقي نشر وتوزيع ادارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد بالمملكة العربية السعودية

(١٠٥) جامع العلوم والحكم شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم تاليف زين الدين ابى الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين بن احمد بن رجب الحنبلي من علماء القرن الثامن الهجرى مكتبة الرياض الحديثة.
الجامع الصحيح (سنن الترمذى) لابى عيسى محمد بن عيسى بن سورة ، تحقيق وشرح احمد محمد شاكر مطبعة مطصفي البابي الحلبي.

(١٠٦) جاهلية القرن العشرين ، محمد قطب ، دار الشروق ، ١٤٠١هـ ١٩٨١م.

(١٠٧) الجهاد الاسلامى ، الدكتور احمد غنيم ، دار الحمامي للطباعة والنشر ١٣٩٤هـ.

(١٠٨) الجهاد طريق النصر ، عبد الله غوشه ، منشورات وزارة الاوقاف والشؤون والمقدسات الاسلامية ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م.

(١٠٩) الجهاد فى الاسلام ، تاليف محمد شديد ، موءسسة الرسالة ، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

(١١٠) الجهاد فى الاسلام بين الطلب والدفاع ، صالح اللحيدان ، منشورات دار اللواء للنشر والتوزيع الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

(١١١) الجهاد فى الاسلام دراسة مقارنة باحكام القانون الدولى العام ، توفيق على وهبه ، دار اللواء للنشر والتوزيع ، الطبعة الرابعة ١٤٠١هـ ١٩٨١م.

(١١٢) الجهاد فى التشريع الاسلامى ، د / محمود محمد على ، دار الاتحاد العربى للطباعة ، الطبعة الاولى ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.

(١١٣) الجهاد فى سبيل الله ، ابو الاعلى المودودى ، حسن البنا ، سيد قطب ضمن كتاب واحد ، دار القران الكريم للطباعة والنشر الاتحاد الاسلامى العالمي للمنظمات الطلابية ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

(١١٤) الجهاد والسلام فى ذروة الاسلام ، محمد حسن سعيد بنجر ، طباعة دار الفكر العربي.

(١١٥) الجهاد والفدائية فى الاسلام حسن ايوب ، دار الندوة الجديدة بيروت الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.

(١١٦) جوامع السيرة النبوية ، تاليف ابن حزم الاندلسي المتوفى ٤٥٦ هـ راجعه وعلق عليه الشيخ نايف العباس ، موسسة علوم القران دمشق بيروت ، الطبعة الاولى ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م.

(١١٧) الجيل المثالى ، محب الدين الخطيب بلادار نشر ولاسنه طبع

(١١٨) حادى الارواح الى بلاد الافراح ، للعلامة محمد بن ابى بكر ايوب بن سعد بن حريز الزرعي ثم الدمشقي الفقيه الاصولي المفسر النحوى العارف شمس الدين ابى عبد الله بن قيم الجوزية المتوفى ٧٥١هـ ، دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان ، توزيع دار الباز مكة المكرمة.

(١١٩) حاشية الشهاب المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوى ، دار صادر بيروت.

(١٢٠) حتى يغيروا مابأنفسهم ، جودت سعيد ، دار الثقافة للجميع ، الطبعة الخامسة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

(١٢١) الحجاب ، ابو الاعلى المودودى ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

(١٢٢) حدائق الانوار ومطالع الاسرار فى سيرة النبى المختار صلى الله عليه وسلم وآله المصطفين الاخيار ، الامام عبد الرحمن بن على بن الذيبع الشيبانى تحقيق عبد الله بن ابراهيم الانصارى ، دمشق / مطبعة محمد هاشم الكتبى طبع على نفقة صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني.

(١٢٣) حديث الاحاديث ، على فهمي خشيم ، الدار العربية للكتاب ، طرابلس الغرب ، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

(١٢٤) الحرب عبر التاريخ ، الفيلد مارشال فيكونت مونتجمرى ، تعريب وتعليق فتحي عبد الله النمر ، ملتزم الطباعة والنشر مكتبة الانجلو المصرية بدون تاريخ نشر.

(١٢٥) حروف المعاني والصفات ، لابى القاسم عبد الرحمن بن اسحاق الزجاجي تحقيق الدكتور حسن شاذلي فرهود ، دار العلوم للطباعة والنشر ، ١٤٠٢هـ .

(١٢٦) الحرية السياسية فى الاسلام ،تاليف الدكتور احمد شوقي الفنجرى دار القلم ،الكويت الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

(١٢٧) الحسبة فى الاسلام ،تاليف شيخ الاسلام تقى الدين احمد بن تيمية تحقيق سيد بن محمد سعدة ،توزيع الرئاسة العامة لادارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد .

(١٢٨) الحسنة والسيئة لشيخ الاسلام ابن تيمية. تحقيق محمد جميل احمد غازى القاهرة مطبعة المدني دون تاريخ نشر.

(١٢٩) حضارة العرب، الدكتور غوستاف لوبون ،نقله الى العربية عادل زعيتر طبع مطبعة عيسى البابي الحلبي ،الطبعة الرابعة ١٣٨٤هـ.

(١٣٠) الحل الاسلامى فريضة وضرورة ،د/ يوسف القرضاوى الناشر مكتبة وهبة الطبعة الثالثة ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م القاهرة.

(١٣١) الحلول المستوردة وكيف جنت على امتنا ،د/ يوسف القرضاوى ، موءسسة الرسالة - بيروت ، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.

(١٣٢) حلية الابرار وشعار الاخيار ،فى تلخيص الدعوات المستحبة فى الليل والنهار - المعروف بالاذكار النووية تاليف الفقيه المحدث محى الدين ابى زكريا يحى بن شرف النووى الدمشقي ٦٣١- ٦٧٦هـ تحقيق عبد القادر الارناءوط منشورات دار الملاح للطباعة والنشر، مطبعة الملاح بدمشق ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.

(١٣٣) حلية الاولياء وطبقات الاصفياء للحافظ ابى نعيم احمد بن عبد الله الاصبهاني المتوفى ٤٣٠هـ ،الناشر دار الكتاب العربى بيروت لبنان ،الطبعة الثانية ١٣٧٨هـ - ١٩٦٧م.

(١٣٤) حول اعادة تشكيل العقل المسلم ،الدكتور عماد الدين خليل موءسسة الرسالة كتاب الامة، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

(١٣٥) حياة الصحابة ، تاليف العلامة الشيخ محمد يوسف الكاند هلوى حقق نصوصه وشرح غريبه ووضع فهارسه الشيخ نايف العباس ومحمد على دولة ، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع دمشق ، الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

(١٣٦) خالد بن الوليد المخزومي ، محمود شيت خطاب ، دار الفكر ، الطبعة الثالثة ١٣٩٣هـ .

(١٣٧) خصائص التصور الاسلامى ومقوماته ، سيد قطب ، دار الشروق ، الطبعة السابعة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

(١٣٨) خصائص مدرسة النبوة ، الدكتور كمال محمد عيسى ، دار الشروق ، الطبعة الاولى

(١٣٩) درء تعارض العقل والنقل ، ابى العباس تقى الدين احمد بن عبد الحليم بن تيمية ، تحقيق محمد رشاد سالم. من مطبوعات جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية الطبعة الاولى ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م . الرياض.

(١٤٠) دراسات فى التغيير الاجتماعي ، ماكسى فيبر ، ترجمة محمد على محمد وآخرون ، دار الكتب الجامعية ، الاسكندرية ١٩٧٤م. مصر.

(١٤١) دراسات فى النفس الانسانية ، محمد قطب ، دار الشروق الطبعة الرابعة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

(١٤٢) دراسة لسقوط ثلاثين دولة اسلامية ، الدكتور عبد الحليم عويس ، دار الشروق ، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

(١٤٣) الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ، للامام عبد الرحمن جلال الدين السيوطي ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الاولى ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

(١٤٤) الدرر فى اختصار المغازى والسير لابن عبد البر ، خرج نصوصه وعلق عليه الدكتور مصطفى ديب البغا ، موءسسة علوم القران دمشق ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

(١٤٥) الدستور القرآني والسنة النبوية في شؤون الحياة محمد عزة دروزة القاهرة عيسى البابي الحلبي ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م.

(١٤٦) دعوة الله بين التكوين والتمكين ، المستشار الدكتور علي جريشة مكتبة وهبة، الطبعة الاولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م . مصر.

(١٤٧) دعوة الرسل الى الله تعالى محمد احمد العدوى القاهرة مطبعة مصطفى البابى الحلبي ١٣٥٤هـ.

(١٤٨) دلائل النبوة ومعرفة احوال صاحب الشريعة الامام احمد بن حسين البيهقي ت ٤٥٨ هـ.

(١٤٩) الدين بين الفرد والمجتمع ، دكتور احمد محمود البربرى مكتبة مصر.

(١٥٠) ديوان الامام الشافعي لابى عبد الله محمد بن ادريس الشافعي ١٥٠ - ٢٠٤هـ، جمعه وعلق عليه محمد عفيف الزعبى ، الناشر موسسة الزعبي للطباعة والنشر ، ودار الجيل بيروت - لبنان بدون تاريخ نشر.

(١٥١) ديوان جرير، دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر ١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م.

(١٥٢) ديوان طرفة بن العبد ، دار بيروت للطباعة والنشر ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

(١٥٣) ذم الهوى ، للامام ابى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى ٥١٠ - ٥٩٧هـ. ينشر لاول مرة على نسختي برلين وباريس. تحقيق مصطفى عبد الواحد مراجعة محمد الغزالي الناشر دار الكتب الحديثة توفيق عفيفى. الطبعة الاولى ١٣٨١هـ.

(١٥٤) رسالة التقليد ، تاليف الامام ابن القيم ، تحقيق وتعليق محمد عفيفى الناشر المكتب الاسلامي بيروت، مكتبة اسامة الرياض ، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

(١٥٥) الرسول العربي وفن الحرب، مصطفى طلاس ، بدون دار نشر اوتاريخ .

(١٥٦) الرسول القائد محمود شيت خطاب، دار القلم الطبعة الثالثة.

(١٥٧) ركائز الايمان بين العقل والقلب ، محمد الغزالي ، دار الاعتصام القاهرة ، الطبعة الرابعة ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م.

(١٥٨) الروح فى الكلام على ارواح الاموات والاحياء بالدلائل من الكتاب والسنة والآثار واقوال العلماء ، تاليف شمس الدين ابى عبد الله بن قيم الجوزية المتوفى ٧٥١هـ ، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان ، الطبعة الاولى ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

(١٥٩) روح المعاني فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للعلامة ابى الفضل شهاب الدين السيد محمود الالوسى البغدادى المتوفى ١٢٧٠ هـ ، دار الفكر بيروت ، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

(١٦٠) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ، للامام الحافظ ابى حاتم محمد بن حبان البستي المتوفى ٣٥٤هـ ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد محمد عبد الرزاق حمزه ، محمد حامد الفقي ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

(١٦١) روضة الناظر وجنة المناظر فى اصول الفقه على مذهب الامام احمد بن حنبل ، صنفه ابن قدامه المقدسي ٥٤١ - ٦٢٠هـ دار الكتاب العربى بيروت ، الطبعة الاولى ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

(١٦٢) الروضة الندية شرح العقيدة الواسطية ، زيد بن عبد العزيز بن فياض الناشر مكتبة الرياض الحديثة بالرياض ، الطبعة الثانية ١٣٨٨هـ-١٩٦٨م.

(١٦٣) زاد المسير فى علم التفسير ، للامام ابى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى القرشي البغدادى ٥٠٨ - ٥٩٦هـ المكتب الاسلامى للطباعة والنشر

(١٦٤) زاد المعاد فى هدى خير العباد ، لابن قيم الجوزية الامام المحدث المفسر الفقيه شمس الدين ابى عبد الله محمد بن ابى بكر الزرعي الدمشقى ٦٩١- ٧٥١هـ حقق نصوصه وخرج احاديثه و علق عليه شعيب الارنؤوط وعبد القادر الارنؤوط مؤسسة الرسالة مكتبة المنار الاسلامية ، ومطبعة السنة المحمدية بتحقيق محمد حامد الفقي ، الطبعة الثالثة عشر ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

(١٦٥) سبل السلام شرح بلوغ المرام من جمع ادلة الاحكام، تاليف السيد الامام محمد بن اسماعيل الكحلاني ثم الصنعاني المعروف بالامير ١٠٥٩ - ١١٨٢هـ ،مكتبة الرسالة الحديثة.

(١٦٦) سبيل الدعوة الاسلامية ،الدكتور محمد امين المصرى، دار الارقم الكويت ،الطبعة الاولى ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

(١٦٧) سراج الملوك محمد بن الوليد الطرطوسي المطبعة الوطنيةالاسكندرية.

(١٦٨) السراج المنير فى الاعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير ،للشيخ الامام الخطيب الشربيني بدون ناشر او تاريخ نشر.

(١٦٩) سقوط المدائن ونهاية الدولة الساسانية ،احمد عادل كمال ، دار النفائس بيروت ،الطبعة الاولى ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

(١٧٠) سلسلة الاحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، محمد ناصر الدين الالباني، الدار السلفية الكويت ،الطبعة الاولى ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.

(١٧١) السنة ،للامام عبد الله بن احمد بن حنبل عن ابيه ،تحقيق خادم السنة المطهرة ابوهاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، الطبعة الاولى ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

(١٧٢) السنةقبل التدوين ،الدكتور محمدعجاج الخطيب دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ،الطبعة الثالثة ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

(١٧٣) السنة ومكانتها فى التشريع الاسلامى ،الدكتور مصطفى السباعي ،المكتب الاسلامي الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.

(١٧٤) سنريهم آياتنا لاحمد شوقي ابراهيم موسسة الصباح - الكويت.

(١٧٥) سنن ابن ماجة ،الحافظ ابى عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجه ٢٠٧ - ٢٧٥ هـ، تحقيق محمد فوءاد عبد الباقي الناشر مكتبة ومطبعة عيسى البابى الحلبي.

(١٧٦) سنن ابوداود ، للامام الحافظ ابى داود سليمان بن الاشعث السجستاني الازدى ٢٠٢ - ٢٧٥ هـ، اعداد وتعليق عزت عبيد عداس - عادل السيد ، دار الحديث حمص - سورية ، الطبعة الاولى ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

(١٧٧) سنن الله فى المجتمع من خلال القران ، محمد الصادق عرجون ، الدار السعودية للنشر جدة.

سنن الترمذى ، انظر الجامع الصحيح .

(١٧٨) سنن الدار قطني للامام الكبير على بن عمر الدارقطني ، عني بتصحيحه وتنسيقه عبد الله هاشم يماني المدني ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م، دار المحاسن للطباعة القاهرة.

(١٧٩) سنن الدارمي تاليف الحافظ الحجة الامام الكبير شيخ الاسلام ابومحمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي ١٨١هـ - ٢٥٥ هـ تحقيق عبد الله هاشم يماني المدني ، شركة الطباعة الفنية المتحدة ١٣٨٦هـ -١٩٦٦م.

(١٨٠) السنن الكبرى لامام المحدثين الحافظ الجليل ابى بكر احمد بن الحسين بن على البيهقي المتوفى ٤٥٨هـ، مطبعة مجلس دائرة المعارف الاسلامية بحيدر آباد - الدكن الهند سنة ١٣٥٦هـ دار صادر ، الطبعة الاولى وطبعة ثانية الناشر دار الفكر.

(١٨١) سنن النسائى المجتبى ، تاليف الحافظ ابى عبد الرحمن بن شعيب النسائى ٢١٤ - ٣٠٣هـ، ومعه زهر الربى على المجتبى مع تعليقات مقتبسه من حاشية السندى ، شركة ومكتبة مصطفى البابي الحلبي واولاده بمصر. محمود نصار الحلبى وشركاه خلفاء الطبعة الاولى ١٣٨٢هـ - ١٩٦٤م.

(١٨٢) السياسة الشرعية فى اصلاح الراعي والرعية ، لشيخ الاسلام ابن تيمية دار الكاتب العربي .

(١٨٣) سيرة عمر بن عبد العزيز ، تصنيف الحافظ جمال الدين ابى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى القرشي البغدادى ، دار الفكر .

(١٨٤) السيرة النبوية ، للامام ابى الفداء اسماعيل ابن كثير ٧٠١ - ٧٧٤هـ تحقيق مصطفى عبد الواحد ، دار المعرفة بيروت - لبنان ، ١٣٩٦هـ ١٩٧٦م .

(١٨٥) السيرة النبوية ، لابن هشام ابى محمد عبد الملك بن هشام المعافرى المتوفى ٢١٣ هـ ، قدم لها وعلق عليها وضبطها طه عبد الرؤف سعد ، مكتبة الكليات الازهرية لصاحبها حسين محمد امبابي المنياوى .
وطبعة اخرى تحقيق الدكتور احمد حجازى السقا ، دار التراث العربي للطباعة والنشر ١٣٩٩هـ .

(١٨٦) سيكولوجية القصة فى القران التهامى نقره ، الشركة التونسية للتوزيع تونس ١٩٧٤م .

(١٨٧) شخصيات عسكرية اسلامية ، محمد فرج ، دار الفكر العربي ، الطبعة الثانية ١٣٩٦هـ .

(١٨٨) شرح ابن عقيل على الفيه ابن مالك بهاء الدين عبد الله بن عقيل العقيلى المصرى الهمدانى ٦٩٨ - ٧٦٩هـ . دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع الطبعة السادسة عشرة .

(١٨٩) شرح تنقيح الفصول فى اختصار المحصول فى الاصول ، للامام الكبير شهاب الدين ابو العباس احمد بن ادريس القرافى المتوفى ٦٨٤هـ حققه طه عبد الرؤوف سعد ، منشورات دار الفكر بيروت ، مكتبة الكليات الازهرية الطبعة الاولى ١٣٩٣هـ .

(١٩٠) شرح السنة ، تاليف الامام المحدث المفسر الفقيه محي السنة ابى محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوى ٤٣٦ - ٥١٦هـ ، حققه وعلق عليه وخرج احاديثه شعيب الارنؤوط وزهير الشاويش ، المكتب الاسلامى دمشق ، الطبعة الاولى .

(١٩١) شرح العقيدة الطحاوية ، للعلامة ابن العز الحنفي ، حققها وراجعها جماعه من العلماء ، خرج احاديثها محمد ناصر الدين الالباني ، المكتب الاسلامي بيروت ـ لبنان ، الطبعة الرابعة ١٣٩١هـ.

(١٩٢) شرح العقيدة الواسطية لشيخ الاسلام ابن تيمية ، تاليف محمد خليل هراس راجعه عبد الرزاق عفيفي ، الناشر محمد عبد المحسن الكتبي المدينة المنورة

(١٩٣) شرح الكوكب المنير المسمى بمختصر التحرير او المختبر المبتكر شرح المختصر في اصول الفقه ، تاليف العلامة الشيخ محمد بن احمد بن عبد العزيز بن على الفتوحي الحنبلي المعروف بابن النجار ، تحقيق الدكتور محمد الزحيلي والدكتور نزيه حماد ، دار الفكر ، ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م.

(١٩٤) شريعة القتال في الاسلام ، عثمان السعيد الشرقاوى ، الناشر مكتبة الزهراء ـ القاهرة ، الطبعة الاولى ١٣٩٢هـ.

(١٩٥) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل تاليف ابن قيم الجوزية ، تحقيق الحساني حسن عبد الله ، الناشر دار التراث مصر القاهرة.

(١٩٦) الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض بن موسى اليحصبي الاندلسى تحقيق محمد امين قرة على وآخرون ، مكتبة الفارابى ، دمشق ، موسسة علوم القران ـ دمشق.

(١٩٧) شمائل الرسول ودلائل نبوته وفضائله وخصائصه ، للامام ابى الفداء اسماعيل بن كثير ، تحقيق مصطفى عبد الواحد ، دار المعرفة بيروت ـ لبنان.

(١٩٨) شمس العرب تسطع على الغرب المستشرقه ، زيغريد هونكة ، ترجمة فاروق بيوضي وآخرون ، المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع الطبعة الاولى ١٩٦٤م.

(١٩٩) الشورى في الاسلام ، الدكتور محمود بابللي ، دار الارشاد ، الطبعة الاولى ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.

(٢٠٠) الصبر في القران الدكتور يوسف القرضاوى مكتبة وهبة الطبعة الاولى ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م. القاهرة.

(٢٠١) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، تاليف اسماعيل بن حماد الجوهري تحقيق احمد عبد الغفور عطار ، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

(٢٠٢) صحيح البخاري انظر ، الجامع الصحيح المسند .

(٢٠٣) صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير) تخريج محمد ناصر الدين الالباني ، المكتب الاسلامي الطبعة الثالثة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

(٢٠٤) صحيح مسلم ، للامام ابي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ٢٠٦ - ٢٦١هـ ، حققه محمد فؤاد عبد الباقي ، نشر وتوزيع رئاسة ادارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

(٢٠٥) صحيح مسلم بشرح النووي ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

(٢٠٦) صفوة التفاسير ، تاليف محمد على الصابوني دار القران الكريم ، بيروت الطبعة الرابعة ١٤٠٢هـ ١٩٨١م.

(٢٠٧) صلح الحديبية ، محمد احمد باشميل ، الطبعة الاولى ١٣٩٠هـ ١٩٧٠م

(٢٠٨) الطبقات الكبرى ، محمد بن سعد بن منيع المعروف ب (ابن سعد) دار صادر بيروت ١٣٧٧هـ.

(٢٠٩) طريق الهجرتين وباب السعادتين ، تاليف الامام شمس الدين محمد بن ابي بكر بن قيم الجوزية ٦٩١ - ٧٥١هـ ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان - الطبعة الاولى ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

(٢١٠) ظاهرة المحنة محاولة لدراسة سننيه ، الدكتور خالص جلبي ، دار القلم الكويت ، الطبعة الاولى ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

(٢١١) العبرة من قصة موسى في القران الكريم مخطوط رسالة ماجستير - محمد خير عدوي جامعة ام القرى مكة المكرمة. ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م.

(٢١٢) العبقرية العسكرية في غزوات الرسول ، محمد فرج ، دار الفكر العربي ١٩٧٧م.

(٢١٣) العبودية تأليف شيخ الاسلام تقى الدين احمد بن عبدالحليم ابن تيمية رحمه الله ٦٦١ - ٧٢٨هـ، ابن تيمية اكاديمي لاهور باكستان، ١٣٩٦ هـ ١٩٧٦م.

(٢١٤) العدالة الاجتماعية فى الاسلام سيد قطب، دار الشروق، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

(٢١٥) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، تاليف العلامة الامام شمس الدين محمد بن ابى بكر بن قيم الجوزية، تصحيح ومراجعة الاستاذ نعيم زرزور، دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان، الطبعة الاولى ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

(٢١٦) العسكرية الاسلامية وقادتها العظام، جمال يوسف الخلفات، بهاء الدين محمد اسعد، مكتبة المنار الزرقاء الاردن/ الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

(٢١٧) العسكرية العربية الاسلامية عقيدة وتاريخا وقادة وتراثا ولغة وسلاحا اللواء الركن محمود شيت خطاب، الطبعة الاولى ١٤٠٣هـ / كتاب الامة.

(٢١٨) العقائد الاسلامية، السيد سابق، دار الكتب الحديثه، الطبعة الثالثة ١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م.

(٢١٩) العقد الفريد احمد بن محمد بن عبد ربه ت ٣٥٨ القاهرة دار النصر ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م.

(٢٢٠) العقيدة فى الله، الدكتور عمر سليمان الاشقر، مكتبة الفلاح، الطبعة الرابعة ١٩٨٣م.

(٢٢١) العقيدة فى القران، محمد المبارك، دار الفكر.

(٢٢٢) علم الحديث، ابن تيمية، تحقيق وتعليق موسى محمد على، عالم الكتب بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ.

(٢٢٣) علم النفس فى التصور الاسلامي، اعداد الاستاذ الدكتور عبدالحميد الهاشمى، من سلسلة بحوث المؤتمر العالمي الاول للتعليم الاسلامى مكة المكرمة الطبعة الاولى ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

(٢٢٤) العلوم الطبيعية والاجتماعية من وجهة النظر الاسلامية الموءتمر العالمي للتعليم الاسلامى الاول ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م. مكة المكرمة.

(٢٢٥) العمل قدرة وارادة ،جودت سعيد ،دارالثقافه للجميع،الطبعة الاولى ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

(٢٢٦) عوامل النصر والهزيمة ،شوقي ابو خليل ،دار القلم الكويت/ الطبعة الاولى.

(٢٢٧) عيون الاثر فى فنون المغازى والشمائل والسير، لابن سيد الناس ،دار الجيل ،بيروت ،الطبعة الثانية ١٩٧٤م،وطبعة اخرى الناشر دار المعرفة بيروت ـ لبنان.

(٢٢٨) عيون الاخبار ،الامام عبدالله بن مسلم بن قتيبه ت ٢٧٦هـ ،القاهرة الموسسة المصرية العامة للتاليف والنشر ١٩٦٣م.

(٢٢٩) غاية المرام فى علم الكلام، لسيف الدين الآمدى ،تحقيق حسن محمود عبد اللطيف ٥٥١ - ٦٣١ هـ، مطابع الاهرام التجارية١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.

(٢٣٠) غزوة الاحزاب محمد احمد باشميل دار الفكر بيروت الطبعة الرابعة ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

(٢٣١) غزوة الاحزاب ،الدكتور محمد عبد القادر ابو فارس ،دار الفرقان للنشر والتوزيع ،عمان ـ الاردن ،الطبعة الاولى ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

(٢٣٢) غزوة بدر الكبرى الدكتور محمد عبد القادر ابو فارس ،دار الفرقان عمان الاردن ١٩٨٢م.

(٢٣٣) الغنية لطالبي الحق فى الاخلاق فى التصوف فى الاداب الاسلامية، عبد القادر الجيلاني ت ٥٦١ ،القاهرة عيسى البابي الحلبي١٣٧٥هـ/ ١٩٦٥م.

(٢٣٤) فتح البارى بشرح صحيح الامام ابىعبد الله محمد بن اسماعيل البخارى للامام الحافظ احمد بن على بن حجر العسقلانى ٧٧٣ - ٨٥٢ هـ ،نشر وتوزيع رئاسة ادارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد.

(٢٣٥) فتح البيان فى مقاصد القران ، صديق حسن خان ١٣٠٧هـ الناشر عبد المحى على محفوظ ، مطبعة العاصمة القاهرة.

(٢٣٦) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ، تاليف محمد بن على بن محمد الشوكاني المتوفى ١٢٥٠هـ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده بمصر. محمود نصار وشركاه خلفاء الطبعة الثانية ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م.

(٢٣٧) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد تاليف الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ توفى ١٢٥٨هـ ، مكتبة الرياض الحديثه الرياض.

(٢٣٨) فتح المغيث شرح الفية الحديث للعراقي تاليف الامام الشيخ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوى المتوفى ٩٠٢هـ، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان ، الناشر المكتبة السلفية لصاحبها محمد عبد المحسن الكتبي المدينة المنورة مطبعة العاصمة بالقاهرة ، الطبعة الثانية ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

(٢٣٩) فتوح مصر واخبارها ، تاليف ابى القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم ، يطلب من مكتبة المثنى ببغداد ، طبع بمطبعة مدينة ليدن بمطبعة بريل ١٩٢٠م.

(٢٤٠) الفتوحات الالهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، تاليف سليمان بن عمر العجيلي الشافعى الشهيربالجمل المتوفى ١٢٠٤هـ، وبالهامش كتابان تفسير الجلالين لجلال الدين السيوطى وجلال الدين المحلي واملاء مامن به الرحمن من وجوه الاعراب والقراءات فى جميع القران ، لابى البقاء عبد الله بن حسين العكبرى ، طبع بمطبعة عيسى البابى الحلبي وشركاه بمصر.

(٢٤١) فجر الاندلس ، الدكتور حسين موءنس، الطبعة الاولى القاهرة ١٩٥٩م.

(٢٤٢) الفخرى فى الاداب السلطانية والدول الاسلامية ، تاليف محمد بن على بن طباطبا المعروف بابن الطقطقا، دار صادر بيروت ١٣٨٦/١٩٦٦م.

(٢٤٣) الفرق بين الفرق تاليف صدر الاسلام الاصولي العالم المتفنن عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادى الاسفرائيني التميمى المتوفى ٤٢٩هـ ، ١٠٣٧ م ،حقق اصوله وفصله وضبط مشكله وعلق حواشيه محمد محى الدين عبد الحميد ، الناشر مكتبة محمد على صبيح واولاده بميدان الازهر بمصر، مطبعة المدني القاهرة.

(٢٤٤) الفرقان بين اولياء الرحمن واولياء الشيطان ، تاليف شيخ الاسلام ابن تيمية تصحيح وتعليق محمود عبد الوهاب فايد ، نشر وتوزيع رئاسة ادارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد بالمملكة العربية السعودية.

(٢٤٥) الفرقان بين الحق والباطل شيخ الاسلام احمد بن عبد الحليم بن تيمية توفى ٧٢٨هـ. دار الطباعة المحمدية بالازهر القاهرة.

(٢٤٦) فرقان القرآن بين صفات الخالق وصفات الاكوان ، تاليف الشيخ سلامة القضاعي العزامي الشافعي دار احياء التراث العربى بيروت ـ لبنان . ويليه الاسماء والصفات للبيهقي .

(٢٤٧) الفروسية ، تاليف الامام العالم شمس الدين ابى عبد الله محمد بن ابى بكر ابى ايوب الزرعي المعروف بابن القيم المتوفى ٧٥١هـ ، دار التراث العربى للطباعة والنشر.

(٢٤٨) فقه السنة تاليف السيد سابق الناشر دار الكتاب العربي بيروت لبنان .

(٢٤٩) فقه السيرة ، محمد الغزالي ، خرج احاديث الكتاب المحدث العلامة الشيخ محمد ناصر الدين الالباني ، دار القلم دمشق الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

(٢٥٠) فلسفة البلاء فى ضوء الكتاب والسنة (غزوة احد) تاليف الحسينى ابو فرحة مكتبة وهبه مصر ـ القاهرة ، الطبعة الاولى ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.

(٢٥١) فلسفة التربية الاسلامية فى القران الكريم على خليل ابو العينين ـ القاهرة دار الفكر العربي ـ الطبعة الاولى ١٩٨٠م.

(٢٥٢) الفلسفة القرانية عباس محمود العقاد دار الكتاب العربى بيروت ـ لبنان الطبعة الثانية ١٩٦٩م.

(٢٥٣) الفوائد ، للشيخ الامام العلامة محى السنة وقامع البدعة شمس الدين محمد بن ابى بكر المعروفبابن قيم الجوزية المتوفى ٧٥١هـ مكتبة الرياض الحديثة.

(٢٥٤) فى ظلال القران ،سيد قطب ، دار الشروق الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

(٢٥٥) فى ملكوت الله ، تاليف المعلم عبد الحميد الفراهي ، الدائرة الحميدية ومكتبتها الطبعة الاولى ١٣٩١هـ.

(٢٥٦) القتال فى الاسلام ، احمد نار، نشر وتوزيع المكتبة الاسلامية حمص الفاخورة الطبعة الثانية ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

(٢٥٧) القران العظيم هدايته واعجازه فى اقوال المفسرين ، محمد صادق عرجون مكتبة الكليات الازهرية ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.

(٢٥٨) قرة عيون الموحدين فى تحقيق دعوة الانبياء والمرسلين ، وهو تعليق للعلامة الشيخ عبد الرحمن بن شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب على كتاب التوحيد لجده المذكور ، الناشر مكتبة الرياض الحديثه.

(٢٥٩) قصص الانبياء ، للامام ابى الفداء أسماعيل بن كثير ٧٠١ - ٧٧٤هـ ، دار عمر بن الخطاب للطباعة والنشر الاسكندرية الطبعة الاولى ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

(٢٦٠) القضاء والقدر بين الفلسفة والدين ، الجبر والاختيار ، الاسباب والمسببات الخير والشر، عبد الكريم الخطيب ، دار الفكر العربي ، الطبعة الثانية.

(٢٦١) القول المفيد فى ادلة الاجتهاد والتقليد ، محمد بن على الشوكاني مصطفى البابى الحلبي واولاده بمصر ١٣٤٧هـ.

(٢٦٢) القيادة والجندية فى الاسلام ، الدكتور محمد السيد الوكيل توزيع دار الانصار بالقاهرة الطبعة الاولى ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

(٢٦٣) القيم الحضارية فى رسالة الاسلام ، الدكتور محمد فتحي عثمان الدار السعودية للنشر والتوزيع، الطبعة الاولى ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

(٢٦٤) الكامل فى التاريخ الامام على بن الاثير الشيباني ٦٣٠هـ دار الكتاب العربى بيروت الطبعة الثانية ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

(٢٦٥) كتاب الاربعين النووية وشرحه، لمحدث الشام الامام محى الدين يحى بن شرف الدين النووى الشافعى المتوفى ٦٧٦هـ، طبع على نسخه طبعت فى دار المنار بمصر ١٣٤٢هـ، ضمن مجموعة الحديث، مكتبة الرياض الحديثه.

(٢٦٦) كتاب الاصنام، لابن المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبى، تحقيق الاستاذ احمد زكى، نسخه مصورة عن طبعة دار الكتب سنة ١٣٤٣هـ ١٩٢٤م، الناشر الدار القومية للطباعة والنشر.

(٢٦٧) كتاب التحدث بنعمة الله، لجلال الدين السيوطى، تحقيق اليزابيث مارى سارتن، المطبعة العربية الحديثة ومطبعة جامعة كمبردج.

(٢٦٨) كتاب التسهيل لعلوم التنزيل، تاليف الامام الحافظ ابى القاسم محمد بن احمد بن جزى الكلبي الغرناطي، تحقيق محمد عبد المنعم اليونسي ابراهيم عطوة عوض، دار الكتب الحديثة لصاحبها توفيق عفيفى عامر.

(٢٦٩) كتاب التعريفات للفاضل العلامة على بن محمد الشريف الجرجاني مكتبة لبنان بيروت ١٩٧٨م.

(٢٧٠) كتاب التوحيد، تاليف عبد المجيد عزيز الزنداني، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، مكتبة دار المجتمع جدة، الطبعة الاولى ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

(٢٧١) كتاب التوحيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب ضمن الجامع الفريد.

(٢٧٢) كتاب الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى، للعلامة الامام شيخ الاسلام علم العلماء الاعلام ابى عبد الله محمد بن ابى بكر الدمشقى المشتهر بابن قيم الجوزية المتوفى ٧٥١هـ دار الكتب العلمية بيروت لبنان.

(٢٧٣) كتاب السير والمغازى ، محمد بن اسحاق المطلبي الشهير بابن اسحاق المتوفى ١٥١ هـ ، تحقيق الدكتور سهيل زكار ، دار الفكر الطبعة الاولى ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

(٢٧٤) كتاب الشكر للشيخ عبد الله بن ابي الدنيا ت ٢٨١ هـ اخرجه احمد محمد طاحون ، جده دار الشروق ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

(٢٧٥) كتاب الصلاة لشمس الدين محمد بن ابى بكر المعروف بابن قيم الحوزية ضمن مجموعة الحديث ، مكتبة الرياض الحديثه ، الطبعة الخامسة.

(٢٧٦) كتاب العرش وماروى فيه ، للحافظ محمد بن عثمان ابن ابي شيبة العبسي المتوفى ٢٩٧هـ ، تحقيق محمد بن حمد الحمود ، مكتبة المعلا - الكويت الطبعة الاولى ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

(٢٧٧) كتاب فتوح البلدان ، احمد بن يحى بن جابر المعروف بالبلاذرى ٢٧٩هـ صححه الدكتور صلاح الدين المنجد ، مكتبة النهضة المصرية.

(٢٧٨) كتاب الفرج بعد الشدة ، تاليف القاضى ابى على المحسن بن على التنوخي المتوفى ٣٨٤هـ تحقيق عبود الشالجي دارصادر بيروت ، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

(٢٧٩) كتاب النبوات ، للامام العلامة شيخ الاسلام علم الاعلام تقي الدين ابى العباس احمد بن تيمية المتوفى ٧٢٨هـ دار الفكر.

(٢٨٠) كشف الاستار عن زوائد البزار على الكتب الستة تاليف الحافظ نور الدين على بن ابىبكر الهيثمي ٧٣٥ - ٨٠٧ هـ. تحقيق حبيب الرحمن الاعظمي موسسة الرسالة. الطبعة الاولى ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

(٢٨١) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل فى وجوه التاويل ، تاليف ابى القاسم جارالله محمود بن عمر الزمخشرى الخوارزمى ٤٦٧ - ٥٣٨ هـ شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي واولاده بمصر ، الطبعة الاخيرة ، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.

(٢٨٢) كنز العمال في سنن الاقوال والافعال الامام علي بن حسام الدين المتقي الهندي ت ٧٩٥ ، صححها ووضع فهارسها صفوة السقا واخرون ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

(٢٨٣) لسان العرب، للامام العلامة ابي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الافريقي المصري.
دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر بيروت ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م.

(٢٨٤) لسان الميزان للامام الحافظ شهاب الدين ابي الفضل احمد بن علي بن حجر العسقلاني المتوفى ٨٥٢هـ، منشورات مؤسسة الاعلمي للمطبوعات بيروت- لبنان الطبعة الثانية ١٣٩٠هـ/ ١٩٧١م.

(٢٨٥) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، ابو الحسن الندوي ، توزيع دار الانصار، الطبعة الحادية عشر ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

(٢٨٦) مباحث في علوم القران ، مناع القطان يطلب من مكتبة وهبة بمصر، الطبعة الخامسة.

(٢٨٧) مبادىء الاسلام ، ابو الاعلى المودودي ، دار القران الكريم للعناية بطبعه ونشر علومه ، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

(٢٨٨) المجتمع المدني في عهد النبوة - الجهاد ضد المشركين ، الدكتور اكرم ضياء العمري ، الطبعة الاولى ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

(٢٨٩) مجمع البيان في تفسير القران الشيخ ابو علي الفضل بن الحسن الطبرسي توفي ٥٤٨هـ، طبع ونشر دار مكتبة الحياة دار الفكر بيروت ١٣٨٠هـ ١٩٦١م.

(٢٩٠) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، للحافظ نور الدين علي بن ابي بكر الهيثمي بتحرير الحافظين الجليلين العراقي وابن حجر، الناشر دار الكتاب بيروت لبنان الطبعة الثانية ١٩٦٧م.

(٢٩١) مجموع فتاوى شيخ الاسلام احمد بن تيمية ، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي النجدي الحنبلي وساعده ابنه محمد ، طبع باشراف الرئاسة العامة لشئون الحرمين الشريفين ، تصوير الطبعة الاولى ١٣٩٨هـ.

(٢٩١) محاسن التاويل محمد جمال الدين القاسمي ،حققه محمد فؤاد عبد الباقي دار الفكر بيروت الطبعة الثانية، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

(٢٩٢) المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز، لابي محمد عبد الحق بن عطيه الغرناطي ٤٨١ - ٥٤١ هـ تحقيق وتعليق الاستاذ احمد صادق الملاح وزارة الاوقاف المجلس الاعلى للشئون الاسلامية ، لجنة القران والسنة ١٣٩٩هـ.

(٢٩٣) مختار الصحاح ، للشيخ الامام محمد بن ابى بكر عبد القادر الرازى ، دار القلم بيروت - لبنان طبعة حديثه ومنقحة.

(٢٩٤) مختصر سنن ابى داود ، للحافظ المنذرى ومعالم السنن لابى سليمان الخطابى ، وتهذيب الامام ابن قيم الجوزية، تحقيق محمد حامد الفقى مطبعة السنة المحمدية ، ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م.

(٢٩٥) مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، لشيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب نشر وتوزيع رئاسة ادارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد بالمملكة العربية السعودية.

(٢٩٦) مختصر منهاج القاصدين ، تاليف الامام احمد بن محمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسى المتوفى ٧٤٢هـ المكتب الاسلامي الطبعة الرابعة ١٣٩٤هـ.

(٢٩٧) مدارج السالكين بين منازل اياك نعبد واياك نستعين ، للامام السلفى العلامة المحقق ابى عبد الله بن ابي بكر بن ايوب ابن قيم الجوزية ٦٩١ - ٧٥١هـ.

(٢٩٨) مدخل الى التصور الاسلامى للانسان والحياة ، عابد توفيق الهاشمي ، دار الفرقان للنشر والتوزيع ، عمان الاردن ، الطبعة الاولى ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م

(٢٩٩) المدخل الى العقيدة والاستراتيجية العسكرية اللواء الركن محمد جمال الدين محفوظ. القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦م.

(٣٠٠) المدرسة العسكرية الاسلامية ، محمد فرج ، دار الفكر العربى ١٩٦٩م.

(٣٠١) المدنية المتغيرة والتربية ، تاليف وليم كلباتريك، ترجمة د / عبد الحميد السيد وآخرون ، يطلب من مكتبة مصر.

(٣٠٢) المذهبية الاسلامية والتغيير الحضارى ، الدكتور محسن عبد الحميد كتاب الامة ، سلسلة فصلية تصدر عن رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية فى دولة قطر. الطبعة الاولى .

(٣٠٣) مروج الذهب ومعادن الجوهر، تصنيف المؤرخ ابى الحسن على بن الحسين المسعودى ، تحقيق محى الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة بمصر الطبعة الرابعة ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.

(٣٠٤) مرويات غزوة بدر، احمد محمد العليمى باوزير ، مكتبة طيبة المدينة المنورة الطبعة الاولى ١٤٠٠هـ.

(٣٠٥) مسائل الجاهلية التي خالف فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم اهل الجاهلية الف اصلها الامام شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب، وتوسع فيها على هذا الوضع علامة العراق السيد محمود شكرى الآلوسي المطبعة السلفية ومكتبتها ، الطبعة الرابعة ١٣٩٨هـ.

(٣٠٦) مسائل الرازى واجوبتها من غرائب آى التنزيل ، يحتوى على اكثر من مائتيى والف سؤال ، تاليف محمد بن ابى بكر بن عبد القادر الرازى من علماء القرن السابع ، تحقيق ابراهيم عطوة عوض، ملتزم الطبع والنشر شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي واولاده بمصر ، الطبعة الاولى ١٣٨١هـ/١٩٦١م.

(٣٠٧) المستدرك على الصحيحين ، للامام الحافظ ابى عبد الله الحاكم النيسابورى دار الكتاب العربى بيروت لبنان .

(٣٠٨) المستصفى من علم الاصول ، للامام حجة الاسلام ابى حامد بن محمد بن محمد بن محمد الغزالي المتوفى ٥٠٥هـ، تحقيق وتعليق محمد مصطفى ابو العلا مكتبة الجندى بميدان الحسين ـ القاهرة.

(٣٠٩) المستقبل لهذا الدين ، سيد قطب ، دار الشروق ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.

(٣١٠) المسند ، للإمام احمد بن محمد بن حنبل ، المكتب الاسلامي للطباعة والنشر بيروت وطبعة دار المعارف بمصر الطبعة الثانية بتحقيق احمد محمد شاكر.

(٣١١) مسيرة الفكر التربوى ، الدكتور محمود السيد سلطان ، دار المعارف بمصر ١٩٧٩م.

(٣١٢) مشكاة المصابيح ،تاليف محمد بن عبد الله الخطيب التبريزى تحقيق محمد ناصر الدين الالباني ،المكتب الاسلامى الطبعة الثانية ، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

(٣١٣) مشكلات الدعوة والداعية ،فتحي يكن ،موٴسسة الرسالة بيروت ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

(٣١٤) مشكلات فى طريق الحياة الاسلامية ،محمد الغزالى موٴسسة الرسالة الطبعة الرابعة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

(٣١٥) مشيئة الله ومشيئة العباد ،عبد الكريم الخطيب ،دار الفكر العربى

(٣١٦) مصباح الزجاجة فى زوائد ابن ماجة ،تاليف الحافظ احمد بن ابى بكر بن اسماعيل بن سليم بن قايماز بن عثمان بن عمر الكناني ،تحقيق محمد المنتقى الكشناوى ،الدار العربية للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان الطبعة الاولى ١٤٠٥/ ١٩٨٥م.

(٣١٧) المصنف فى الاحاديث والآثار للحافظ ابى بكر بن ابى شيبة. طبعة دار السلفية ـ الهند .

(٣١٨) معالم الحضارة فى الاسلام واثرها فى النهضة الاوروبية ،عبد الله علوان دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع ،الطبعة الاولى ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

(٣١٩) معالم فى التربية الاسلامية ،د/ عجيل جاسم النشمي مكتبة المنار الاسلامية الكويت، الطبعة الاولى ١٤٠٠هـ.

(٣٢٠) معالم فى الطريق ،سيد قطب ،دار القران الكريم للعناية بطبعه ونشر علومه ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

(٣٢١) المعجم الكبير للحافظ ابى القاسم سليمان بن احمد الطبراني ٢٦٠/٣٦٠هـ تحقيق حمدى عبد المجيد السلفى ،الدار العربية للطباعة بغداد ، الطبعة الاولى ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

(٣٢٢) معجم مقاييس اللغة لابى الحسين احمد بن فارس بن زكريا ت ٣٩٥هـ تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي واولاده بمصر الطبعة الثانية ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.

(٣٢٣) المغازى الامام محمد بن عمر الواقدى ، دار المعارف القاهرة ١٩٦٦م.

(٣٢٤) المغازى النبوية ، تصنيف الامام محمد بن مسلم بن عبيد الله ابن شهاب الزهرى ٥١- ١٢٤هـ ، حققه وقدم له الدكتور سهيل زكار ، دار الفكر ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

(٣٢٥) المغنى فى ابواب التوحيد والعدل ، القاضي ابى الحسن عبد الجبار بن احمد الهمداني الاسد ابادى ، تحقيق محمد على النجار، عبد الحليم النجار، ابراهيم مدكور، اشراف طه حسين ، طبع بمطبعة عيسى البابى الحلبي القاهرة ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.

(٣٢٦) مغنى اللبيب عن كتب الاعاريب ، جمال الدين هشام الانصارى ٧٦٢هـ ، تحقيق الدكتور مازن المبارك ومحمد على حمد الله ، دار الفكر بيروت ، الطبعة الثالثة.

(٣٢٧) المغنى والشرح الكبير ، المغنى لشيخ الاسلام موفق الدين ابى محمد عبد الله بن احمد بن محمد بن قدامة المتوفى ٦٢٠هـ ، والشرح الكبير لابى عمر محمد بن احمد بن قدامة المقدسي ، دار الكتاب العربي ، طبع بمطابع الاوفست بعناية جماعة من العلماء ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م.

(٣٢٨) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والارادة ، للعلامة الامام شيخ الاسلام علم العلماء الاعلام ابى عبد الله محمد بن ابى بكر الدمشقى المشتهر بابن قيم الجوزية المتوفى ٧٥١هـ ، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان

(٣٢٩) مقدمة ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون المكتبة التجارية الكبرى شارع محمد على - القاهرة.

(٣٣٠) مقدمات فى التفسير الموضوعي للقرآن ، السيد محمد باقر الصدر ، دار التوجيه الاسلامي بيروت - كويت ، الطبعة الاولى ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

(٣٣١) المقصد الاسنى فيشرح معاني اسماءاللهالحسنى حجة الاسلام ابو حامد محمد بن محمد الغزالي توفي ٥٠٥ هـ ،تحقيق فضلـه شحادة ،دار المشرق - بيروت.

(٣٣٢) من توجيهات الاسلام ،تصحيح بعض المفاهيم الدينية ،توضيح موقف الاسلام من بعض المشاكل الاسلامية ،ضروب من العبادات ،الشيخ محمود شلتوت ،دار الشروق بالقاهرة الطبعة السادسة١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .

(٣٣٣) من المسئول عن تخلف المسلمين ،الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي مكتبة الفارابي دمشق سورية.

(٣٣٤) من نفحات الهدى للدكتور حسن هويدى المكتب الاسلامي بيروت ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

(٣٣٥) منهج الاسلام في الحرب والسلام ،تاليف عثمان جمعه ضميرية،نشر وتوزيع مكتبة دار الارقم،الكويت ،الطبعة الاولى ١٤٠٢هـ.

(٣٣٦) المنهج الاسلامى فى دراسة المجتمع دراسة فى علم الاجتماع الاسلامي الدكتور نبيل محمد توفيق السمالوطي ،دار الشروق،الطبعةالاولى ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

(٣٣٧) منهج التربية الاسلامية محمد قطب،دار الشروق الطبعة السابعة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

(٣٣٨) منهج الحضارة الانسانية فى القران ،الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي،دار الفكر ،الطبعة الاولى ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

(٣٣٩) منهاج السنة النبوية فى نقض كلام الشيعة والقدرية لابى العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ،المطبعة الكبرى الاميريه ببولاق مصر المحمية ،الطبعة الاولى ١٣٢١هـ.

(٣٤٠) موارد الظمآن الى زوائد ابن حبان ،للحافظ نور الدين على بن ابى بكر الهيثمي ،حققه ونشره محمد عبد الرزاق حمزه،دار الكتب العلمية.

(٣٤١) المواقف فى علم الكلام ، تاليف عضد الله والدين القاضي عبد الرحمن بن احمد الايجي ، عالم الكتب بيروت ، مكتبة المتنبي القاهرة مكتبة سعد الدين دمشق .

(٣٤٢) موقف الاسلام من نظرية ماركس للتفسير المادى للتاريخ ، تاليف احمد العوايشه ، دار مكة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الاولى ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

(٣٤٣) الموطأ ، لامام الائمة وعالم المدينة مالك بن انس حققه محمد فوءاد عبد الباقي دار احياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي ١٣٧٠ ١٩٥١م.

(٣٤٤) ميزان الاعتدال فى نقد الرجال ، تاليف ابى عبد الله محمد بن احمد بن عثمان الذهبي تحقيق على محمد البجاوى . دار المعرفة بيروت لبنان توزيع الرئاسة العامة لادارات البحوث العلمية والدعوة والافتاء والارشاد بالمملكة العربية السعودية .

(٣٤٥) ميلاد مجتمع شبكة العلاقات الاجتماعية ، مالك بن بنى ، اصدار ندوة مالك بن نبى ، دار الفكر دمشق . ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

(٣٤٦) النبوة والانبياء ، الشيخ محمد على الصابوني الطبعة الثانية. ١٤٠٠/ ١٩٨٠م.

(٣٤٧) نحو انسانية سعيدة ، نظرات فى الكون والحياة والمصير وفى الانسان من خلال الكتاب العربي المبين ، محمد المبارك دار الفكر ، الطبعة الثانية ١٣٨٩هـ/ ١٩٧٠م.

(٣٤٨) النحو الوافي مع ربط للاساليب الرفيعة والحياة اللغوية المتجددة عباس حسن ، دار المعارف بمصر الطبعة الرابعة.

(٣٤٩) نظم الحرب فى الاسلام جمال الدين عياد ، مكتبة الخانجي بمصر الطبعة الاولى ١٣٧٠هـ.

(٣٥٠) النظام السياسي فى الاسلام ، الدكتور محمد عبد القادر ابو فارس مكتبة الرسالة الحديثة عمان ١٩٨٠م.

(٣٥١) نهاية الارب في فنون الادب ، احمد بن عبد الوهاب النويري ت ٧٣٣ تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم القاهرة المؤسسة المصرية العامة للتاليف والترجمة والطباعة والنشر ١٣٥٢هـ/ ١٩٦٣م.

(٣٥٢) نيل الاوطار شرح منتقى الاخبار من احاديث سيد الاخيار. تاليف الشيخ الامام المجتهد قاضي قضاة القطر اليماني محمد بن على بن محمد الشوكاني. شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي واولاده بمصر محمود نصار الحلبى وشركاه خلفاء الطبعة الاخيرة.

(٣٥٣) هل نحن مسلمون ، محمد قطب، دار الشروق ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

(٣٥٤) الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب او الكلم الطيب والعمل الصالح شمس الدين ابى عبد الله محمد بن قيم الجوزية ٦٩١- ٧٥١هـ، حققه وعلق عليه فضيلة الشيخ اسماعيل بن محمد الانصارى، نشر وتوزيع رئاسة ادارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد .

(٣٥٥) واجبات العبودية لله، للاستاذ عبد العظيم منصور ، يشرف على اصدارها محمد توفيق عويضة، المجلس الاعلى للشئون الاسلامية ١٣٩٠هـ/ ١٩٧١م.

(٣٥٦) وجوب تحكيم شرع الله ونبذ ماخالفه ، لسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز توزيع رئاسة ادارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد ، الطبعة الرابعة ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

(٣٥٧) الوجيز في الحرب ، الجنرال كارل فون كلاوز فيتز، ترجمة اكرم ديرى الهيثم الايوبي ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧٤م.

(٣٥٨) الوفا باحوال المصطفى للامام ابى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى ٥١٠ - ٥٩٧هـ، حققه محمد زهدى النجار ، يطلب من المؤسسة السعيدية بالرياض.

(٣٥٩) الولاء والبراء في الاسلام من مفاهيم عقيدة السلف محمد بن سعيد بن سالم القحطانى دار طيبة للنشر والتوزيع الرياض الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ.

فهـــرس الموضـــوعات

الموضوع	صفحة

الموضوع	صفحة

الموضـــــــوع		صفحة

الموضوع	صفحة

الموضـــــــوع	صفحة
واقع البشرية في عصرنا الحاضر..........	٥١٤
ضرورة التغيير	٥٢١
الاسلام وحده يسأل	٥٢٥
الخطوط العريضة لمنهج الاسلام التغييري.....	٥٣٠
توحيد الله في ربوبيته والوهيته واسمائه وصفاته.....	٥٣٤
الايمان بالملائكة...............	٥٤٩
الايمان بالكتب المنزلة............	٥٥٠
الايمان باليوم الآخر...............	٥٥٢
الايمان بالقضاء والقدر...............	٥٥٣
نظرة الاسلام للانسان والكون والحياة........	٥٥٦
نظرته الى الانسان	٥٥٧
نظرة الاسلام للحياة...............	٥٧٠
نظرة الاسلام للكون	٥٧٨
حقائق اخيره حول سنة التغيير...........	٥٨٤
الفصل الخامس: سنة الله في التدافع.........	٥٨٧
التدافع لغة واصطلاحا..............	٥٨٨
تقرير سنة الله في التدافع............	٥٨٨
حكمة الله في سنة التدافع............	٥٩٢
الفصل السادس: سنة الله في النصر والهزيمة.....	٥٩٤
١- معنى النصر والهزيمة..............	٥٩٥
٢- تقرير سنة الله في النصر والهزيمة وبيانها......	٥٩٧
٣- اسباب النصر.................	٦١٠
أ- الاسباب المعنويـــــةللنصر.............	٦١٥
اولا : الايمان بالله وتقواه.............	٦٢١
ثانيا : ارادة الجهاد	٦٣٠

الموضوع		صفحة

الموضـــــــــــــــوع	صفحة
ضوابط ومظاهر سنة الله فى عقاب الامم بالاستئصال . .	٨٥٨
ظواهر سنة العقاب	٨٦٣
مناقشة القول برفع عذاب الاستئصال	٨٦٦
سنة الله فى عقاب الامم بمادون عذاب الاستئصال . .	٨٨٥
انواع العقاب الالهى للامة الاسلامية اسبابه ومظاهره وواجب الامة الاسلامية	٨٩٦
الخاتمـــــة	٩٢٢
المصادر والمراجع	٩٢٦
فهرس الموضوعـــات	٩٦٣